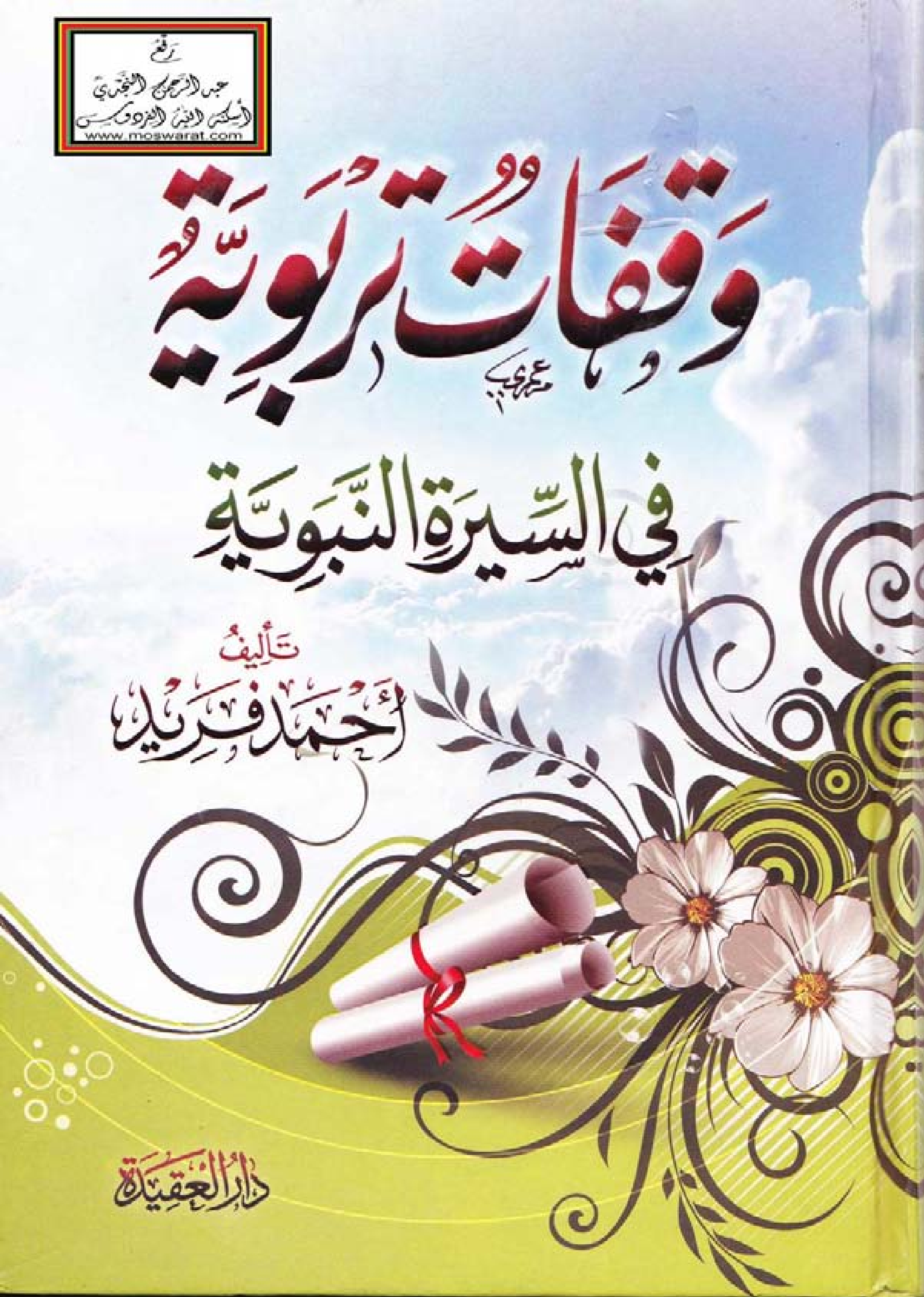


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
وقفات تربوية
في السيرة النبوية
تأليف
أحمد فريد
دار العقيدة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

وقفات تربوية مع السيرة النبوية

تأليف
أحمد فريد

دار العقيدة



وقفات تربوية مع السيرة النبوية

تأليف: أحمد فريد

ط ١ - الإسكندرية، دار العقيدة، ٢٠٠٩

عدد الصفحات: ٤٠٠ صفحة

المقاس: ١٧ × ٢٤

رقم إيداع: 17395 / 2009





الإسكندرية: ١٠١ ش الفتح باكوس ت: ٠٣/٥٧٤٧٣٢١ ف: ٠٠٢٠٣/٥٧٦٥٦٢١ - ٠١٠٥٨٤٨٠٨٠

القاهرة: ٢ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت: ٠٠٢٠٢/٢٥١٤٣١٧٤ - ٠١٠١٧١٢٦٩٣

E-mail:dar_alakida@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة

الحمد لله الذي خلق الخلق بقدرته، وجنَّسهم بإرادته، وجعلهم دليلاً على إلهيته، فكل مفطور شاهد بوحدانيته، وكل مخلوق دال على ربوبيته، وخلق الجنَّ والإنس ليأمرهم بعبادته، من غير حاجةٍ له إليهم ولا إلى أحدٍ من بريته.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا واحدًا أحدًا، سيدًا صمدًا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله ونبيه، وصفيه ونجيه، ووليه ورضيه، وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، أرسله بالحق بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا. صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وعلى أصحابه الطاهرين وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد: فما أحوج المسلمين في هذه الفترات العصيبة من عمر الصحوة الإسلامية إلى رؤية واضحة تعرفهم أين يقفون؟ وكيف يتحركون؟ وأي طريق يسلكون؟ ولأي هدف يهدفون؟ متى يجب عليهم كف الأيدي؟ وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؟ ومتى يهادنون ويصالحون؟ ومتى يجاهدون ويجالدون؟ فقد صدر الناس مصادر شتى، وانتهجوا مناهج متباينة، وسلكوا مسالك متناقضة، **فمنهم**: من يظن أن المواجهة المسلحة مع الجاهلية الجهلاء من أول يوم هي طريق عز الإسلام والمسلمين، **ومنهم**: من يظن أنَّ طريق البرلمان والمسالك السياسية هو الطريق إلى رفع راية رب البرية، **ومنهم**: من يظن أن طريق التربية والإعداد هو الطريق إلى رضى رب العباد، ورفع راية الإسلام على البلاد، **ومنهم**: من يدعو بدعوة قاصرة عن ذلك وليس له همة تدعوه إلى طلب عزة الإسلام ورفع راية

الملك العلاَّم، وإنما هو مصلح اجتماعي، وحسبه أن يستجيب الناس لدعوته إلى الخير، ومنهم: من همته أدنى من ذلك فلا تشغله قضية الإسلام، ويستوي في عقله وقلبه التحاكم إلى الرحمن والتحاكم إلى طواغيت الأرض اللئام، وإنما هو منهوم باللذات مشغوف بالشهوات، ليس له من الهمم العالية شيء، ولا من طلب الآخرة ظل، ولا فيء، ونحن لا نخاطب أمثال هؤلاء إلا أن يتوبوا ويثوبوا إلى رب الأرض والسماء، وإنما نخاطب ونهتم بأهل الإخلاص من سائر طوائف المسلمين، وجماعات الدعوة إلى الدين القويم، نُلقِّي لهم الضوء على الهدي النبوي المبارك في الدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ونُبيِّن لهم كيف ربى النبي ﷺ الصحابة الكرام، وكيف أقام دولة الإسلام، وكيف سارت دعوته سير الشمس في الأقطار، وكيف يبلغ بإذن الله دينه ما بلغ الليل والنهار، ولاشك في أن سيرته ﷺ وهديه المبارك هو خير الهدي وأحسنه، فقد أوجب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ علينا لزوم طريقته واتباع سنته، فقال تعالى: ﴿واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١).

وحذَّرنا من اتباع غير هديه، والإعراض عن أمره، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣).

فنحن نهيب بالذين ينادون بتحكيم الشريعة أن يحكِّموا الشريعة في هذه القضية، وهي كيف ترتفع راية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؟ وكيف يصل المسلمون إلى الوعد الموعود والأمل المنشود؟ وهو عودة المسلمين إلى التنعم بالتحاكم إلى شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والاستظلال بمظلة الإسلام، وخضوع الحكام والمحكومين لدين الملك العلام. وقد بيَّنا بحمد الله تعالى في كتابنا السابق «تيسير المنان في قصص القرآن» كيف كان منهج الأنبياء؟ وكيف كانت طريقتهم في تعبيد الناس لرب

الأرض والسماء؟ وهي بحمد الله لا تختلف عن دعوة نبينا ﷺ، وكيف لا وهو خاتمهم وسيدهم، والأنبياء إخوة لعلات دينهم واحد[١]، وهو الإسلام الذي رضيه الله - عزَّ وجلَّ - للأنام كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣).

حاولتُ في هذا الكتاب المبارك الوصول إلى أصح الروايات، وأوثق الأخبار في سيرة سيد الأخيار ﷺ مع المحافظة على روح القصص، وذلك للجذب والتشويق إلى قراءتها وسماعها، ثم إلقاء الوضوء على الأحكام الفقهية، والآثار الإيمانية، والفوائد التربوية.

ولا أدعي أنني جمعت كل ما صحَّ في السيرة المباركة، واستقصيتُ العبر والعظات والفوائد والآثار، ولكنني بذلتُ جهدًا أرجو من الله - عزَّ وجلَّ - أن أكونَ فيه مخلصًا، وأن يكونَ عملي متقبلاً، وقد سلكتُ في هذا الكتاب مسلكًا وسطًا بين طريقة المحدثين وطريقة الإخباريين، فمهما وجدتُ في الحادثة حديثًا صحيحًا أو حسنًا أعضٌّ عليه بالنواجذ، وأستغني به عن كتب أهل السير والإخباريين، وإن وجدتُ فجوةً تاريخيةً، ولم أقف فيها على حديث صحيح عن صاحب «الروضة البهية» اضطررتُ إلى روايات الإخباريين غير أني أنقل عن أهل الشأن من المقبولين أمثال: ابن إسحاق، ولا أعرج بحال من الأحوال على الهلكى والضعفاء والمتروكين أمثال: الواقدي والكلبي.

فليس كل ما في كتابي هذا صحيحًا لصعوبة ذلك في هذا المجال، ولكنني قصدتُ أصح الروايات، وقد يكون الأصح ضعيفًا، ولكنه أحسن حالاً من غيره

---

(١) **إخوة العلات**: إذا كان الأب واحدًا والأمهات مختلفة، وهو إشارة لاختلاف الشرائع كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨). ووحدة العقائد كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ (الشورى: ١٣).

وأقل ضعفًا منه، وإنما قادني إلى ذلك أن السيرة تاريخ؛ بل هي أهم وأزكى فترات تاريخ البشرية، فإذا اشترطنا الصحة في جميع الأخبار ظهرت فجوات كثيرة يصعب سدها، وفقدت الأحداث صفة الاتصال والقصص.

قال الدكتور أكرم العمري: «المطلوب اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها، ثم الحسنة، ثم ما يعتضد من الضعيف لبناء الصورة التاريخية لأحداث المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام، وعند التعارض يُقدِّم الأقوى دائمًا، أما الروايات الضعيفة التي لا تقوي أو تعتضد فيمكن الإفادة منها في إكمال الفراغ الذي لا تسده الروايات الصحيحة والحسنة، على ألا تتعلق بجانب عقدي أو شرعي» اهـ[1].

فحاولتُ أنْ أذكرَ الأحداث متصلة بقدر الإمكان، وغالبًا ألجأ إلى سيرة ابن هشام لسد الفجوات التي لم يصح فيها خبر وهي تهذيب لسيرة ابن إسحاق، وابن إسحاق من تلامذة الزهري، ومن أقران مالك (ت١٥١هـ) فهو قريب من شمس البعثة النبوية، وقد شهد له الأئمة بالتقدم في هذا الشأن، وقد ذكر ابن سيد الناس في «عيون الأثر» ترجمة لابن إسحاق (صفحة ١/ ٨ ـ ١٧)، ونقل كلام أهل العلم فيه، فمن ذلك قوله: «وسُئِل ابن شهاب عن المغازي؟ فقال: هذا أعلم الناس بها» يعني: ابن إسحاق[2]. وقال ابن عدي: «وقد فتشتُ أحاديثه فلم أجد في أحاديثه ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف، وربما أخطأ أو يهم كما يخطئ غيره، ولم يتخلف في الرواية عنه الثقات والأئمة وهو لا بأس به».

قال الدكتور العمري: «وهذه الشهادة عظيمة الأهمية لا لمكانة ابن عدي ولتشدده في التوثيق فقط، بل لأنها مبنية على سبر الروايات»[3].

---

(١) «السيرة النبوية الصحيحة» محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية (١/ ٤٠) ط. مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة.

(٢) «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» لابن سيد الناس (١/ ١٠، ١١) ط. دار المعرفة، وانظر: «سير أعلام النبلاء» في ترجمة ابن إسحاق (٧/ ٣٣-٥٥).

(٣) «السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ٥٦، ٥٧).

واقتضى كذلك ذكر الأحداث متصلة، وجمع الفوائد بقدر الإمكان أن أنقل كلامًا لابن القيم - رحمه الله - في «زاد المعاد»، أو ابن كثير في «البداية والنهاية»، أو ابن عبد البر في «الدرر في اختصار المغازي والسير»، وربما عرجتُ على المعاصرين الذين لهم خبرة ودراية بالسيرة، ولهم منهج منضبط في دراستها أمثال: الدكتور أكرم العمري، واستفدتُ كثيرًا من بعض الرسائل العلمية كرسالة الماجستير لأخينا في الله عادل عبد الغفور نفع الله به.

وحاولتُ اتباع ما أمكن من أحداث السيرة المباركة بالفوائد والآثار الإيمانية، ولم أشترط النقل عن علماء السنة وحدهم، فإنَّ الحكمة ضالةٌ المؤمن أينما وجدها التقطها. فنقلتُ عن محمد الغزالي، والبوطي مع علمي بأنهما من مدارس مخالفة لمدرسة السنة، والمسلم يحب من وجهٍ ويبغض من وجهٍ، كما استفدتُ من كتب محمد منير الغضبان «كالمنهج الحركي للسيرة النبوية» و«فقه السيرة»، وكذلك «الأساس في السنة» لسعيد حوي وهو أحسنهم حالاً، وأقربهم لمنهج المحدثين، واستفدتُ كثيرًا في التحقيق من تعليقات شيخ المدرسة السلفية العلامة الألباني في تعقيباته علي البوطي، وتعليقاته على الغزالي، ووقفتُ كذلك على جهد الشيخ محمد رزق الطرهوني في الجزء اليسير المطبوع من سيرته المسمى بـ «السيرة الذهبية» ولم أنقل منه شيئًا إلا أنني وقفتُ على طريقته فجزاه الله خيرًا.

ولاشك في أن الكتب المصنفة في السيرة كثيرة جدًا متباينة المناهج، **منها**: ما يصلح لمخاطبة العوام، **ومنها**: ما يليق بطلاب العلم الشرعي، وأكثرها ليس لها خطام ولا زمام، وإنما هي أخبار مجموعة دون سبْر للروايات، وليس فيها شيء من التعليقات، واستنباط العبر والعظات، فحاولتُ في كتابي هذا أن أجمع أصح الروايات، وأردفها بالعبر والعظات مع تجنب التطويل الممل والاختصار المخل، حتى أضع أمام إخواني الدعاة إلى الله - عزَّ وجلَّ - وطلاب العلم الشريف منهجًا تربويًا متكاملاً، وراسم هذا المنهج، وقيم هذه المدرسة هو إمام الأنبياء

والمرسلين، وسيد الأولين والآخرين ﷺ، والذين تربوا في هذه المدرسة وقاموا بهذا المنهج النبوي المبارك، هم خير أمة أُخرجت للناس، الجيل الذي تفخر البشرية بنسبته إليها، الجيل الذي ضرب أروع الأمثلة في الجهاد والبذل، والشجاعة والكرم، والمروءة والدعوة والصبر، وسائر ما تُمدَّح به الأفراد والشعوب، الجيل الذي تربى بالإسلام وتربى للإسلام، فقاموا بدين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقام بهم الدين، وكان كل صحابي أسطورة في نفسه يستحق أن يُفرَّد له مصنف، كهذا المصنف فظهرت فيهم عظمة الإسلام وما يفعله في النفوس البشرية، وكيف لا يكون كذلك وهو منهج الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي ارتضاه لعباده، فبأمثال: مصعب ابن عمير وحمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن رواحة، وجعفر بن أبي طالب، وعلي بن أبي طالب، وحرام بن ملحان، وعامر بن فهيرة، وغيرهم كثير مما سنقف على شيء من قصصهم في غضون هذا البحث يقوم الدين ويُمكِّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لعباده المؤمنين، ونصر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يتنزل على أناس متعاطفين مع الإسلام، يُفضلون الإسلام على العلمانية والشيوعية والرأسمالية وغيرها من ملل الكفر، وليس عندهم استعداد للبذل والتضحية لإقامة الدين ورفع راية رب العالمين، ولكنه يتنزل على أناس وصفهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (المائدة: ٥٤).

متى يتربى هذا الجيل بهذه المواصفات التي ذكرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويتنزل عليهم نصر الله، ويُمكِّن لدين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعباده؟ وبذلك جرت سنة الله تعالى، مع أنه تعالى قادرٌ على إهلاك الكافرين وإعزاز الدين بدون أسباب بشرية كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ (محمد: ٤).

كما أنه ـ عزَّ وجلَّ ـ قادرٌ على هداية العباد دون بذل من الدعاة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ (السجدة: ١٣)، ولكنه سبحانه وتعالى جعل لكل شيء سببًا. كثير من الناس يظنون أن المعركة يمكن أن تبدأ مع الحكام الظالمين

المبـدلين للشـرع المتين، ثم بعـد ذلك يسعـون في إصـلاح نفـوس الناس وتعبيدهم لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهذا المنهج مـخالف للمنهج القرآني، وهو أنَّ المعركة تبدأ مع النفوس، وذلك بتطهيرها من الشرك وتعبيدها لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وتزكيتها بالعبادات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، وقال تعـالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥).

فوظيـفة الدعـاة تعبيـد الناس لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقـد فهم الصـحابة ﷺ هذه الوظيفة التي هي وظيفة الرسل وأتباعهم، فدخل ربعي بن عامر على رستم قائد الروم، فقـال: «إن الله ابتعثنا لنخـرج من شاء من عبـادة العباد إلى عـبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[١].

فهذا هو طريق الأنبـياء وأتباعهم ليس بالمواجهة المسلحـة مع الجاهلية من أول يوم، ولا بالمهاترات السيـاسية، ولكن بالدعوة وبالتـربية الصحيحـة وبقيام الليل وصيام النهار، ثم بالبذل والتضـحية لرفع الراية والوصول إلى الغاية. وينبغي أن يكون واضحًا كذلك أمـام الدعاة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن الطريق طويل وشاق، وأن الدعوة تنتـقل من مرحلة إلى مـرحلة، وأن لكل مرحلة من مـراحل الدعوة عبوديتها اللائقة بها فحيث كان الصحابة بمكة مستضعفين ليس لهم دولة ولا شوكة كانت العـبودية في هذه المرحلة في الجـهر بالدعـوة، وتحمل الإيذاء والاستـهزاء والتعـذيب والتكذيب، وكانت العـبودية في كف الأيدي وإقـامة الصـلاة وإيتاء الزكاة. ولما فُتـحت المدينة بالقرآن وبايع الأنصار رسول الله بيـعة العقبـة الثانية، وأمر النبي ﷺ الصحابة بالهجـرة. صارت العبودية في ترك الأولاد والأموال والأهل والعشيرة، والفرار بالدين لتقوية شوكة المسلمين، وإقامة الدولة الإسلامية بالمدينة النبوية، ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وأسس دولتـه وقويت شوكته

---

(١) انظر: قصة دخول ربعي بن عامر على رستم في «تاريخ الطبري» (٣/ ٥٢٠) ط. دار المعارف.

أذن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الجهاد، فصارتْ العبودية في الجهاد والجلاد، وإراقة دماء الكفار، وإزهاق أرواحهم حتى تحقق وعد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فمعرفة مراحل الدعوة، والوقوف على فقه الدعوة في كل مرحلة، والعبودية المطلوبة فيها لازم ولاشك لشباب الصحوة الإسلامية، لزوم الماء للسمك والهواء لسائر الأحياء.

وطبيعة التعجيل والرغبة من جني الثمار طبيعة بشرية متأصلة، قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء:٣٧)، وقال ﷺ لخباب بن الأرت بعد أن لاقى العذاب الشديد بمكة، فذهب يقول للنبي ﷺ: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ فأخبره ﷺ أن الدعاة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لابد أن يمتحنوا ويُبتلوا وبشره بانتصار الإسلام، وظهوره، ثم بين طبيعة البشر الغالبة، فقال: «**ولكنكم تستعجلون**»[(١)]. والذين يستعجلون في زماننا إما أنهم يتعجلون الصدام المسلح ويظنون أنهم يقربون النصر، ويختصرون الزمان حتى يُمكَّن للإسلام، وما دروا أنهم يُؤخرون الدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ويسلكون من الطرائق ما يخالف سنة سيد الخلائق ﷺ، وإما أنهم يسلكون طريق البرلمان والطرق السياسية ويظنون أن هذا طريق سهل قريب يُوصلِّهم إلى مقصودهم في أقرب وقت، ولا يحتاج إلى كثير بذل وتضحية وإنفاق للأعمار في التصفية والتربية، ولعل تجربة الجزائر خير شاهد على أنه طريق مسدود لا يُوصِّل إلى المقصود، ثم هو كذلك لم يسلكه الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

ونحن إذ ندعو إخواننا إلى معرفة مراحل الدعوة، والعبودية الواجبة في كل مرحلة، ندعوهم أيضًا إلى الإيمان واليقين بظهور الدين، فإن الله تعالى: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات:١٧٣).

فإذا صار لله ـ عزَّ وجلَّ ـ جنودٌ في الأرض فلابد أن يتنزل عليهم نصر

---

(١) سيأتي الحديث بلفظه وتخريجه ـ إن شاء الله ـ.

الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فواجب الدعاة مع تبليغ الدعوة تربية هذا الجيل الذي يستحق التمكين، وترتفع به راية المسلمين.

كما أن الواجب على شباب الصحوة إذا كانوا في مرحلة كف الأيدي، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أن يهتموا بالتربية الإيمانية الجهادية، فليس معنى كف الأيدي أن تخلو قلوبهم من حب الجهاد والتشوق إليه، والرغبة في بذل النفس والمال لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: **«من مات ولم يغزُ ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من النفاق»**[(١)].

وهذه بعض فوائد دراسة السيرة النبوية أُقدمها بين يدي هذا البحث المعطار:

١ ـ معرفة أسباب نزول كثير من الآيات القرآنية، وهذا مما يُعين على فهمها والاستنباط منها، ومعايشة أحداثها، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة.

٢ ـ دراسة السيرة زاد نافع للدعاة والمجاهدين يشحذ هممهم، ويقوى عزائمهم إذا وقفوا على على الجهود العظيمة، والدماء التي بذلك لإعزاز الدين، ورفع راية رب العالمين، وعرفوا قدر النعمة للهداية لهذا الدين، ومدى الشرف بالانتساب إليه والدعوة له والجهاد لرفع رايته.

٣ ـ السيرة ذاتها معجزة من معجزات النبي ﷺ، وآية من آيات نبوته، كما قال ابن حزم: فهذه السيرة العظيمة لمحمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة، وتشهد له بأنه رسول الله حقًا فلو لم تكن له معجزة غير سيرته لكفى[(٢)]. والدارس للسيرة كذلك يقف على كثير من معجزاته ﷺ، ولاشك في أن معرفة معجزات النبي مما يزيد إيماننا بصدقه وحبنا له ﷺ.

---

(١) رواه مسلم (١٣/٥٦) الإمارة، وأبو داود (٢٤٨٥) الجهاد، والنسائي (٦/٨) الجهاد. وقال ابن المبارك: فنرى أن ذلك كان على عهد رسول الله ﷺ. وقال النووي: وهذا الذي قاله ابن المبارك محتمل، وقد قال غيره: إنه عام أو المراد أنَّ من فعل هذا أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف، فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق.

(٢) «الفصل في الملل والنحل» (٢/ ١٩٠).

٤ ـ معرفة الطريق إلى عز الإسلام والمسلمين، فقد بُعِث النبي ﷺ، والناس في أسوأ حال بُعِثَ فيها نبي من الأنبياء، وقد نظر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، فكيف بدأ الدعوة، وكيف انتقل بها من مرحلة إلى مرحلة، حتى أكمل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له الدين، وتمت النعمة على المسلمين، وقد أشرنا إلى ذلك فلا نُطِّيل بإعادته.

٥ ـ معرفة المؤهلات التي أهلَّت الصحابة ﭫ لقيادة البشرية، وكيف رباهم النبي ﷺ، وهذا مما يدعو إلى محبتهم، والنسج على منوالهم، واتباع سبيلهم.

٦ ـ معايشة الصحب الكرام، والسعادة بصحبة خير الأنام، نفرح لفرحهم، ونبكي لبكائهم، وتقر أعيننا بانتصاراتهم، ولاشك في أن طول الصحبة والمشاركة في السراء والضراء مما يُقوي روابط المحبة والإخاء، وهذه من بركة دراسة السيرة المشرفة، وذلك عقد من عقود الإيمان ولا يتم إيمان عبدٍ حتى يحب رسول الله ﷺ أكثر من والده وولده والناس أجمعين.

٧ ـ دراسة السيرة النبوية متعة روحية، وغذاء للقلوب الزكية، وكيف لا تكون كذلك، وأهل الفسوق والعصيان يتمتعون بالأفلام الساقطة والتمثيليات الهابطة، ورؤية المعاصي والمنكرات، ولكل نفس ما يناسبها، وكل ميسر لما خلق له.

٨ ـ دراسة السيرة تُفيد المسلم الوقوف على كثير من الأحكام الفقهية، والدروس التربوية، والسياسية الشرعية، فلا يستغني عنها القائد ليتعلم كيف تكون القيادة؟ ولا يستغني عنها الجندي ليتعلم كيف تكون الجندية؟ ولا يستغني عنها الدعاة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ليتعلموا كيف تكون الدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؟ ولا يستغني عنها المربون ليتعلموا كيف تكون التربية؟

٩ ـ معرفة شرف النبي ﷺ، وكيف عصمه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الناس؟ وكيف نزلت الملائكة تقاتل معه يوم بدر ويوم الأحزاب ويوم حنين؟ وكيف نزل جبريل وميكائيل يدافعان عن شخصه الكريم ﷺ يوم أُحُد؟

١٠ ـ معرفة أسباب النصر وأسباب الهزيمة، فمن أسباب النصر الثقة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ والتوكل عليه والتضرع إليه، والأخذ بالأسباب الموصلة إلى النصر، وعدم الثقة في الأسباب، والإيمان بأن النصر من عند الله، ومن أسباب الهزيمة ما حدث يوم أُحُد من التطلع إلى الدنيا، وما حدث يوم حُنين من الاغترار بالكثرة.

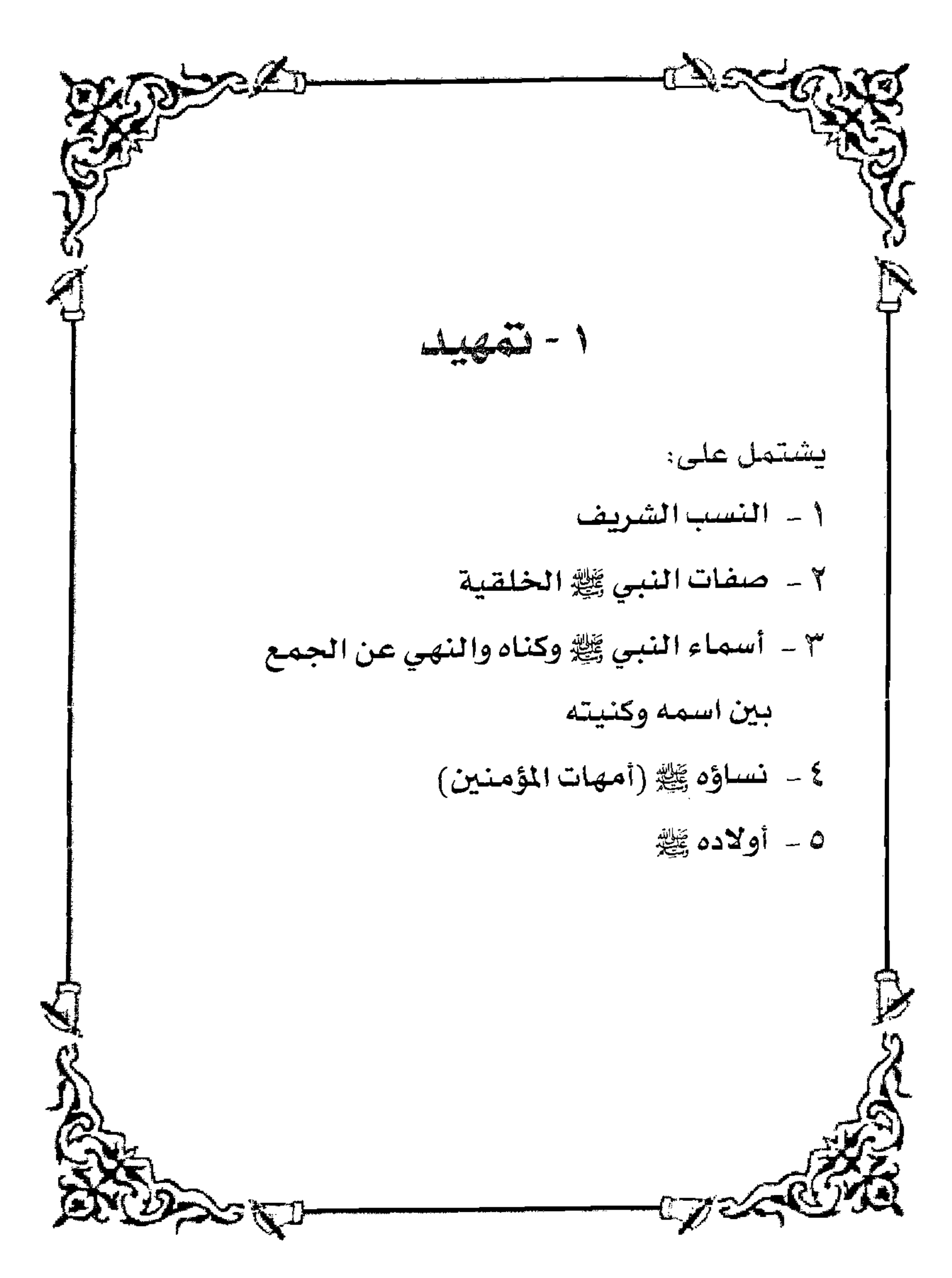
١١ ـ منهج حياة للفرد والمجتمع المسلم، ومعين رائق لفهم الشريعة الإسلامية، وصورة صحيحة لأعظم منهج شهدته الأرض، إنها تاريخ لأفضل رسل الله وسيد البشر أجمعين(١).

فهذه جملة من فوائد دراسة سيرة المصطفى ﷺ ليست على سبيل الحصر، وقد بذلتُ جهداً أحتسبه عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في تحقيق المرفوع من أخبار النبي ﷺ لا أدعي أنني استوعبتُ مواضع الأحاديث، ولكن على سبيل الاختصار والاكتفاء بما يُشير إلى أن الحديث صحيح أو حسن أو ضعيف، منجبر على أسوإ الأحوال لما ذكرناه آنفًا في المقدمة، ولما كان المقصود من الكتاب تبصير شباب الصحوة الإسلامية بالهدي النبوي المبارك، وتربيتهم بما تربى به الصحابة الكرام، أسميتُ هذا الكتاب الذي شرفتُ بجمعه وترتيبه، وسعدتُ بتحقيقه وتنقيحه **«وقفات تربوية مع السيرة النبوية»**.

والمسئول هو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يتقبل منا أعمالنا على ما فيها من نقصٍ وعيبٍ، وأنْ يتفضلَ علينا بأعظم الأجر والثواب، وأن لا يحرمنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من رؤية النبي ﷺ والأصحاب، فقد تعلقت القلوب بحبهم، واشتاقت إلى رؤيتهم وقربهم، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين، وآل بيته الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

★★

(١) «مصادر السيرة النبوية وتقويمها» (ص١٩)، نقلاً عن مرويات العهد المكي للدكتور/ عادل عبد الغفور صفحة (ج) من الطبعة الماجستيرية.



١ - تمهيد

يشتمل على:

١ - النسب الشريف

٢ - صفات النبي ﷺ الخلقية

٣ - أسماء النبي ﷺ وكناه والنهي عن الجمع بين اسمه وكنيته

٤ - نساؤه ﷺ (أمهات المؤمنين)

٥ - أولاده ﷺ

١ - النسب الشريف

لاشك في أنَّ الأنبياء الكرام هم أشرف الناس نسبًا، كما أنهم أكملهم خَلقًا وخُلُقًا، لذا سأل هرقل أبا سفيان ابن حرب عن نسب النبي ﷺ فقال: «كيف نسبه فيكم؟»، فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب، ثم قال: «سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعَث في نسب قومها»[١].

ومن شواهد ذلك في قصص الأنبياء قول قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (هود:٩١)، وقول قوم صالح لما أجمعوا على قتله عليه السلام: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (النمل:٤٩).

قال ابن خلدون في حديثه عن علامات النبوة: **ومن علاماتهم أيضًا**: أن يكونوا ذوي أحساب في قومهم. وأولى الأنبياء الكرام بكل فضيلة خاتمهم وسيدهم ﷺ، وقد ورد في شرف نسبه أحاديث صحاح منها ما رواه مسلم: عن واثلة ابن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله - عزَّ وجلَّ - اصطفى بني كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[٢]. وفي فضل قريش عن أم هانئ مرفوعًا: «**فضَّل الله قريشًا بسبع خصال: فضلهم بأن عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قرشي، وفضلهم بأن نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، وفضلهم بأن نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيهم غيرهم: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ (قريش:١)، وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية**»[٣].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤٢) بدء الوحي.

(٢) رواه مسلم (١٥/ ٣٦) الفضائل، والترمذي (١٣/ ٩٤) المناقب، وأحمد (٤/ ١٠٧)، وزاد مسلم في روايته في أوله: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل**»، قال النووي: استدل به أصحابنا على أن غير قريش ليس بكفء لهم، ولا غير بنو هاشم كفؤ لهم إلا بنو المطلب، فإنهم هم وبنو هاشم شيء واحد كما صرَّح به في الحديث الصحيح.

(٣) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١/ ٣٤١)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٢٦٢)، والحاكم (٢/ ٥٣٦)، (٤/ ٥٤)، وصححه وحسنه العراقي، والألباني لشواهده في «الصحيحة» رقم (١٩٤٤).

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ـ واسمه شيبة الحمد ـ بن هاشم ـ واسمه عمرو ـ بن عبد مناف ـ واسمه المغيرة ـ ابن قُصَي ـ واسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدْركة بن إلياس بن مضر بن نِزار بن مَعْد ابن عدنان، وههنا انتهى النسب الصحيح الذي لاشك فيه. وعدنان بلاشك من ولد إسماعيل الذبيح رسول الله ابن إبراهيم خليل الله ورسوله صلى الله على سيدنا محمد وعليهما، وعلى جميع رسله وأنبيائه(١).

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وذلك أنه ـ أي: إبراهيم عليه السلام ـ ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة، وولد له يعقوب ـ أي من إسحاق ـ كما قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود: ٧١)، ـ وهو إسرائيل ـ الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة وكثروا جدًا، بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة، حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل.

وأما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها، كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى، ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم، وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي المكي، ثم المدني ﷺ. فلم يوجد من هذا الفرع الشريف، والغصن المنيف، سوى هذه الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة»(٢).

---

(١) «جوامع السيرة» لابن حزم (٢) ط. فيصل أباد، باكستان، بتحقيق أحمد شاكر، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى بدار المعارف بمصر.

(٢) «قصص الأنبياء» لابن كثير ـ رحمه الله ـ (١٧٥) ط. دار عمر بن الخطاب.

٢ ـ صفات النبي ﷺ الخلقية

كان رسول الله ﷺ أزهر اللون «أبيض مستنير مائل إلى الحمرة» واسع الجبين، أدعج العينين (الدعج: شدة سواد العينين مع سعتهما)، وقيل: أكحل، أهدب الأشفار ـ طويل الأشفار ـ مفلج الأسنان، كث اللحية تملأ صدره، عظيم المنكبين، رحب الكفين والقدمين، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، رجل الشعر (في شعره حجونة أي: تثنٍ قليل) يضرب شعره إلى منكبيه، إذ تكلم رؤي كالنور يخرج من ثناياه، ضخم الرأس والكراديس، في وجهه تدوير، ذا مشربة (وهي الشعر الدقيق من الصدر إلى السرة كالقضيب) إذا مشى تَقَلَّع كأنما ينحط في صبب (أي: يمشي بقوة، والصبب الحدور)، يتلألأ وجهه كالقمر ليلة البدر، حسن الصوت، سهل الخدين، ضليع الفم، سواء البطن والصدر، أشعر المنكبين والذراعين، وأعالي الصدر طويل الزندين، رحب الراحة، منهوس العقبين ـ أي: قليل لحم العقب ـ بين كتفيه خاتم النبوة كزر الحجلة، وكبيضة الحمامة، وكان إذا مشى كأنما تُطوى له الأرض ويجدُّون في لحاقه وهو غير مكترث، وكان يسدل شعر رأسه ثم فرقه، وكان يُرجله ويسرح لحيته، ويكتحل بالإثمد كل ليلة في كل عين ثلاثة أطراف عند النوم[1].

وهذه بعض الأحاديث الشريفة التي نقلت لنا صفته ﷺ:

عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: سمعتُ أنس بن مالك يصف النبي ﷺ قال: «كان ربعة من القوم، ليس بالطويل ولا بالقصير، أزهر اللون ليس بأبيض أمهق ولا آدم، ليس بجعد قطط ولا سَبِطٍ رجلٍ أنزل عليه وهو ابن أربعين، فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه، وبالمدينة عشر سنين، وقبض وليس في رأسه

(١) **انظر لمزيد النفع**: «الإعلام بما في دين النصارى من فساد وأوهام» (٢٩١، ٢٩٢) للقرطبي، و«مختصر الشمائل المحمدية» للترمذي اختصار وتحقيق الألباني (١٣-٢٩)، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (١/ ٢٥، ٢٦)، و«فتح الباري» (٦/ ٦٥١-٦٦٩) المناقب، و«صحيح مسلم» (١٥/ ٩١-١١٦) الفضائل، و«جوامع السيرة» لابن حزم (٢١/ ٢٢)، و«دلائل النبوة» بتحقيق د. عبد المعطي قلعجي (١/ ١٩٤-٢٨٥) وهو أجمع المواضع.

ولحيته عشرون شعرة بيضاء، وقال ربيعة: فرأيت شعرًا من شعره فإذا هو أحمر، فسألت فقيل: احمرَّ من الطيب»[١].

وعن البراء قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا وأحسنه خلقًا، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير»[٢].

وعن أبي إسحاق قال: سُئل البراء: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: «لا، بل مثل القمر»[٣].

وعن عبد الله بن كعب قال: سمعتُ كعب بن مالك يحدث حين تخلَّف عن تبوك قال: «فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ وهو يبرُق وجهه من السرور، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان رسول الله ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق رسول الله ﷺ رأسه»[٥].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما مسستُ حريرًا ولا ديباجًا ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحًا قط - أو عَرَفًا قط - أطيب من ريح - أو عرف - النبي ﷺ»[٦].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ أشدُّ حياءً من العذراء في خِدْرِها»[٧].

(١) رواه البخاري (٦/ ٦٥٢) المناقب، ومسلم (١٥/ ١٠٠) الفضائل بمعناه.
(٢) رواه البخاري (٦/ ٦٥٢) المناقب، ومسلم (١٥/ ٩٢) الفضائل.
(٣) رواه البخاري (٦/ ٦٥٣) المناقب، والترمذي (١٣/ ١١٦) المناقب.
(٤) رواه البخاري (٦/ ٦٥٣) المناقب.
(٥) رواه البخاري (٦/ ٦٥٤) المناقب، ومسلم (١٥/ ٩٠) الفضائل.
(٦، ٧) رواهما البخاري (٦/ ٦٥٤) المناقب.

وعن جابر بن سمرة قال: «كان رسول الله ﷺ ضليع الفم، أشكل العين، منهوس العقبين»[١].

قال النووي: وأما قوله: ضليع الفم، فكذا قاله الأكثرون، وهو الأظهر، قالوا: والعرب تمدح بذلك، وتذم صغر الفم، وهو معنى قول ثعلب في ضليع الفم: واسع الفم، وقال شمر: عظيم الأسنان، وقوله: أشكل العين فهو حمرة في بياض العينين، وأما المنهوس فهو قليل لحم العقبين[٢].

وعن أبي الطفيل قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ وما على وجه الأرض رجل رآه غيري. قال الجريري: فقلت له: كيف رأيته؟ قال: كان أبيض مليحًا مُقَصَّدًا»[٣].

وعن البراء قال: «ما رأيتُ من ذي لِمَّةٍ أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ، شعره يضرب منكبيه، بعيد ما بين المنكبين، ليس بالطويل ولا بالقصير»[٤].

وعن علي قال: «لم يكنْ النبي ﷺ بالطويل ولا بالقصير، شثن الكفين والقدمين، ضخم الرأس، ضخم الكراديس، طويل المسربة، وإذا مشى تكفأ تكفيًا، كأنما ينحط من صبب، لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ»[٥].

وعن عائشة قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام يبينه، فصل يحفظه من جلس إليه»[٦].

---

(١) رواه مسلم (١٥/ ٩٣) الفضائل، والترمذي (١٣/ ١٢٠) المناقب.
(٢) باختصار من «شرح النووي» (١٥/ ٩٣).
(٣) رواه مسلم (١٥/ ٩٣) الفضائل.
(٤) رواه مسلم (١٥/ ٩١) الفضائل، والترمذي (١٣/ ١١٥، ١١٦) المناقب.
(٥) رواه الترمذي (١٣/ ١١٦) المناقب، ورواه في «الشمائل» رقم (٤٠) من «مختصر الشمائل» للألباني وصححه الألباني.
(٦) رواه الترمذي (١٣/ ١١٨) المناقب، وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث الزهري، وقد رواه يونس بن يزيد عن الزهري، وهو في «مختصر الشمائل» رقم (١٩١) وحسنه الألباني ـ رحمه الله ـ.

٣ ـ أسماء النبي ﷺ وكناه

عن جبير بن مطعم، عن أبيه ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي**»[١].

قال الحافظ: والذي يظهر أنه أراد أن لي خمسة أسماء اختص بها لم يسم بها أحد قبلي، أو معظمة أو مشهورة في الأمم السابقة لا أنه أراد الحصر فيها.

قال عياض: حمى الله هذه الأسماء أن يسمى بها أحد قبله، وإنما تسمى بعض العرب محمدًا قرب ميلاده، لما سمعوا من الكهان والأحبار أن نبيًا سيبعث في هذا الزمان يسمى محمدًا، فرجوا أن يكونوا هم فسموا أبناءَهم بذلك. قال: وهم ستة لا سابع لهم كذا قال. وقال السهيلي في «الروض»: لا يُعرف في العرب من تسمى محمدًا قبل النبي ﷺ إلا ثلاثة: محمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح، ومحمد بن حمران بن ربيعة، وسبق السهيلي إلى هذا القول أبو عبد الله ابن خالويه في «كتاب ليس»، وهو حصر مردود، وقد جمعتُ أسماء من تسمى بذلك في جزءٍ مفردٍ فبلغوا نحو العشرين، لكن مع تكرار في بعضهم ووهم في بعض، فيتلخص منه خمسة عشر نفسًا[٢].

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٦٤١) المناقب دون تفسير العاقب، ، ومسلم (١٥/ ١٠٤)، ومالك (٢/ ١٠٠٤)، وأحمد (٤/ ٨٤) وفيه أن تفسير العاقب من كلام الزهري، والدارمي (٢/ ٣١٧، ٣١٨).

(٢) باختصار من «الفتح» (٦/ ٦٤٢)، وقد ترجم في «الإصابة» (٣/ ٣٦٩ ـ ٣٨٥) لـ(٦٢) صحابي كلهم تسمى بمحمد ـ ذكرهم كلهم في القسم الأول ـ وهو من ثبتت صحبته ـ وإن كان فيهم المكرر (من ترجمة ٧٧٥٥ ـ ٧٨١٧) فيبدو أن الجزء المذكور كان قد صنفه قديمًا قبل أن يتصدى لجمع المصنفات في الصحابة ويؤلف منها كتابه الموسوعة «الإصابة»، والله سبحانه وتعالى أعلم. ثم تبين لي أن الجزء المذكور غالبًا فيمن تسمى بمحمد في الجاهلية قبل البعثة النبوية فعلى هذا فهم بعض المذكورين فقط في «الإصابة» ولا يدخل فيهم مَنْ تَسمى بمحمد بعد البعثة النبوية ممن صحب النبي ﷺ والله أعلم. ولم أقف لجزء الحافظ هذا على ذكر. ثم وقفتُ على ذكر هذا الجزء ضمن قائمة مصنفات ابن حجر التي جمعها د. شاكر محمود عبد المنعم في أطروحته للدكتوراة للتأريخ الإسلامي من جامعة بغداد وعنوانها «ابن حجر العسقلاني ودراسة مصنفاته ومنهجه وموارده في كتاب الإصابة» (١/ ٦٠٠، ٦٠١) وسمى الجزء المذكور الإعلام بمن سمى محمدًا قبل الإسلام، نقلاً عن كتاب السخاوي «الجواهر والدرر» في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر وغيره، ولم يذكر له مخطوطًا. فيبدو أنه في عداد المفقودات، والله أعلم.

قوله: «**وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر**»، قيل: المراد إزالة ذلك من جزيرة العرب، وفيه نظر؛ لأنه وقع في رواية عقيل، ومعمر «**يمحو بي الله الكفرة**»، ويُجاب بأنَّ المراد إزالة الكفر بإزالة أهله، وإنما قُيِّد بجزيرة العرب؛ لأن الكفر ما انمحى من جميع البلاد، وقيل: إنه محمول على الأغلب، أو أنه ينمحي بسببه أولاً فأولاً إلى أن يضمحل في زمن عيسى ابن مريم، فإنه يرفع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام. وقوله: «**وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي**»، أي: على أثري، أي: أنه يحشر قبل الناس، وهو موافق لقوله في الرواية الأخرى: «**يحشر الناس على عقبي**»، ويحتمل أن يكون المراد بالقدم الزمان أي: وقت قيامي على قدمي بظهور علامات الحشر، إشارة إلى أنه ليس بعده نبي ولا شريعة. وقوله: «**وأنا العاقب**»، زاد يونس بن يزيد في روايته عن الزهري: «**الذي ليس بعده نبي، وقد سماه الله رؤوفًا رحيمًا**»، قال البيهقي في «الدلائل» قوله: «**وقد سماه الله...**» إلخ، مدرج من قول الزهري. **قلت**: وهو كذلك وكأنه أشار إلى ما في آخر سورة براءة. وأما قوله: «**الذي ليس بعده نبي**»، فظاهره الإدراج أيضًا.

ومما وقع من أسمائه في القرآن بالاتفاق: «الشاهد، والمبشر، النذير المبين، الداعي إلى الله السراج المنير»، وفيه أيضًا: «المذكر، والرحمة، والنعمة، والهادي، والشهيد، والأمين، والمزمل، والمدثر»، وتقدم في حديث عمرو بن العاص «المتوكل»، ومن أسمائه المشهورة: «المختار، والمصطفى، والشفيع، والمشفع، والصادق المصدوق»، وغير ذلك. قال ابن دحية في تصنيف له مفرد في الأسماء النبوية: قال بعضهم: أسماء النبي ﷺ عدد أسماء الله الحسنى تسعة وتسعون اسمًا[١].

ومن أسمائه كذلك: نبي الرحمة، ونبي التوبة، لما رواه مسلم: عن أبي موسى الأشعري، قال: كان رسول الله ﷺ يُسمِّي لنا نفسه أسماء، فقال: أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة[٢].

---

(١) باختصار من «الفتح» (٦/ ٦٤٣، ٦٤٤).

(٢) رواه مسلم (١٥/ ١٠٥) الفضائل.

قال النووي: وأما نبي التوبة ونبي الرحمة، ونبي المرحمة، فمعناهما متقارب، ومقصودها: أنه ﷺ جاء بالتوبة والتراحم، قال الله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح:٢٩)، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد:١٧)، وفي حديث آخر: نبي الملاحم؛ لأنه ﷺ بُعِثَ بالقتال[١].

فائدة: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مذمماً، ويلعنون مذمماً، وأنا محمد** ﷺ»[٢].

قال الحافظ: كان الكفار من قريش من شدة كراهتهم في النبي ﷺ لا يسمونه باسمه الدال على المدح، فيعدلون إلى ضده، فيقولون مذمم، وإذا ذكروه بسوء قالوا: فعل الله بمذمم، ومذمم ليس هو اسمه ولا يعرف به، فكان الذي يقع منهم في ذلك مصروفًا إلى غيره.

قال ابن التين: استدل بهذا الحديث مَنْ أسقط حد القذف بالتعريض وهم الأكثر خلافًا لمالك. واستنبط النسائي أن مَنْ تكلَّم بكلام منافٍ لمعنى الطلاق ومطلق الفرقة وقصد به الطلاق لا يقع، كمن قال لزوجته: كلي وقصد الطلاق فإنها لا تطلق؛ لأنَّ الأكلَ لا يصلح أن يُفسَّر به الطلاق بوجه من الوجوه، كما أن مذممًا لا يمكن أن يُفسَّر به محمد عليه أفضل الصلاة والسلام بوجه من الوجوه[٣]. **أما كنيته** ﷺ: فكان ﷺ يُكنَّى أبا القاسم بولده القاسم، وكان أكبر أولاده، واختلف هل مات قبل البعثة أو بعدها؟ عن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ في السوق فقال رجل: يا أبا القاسم! فالتفت النبي ﷺ فقال: «**سموا باسمي، ولا تكتنوا بكنيتي**»[٤].

قال الحافظ: وقد اختلف في جواز التكني بكنيته ﷺ: فالمشهور عن

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» هامش (١٥/ ١٠٦).
(٢) رواه البخاري (٦/ ٦٤١) المناقب.
(٣) باختصار من «الفتح» (٦/ ٦٤٥).
(٤) رواه البخاري (٦/ ٦٤٧) المناقب.

الشافعي المنع على ظاهر هذه الأحاديث، وقيل: يختص ذلك بزمانه، وقيل: بمن تسمى باسمه[1].

فائدة ثانية: قال الإمام الشافعي: **ومن أسمائه**: الضَّحوك والقتَّال، جاء في بعض الآثار عنه أنه قال: «**أنا الضَّحُوك القتَّال**».

وقال ابن مسعود: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق. وفي التوراة: أنه حرزٌ للأميين، وأن اسمه المتوكل. **ومن أسمائه**: الأمين، وكانت قريش تدعوه به قبل نبوته. **ومن أسمائه**: الفاتح وقثم[2].

وقال علي بن زيد بن جدعان: تذاكروا أحسن بيت قالته العرب، فقالوا: قول أبي طالب في النبي ﷺ:

وَشَقَّ له من اسمه ليُجلَّه ... فَذو العرش محمودٌ وَهَذا مُحمدُ[3]

٤ ـ نساؤه ﷺ (أمهات المؤمنين)

أول أزواجه ﷺ: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي تزوجها ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة، وماتت رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل: بسنة، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت رضي الله عنها. **ثم تزوج** ﷺ: سودة بنت زمعة، فلما أسنت أراد ﷺ أن يطلقها، فرغبت أن يمسكها ويجعل يومها لعائشة بنت أبي بكر، فأمسكها. **ثم تزوج**: عائشة رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق بمكة، وهي بنت ست سنين، وبنى بها بعد الهجرة وهي بنت تسع سنين، وماتت سنة ثمان وخمسين. **ثم تزوج**: حفصة بنت عمر بن الخطاب بعد الهجرة بسنتين، وتُوفيت سنة خمس وأربعين، وصلى عليها مروان وهو أمير المؤمنين، وكان النبي ﷺ طلقها ثم راجعها بأمر الله له بمراجعتها. **ثم تزوج** ﷺ: زينب بنت خزيمة بن

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٦٤٨).

(٢) القثم: المجتمع الخلق، وقيل: الجامع الكامل، وقيل: الجموع للخير كما في «النهاية».

(٣) «السير» للذهبي (٢/ ١٠) وهي جزء من تاريخ الإسلام.

الحارث، وتوفيت زينب رضي الله عنها في حياته بعد ضمِّه لها بشهرين. **وتزوج** أم سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية، وهي آخر نسائه موتًا، ماتت سنة تسع وخمسين. **وتزوج** زينب بنت جحش، وهي أول نسائه موتًا بعده، ماتت في أول خلافة عمر، وهي التي زوجها الله تعالى منه، ولما فُتحت البلاد وآتاها عمر ما فرض لها، بكت ودعت الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن لا يريها عامًا قابلاً حتى تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما فارقته من التقلل في الدنيا، فماتت قبل تمام العام.

ثم تزوج صلى الله عليه وسلم: جويرية بنت الحارث، وتُوفيت سنة ست وخمسين في ربيع الأول وصلي عليها مروان. **ثم تزوج**: أم حبيبة واسمها رملة، وقيل: هند بنت أبي سفيان ابن حرب، وكانت مهاجرة إلى الحبشة، وماتت في خلافة أخيها معاوية سنة أربع وأربعين.

وتزوج إثر فتح خيبر صفية بنت حُييّ بن أخْطَب من بني النضير، وتُوفيت سنة خمسين، وقيل: اثنين وخمسين. **ثم تزوج**: ميمونة بنت الحارث، وهي آخر من تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، تزوجها بمكة في عمرة القضاء بعد إحلاله، وبنى بها بسرف، وبها ماتت أيام معاوية، وذلك سنة إحدى وخمسين، قاله خليفة بن خيّاط، وقبرها هناك.

وبعث في الجونية ليتزوجها، فدخل عليها ليخطبها، فاستعاذت بالله منه، فأعاذها، ولم يتزوجها وردها إلى أهلها[1].

وقال النووي ـ رحمه الله ـ: أولهن خديجة، ثم سودة، ثم عائشة، ثم حفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وميمونة، وجويرية، وصفية، فهؤلاء التسع بعد خديجة توفي عنهن ولم يتزوج في حياة خديجة غيرها، ولا تزوج بكرًا غير عائشة، وأما اللاتي فارقهن في حياته فتركناهن لكثرة الاختلاف فيهنّ. **وكان له سريتان**: مارية وريحانة بنت زيد، وقيل: بنت شمعون

---

(١) باختصار من «جوامع السير» لابن حزم (٣١-٣٨)، وانظر أيضًا لمزيد من التفصيل «تاريخ دمشق» لابن عساكر (١/ ١٣٦-١٣٨).

ثم أعتقها، روينا عن قتادة قال: «تزوج النبي ﷺ خمس عشرة امرأة، فدخل بثلاث عشرة، وجمع بين إحدى عشرة وتوفي عن تسع»[١].

٥ـ أولاده ﷺ

قال النووي ـ رحمه الله ـ: كان له ﷺ **ثلاثة بنين:** القاسم وبه كان يكنى، ولد قبل النبوة، وتوفي وهو ابن سنتين، وعبد الله وسُمي الطيب والطاهر؛ لأنه ولد بعد النبوة، وقيل: الطيب والطاهر غير عبد الله والصحيح الأول[٢]. والثالث: إبراهيم ولد بالمدينة سنة ثمان، ومات بها سنة عشر، وهو ابن سبعة عشر شهرًا أو ثمانية عشر.

وكان له ﷺ **أربع بنات:** زينب تزوجها أبو العاص ابن الربيع بن عبد العزى ابن عبد الشمس وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد. وفاطمة تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ورقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان بن عفان، تزوج رقية، ثم أم كلثوم، وتوفيتا عنده، ولهذا سُمي ذا النورين، تُوفيت رقية يوم بدر في رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وتُوفيت أم كلثوم في شعبان سنة تسع من الهجرة، فالبنات أربع بلا خلاف، والبنون ثلاثة على الصحيح، وأول من ولد له القاسم، ثم زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، وجاء أن فاطمة أسن من أم كلثوم. وكلهم من خديجة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، وكلهم تُوفوا قبله إلا فاطمة، فإنها عاشت بعده ستة أشهر على الأصح الأشهر[٣].

★★

(١) «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٢٧) ط/ دار الكتب العلمية.

(٢) رجحه ابن حزم في «جوامع السيرة» (٤٠).

(٣) باختصار من «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٢٦).

٢ - الأحداث العظام والآيات الجسام التي سبقت ميلاد المصطفى عليه الصلاة والسلام

وتشتمل على:

١- تمهيد في أحوال مكة قبل بعثة المصطفى ﷺ

٢ - قصة حفر عبد المطلب لزمزم

٣ - قصة نذر عبد المطلب بأن ينحر أحد أبنائه

٤ - قصة الفيل

(٢) الأحداث العظام والآيات الجسام التي سبقت ميلاد المصطفى عليه الصلاة والسلام

أ- تمهيد في أحوال مكة قبل بعثة المصطفى ﷺ:

لاشك في أن الأمور العظيمة والأحداث الجسيمة يسبقها من الإشارات والأحداث والآيات ما يُمهَد لها ويكون مؤذنًا بقرب ميلادها، ولم يطرق البشرية حدث أعظم من هذا الحدث، وهو ميلاد المصطفى الهادي الذي يسوق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على يديه هذا الخير الكثير، والفضل الكبير، بعد أن أظلمت أرجاء الأرض بالشر والشرك، وبعد أن نظر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إليهم فمقتهم عربهم وعجمهم.

كما ورد في الحديث: «**ألا إن ربي أمرني أن أُعلِّمكم ما جهلتم مما علَّمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدي حلال، وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلتُ عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان، وإن الله أمرني أن أُحرِّقَ قريشًا، فقلت: ربِّ إذًا يثلغوا رأسي فيدعوه خُبزةً. قال: استخرجهم كما أخرجوك، واغزهم نغزك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشًا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك**»[1].

يُصور الغزالي الحياة بمكة فيقول: وقد كانت مكة على عهد البعثة تموج بحركة عاصفة من الشهوات والمآثم، وكان الرجال يحيون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء وشلل الأفكار، أو نمائها في ظل الهوى الجامح ولخدمته وحده.

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ١٩٧-١٩٩) الجنة وصفة نعيمها، وأحمد (٤/ ١٦٢)، وابن ماجه (٤١٧٩) مختصرًا، وقال ابن الأثير: قوله: «**اجتالتهم الشياطين**»، أي: استخفتهم، فجالوا معهم، وقوله: «**أمرني أن أُحرِّق قريشًا**»، كناية عن القتل، والثلغ: الشرخ، باختصار من «جامع الأصول» (١١/ ٧٥٠).

كفر بالله واليوم الآخر، إقبال على نعيم الدنيا في التشبع منه، رغبة عميقة في السيادة والعلو، ونفاذ الكلمة، عصبيات طائشة تسالم وتحارب من أجل ذلك، تقاليد متوارثة توجه نشاط الفرد المادي والأدبي، من الخطأ أن تحسب مكة يومئذٍ قرية منقطعة عن العمران في صحراء موحشة، لا تحس من الدنيا إلا الضرورات التي تمسك عليها الرمق، كلا، إنما شبعت حتى بطرت، وتنازعت الكبرياء حتى تطاحنت عليها، وكثر فيها من تغلغل الإلحاد في أغوارِ نفسيةٍ حتى عزَّ إخراجه منه، فهم بين عَمٍ عن الصواب أو جاحد له، وفي هذا المجتمع الذي لم ينلْ حظًا يذكر من الحضارة العقلية، بلغ غرور الفرد مداه، ووجد من يسابق فرعون عتوه وطغواه.

قال عمرو بن هشام معللاً كفره برسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا: منا نبي يُوحي إليه، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدًا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، وزعموا أنَّ الوليد بن المغيرة قال لرسول الله ﷺ: لو كانتْ النبوة حقًا لكنتُ أولى بها منك؛ لأني أكبر منك سنًا وأكثر منك مالاً[1].

وقال الجزائري ـ رحمه الله ـ ما ملخصه: ومن جملة العادات السيئة التي هبطت بالمجتمع العربي قبل الإسلام:

١ ـ القمار والمعروف بالميسر، وقد حرمه الإسلام بآية سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠).

٢ ـ شرب الخمر: والاجتماع عليها، والمباهاة بتعتيقها وغلاء ثمنها.

٣ ـ نكاح الاستبضاع: وهو أنْ تحيضَ امرأة الرجل منهم فتطهر، فيطلب لها أشراف الرجال من أجل أنْ تنجبَ ولدًا يرث صفات الكمال التي يحملها أولئك الواطئون لها.

---

(١) باختصار من «فقه السيرة» (٢٥، ٢٦).

٤ ـ وَأْد البنات: وهي أن يدفن الرجل ابنته بعد ولادتها حيَّة في التراب خوف العار.

٥ ـ قتل الأولاد مطلقًا ذكورًا كانوا أو إناثًا، وذلك عند وجود فقر شديد.

٦ ـ تبرج النساء بخروج المرأة كاشفة عن محاسنها مارة بالرجال الأجانب، متغنجة في مشيتها متكسرة كأنها تعرض نفسها وتغري بها غيرها.

٧ ـ اتخاذ الحرائر من النساء الأخدان من الرجال.

٨ ـ إعلان الإماء عن البغي بهن، وذلك بأن تجعل إحداهن راية حمراء على باب منزلها لتعرف أنها بغي ويغشاها الرجال.

٩ ـ العصبية القبلية.

١٠ ـ شن الغارات والحروب على بعضهم بعضًا للسلب والنهب، ومن أشهر حروبهم: حرب داحس والغبراء، وحرب بُعاث، وحرب الفجار(١).

قال الغزالي: فلما اكتظت الأرض بالمفاسد والضلالات، زاد التطلع إلى مقدم هذا المصلح المرتقب، وكان هناك رجال ممن يُنكرون الجهالة السائدة يستشرفون للمنصب الجليل، ويتمنون لو اختيروا له، منهم أمية بن أبي الصلت الذي جعل شعره بالتحدث عن الله وما يجب له من محامد، حتى قال رسول الله ﷺ فيه: «**كاد أمية أن يُسلِم**»(٢).

وعن عمرو بن الشريد عن أبيه: ردفتُ رسول الله ﷺ يومًا فقال: **هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت؟** قلت: نعم، قال: **هيه**، فأنشدته بيتًا فقال: **هيه**، حتى أنشدته مائة بيت(٣).

---

(١) «هذا الحبيب يا محب» (٣١، ٣٢).

(٢) جزء من حديث: رواه البخاري (١٠/ ٥٥٣) الأدب، ومسلم (١٥/ ١٣) الشعر، وأوله: «**أصدق كلمة قالها شاعر..**»، واقتصر الترمذي على الجزء الأول منه (١٠/ ٢٩١) الأدب.

(٣) رواه مسلم (١٥/ ١١) الشعر، **وقال النووي:** ومقصود الحديث أنَّ النبي ﷺ استحسن شعر أمية واستزاد من إنشاده لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث، **ففيه:** جواز إنشاد الشعر الذي لا فحش فيه وسماعه سواء شعر الجاهلية وغيرهم، وأن المذموم من الشعر الذي لا فحش فيه، إنما هو الإكثار منه وكونه غالبًا على الإنسان فأما يسيره فلا بأس بإنشاده وسماعه وحفظه. «شرح النووي على صحيح مسلم» هامش (١٥/ ١٢).

غيـر أنَّ القدر الأعـلى تجاوز أولئـك المتطلعين من شـعـراء وثائرين، وألقى بالأمانة الكبرى إلى رجل لم يتطلع إليها، ولم يفكر فيها: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ﴾ (القصص: ٨٦).

إنَّ الاصطفاء للرسالات العظيمة ليس بالأمل فـيها ولكن بالطاقة عليها، وكم في الحـيـاة من طامـحين لا يملكـون إلا الجرأة عـلى الأمل، وكم من راسـخين يطويهم الصمت حـتى إذا كُلفوا أتوا بالعجب العجاب، ولا يـعلم أقدار النفوس إلا بارئها، والذي يُريد هداية العالم أجمع يختار للغاية العظيمة نفسًا عظيمة[1].

وقبل أنْ نبدأ في بيان ميلاد أفضل البـشر وأكرم الرسل، نُبيِّن شيئًا من الآيات العظام، والأحداث الجسـام، التي سبقت ميلاده ـ عليه الصـلاة والسلام ـ، فإنَّ الأمور العظيمة قد يسبقها من عظائم الأمـور ما يدل عليها ويشير إليها، وسوف نتخيـر بإذن الله تعالى أصح الروايات، ونقصر على ثلاثة أحـداث بالإضافة إلى التمهيد السابق.

١ ـ قصة حفر عبد المطلب لزمزم.

٢ ـ قصة نذر عبد المطلب بأن ينحر أحد أبنائه.

٣ ـ قصة الفيل.

---

(١) «فقه السيرة» للغزالي (٢٧، ٢٨).

٢ ـ قصة حفر عبد المطلب لزمزم

قال ابن إسحاق: وكان أول ما ابتدئ به عبد المطلب من حفرها كما حدثني يزيد بن أبي حبيب المصري، عن مرثد بن عبد الله البزني، عن عبد الله بن زرير الغافقي: أنه سمع علي بن أبي طالب ﷺ يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها قال: قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذا أتاني آتٍ فقال: احفر طَيْبة، قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان [من] الغد رجعتُ إلى مضجعي، فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احفر بَرَّة قال: قلت: وما بَرّه؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة قال: فقلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احْفُر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبدًا ولا تُذَمُّ، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل.

قال ابن إسحاق: فلما بيِّن له شأنها ودل على موضعها، وعرف أنه قد صدق، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، ليس له يومئذ ولد غيره، فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطيِّ كَبّر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته فقاموا إليه، فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقًا، فأشركنا معك فيها، قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصتُ به دونكم وأعطيته من بينكم. فقالوا له: فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد هُذيم، قال: نعم، قال: وكانت بأشراف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، قال: والأرض إذ ذاك مفاوز، قال: فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام؟ فنى ماء عبد المطلب وأصحاب فظمئوا حتى أيقنوا الهلكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش، فأبوا عليهم فقالوا: إنا بمفازة، ونحن نخشى على أنفسنا مثل

ما أصابكم، فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم، وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك فمرنا بما شئت، قال: فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته، ثم واروه حتى يكون آخركم رجلاً واحدًا، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعًا.

قالوا: نعم ما أمرت به، فقام كل واحد منهم فحفر حفرته، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشًا، ثم إنَّ عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا فارتحلوا، حتى إذا فرغوا ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها فلما انبعث به انفجرت من تحت خفها عين من ماء عذب، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش، فقال: هَلُمّ إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا، فجاءوا فشربوا واستقوا. ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب، لا نخاصمك في زمزم أبدًا، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدًا، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبينها[1].

٣ - قصة نذر عبد المطلب بأن ينحر أحد أبنائه

قال الطبري في «تاريخه»: حدثني يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنا يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب: أنه أخبره أنَّ امرأة نذرتْ أن تنحرَ ابنها عند الكعبة في أمرٍ إن فعلته، ففعلت ذلك الأمر، فقدمت المدينة لتستفتي عن نذرها، فجاءتْ عبد الله بن عمر، فقال لها عبد الله بن عمر: قد نهاكم الله أن تقتلوا أنفسكم، فلم يزدها عبد الله بن عمر على ذلك. فجاءتْ

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ١٦٦-١٦٨)، وقال أخونا الفاضل الدكتور/ عادل عبد الغفور في رسالته: «دراسة مرويات العهد المكي»: وهذا إسناد حسن رجاله ثقات إلا ابن إسحاق فإنه صدوق يُدلس كما تقدم، وقد صرح بالتحديث فزال ما يخشى من تدليسه (٨٤)، من الطبعة الماجستيرية على الآلة الكاتبة.

عبـد الله بن عباس فاسـتفتتـه فقال: أمر الله بوفـاء النذر، والنذر دين، ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم، وقد كان عبد المطلب بن هاشم نذر إن توافق له عشرة رهط أن ينحر أحدهم. فلما توافى له عـشرة أقرع بينهم أيهم ينحر، فطارت القرعـة على عبد الله ابن عبد المطلب، وكان أحبّ الناس إلى عبـد المطلب، فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل.

فقال ابن عباس للمرأة: فـأرى أن تنحري مائة من الإبل مكان ابنك، فبلغ الحديث مروان وهو أمير المدينة، فقال: ما أرى ابن عمـر ولا ابن عباس أصابا الفتيا إنه لا نذر في معـصيـة الله، استغـفري الله وتوبي إلى الله وتصـدقي واعملي ما اسـتطعت من الخير، فأما أن تنحري ابنك فقد نهـاك الله عن ذلك، فَسُرّ الناس بذلك وأعجبهم قول مروان، ورأوا أنه قد أصاب الفتيا، فلم يزالوا يفتون بلا نذر في معصية الله[1].

٤ ـ قصة الفيل

وهذه الحادثة أثبتها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كـتابه العزيز، وأشار إليها النبي ﷺ في أصح كتب السنة البخاري ومسلم، وأتت تفاصيلها في كتب السير والتاريخ، وذكرها علمـاء التفسيـر في تفاسيرهم. قـال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (الفيل: ١-٥).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ[2]: هذه من النعم التي امتن الله بها على قريـش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قـد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله وأرغم أنافهم، وخـيَّب سعيهم، وأضلَّ عملهم،

---

(١) «تاريخ الطبري» (٢/ ٢٣٩، ٢٤٠)، قال الدكتور/ عادل عبـد الغفور في دراسة «مرويات العهد المكي»: وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات ـ صفحة (٩٤) من طبعة الآلة الكاتبة.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٤٨، ٥٤٩). قوله: ﴿أَبَابِيلَ﴾: هي حزمة الحطب، واستعير لجماعة الطير. قوله: ﴿سِجِّيلٍ﴾: أي: من طين متحـجر، قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال ابن جرير: كـزرع أكلته الدواب فراثته. فيـبس وتفرقت أجزاؤه شبه تقطع أوصالهم بالعـقوبة التي نزلت بهم وتفرق آراب أبدانهم بها بتفرق آجزاء الروث الذي حدث عن آكل الزرع، باختصار من «محاسن التأويل» (١٧/ ٢٥٦).

وردهم بشر خيبة، وكانوا قومًا نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خاتم الأنبياء.

أما إشارات الرسول ﷺ إلى الحادث فمنها:

أن رسول الله ﷺ لما خرج زمن الحديبية سار حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس: حَلْ حَلْ[١]، فألَحَّت[٢] فقالوا: خلأت[٣] القصواء، فقال النبي ﷺ: «**ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**»[٤].

ولما فتح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسوله ﷺ مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «**إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين**»[٥].

وروى الحاكم في «مستدركه»، وعنه البيهقي في «الدلائل»: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبل أصحاب الفيل، حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، ما جاء بك إلينا، ما عناك إلا بعثت فنأتيك بكل شيء أردت، فقال: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا أمن، فجئت أخيف أهله، فقال: إنا نأتيك بكل شيء تريد فارجع، فأبى إلا أنْ يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب فقام على جبلٍ فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله، ثم قال:

---

(١) كلمة تُقَال للناقة إذا تركت السير «فتح الباري» (٥/ ٣٣٥).

(٢) قوله: «**الحت**»: أي: تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح «فتح الباري» (٥/ ٣٣٥).

(٣) **الخلأ**: للنوق كالإلحاح للجمال، والحران للدواب، يُقَال: خلأت الناقة، وألح الجمل، وحرن الفرس «النهاية» (٢/ ٥٨).

(٤) رواه البخاري (٥/ ٣٨٨) الشروط.

(٥) رواه البخاري (٥/ ١٠٤، ١٠٥) اللقطة، ومسلم (١٠/ ١٢٨) الحج، وأبوداود (٢٠٠١) المناسك.

اللَّهُمَّ إنَّ لكُلِّ إلهٍ حَلالاً فَامْنَعْ حَلالك

لا يَغْلِبنَّ مَحَالُهُم أبدًا مَحَالَكَ

اللَّهُم فإنْ فَعلت فأمرٌ مَا بَدَالك

فأقبلت مثل السحابة نحو البحر حتى أظلتهم طير أبابيل التي قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ (الفيل: ٤) قال: فجعل الفيل يعج عجًا ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (الفيل: ٥)[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **في هذه الحادثة:** بيان شرف الكعبة أول بيت وضع للناس، وكيف أنَّ المشركين كانوا يعظمونها، ولذا حسدهم أبرهة الحبشي عليها، وأراد أن يهدمها، وما ازدادت الكعبة بالإسلام إلا شرفًا وحرمة، فلم يكن إهلاك أبرهة ومن معه لحرمة سكان مكة، اللهم إلا هذا الحمل الطاهر الذي تحمله آمنة بنت وهب في أحشائها، وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ (الفيل: ٢).

قال الرازي: اعلم أنَّ الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية «إن قيل» لِمَ سماه كيدًا وأمره كان ظاهرًا، فإنه كان يُصرِّح أنه يهدم البيت؟ **(قلنا):** نعم لكن الذي كان في قلبه شرًا مما أظهر؛ لأنه كان يُضمِّر الحسد للعرب، وكان يُريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم، ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته[2].

٢ ـ **قال القاسمي:** قال القاشاني: قصة أصحاب الفيل مشهورة، وواقعتهم قريبة من عهد الرسول ﷺ، وهي إحدى آيات قدرة الله، وأثر من سخطه على مَنْ اجترأ عليه بهتك حرمه، وإلهام الطيور والوحوش أقرب من إلهام الإنسان، لكون نفوسهم ساذجة، وتأثير الأحجار بخاصية أودعها الله تعالى فيها ليس بمستنكر، ومن اطلع على عالم القدرة، وكشف له حجاب الحكمة لماهية

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٥٣٥) التفسير، وعنه البيهقي في «الدلائل» (١/ ١٢١، ١٢٢)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي فقال: صحيح.

(٢) «التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب» (٣٢/ ٩٤).

أمثال هذه. قال: وقد وقع في زماننا مثلها من استيلاء الفأر على مدينة أبيورد، وإفساد زروعهم، ورجوعها في البرية إلى شط جيحون، وأخذ كل واحدة منها خشبة من الأيكة التي على شط نهرها وركبوا عليها، وعبروا بها من النهر[1].

٣ ـ **قال الماوردي**: آيات الملك باهرة، وشواهد النبوة ظاهرة، تشهد مباديها بالعواقب فلا يلتبس فيها كذب بصدق، ولا منتحل بحق، وبحسب قوتها وانتشارها يكون بشائرها وإنذارها. ولما دنا مولد رسول الله ﷺ تعاطرت آيات نبوته، وظهرت آيات بركته، فكان من أعظمها شأنًا، وأشهرها عيانًا وبيانًا، أصحاب الفيل، أنفذهم النجاشي من أرض الحبشة في جمهور جيشه إلى مكان لقتل رجالها وسبى ذراريها، وهدم الكعبة.

إلى أن قال: وآية الرسول في قصة الفيل أنه كان في زمانه حملاً في بطن أمه بمكة؛ لأنه ولد بعد خمسين يومًا من الفيل، وبعد موت أبيه في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، فكانت آيته في ذلك من وجهين:

أحدهما: أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا، فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله أن يجرى عليه السبى حملاً ووليدًا.

والثاني: أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب لأنهم كانوا بين عابد صنم، أو متدين وثن، أو قائل بالزندقة، أو مانع من الرجعة، ولكن لما أراده الله تعالى من ظهور الإسلام، تأسيسًا للنبوة، وتعظيمًا للكعبة، وأن يجعلها قبلةً للصلاة، ومنسكًا للحج. فإن قيل: فكيف منع الكعبة قبل مصيرها قبلة ومنسكًا، ولم يمنع الحجاج من هدمها، وقد صارت قبلة ومنسكًا حتى أحرقها، ونصب المنجنيق عليها، فقال فيها على ما حكى عنه:

كَيْفَ تَرَاهُ سَاطِعًا غُبَارُهُ ... والله فِيمَا يَزعُمُون جَارُهُ

وقال راميها بالمنجنيق:

قطارة مِثْلَ الفَنِيق المزبَّدِ ... أَرْمِي بها أَعْوَاد كلِّ مَسْجِدِ

---

(١) «محاسن التأويل» (١٧/ ٢٦٢).

قيل: فعل الحجاج كان بعد استقرار الدين، فاستغنى عن آيات تأسيسه، وأصحاب الفيل كانوا قبل ظهور النبوة، فجعل المنع منها آية لتأسيس النبوة، ومجيء الرسالة، على أنَّ الرسول قد أنذر بهدمها، فصار الهدم آية، فلذلك اختلف حكمها في الحالتين، والله تعالى أعلم.

ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى بجيش الفيل تهيبوا الحرم وأعظموه، وزادتْ حرمته في النفوس، ودانت لقريش بالطاعة، وقالوا: أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم، فزادوهم تشريفًا وتعظيمًا، وقامت قريش لهم بالوفادة والسدانة والسقاية، والوفادة مال تخرجه قريش في كل عام من أموالهم، يصنعون به طعامًا للناس أيام منى، فصاروا أئمة ديانين، وقادة متبوعين، وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين[١].

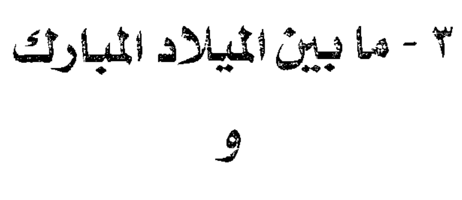
٤ ـ **وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ:** وقد تواترت قصة أصحاب الفيل، وأنَّ أصحاب الحبشة النصارى ساروا بجيش عظيم، معهم فيل ليهدموا الكعبة، لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن، فقصدوا إهانة الكعبة وتعظيم كنائسهم فأرسل الله عليهم طيرًا أهلكهم عامتهم، وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان ودين النصارى خير منهم، فعلم بذلك أنَّ هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذٍ، بل كانت لأجل البيت، أو لأجل النبي ﷺ الذي ولد في ذلك العام عند البيت أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته.

فإنه إذا قيل: إنما كان آية للبيت وحفظًا له وذبًا عنه؛ لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل، فقد علم أنه ليس من أهل الملل مَنْ يحج إلى هذا البيت، ويصلي إليه إلا أمة محمد ﷺ هو الذي فرض حجه والصلاة إليه[٢].

☐☐ ★★ ☐☐

---

(١) باختصار من «أعلام النبوة» للماوردي (١٨٥-١٨٩) ط/ مكتبة الكليات الأزهرية.
(٢) «الجواب الصحيح» (٤/ ١٢٢).



٣ - ما بين الميلاد المبارك
و
شروق شمس البعثة النبوية

ويشتمل على:

١- زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب

٢- ميلاد المصطفى ﷺ ونشأته

٣- الأحداث الجسام قبل بعثة النبي ﷺ

- حرب الفجار
- حلف الفضول
- زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها
- بناء قريش للكعبة

١- زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب ورؤيا آمنة أم النبي ﷺ

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، ولما نجا من الذبح وفداه عبد المطلب بمائة من الإبل، زوجه أبوه من أشرف نساء مكة نسبًا، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.

ولم يلبث أبوه أن تُوفي بعد أن حملت به آمنة، ودُفِنَ بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار، فإنه كان ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع، وترك هذه النسمة الطاهرة، وكأنَّ القدر يقول له: قد انتهت مهمتك في الحياة، وهذا الجنين الطاهر يتولى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بحكمته ورحمته تربيته وتأديبه، وإعداده لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

ولم يكن زواج عبد الله من آمنة هو بداية أمر النبي، قيل للنبي ﷺ: ما أول بدء أمرك؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»**[١].

ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩).

وبشرى عيسى: كما أشار إليه قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ حاكيًا عن المسيح عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦).

وقوله: **«ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»**، قال ابن رجب: «وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزال به ظلمة الشرك منها، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٦٢)، والحاكم (٢/ ٦٠٠) التاريخ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وله طرق وروايات مختلفة، وانظر «الصحيحة» رقم (١٥٤٥، ١٥٤٦).

لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥-١٦)، وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] (الأعراف: ١٥٧).

وقال ابن كثير: وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في «الصحيحين»: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»، وفي «صحيح البخاري»: «**وهم بالشام**»[2].

٢- ميلاد المصطفى ﷺ ونشأته

في يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، وقيل: ثمانية، وقيل: عشرة، وقيل: ثنتي عشرة وعليه الأكثر، وذلك عام الفيل ظهرت تباشير الصباح، وولد المصطفى ﷺ[3]، وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم، وهي التي سُميت بعد ذلك بدار محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف، وهي الآن مكتبة عامة. وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أَمَةُ أبيه، وأول مَنْ أرضعته ثويبة أَمَة عمه أبي لهب.

---

(١) «لطائف المعارف» (٨٩).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ١٨٤) ط/ الحلبي، (١/ ٢٦٨) ط/ الشعب، والحديث: رواه البخاري (١٣/ ٢٠٦) الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٣/ ٦٥) الإمارة.

(٣) ما ورد في الروايات من أنه ﷺ ولد مختونًا مسرورًا فليس بثابت، والصواب: أنه ﷺ خُتِنَ على عادة العرب، وكان عموم هذه السنة للعرب مغنيًا عن نقل معين فيها، وكذا لم يصح انفلاق البرمة التي وضعها عليه النساء، وكذا لم يصح أنه ﷺ كان يناغي القمر ويُشير إليه بأصابعه، وانظر: «مرويات العهد المكي» للدكتور/ عادل عبد الغفور.

عن أم حبيبة ﵂ قالت: قلت: يا رسول الله، انكح أختي بنت أبي سفيان، فقال: «**أو تحبين ذلك؟**»، فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، فقال النبي ﷺ: «**إن ذلك لا يحل لي**»، قلت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: «**بنت أبي سلمة؟**»، قلت: نعم، فقال: «**لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلتْ لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليَّ بناتكن ولا أخواتكن**»[(١)].

قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب، وكان أبو لهب أعتقها، فأرضعت النبي ﷺ فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حِيبَة فقال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم أَلْقَ بعدكم رخاء، غير أني سُقِيتُ في هذه بعتاقتي ثويبة. ثم استرضع ﷺ في بني سعد بن بكر[(٢)] وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد، وكانوا يقولون: إن المربى في المدينة يكون كليل الذهن فاتر العزيمة، فجاءتْ نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالاً يرضعنهم، فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة السعدية.

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٤٣) النكاح، ومسلم (١٠/ ٢٥-٢٨) الرضاع.

(٢) **قصة رضاع النبي ﷺ:** وردت من حديث حليمة بنت عبد الله بن الحارث السعدية نفسها، رواها ابن إسحاق «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (١/ ١٨٣-١٨٨) ط/ الأزهرية، وإسحاق بن راهويه في «مسنده»، كما في «المطالب العالية» (٤٢٥٢)، وابن جرير الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٥٨-١٦٠)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص١١١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٣٢-١٣٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» «السيرة النبوية» (١/ ٧٤-٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» موارد (٢٠٩٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧١٦٣)، كلهم من طريق ابن إسحاق، ويبدو أن فيه انقطاعًا لكن له شاهد في «الصحيحة» رقم (٣٧٣)، ورقم (١٥٤٥)، وقد قدمت حليمة السعدية على النبي ﷺ وهو نازل الجعرانة فأخرج البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٩٥)، وأبوداود في «السنن» (٥٢٤٤)، وأبو يعلى (٩٠٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٢٤٩) «موارد»، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦١٨) من حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة: أنَّ النبي ﷺ كان بالجعرانة يقسم لحمًا، قال أبو الطفيل: وأنا يومئذ غلام أحمل عضو البعير، قال: فأقبلت امرأة بدوية، فلما دنتْ من النبي ﷺ بسط لها رداءه فجلست عليه قال: فسألت مَنْ هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته.

وحصل له ﷺ وهو في بادية بني سعد بن بكر حادثة شق الصدر(١)، وروى مسلم عن أنس بن مالك: أنَّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: «**هذا حظ الشيطان منك**»، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: «إن محمدًا قد قُتِلَ» فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

قال أنس: وقد كنتُ أرى أثر ذلك المخيط في صدره(٢). ثم أشفقتْ عليه مرضعته فأعادته إلى أمه، وتوجهت به أمه إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني عدي ابن النجار، وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق، فماتتْ بالأبواء(٣) ودُفنتْ هناك.

ولسان القدر يقول: هذا الغلام لا يؤثر عليه أبوه وأمه بنوع من التربية، والله - عزَّ وجلَّ - يتولى تربيته وتهذيبه، والأكثر على أنه كانت وفاة أمه آمنة وله ﷺ من العمر ست سنوات، فحضنته أم أيمن، وكفله جده عبد المطلب، ورقَّ له رقة لم تعهدْ له في ولده.

روى عبد الرزاق في «مصنفه»: عن معمر، عن الزهري قال: «ثم تُوفيتْ أمه فَيُتِمَّ في حجر جده فكان - وهو غلام - يأتي وسادة جده فيجلس عليها، فيخرج

---

(١) الحديث: رواه أحمد (٤/ ١٨٤)، والحاكم (٢/ ٦١٦، ٦١٧)، والدارمي (١/ ٨، ٩)، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال الألباني: وفيه نظر فإن بقية إنما له في مسلم فرد حديث متابعة كما قال الخزرجي، وهذا إسناد حسن فقد صرَّح بقية بالتحديث إلى أن قال: ولهذا الحديث شواهد كثيرة، انظر «الصحيحة» رقم (٣٧٣).

(٢) رواه مسلم (٢/ ٢١٥-٢١٧) الإيمان، وقد تكررت حادثة شق الصدر في قصة الإسراء من طريق سليمان بن المغيرة قال: حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتيت فانطلقوا بي إلى زمزم فَشَرَحَ عن صدري، ثم غسل بماء زمزم، ثم أنزلت**» رواها مسلم (٢/ ٢١٥) الإيمان.

(٣) قرية بين مكة والمدينة وهي أقرب إلى المدينة.

جده، فتقول الجارية التي تقوده، انزل عن وسادة جدك، فيقول عبد المطلب: دعي ابني فإنه يُحس بخيرٍ، ثم توفي جده ورسول الله ﷺ غلام»[١].

وتُوفي عبد المطلب وكان عمر النبي ﷺ ثماني سنوات، فكفله شقيق أبيه أبو طالب، وكان به رحيمًا، وكان مقلاً في الرزق، فعمل النبي ﷺ برعي الغنم مساعدة منه لعمه.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم**»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «**نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»[٢].

وعن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران نجني الكباث فقال: «**عليكم بالأسود منه فإنه أطيب**»، فقيل: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «**نعم، وهل من نبي إلا رعاها**»[٣]. ثم اشتغل ﷺ بالتجارة.

روى عبد الرزاق في «المصنف»، عن معمر، عن الزهري في سرده للسيرة قال: فلما استوى وبلغ أشده وليس له كثير مال استأجرته خديجة بنة خويلد إلى سوق حباشة ـ وهو سوق بتهامة ـ واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش، فقال رسول الله ﷺ وهو يُحدِّث عنها: «**ما رأيتُ من صاحبة أجير خيرًا من خديجة**»[٤].

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٥/ ٣١٨)، و«دلائل البيهقي» (١/ ٨٨، ٨٩)، وهذا مرسل صحيح إلى الزهري.

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٥١٦) الإجارة، ومالك (٢/ ٩٧١) الاستئذان بلاغًا، وابن ماجه (٢١٤٩) التجارات.

(٣) رواه البخاري (٩/ ٤٨٨) الأطعمة، ومسلم (١٤/ ٥، ٦) الأشربة، **والكباث**: هو النضيج من شجر الأراك.

(٤) عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٣١٩)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٩٠) و(٢/ ٦٨)، وقد وردت روايات أخرى مطولة في خروج النبي ﷺ بتجارة خديجة إلى الشام، وفي بعضها أنه ظهرت عليه ﷺ في هذه السفرة من العلامات الدالة على نبوته ما حدا بخديجة أن تطلب منه الزواج فاستجاب لذلك ﷺ وهي روايات واهية، انظر «الطبقات الكبرى» (١/ ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٥٥-١٥٧)، و«دلائل أبي نعيم» (١/ ٢١٩، ٢٢٢)، و«تاريخ دمشق» (١/ ١٠، ١١)، و«السيرة النبوية» للذهبي (٣١).



فصل في حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ في شبيبته عن أقذار الجاهلية

فمن ذلك: أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صانه عن شرك الجاهلية وعبادة الأصنام، ومن أولى بهذه المنقبة من صاحب الرسالة العصماء التي هي أسمح الشرائع في العمل، وأشدها في إخلاص التوحيد والبعد عن الشرك، روى أحمد في «مسنده»، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: حدثني جار لخديجة أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: «**أي خديجة! والله لا أعبد اللات والعزى**»، قال: كان صنمهم التي كانوا يعبدون ثم يضطجعون(١).

ومن ذلك: أنه كان لا يأكل ما ذبح على النصب، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل، عن عبد الله بن عمر: «أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح(٢) قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وإن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله إنكارًا لذلك وإعظامًا له»(٣).

ومن ذلك: توفيقه للوقوف بعرفة قبل البعثة، مخالفة لما ابتدع قومه من رأي الحُمس. والأحمس الشديد على دينه، وكانت تسمى الحمس، وكان الشيطان قد

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٢٢)، (٥/ ٣٦٢)، و«فضائل الصحابة» (٢/ ٨٥١) رقم (١٥٧٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٢٥): رجاله رجال الصحيح.

(٢) ذكرها ياقوت في «معجم البلدان» (١/ ٤٨٠) وقال: واد قبل مكة من جهة المغرب، وقال الحافظ في «الفتح»: مكان في طريق التنعيم، ويقال: هو واد.

(٣) رواه البخاري (٧/ ١٤٢) رقم (٣٨٢٦)، و(٥٤٩٩) بعضه، ورواه أحمد (٢/ ٦٩)، وابن سعد (٣/ ١/ ٢٧٦، ٢٧٧)، قال الألباني: توهم زيد أن اللحم المقدَّم إليه من جنس ما حرَّم الله: ومن المقطوع به أن بيت محمد ﷺ لا يأكل ذبائح الأصنام، ولكن أراد الاستيثاق لنفسه، والإعلان عن مذهبه، وقد حفظ محمد ﷺ له ذلك وسُرَّ به ـ هامش «فقه السيرة» للغزالي (ص٨٧).

استهـواهم فقال لهم: إنكم إن عظمتم غـير حرمكم استـخف الناس بحرمكم، فكانوا لا يقفون بعرفة يوم عرفة، وكـان سائر الناس يقف بعرفة، وكانت شريعة محمد ﷺ بعد ذلك الوقوف بعرفة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ (البقرة:١٩٩). عن محمد بن جبيـر، عن أبيه جبير بن مطعم قال: أضللت بعيرًا لي، فـذهبتُ أطلبه يوم عرفة، فـرأيتُ النبي ﷺ واقفًا بعـرفة، فقلتُ: «هذا والله من الحمس فما شأنه ههنا»[١].

ومن ذلك: حفظ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له من أن تبدو عورته أو يظهر عريانًا، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما بُنيتْ الكعـبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحـجارة، فـقـال عبـاس للنبي ﷺ: اجـعل إزارك على رقـبـتك يقك من الحجـارة، فخرَّ إلى الأرض وطمـحتْ عينه إلى السـماء ثم أفاق، فـقال: «**إزاري إزاري**»، فشد عليـه إزاره. وفي لفظ لهما من طريق زكـريا بن إسحاق: عن عمرو ابن دينار قال: «فحلَّه فـجعله على منكبيه فسقط مغشـيًا عليه، فما رؤى بعد ذلك عريانًا ﷺ»[٢].

وهكذا شبَّ رسـول الله ﷺ يكلـؤه الله، ويحـفظه من أقـذار الجـاهليـة ومعائبـها، لما يريد به من كرامته ورسـالته، حتى بلغ كما قـال ابن إسحاق: إن كان رجلاً أفـضل قومه مروءة، وأحسـنهم خُلُقًا، وأكرمهم مخـالطة، وأحسنهم جوارًا، وأعظـمهم حُلقًـا، وأصدقهم حـديثًا، وأعظمـهم أمانة، وأبعـدهم من الفحش والأخلاق التي تُدنِّس الرجـال، تنزهًا وتكرمًا، حتى ما اسمـه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه من الأمور الصالحة[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٦٠٢) الحج، ومسلم (٨/ ١٩٧، ١٩٨).
(٢) رواه البخاري (٣/ ٥١٣) الحج، ومسلم (٤/ ٣٣، ٣٤).
(٣) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (١/ ٢٠٧) ط/ مكتبة الكليات الأزهرية، بتصرف.



٣- الأحداث الجسام قبل بعثة النبي ﷺ

وسنقتصر إن شاء الله تعالى على أربعة أحداث:

١ ـ حرب الفجار.

٢ ـ حلف الفضول.

٣ ـ زواجه ﷺ من خديجة ﵂.

٤ ـ بناء قريش للكعبة.

١ ـ حرب الفجار

وكانت بين قيس عيلان ومعها ثقيف وغيرها، وقريش والأحابيش وهم حلفاء قريش، وكان رئيس بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه إخوته: أبو طالب وحمزة والعباس، وكان على كل بطن من بطون قريش رئيس، ثم تناجزوا الحرب، فكان يومًا من أشد أيام العرب هولاً، ولما استحل فيه من حرمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب، سُمِي يوم الفجار، وكادتْ الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها، ولكن أدركهم مَنْ دعا المتحاربين للصلح على أنْ يحصوا قتلى الفريقين فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد، فكان لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش، وتعهد بها حرب بن أمية ورهن لسدادها ولده أبا سفيان، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيرًا ما تُشبه حروب العرب تبدؤها؛ حتى ألف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم[(١)].

قال ابن هشام: وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم، وقال رسول الله ﷺ: «**كنتُ أنبل على أعمامي** ـ أي: أرد عنهم ـ **نبل عدوهم إذا رموهم بها**»[(٢)].

---

(١) باختصار وتصرف من «نور اليقين» (١٦، ١٧) ط/ دار القلم.

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢١٠) مع «الروض الأنف».

وقال السهيلي: وإنما لم يُقاتل رسول الله ﷺ مع أعمامه؛ لأنها كانت حرب فجار، وكانوا أيضًا كلهم كفارًا، ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يُقاتل إلا لتكون كلمة الله هي العليا[١].

وكان سنه ﷺ على الراجح عشر سنين، فقد ذكر موسى بن عقبة في «سيرته» أن بين الفجار وبنيان الكعبة خمس عشرة سنة، وأن بناء الكعبة كان قبل المبعث بخمس عشرة سنة، فعلى القول الصحيح: أنه ﷺ بُعِثَ لأربعين سنة يكون سنه يوم الفجار عشر سنين[٢].

٢ - حلف الفضول

قال فضل الله الجيلاني: اجتمع تسعة أبطن من قريش منهم بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم في دار ابن جُدْعان قبل عام الفيل بمدة لما حاول بنو عبد مناف إخراج السقاية واللواء من بني عبد الدار فتحالفت هذه الأبطن على ذلك، وبعثت إليهم أم حكيم بنة عبد المطلب بجفنة فيها طيب، فغمسوا فيها أيديهم ثم ضربوا بها الكعبة فسموا بذلك حلف المطيبين، فجرى الأمر على هذا حتى قدم مكة رجل من زبيد بتجارة له، فباعها من العاص بن وائل السهمي فمطله بها وغلبه عليها فاستغاث فاجتمعوا بدار عبد الله بن جُدعان: بنو هاشم وبنو المطلب وأسد ابن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة، فتعاهدوا ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها إلا قاموا معه، وكانوا على الظالم حتى يردوا عليه مظلمته، فهو الحلف الذي تحالفه المطيبون الذين لم يشهدهم رسول الله ﷺ أولاً، وشهد حلف الفضول وسمي بحلف الفضول؛ لأن من قام به كان في أسمائه الفضل، كالفضل بن الحارث، والفضل بن وداعة، والفضل بن فضالة[٣].

---

(١) «الروض الأنف» هامش (١/ ٢٠٩)، مع «سيرة ابن هشام».
(٢) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٨- ٦٠).
(٣) «فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد» هامش (٢/ ٢٨).

عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «**شهدتُ حلف المطيِّبين مع عمومتي - وأنا غلام - فما أحب أن لي حُمْرَ النَعم وأني أنكثه**»[(١)].

٣ - زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها

قال الغزالي: وخديجة مثل طيب للمرأة التي تُكمِّل حياة الرجل العظيم، إن أصحاب الرسالات يحملون قلوبًا شديدة الحساسية، ويلقون غُبنًا بالغًا من الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهادًا كبيرًا في سبيل الخير الذي يريدون فرضه وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه، وكانت خديجة سبَّاقة إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمد ﷺ أثر كريم[(٢)].

قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثتْ إليه فعرضتْ عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فقبله رسول الله ﷺ وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام[(٣)].

ولما رجع إلى مكة ورأتْ خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا وأخبرت بشمائله الكريمة، وجدت ضالتها المنشودة فتحدثتْ بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منيه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة فرضي بذلك، وكلَّم أعمامه فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذٍ أفضل نساء قومها

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٦٧)، وابن حبان (٢٠٦٢) «موارد»، والحاكم (٢/ ٢٢٠) التفسير، وقال: صحيح الإسناد ولمن يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأحمد (١/ ١٩٠-١٩٣) وهو في «الصحيحة» رقم (١٩٠٠).

(٢) «فقه السنة» للغزالي (٧٩، ٨٠) باختصار.

(٣) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (١/ ٢١٢).

نسبًا وثروة وعقلاً، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتتْ رضي الله عنها، وكل أولاده منها سوى إبراهيم، وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة، توفي عنها، وله منها ولد اسمه هالة، وهو ربيب المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

٤ـ بناء الكعبة وقضية التحكيم

الكعبة والمسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٦).

وعن أبي ذر قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض؟ قال: «**المسجد الحرام**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**»، قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون عامًا، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل، فإن الفضل فيه**»[1]. وأول مَنْ بنى هذا البيت العتيق إبراهيم الخليل وولده إسماعيل صلى الله على نبينا وعليهما وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧)، فأوشكتْ الكعبة على الانهيار، قيل: بحريق أصابها، وقيل: بسيل جارف، وكان ذلك قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنوات على الراجح، فلم تجد قريش بدا من إعادة بنائها.

وقد أشارتْ الأحاديث الصحيحة إلى ذلك روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «**ألم ترى أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم**»، فقلت: يا رسول الله ألا تَرُدّها على قواعد إبراهيم؟ قال: «**لولا حِدثان قومك بالكفر لفعلت**».

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٦٩) أحاديث الأنبياء. قال الحافظ: وهذا الحديث يُفسِّر المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ ويدل على أن المراد بالبيت بيت العبادة لا مطلق البيوت، وقد ورد ذلك صريحًا عن علي أخرجه إسحاق بن راهويه، وابن أبي حاتم وغيرهما بإسناد صحيح عنه قال: كانت البيوت قبله ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله (٦/ ٤٧٠) من «فتح الباري».

فقال عبد الله رضي الله عنه: «لئن كانت عائشة رضي الله عنها سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر، إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم»[١].

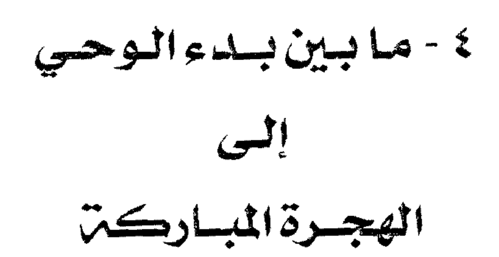
وقصرت بقريش النفقة الطيبة لأنهم شرطوا على أنفسهم أن لا يدخل في بنائها إلا نفقة طيبة، ولا يدخلها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة لأحد، فأخرجوا من الجهة الشمالية ستة أذرع وهي التي تُسمى بالحجر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض لئلا يدخلها إلا مَنْ أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعًا سقفوه على ستة أعمدة.

وقد شارك النبي ﷺ في بناء الكعبة كما مرَّ آنفًا من نقله الحجارة مع عمه العباس، وروى الإمام أحمد عن مجاهد، عن مولاه أنه حدثه أنه كان فيمن يبني الكعبة في الجاهلية قال: ولي حجر أنا نحتُّه بيدي أعبده من دون الله ـ تبارك وتعالى ـ، فأجئ باللبن الخاثر الذي أنفسه على نفسي فأصبه عليه فيجئ الكلب فيلحسه ثم يشغر فيبول، فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر، وما يرى الحجر أحد، فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل يكاد يتراءى منه وجه الرجل، فقال بطن من قريش نحن نضعه، وقال الآخرون: نحن نضعه، فقالوا: اجعلوا بينكم حكمًا، قالوا: أول رجل يطلع من الفج، فجاء النبي ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو ﷺ[٢].

☐☐ ★★ ☐☐

(١) رواه البخاري (٣/ ٥١٣) الحج.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٢٥) من حديث السائب بن عبد الله وحسنه الألباني وقال: ثم وجدتُ للحديث شاهدًا من حديث علي، رواه الطيالسي في «مسنده» (٢/ ٨٦) بترتيب الشيخ عبد الرحمن البنا ـ هامش (٨٥) من «فقه السيرة» للغزالي.



٤ - ما بين بدء الوحي
إلى
الهجرة المباركة

وتشتمل على:

١ - إشراق شمس النبوة

٢ - فترة الإسرار بالدعوة المباركة

٣ - فترة الجهر بالدعوة المباركة



١- إشراق شمس النبوة

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ. قال: «**ما أنا بقارئ**»، قال: «**فأخذني فغطني حتى بلغ مِنِّي الجهد، ثم أرسلني**»، فقال: اقرأ، قلت: «**ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني**، فقال: اقرأ. **فقلت: ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني**» فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ (العلق: ١-٣).

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «**زملوني، زملوني**»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خشيتُ على نفسي**»، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقتْ به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ـ ابن عم خديجة ـ وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى فقالت له خديجة: يا بن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي، ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «**أو مُخْرِجِي هُمْ؟**»، قال: نعم؛ لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصُرُكَ نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن تُوفي، وفتر الوحي[1].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٠، ٣١) بدء الوحي، وفي التفسير، وفي التعبير، ومسلم (٢/ ١٩٧-٢٠٤) الإيمان.

فهذه قصة بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه حتى يظهر شيئًا فشيئًا، فأول ذلك الرؤيا الصادقة وهي جزء من أجزاء النبوة بالنسبة للمؤمن، وحبب إليه ﷺ الخلاء وهو الابتعاد عن الخلائق وذلك من أجل التعبد والخلوة بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وكيف لا تتعلق نفس النبي ﷺ بالعبادة وتحبب إليها وهو النبي الخاتم الذي يعده الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، والوصول إلى المراتب العظيمة والارتفاع إلى المنازل العالية لا يكون بيسر وسهولة، ولكن بمعاناة ومشقة، وهذا ما يُشير إليه ضم جبريل عليه السلام لرسولنا ﷺ حتى بلغ منه الجهد، وإن كانت الدعوة تحتاج إلى جهد ومشقة ومكابدة، فتلقي الوحي كذلك كان غالبه بجهد ومشقة ومكابدة، كما أشار إليه قوله ﷺ ، وقد سُئل كيف يأتيك الوحي؟ فقال: **«أحيانًا يأتيني مثل صَلْصَلَةِ الجرس، وهو أشده عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي، وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»**.

قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصِمُ عنه؛ وإن جبينه ليتَفصَّدُ عرقًا[1].

وإن كان الدعاة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعانون مشاق الدعوة، فإن الرسل الكرام لعظيم أجرهم، وجليل قدرهم يجمعون بين معاناة الدعوة والتلقي عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهم كما قال النبي ﷺ : **«أشد الناس بلاءً الأنبياء»**[2].

وفي الحديث من الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ فضل اعتزال أهل السوء والمعاصي، وبركة الخلوة من أجل العبادة والتقرب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ودل عليها كذلك قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حاكيًا

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٥، ٢٦) بدء الوحي.

(٢) رواه الترمذي (٩/ ٢٤٣) الزهد، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني في «تحقيق المشكاة».

عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (مريم: ٤٨-٤٩).

٢ ـ فضل الرؤيا الصالحة التي يراها المؤمن أو ترى له، فقد كانت الرؤيا الصالحة بداية إشراق شمس النبوة، فما زال النور يتسع حتى أشرقت شمس النبوة.

٣ ـ فضل أمنا خديجة رضي الله عنها وكيف أنها مثال للزوجة الصالحة التي تُعين زوجها على العبادة والطاعة، وكيف تستقبل الزوجة زوجها إذا عاد مهمومًا، وكيف تسعى لتفريج همه وتنفيس كربه، فخففت عنه أولاً بأن من اتصف بالصفات الفاضلة لا يمكن أن يخزيه الله بل لابد أن يرفعه وأن يكرمه[1]، ثم لم تقتصر رضي الله عنها على ذلك حتى ذهبت به إلى ورقة بن نوفل فبشّره بالنبوة، وكيف لا تكون خديجة رضي الله عنها كذلك وقد اصطفاها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ زوجة لخاتم أنبيائه وإمام رسله في الدنيا والآخرة.

وقد ورد في فضلها رضي الله عنها: أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: **«هذه خديجة أقرئها السلام من ربها، وأمره أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نَصَبَ»**[2].

---

(١) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: استدلت بما فيه من الصفات الفاضلة، والأخلاق والشيم، على أن من كان كذلك لا يخزى أبدًا، فعلمتْ بكمال عقلها وفطرتها أن الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والشيم الشريفة تناسب أشكالها من كرامة الله وتأييده وإحسانه، ولا تناسب الخزى والخذلان، وإنما يناسبه أضدادها، فمن ركَّبه الله على أحسن الصفات وأحسن الأخلاق والأعمال، إنما يليق به كرامته وإتمام نعمته عليه، ومن ركَّبه على أقبح الصفات وأسوأ الأخلاق والأعمال، إنما يليق به ما يناسبها، وبهذا العقل، والصديقية استحقت أن يرسل إليها ربها السلام منه مع رسوليه جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم «زاد المعاد» (١٣/١٩) ط/ الرسالة.

(٢) رواه البخاري (١٦٦/٧) مناقب الأنصار، ومسلم (١٩٩/١٥) الفضائل. **والقصب** هو: قصب اللؤلؤ المجوف، **والصخب**: الصوت المختلط المرتفع.

٤ ـ **وفي الحديث كذلك:** فضل ورقة بن نوفل، وقد رآه النبي ﷺ بعد مماته في هيئة حسنة[1]، وقال ﷺ: «**لا تسبوا ورقة فإني رأيتُ له جنة أو جنتين**»[2].

٥ ـ **قال الحافظ:** وفي هذه القصة من الفوائد استحباب تأنيس مَنْ نزل به أمر بذكر تيسيره عليه وتهوينه لديه، وأن من نزل به أمر استحب له أن يطلع عليه من يثق بنصحه وصحة رأيه.

٦ ـ **وفي الحديث:** بيان سنة من سنن الأمم مع مَنْ يدعوهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهي التكذيب والإخراج كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل: ٥٦). وكما قال قوم شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ (الأعراف: ٨٨). وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (إبراهيم: ١٣).

٧ ـ قوله: «**وفتر الوحي**»، **قال صفي الرحمن المباركفوري:** أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد أنها كانت أيامًا، وهذا الذي يترجح بل يتعين بعد إدارة النظر في جميع الجوانب، وأما ما اشتهر من أنها دامت طيلة ثلاث سنين أو سنتين ونصف، فلا يصح بحال، وليس هذا موضع التفصيل في رده، وقد بقي رسول الله ﷺ في أيام الفترة كئيبًا محزونًا تعتريه الحيرة والدهشة[3].

---

(١) قال الألباني: جاء من طريقين حسنهما الحافظ ابن كثير في «البداية» أخرج **أحدهما**: أحمد من حديث عائشة، **والآخر**: أبو يعلى من حديث جابر، فلا أقل من كون الحديث حسنًا بمجموع الطريقين «فقه السيرة» هامش (١٠٢).

(٢) أخرجه البزار، والحاكم (٢/ ٤٠٩)، وابن عساكر من حديث عائشة، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي والألباني، وقال ابن كثير: وإسناده جيد. «فقه السيرة» هامش (١٠٢). وقال الحافظ ابن كثير: قوله: ثم لم ينشب ورقة أن تُوفي، أي: تُوفي بعد هذه القصة بقليل ـ رحمه الله ورضي عنه ـ؛ فإن مثل هذا الذي صدر عنه تصديق بما وجد، وإيمان بما حصل من الوحي، ونية صالحة للمستقبل «البداية والنهاية» (٣/ ٩) دار الفكر.

(٣) «الرحيق المختوم» (٧٩، ٨٠) ط/ مكتبة الصحابة بجدة.

قال الحافظ: وفتور الوحي عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود[(١)].

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «**بينا أنا أمشي، إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعتُ بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فَرُعِبتُ منه، فرجعت، فقلت: زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، إلى قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر:١-٥)، فحمي الوحي وتتابع**»[(٢)].

قال الأستاذ عبد الوهاب حمودة: ليس بعجيب أن يزداد شوق الرسول ﷺ إلى مناجاة ربه بعد أن تذوقها، واستضاءت روحه ببصيص الأنوار القدسية وتملى بها، فإن مَنْ ذاق عَرَفَ ومَنْ حرم انحرف. وإن لله من وراء تلك الفترة وذلك الاحتباس سر المربي القادر، والمؤدب الحكيم العليم بالنفوس وبواطنها، الخبير بالقلوب وتقلباتها، فإنه لما حصلت للرسول صلوات الله عليه روعة عند نزول الملك عليه أولاً، وأخذته من الرجفة ما أخذته وظنَّ نفسه هالكًا، فمن الحكمة الإلهية أن يترك بعد الدرس الأول حتى يهدأ روعه ويطمئن فؤاده، وينسى ذلك الرعب، ويتبدد عنه ذلك الخوف، فيتذكر لذة ذلك اللقاء، وتتذوق روحه نشوة

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٣٦).

(٢) رواه البخاري (١/ ٣٧) بدء الوحي، ذكر ابن إسحاق أن سورة الضحى نزلت بعد هذه الفترة من الوحي، وهو ضعيف. قال في «سبيل الهدى والرشاد»: ما ذكره ابن إسحاق من سبب نزول سورة الضحى رواه الطبراني من طريق العوفي وهو ضعيف عن ابن عباس، ومن طريق إسماعيل مولى آل الزبير ذكره سليمان التيمي في السيرة التي جمعها. **قال الحافظ:** وكل هذه الروايات لا تثبت بحال، ويخالفها ما رواه الشيخان في سبب نزولها عن جندب بن سفيان البجلي ﷺ أن رسول الله ﷺ اشتكى فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم يقربك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَى﴾ إلى آخر السورة، رواه البخاري ومسلم.
قال الحافظ ـ رحمه الله ـ: والحق أن الفترة التي في سبب نزول سورة الضحى غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي، فإنها دامت أيامًا، وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثًا، فاختلطا على بعض الرواة، وتحقيق الأمر ما بينته، «سبيل الهدى والرشاد» (١/ ٣٦٧).

تلك المقابلة، فيقوى قلبه، ويثبت فؤاده ويتهيأ لقبول الرسالة، ويستعد لتلقي القول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١).

ثم أراد الله أن يمنحه ما كان في شوق إليه، وأن يؤتيه ما كانت تتوق نفسه إليه من ذلك الأنس الرحماني والكشف الإلهي، والوحي الرباني، فكان لصدره فرجًا من ذلك الضيق، ولنفسه فرجًا من تلك الساعة الحرجة، فحمي الوحي وتتابع[1].

٢ - فترة الإسرار بالدعوة المباركة

ابتدأتْ هذه الفترة المباركة من نزول قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر: ١-٣)، وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: ٩٤)، وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٤-٢١٦).

وأكد العلماء على أن مدة هذه الفترة كانت ثلاث سنوات، فقد اجتهد النبي ﷺ في هذه الفترة في دعوة مَنْ يغلب على ظنه أنه سيدخل في هذا الدين، وسوف يكتم أمره، وهذا من باب السياسة الشرعية والنظر المصلحي للدعوة، فيجب الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر يضر بها، فدعا النبي ﷺ زوجته خديجة، وكانت أول من أسلم من النِّساء، ودعا صديقه الذي هو موضع ثقته وأمين سره ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أبو بكر الصديق ﵁، فلم يتردد، وكان أول داعية في الإسلام، وكان ببركة إسلامه ودعوته ثُلة مباركة دخلت في الدين، وكانت من السابقين الأولين، وكانت لها في الإسلام أعظم بذل وبلاء، فرضي الله عنهم أجمعين، منهم: عثمان بن عفان ﵁ ذو النورين، والزبير بن العوام وهو حواري رسول الله ﷺ، وابن عمته صفية بنت عبد المطلب،

---

(١) «ساعات حرجة في حياة الرسول» باختصار (ص١٧، ١٨).

وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص خال المصطفى ﷺ، وطلحة ابن عبيد الله، وكل هؤلاء الذين دخلوا الإسلام على يد أبي بكر من العشرة المبشرين رضي الله عنهم أجمعين.

وكان أول مَنْ أسلم من الغلمان: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان ابن ثماني سنين، وقيل: أكثر من ذلك، وكان من سابق سعادته أنه كان في كفالة رسول الله ﷺ؛ وكان أول من أسلم من الموالي: زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ، وكان غلامًا لخديجة فوهبته لرسول الله ﷺ لما تزوجها.

ثم دخل بعد هذه الثلة الفاضلة التي سبقت لها السعادة وسبقت إلى الإيمان والعبادة، ثلة أخرى كريمة فاضلة منهم أبو عبيدة ابن الجراح أمين هذه الأمة، وسعيد بن زيد من العشرة المبشرين، وخباب بن الأرت، وعبد الله بن مسعود، وأسماء، وعائشة، وقد أسلمت عائشة رضي الله عنها وهي طفلة صغيرة، أما أسماء فكانت متزوجة بالزبير بن العوام. وتوالى إسلام الأفاضل من قريش، فأسلم جعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان الرومي رضي الله عنهم، ولم تكن الدعوة في هذه الفترة علنيةً تُقَام في الأندية العامة والمجالس والمحافل، إنما تقوم على الاصطفاء الشخصي، وتقدير الداعية لطبيعة المدعو.

قال الأستاذ منير الغضبان: لم نسمع في هذه المرحلة عن أي صدام وقع بين هذا المجتمع الإسلامي الناشئ وبين المجتمع الجاهلي، فأفكاره غير معلنة إلا لمن يرجى انضمامه لهذا التجمع الإسلامي القائم، وليست الدعوة المعلنة هدفًا قائمًا فيها، بل لا يتدخل المسلمون بأي شأن من شئون غيرهم في نقد أو مواجهة أو مخالفة ظاهرة، والأصل أن لا تظهر المخالفة في شيء إلا في حالة اضطرارية قاهرة، فلابد من المحافظة على السرية التامة للتنظيم والفكرة[1]، اهـ.

---

(١) «المنهج الحركي للسيرة النبوية» (١/ ٣٠) المنار.

وقال المباركفوري: مرت ثلاث سنين والدعوة لم تزل سرية وفردية، وخلال هذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين، تقوم على الأخوة والتعاون وتبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها، ثم تنزل الوحي يُكلِّف رسول الله ﷺ بمعالنته قومه ومجابهة باطلهم، ومهاجمة أصنامهم[١]، اهـ.

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال محمد البوطي:** ومن هنا تدرك أن أسلوب دعوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إمامًا، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيًا.

وبناءً على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة ـ من حيث التكتم والجهر أو اللين والقوة ـ حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه، وهي مرونة حددتها الشريعة الإسلامية اعتمادًا على واقع سيرته ﷺ ضمن الأشكال أو المراحل الأربعة التي سبق ذكرها[٢]، على أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية.

---

(١) «الرحيق المختوم» لصفي الرحمن المباركفوري (٩٠).

(٢) **هذه المراحل الأربعة:**

المرحلة الأولى: الدعوة سرًا، واستمرت ثلاث سنوات.

المرحلة الثانية: الدعوة جهرًا وباللسان فقط، دون قتال، واستمرت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهرًا مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشر، واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: جهرًا مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول في الإسلام ـ بعد فترة الدعوة والإعلان من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيين، وكانت هذه المرحلة هي التي استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية وحكم الجهاد في الإسلام ـ «فقه السيرة» (٧٥)، وقسم بعضهم المرحلة الثانية إلى الدعوة داخل مكة جهارًا واستمرت إلى السنة العاشرة من الهجرة، والدعوة جهارًا خارج مكة وابتدأت من السنة العاشرة إلى الهجرة.

ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة، بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم إذا ما أجمعوا قتالهم، فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس؛ لأنَّ المصلحة المقابلة وهي مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع. ويقرر العز ابن عبد السلام حرمة الخوض في مثل هذا الجهاد قائلاً: فإذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام، لما في الثبوت من فوات النفس، مع شفاء صدور الكفار، وإرغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت هنا مفسدةً محضةً ليس في طيِّها مصلحة. **قلت**: وتقديم مصلحة النفس هنا، من حيث الظاهر فقط.

أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد فإنها في الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضي في مثل هذه الحال أن تبقى أرواح المسلمين سليمة، لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى، وإلا فإن هلاكهم يُعتبر إضرارًا بالدين نفسه، وفسحًا للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدودًا أمامهم من السبل.

والخلاصة: أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها، ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهر بها، وكان ذلك مفيدًا، ولا يجوز المسالمة مع الظالمين والمتربصين بها إذا توفرت أسباب القوة والدفاع عنها، ولا يجوز القعود عن جهاد الكافرين في عقر دورهم إذا ما توفرت وسائل ذلك وأسبابه[1]، اهـ.

٢ - أكثر الذين استجابوا لدعوة الرسول ﷺ من الضعفاء والموالي، وهم أقرب الناس إجابة لدعوة الرسل؛ لأنهم لا يصعب عليهم أن يكونوا تبعًا لغيرهم، أما الكبراء وأهل الجاه والسلطان فيمنعهم الكِبر وحب الجاه والرفعة عن

---

(١) «فقه السيرة» لمحمد سعيد رمضان البوطي (٧٦، ٧٧) الطبعة الثامنة. وكلام العز بن عبد السلام من «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (١/ ٩٥).

الانقياد غالبًا، كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ (الأعراف:١٣٧)، وقال قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (هود:٢٧)، وقال - عزَّ وجلَّ - في قصة صالح عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الأعراف:٧٥-٧٦).

٣ - **قال محمد الغزالي:** والإيمان قوة ساحرة إذا استمكنت من شعاب القلب وتغلغلت في أعماقه، تكاد تجعل المستحيل ممكنًا. ولقد رأينا شبابًا وشيوخًا يلتفون عند فكرة من الفكر، ويحلونها من أنفسهم محل العقائد الراسخة - ومع أنها فكرة مادية بحتة - إلا أنهم يجعلون من حياتهم وقود حركتها، ويتحملون أقبح الأذى في سبيل نصرتها. ويرون ذلك بعض الجهد الواجب لإنجاح مبادئهم ودفعها إلى الأمام، فكيف إذا كان الإيمان الذي ظهر في صدر الإسلام إيمانًا بالله رب السموات والأرض، وإيمانًا بالدار الآخرة حيث ينفلت الإنسان من هذه الدنيا لتستقبله في جوار الله الحدائق الغَنَّاء، والقصور الزاهرة من تحتها الأنهار الجارية والنعيم المقيم[1]، اهـ.

٤ - **قال الشيخ أبو بكر الجزائري:** لا دليل لمن يرى سرية الدعوة في بلاد المسلمين اليوم في سرية الرسول ﷺ لها ثلاث سنوات؛ لأنَّ الرسول وأصحابه كان لا يسمح لهم أن يقولوا لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ولا أن يُؤَذِّنوا أو يُصلوا، ولما قويت شوكتهم أمروا بالجهر بالدعوة فجهروا، ولاقوا من الأذى ما هو معروف بين المسلمين[2]، اهـ.

ولكن إذا توافرت الظروف المشابهة كان التأسي كذلك برسول الله ﷺ في

(١) «فقه السيرة» لمحمد الغزالي (١٠٠) باختصار.
(٢) «هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب» (٩٩) مكتبة لينة.

هذه الفترة هو السبيل عملاً بقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١)، والذين يقيسون الأمور ويضبطونها بالضوابط الشرعية هم العلماء لا الشباب الذين لم يُحصِّلوا من العلوم الشرعية القدر الواجب، ثم يجتهدون في أمور يتعلق بها مستقبل الدعوة بل ومستقبل الأمة، وأولى بهؤلاء الشباب أن يجلسوا عند أقدام العلماء للتعلم، وأن يلتزموا أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء:٧).

٣ ـ فترة الجهر بالدعوة المباركة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤)، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: **يا بني فهر، يا بني عدي** ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغيِّر عليكم، أكنتم مُصدِّقيَّ؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»، فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (المسد:١-٢)[١].

وعن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾، قال: «**يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنكَ من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنكِ من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي لا أغني عنكِ من الله شيئًا**»[٢].

(١، ٢) رواه البخاري (٨/ ٣٦٠) التفسير، ومسلم (٣/ ٨٣) الإيمان.

قال الحافظ: قوله: «**أرأيتكم لو أخبرتكم.. إلخ**»، أراد بذلك تقريرهم بأنهم يعلمون صدقه إذا أخبر عن الأمر الغائب.

وقوله: «**قال: فإني نذير لكم**»، أي: منذر، ووقع في حديث قبيصة بن محارب وزهير بن عمرو عند مسلم وأحمد: «فجعل يُنادي: **إنما أنا نذير، وإنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فجعل يهتف: يا صباحاه**» يعني: ينذر قومه.

وقوله في حديث أبي هريرة: «**اشتروا أنفسكم من الله**»، أي: باعتبار تخليصها من النار كأنه قال: أسلموا تسلموا من العذاب فكانت ذلك كالشراء، كأنهم جعلوا الطاعة ثمن النجاة، وأما قوله تعالى: ﴿اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ (التوبة: ١١١)، فهناك المؤمن بائع باعتبار تحصيل الثواب والثمن الجنة، **وفيه:** إشارة إلى أن النفوس كلها ملك لله تعالى، وأن مَنْ أطاعه حق طاعته في امتثال أوامره واجتناب نواهيه وَفى ما عليه من الثمن، وبالله التوفيق[١].

قال صفي الرحمن المباركفوري: ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: ٩٤)، فقام رسول الله ﷺ يعكر على خرافات الشرك وترهاته، ويذكر حقائق الأصنام وما لها من قيمة في الحقيقة ويضرب بعجزها الأمثال، ويبين بالبينات أن من عبدها وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو في ضلال مبين. انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار، حين سمعت صوتًا يجهر بتضليل المشركين وعباد الأصنام، كأنه صاعقة قصفت السحاب، فرعدت وبرقت وزلزلت الجو الهادئ، وقامت قريش تستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتةً، ويخشى أن تأتي على تقاليدها وموروثاتها[٢].

وكان عدد مَنْ آمن بالدعوة المباركة نيفًا وأربعين بين رجل وامرأة، وأسلم في

(١) باختصار من «الفتح» (٨/ ٣٦١، ٣٦٢) التفسير.
(٢) «الرحيق المختوم» (٩٣، ٩٤).

هذه الفتـرة المباركة أسد الله وأسـد رسول الله ﷺ حمزة بن عـبد المطلب عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، وكذلك الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال الجزائري ـ رحمه الله ـ: وبإسلام عمر وحمزة رضي الله عنهما دخلتْ الدعوة في طور جديد، فجاهر الرسول ﷺ وصدع بما يأمره به ربه، فأقضَّ هذا الموقف الجديد مضجع المشركين وأفزعـهم، وزادهم هولاً وفزعًا تزايد عدد المسلمين، وإعلانهم عن إسلامـهم وعدم مـبالاتهم بعداء المشـركين لهم، الأمر الذي جـعل رجلات قريش يساومون رسول الله ﷺ[1].

وكان من السمات البارزة لهذه المرحلة:

السمة الأولى: كثرة الإيذاء واشتداد البـلاء على النبي ﷺ وأصحـابه الكرام رضي الله عنهم.

السمة الثانية: مـواجهـة الدعوة بشـتى الأساليب لصـد الناس عنهـا، وتنفيرهم منها.

السمة الثالثة: كثرة العروض عـلى النبي ﷺ من أجل المساومة على الحق الذي يدعو إليه، وعدم قبول النبي ﷺ لشيء من التنازلات.

السمة الرابعة: اهتمام النبي ﷺ بتـربية العقيدة الصحيـحة، وصقل قلوب الصحابة بالقيام والصيام وتلاوة القرآن.

السمة الخامسة: تربية النبي ﷺ للصحابـة على الصبر على الإيذاء، وعدم الانتصار للنفس، والإعراض عن الجاهلين.

السمة السادسة: تبشـيـر الصحـابة رضي الله عنهم بالنصـر والتمكين وهم يعـانون أشد ألوان العذاب.

ولما كانت هذه المرحلة بعينها التي تعيشها الدعوة في هذه الأزمان في جُلِّ بلاد

(١) «هذا الحبيب رسول الله ﷺ يا محب» (٩٨) ط/ مكتبة لينة.

الأرض، نسأل الله أن يعيننا على إلقاء الضوء عليها وأخذ العبرة منها، لعل شباب الصحوة يتضح له الطريق إلى العزة والتمكين، ويتبع هدى سيد الأولين والآخرين، فقد قال إمام دار الهجرة ـ رحمه الله ـ: لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أمر أولها، وسنن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في عباده واحدة لا تتغير ولا تتبدل: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٦٢)، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر:٤٣)، فإن الجميع يتساءل: كيف السبيل إلى عز الإسلام والمسلمين؟

ومتى يصل المسلمون المخلصون إلى الأمل المنشود والوعد الموعود وهو سعادة الناس في ظل التحاكم إلى شريعة ربهم ـ عزَّ وجلَّ ـ، وتخلصهم من أحكام الكفر وشرائعه؟ واختلفت الأجوبة على هذا السؤال بلسان الحال أو المقال، **فمنهم**: مَنْ يزعم أنه لابد من الوصول إلى الجاه والسلطان ودخول البرلمان، **ومنهم**: مَنْ يزعم أن السبيل هو جمع المال والتحكم في الاقتصاد، **ومنهم**: مَنْ يزعم أن الوصول إلى هذا الهدف بمعركة خاطفة سريعة، وفي عشية أو ضحاها يتم التوصل إلى الهدف المنشود، **ومنهم**: مَنْ لا يهدف لذلك أصلاً، بل يظن أن الدعوة الإسلامية هي دعوة إصلاحية لإصلاح أخلاق الناس ومعاملاتهم، وغاية أمرهم أن يقيم الناس الصلاة ويؤدوا الزكاة ويصوموا رمضان ويحجوا البيت، وليس عندهم استعدادٌ أصلاً للتضحية حتى ترتفع راية لا إله إلا الله، وحتى ينزاح الشر والشرك، وتنعم البشرية مرة ثانية بحكم ربها ـ عزَّ وجلَّ ـ.

واختصارًا وقبل أن نُفصِّل سمات مرحلة جهر النبي ﷺ بالدعوة، وتسفيه أحلام المشركين وسب آلهتهم حتى يظهر النهج النبوي الواضح، ونقف على المحجة البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ نقول: إن طريق البرلمان ليس حلاً إسلاميًا صحيحًا، لأن ذلك لا يكون إلا بكثير من التنازلات والمهاترات السياسية، والمداهنة في أعظم قضية في هذا الدين وهي قضية التوحيد التي هي لُبُّ الدين الذي أُرْسِلَ به رسول الله ﷺ بل وسائر الأنبياء والمرسلين.

قال الله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (الزخرف:٤٥)، فليس طريق البرلمان طريقًا إلى عز الإسلام والمسلمين، فكيف السبيل إذن؟ هل هو جمع الأموال وتأسيس الشركات الإسلامية لجمع أسباب العزة؟ ولعل أصحاب هذا الفكر غَرَّهم سيطرة اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ على سياسة بعض الدول الكبرى نتيجة لتحكمهم في اقتصاديات تلك الدول، فظنوا أنَّ المسلمين سيصيرون أعزة بجمع المال والتحكم في الاقتصاد، وغفلوا عن قول النبي ﷺ: «**واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعِزُّهُ استغناؤه عن الناس**»[1].

وقوله ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تفتح الدنيا عليكم كما فتحت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**»[2].

وغفلوا كذلك عن قول عمر رضي الله عنه: «كنا أذل الناس، فأعزنا الله برسوله، فمهما طلبنا العزة بغيره أذلنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ». فهذه الأمة لا يمكن أن تكون عزيزة إلا باتباع دينها وتعظيم أمر ربها، فما السبيل إذن؟ هل هو سبيل الانقلابات العسكرية والعمليات الانتحارية، وفي سويعات معدودة يتم التمكين للإسلام والمسلمين، ومَنْ تدبر دعوة النبي ﷺ، بل وجميع الأنبياء قبله يعلم علمًا يقينًا أن هذا الطريق ليس طريق الأنبياء، وأن هذا السبيل مخالف للسنن الشرعية والكونية، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ (الرعد:١١)، فلابد من انتشار الدعوة، وإصلاح قلوب الناس وجوارحهم بالتوحيد وطاعة الشرع المجيد، هذا رسول الله ﷺ بقي في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو للتوحيد، ويربي أصحابه بقيام الليل وسائر العبادات، ويتحمل ويتحملون معه أشد ألوان التعذيب والاستهزاء، وسوف نسوق بإذن الله شيئًا من ذلك في موضعه حتى يتبين لإخواننا كيف تبدأ الدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؟ لما

---

(١) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (ص١٢٧)، وأعله بأن داود حدث عن الأوزاعي وغيره بالبواطيل، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» من رواية العقيلي. قال الألباني: لكن للحديث شواهد مرفوعة يرتقي الحديث بها إلى درجة الحسن ـ إن شاء الله تعالى ـ «الصحيحة» رقم (١٩٠٣).

(٢) رواه البخاري (١١/٢٤٨) الرقاق، والترمذي (٩/٢٨٦، ٢٨٧) صفة القيامة.

بايع الأنصار بيعة العقبة الثانية قالوا: لو شئنا لَمِلْنا على أهل الوادي، فقتلناهم دفعة واحدة، فقال ﷺ: «**إني لم أومر بذلك**»، ونزل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (النساء: ٧٧).

هل أصحاب هذا الفكر أغير على الدين من سيد الأولين والآخرين؟ كيف كان النبي ﷺ بمكة عندما جهر بالدعوة؟ وكيف كان حال الصحابة الكرام؟ كيف ربى النبي ﷺ أصحابه؟ كيف مهد النبي ﷺ لإقامة الدولة المسلمة بالمدينة؟ هذا ما ينبغي أن يتعلمه الشباب المسلم المخلص، حتى لا يضيع سعيهم ويضمحل أمرهم، دون مصلحة شرعية، وهذا ما نرجو أن يظهر جَلِيًا بإذن الله تعالى وتوفيقه في دراسة هذا الفصل من السيرة النبوية، ولنشرع في بيان السمات التي تميزت بها هذه المرحلة، والله المستعان.

السمة الأولى: كثرة الإيذاء واشتداد البلاء على النبي ﷺ. وأصحابه الكرام: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمدٍ إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أُغني شيئًا لو كانت لي منعة. قال: فجعلوا يضحكون ويُحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة فطرحت عن ظهره، فرفع رأسه ثم قال: «**اللهم عليك بقريش**»، ثلاث مرات، فشقَّ عليهم إذ دعا عليهم. قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ثم سَمَّى: «**اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط**»، وعدَّ السابع فلم نحفظه. قال: فوالذي نفسي بيده لقد رأيتُ الذين عدّ رسول الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر[1].

---

(١) رواه البخاري (١/٤١٦) الوضوء، ومسلم (١٢/١٥١، ١٥٢) الجهاد والسير. **والسلا**: هي الجلدة التي يكون فيها الولد، يقال لها ذلك من البهائم، وأما من الآدميات فالمشيمة.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم! فقال: واللات والعزى لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهؤلاء أجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**»(١).

وعن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص، أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ؟ قال: بينما النبي ﷺ يُصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ (غافر: ٢٨)(٢).

وإذا كانت هذه الاعتداءات على النبي ﷺ وله من الجلال والوقار في نفوس العامة والخاصّة، فكيف بالصحابة الكرام، لاسيما الضعفاء منهم، وسوف نسوق شيئًا من ذلك ليكون فيه سلوى وعزاء للدعاة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الأزمنة الغابرة تثبت أقدامهم على الطريق، وتعطيهم القدوة والمثل.

عن خباب بن الأرت أنه قال: أتيتُ النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة ـ وقد لقينا من المشركين شدة ـ فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فَقَعَدَ وهو مُحمرٌ وجهه، فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الركب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله**»(٣).

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ١٣٩) صفة القيامة والجنة والنار. وللحديث بقية: قال: فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا ندري في حديث أبي هريرة، أو شيء بلغه: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾ وقال النووي: ولهذا الحديث أمثلة كثيرة في عصمته ﷺ من أبي جهل وغيره ممن أراد به ضررًا، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذه الآية نزلت بعد الهجرة، والله أعلم.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢٠٣) مناقب الأنصار.

(٣) رواه البخاري (٧/ ٢٠٢) مناقب الأنصار، وأحمد (٥/ ١٠٩).

وعن عبد الله بن مسعود قال: كان أول مَنْ أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحدٌ أحدٌ[1].

وعن قيس بن أبي حازم ـ رحمه الله ـ قال: «سمعت سعيد بن زيد بن عمرو في مسجد الكوفة يقول: والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلم عمر»[2].

وعن ابن عباس في قصة إسلام أبي ذر، فقال له النبي ﷺ: «**ارجع إلى قومك، فأخبرهم حتى يأتيك أمري**»، قال: «**والذي نفسي بيده لأصرخنّ بها بين ظهرانيهم**»، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم قام القوم فضربوه حتى أوجعوه، وأتى العباس فأكب عليه قال: ويلكم، ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجاركم إلى الشام؟ فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه، فأكب العباس عليه[3].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ هذا الباب تقرير وتأكيد لقول الله تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾ (العنكبوت:٢)، ولقوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ**

(١) رواه ابن ماجه رقم (١٥٠) المقدمة، وحسنه الألباني.
(٢) رواه البخاري (٧/ ٢١٤) مناقب الأنصار. وقوله: «لموثقي» أي: أن عمر ﷺ ربطه بسبب إسلامه إهانة له، وإلزامًا بالرجوع عن الإسلام.
(٣) رواه البخاري (٧/ ٢١١) مناقب الأنصار.

نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤)، ولقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ (آل عمران: ١٨٦)، ومن فوائد هذا الابتلاء تمحيص المؤمنين ومحق الكافرين: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٢)، وحتى يتخذ الله أولياء وشهداء، نسأل الله تعالى شهادة في سبيله مقبلين غير مدبرين.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والمقصود: أنَّ الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لابد أنْ يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيِّبها من خبيثها، ومَنْ يصلح لموالاته وكرامته ومَنْ لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له، ويخلصها بكير الامتحان كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو عن غشه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها من الجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلي السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار وإلا ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد ونقي أُذن له في دخول الجنة[1].

٢ ـ **قال الجزائري ـ رحمه الله ـ في النتائج والعبر:** بيان صدق وعد الله تعالى لرسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر: ٩٥).

فقد كفاه إياهم بأن أهلكهم كلهم والرسول ﷺ يشاهد هلاكهم في فترة وجيزة وزمن قليل[2].

٣ ـ **قال الدكتور/ محمد البوطي:** كان من الممكن أن لا يأمر الله رسوله بإنذار عشيرته وذوي قرباه خاصة اكتفاءً بعموم أمره الآخر وهو قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ (الحجر: ٩٤)، إذ يدخل أفراد عشيرته وذوو قرباه في عموم الذين سيصدع أمامهم بالدعوة والإنذار، فما الحكمة في خصوصية الأمر بإنذار العشيرة؟

---

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم (١٨/٣) ط/ الرسالة بتحقيق شعيب، وعبد القادر الأرناؤوط.
(٢) «هذا الحبيب» (١١٩).

فأدنى درجة في المسئولية هي مسئولية الشخص عن نفسه، ومن أجل إعطاء هذه الدرجة حقها استمرت فترة ابتداء الوحي تلك المدة الطويلة التي رأيناها، أي: ريثما يطمئن محمد ﷺ إلى أنه نبي مرسل، وأن ما ينزل عليه إنما هو وحي من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيؤمن هو بنفسه أولاً، ويوطن ذاته لقبول كل ما سيتلقاه من مبادئ ونظم وأحكام.

أما الدرجة التي تليها: فهي مسئولية المسلم عن أهله ومن يلوذون به من ذوي قرباه، وتوجيهًا إلى القيام بحق هذه المسئولية خصص الله الأهل والأقارب بضرورة الإنذار والتبليغ بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به.

وأما الدرجة الثالثة: فهي مسئولية العالم عن حيه أو بلدته، ومسئولية الحاكم عن دولته وقومه، وكل منهما ينوبان في ذلك مناب رسول الله ﷺ[١].

وقال الأستاذ منير الغضبان: فالشيء الطبيعي أن تكون الدعوة في المرحلة الأولى في صفوف الأقربين، وخاصة عندما تأخذ طابع المواجهة المعلنة؛ لأنَّ هذه المواجهة تعرض الداعية للخطر، فلابد له من حماية، وعشرة الداعية هم أكثر الناس استعدادًا للحماية، فلقد كان أول الخلق إسلامًا بعد رسول الله ﷺ زوجه خديجة بنت خويلد ﵂، ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان مقيمًا عنده[٢].

٤ ـ **يقول الشيخ محمد الغزالي:** إن محمدًا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يجمع أصحابه على مغنم عاجل أو آجل، إنه أزاح، إنه أزاح الغشاوة عن الأعين فأبصرت الحق الذي حجبت عنه دهرًا، ومسح الران عن القلوب فعرفت اليقين الذي فطرت عليه وحرمتها الجاهلية منه، إنه وصل البشر بربهم، فربطهم بنسبهم العريق وسببهم الوثيق، وكانوا قبلاً حيارى محسورين، إنه وازن بين الخلود والفناء،

---

(١) «فقه السيرة» (٨١) باختصار.

(٢) «المنهج الحركي للسيرة النبوية» (١/ ٤١) باختصار.

فآثروا الدار الآخرة على الدار الزائلة، وخيرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم، فازدروا الأوثان المنحوتة، وتوجهوا للذي فطر السموات والأرض.

حسب محمد ﷺ أنه قدم هذا الخير الجزيل، وحسب أصحابه أن ساقته العناية لهم، فإذا أوذوا فليحتسبوا، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان فليلزموا ما عرفوا، والحرب القائمة بين الكفر والإيمان سينجلي غبارها يومًا ما، ثم تنكشف عن شهداء وهلكى، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين بإذن الله. ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] (هود:١٢١-١٢٣).

٥ - **قال الدكتور مصطفى السباعي:** إنَّ ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن ينزل بهم الأشرار والضّالون أنواع العذاب والاضطهاد دليلٌ على صدق إيمانهم، وإخلاصهم في معتقداتهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل، وما يأملونه من رضى الله جلَّ شأنه، أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد.

إن السيطرة في المؤمنين الصّادقين والدعاة المخلصين تكون دائمًا وأبدًا لأرواحهم لا لأجسامهم، وهم يُسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم من حيث لا يبالون بما تتطلبه جسومهم من راحة وشبع ولذة، وبهذا تنتصر الدعوات، وبهذا تتحرر الجماهير من الظلمات والجهالات[2].

السمة الثانية: مواجهة الدعوة بشتى الأساليب لصد الناس عنها، وتنفيرهم منها:

قال صفي الرحمن المباركفوري ما ملخصه: ولما رأت قريش أن محمدًا ﷺ لا يصرفه عن دعوته هذا ولا ذاك، فكَّروا مرة أخرى، واختاروا لقمع هذه الدعوة أساليب تتلخص فيما يأتي:

---

(١) «فقه السيرة» (١١٢، ١١٣).

(٢) «السيرة النبوية دروس وعبر» (٤٩، ٥٠) المكتب الإسلامي.

١ ـ السخرية والتحقير والاستهزاء والتكذيب والتضحيك، قصدوا بها تخذيل المسلمين وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي ﷺ بتهم هازلة، وشتائم سفيهة فكانوا ينادونه بالمجنون: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر: ٦)، ويصمونه بالسحر والكذب: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (ص: ٤)، وكانوا كما قصَّ الله علينا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ (المطففين: ٢٩-٣٣).

٢ ـ تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات، وبث الدعايات الكاذبة، ونشر الإيرادات الواهية حول هذه التعاليم، وحول ذاته وشخصيته، والإكثار من كل ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال في تدبر دعوته، فكانوا يقولون عن القرآن: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان: ٥)، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ (الفرقان: ٤)، وكانوا يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٣)، وكانوا يقولون عن الرسول ﷺ: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٧)، وفي القرآن نماذج كثيرة للردود على إيراداتهم بعد نقلها أو من غير نقلها.

٣ ـ معارضة القرآن بأساطير الأولين وتشغيل الناس بها عنه، فقد ذكروا أنَّ النضر بن الحارث قال مرة لقريش: يا معشر قريش! والله لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: كاهن!! لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون!! لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم. ثم ذهب النضر إلى الحيرة وتعلم بها أحاديث

ملوك فارس، وأحاديث رستم وأسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا للتذكير بالله، والتحذير من نقمته، خلفه النضر ويقول: والله ما محمد بأحسن حديثًا مني، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم و أسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟[1].

٤ ـ مساومات حاولوا بها أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (القلم:٩). وروى ابن إسحاق بسنده قال: اعترض رسول الله ﷺ ـ وهو يطوف بالكعبة ـ الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمي ـ وكانوا ذوي أسنان في قومهم ـ فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2] (الكافرون:١-٦)، وحسم الله مفاوضتهم المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة.

٥ ـ **ومن هذه الأساليب:** التعذيب والإيذاء، وقد تقدم شيئًا من ذلك في الفصل السابق، **ومنها:** المقاطعة، والحصار الاقتصادي، وسوف يأتي بيانه إن شاء الله تعالى، **ومنها:** كثرة العروض على النبي ﷺ للتنازل عن قضية التوحيد، وسيأتي ذكرها كذلك إن شاء الله.

٦ ـ **ومن هذه الأساليب:** كثرة مساومتهم لعمه أبي طالب من أجل أن يتخلى عن حمايته والدفاع عنه، فامتنع من ذلك، ودعا أقاربه إلى نصرته، فأجابه بنو هاشم، وبنو المطلب غير أبي لهب، وقال في ذلك الأبيات المشهورة:

---

(١) من «سيرة ابن هشام» ومعها «الروض الأنف» (٢/ ١٠٧، ١٠٨).

(٢) «الرحيق المختوم» باختصار (٩٧-٩٩).

والله لَنْ يَصلُوا إليكَ بجَمْعهم	حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّراب دَفينا
فَاصدع بأمْرك مَا عَلَيْكَ غَضاضةٌ	وَأبْشِر وَقَرّ بذاك منك عُيُونَا
وَدَعَوْتَنِي وَعَرفْتُ أَنَّكَ نَاصِحي	وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنتَ ثُم أمينا
وَعَرَضْتَ دينا قَدْ عَرفت بأنَّهُ	من خَير أديان البرية دينًا
لَولا المَلامَةَ أوْ حَذار مَسَبَّةٍ	لَوَجَدتني سَمحًا بِذاك مُبينًا[1]

٧ ـ **ومن هذه الأساليب: تحديهم للنبي ﷺ بسؤال الآيات.**

قال الشيخ محمد الخضري: ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التي يعرضونها لا تقبل منهم، أرادوا أن يدخلوا من باب آخر، وهو تعجيز الرسول ﷺ بطلب الآيات، فاجتمعوا وقالوا: يا محمد إن كنت صادقًا فأرنا آية نطلبها منك، وهي أن تشق لنا القمر مزقتين، فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين، فقال رسول الله ﷺ : «**اشهدوا**»[2].

وهذه القصة رواها عبد الله بن مسعود وهو من السابقين الأولين رُويت عنه من طرق كثيرة، ورواها عبد الله بن عباس وغيره، ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر، وقد ذكرها القرآن في قوله تعالى أول سورة القمر: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ (القمر: ١)، فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى، قال بعضهم: لقد سحركم ابن أبي كبشة، فأنزل الله فيهم: ﴿**وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ**﴾ (القمر: ٢).

ثم سألوا رسول الله ﷺ بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد، فمنها أن قالوا ـ كما في سورة الإسراء: ﴿**وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن**

(١) نقلاً عن مختصر «سيرة الرسول ﷺ» للإمام عبد الله محمد بن عبد الوهاب (٦٩) مكتبة الرياض الحديثة.

(٢) «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» (٦٩-٧١) بتصرف، ط/ الأزهر.

زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ (الإسراء: ٩٠-٩٣)، ولم يجبهم الله ـ عز وجلَّ ـ إلا بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء:٩٣)، لأنَّ الله تعالى علم ما تكنه جوانحهم من التعصب والعناد، فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات، كما قال جلَّ ذكره في سورة الأنعام: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:١٠٩)، وكيف يرجى الخير ممن قالوا ـ كما في سورة الأنفال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال:٣٢)، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ لاشك أن الصراع بين الحق والباطل قصته واحدة وإن اختلفت صور هذا الصراع، ومن أساليب أهل الباطل: التشويه للدعوة الصحيحة وللدعاة إليها، وإن كان هذا التشويه في الماضي هو رمي أصحابها بالجنون وبالسحر وغير ذلك، فإن أهل الباطل الآن يرمون أهل الحق بالتطرف والتعصب، وهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، ويحاولون أن يقنعوا أنفسهم وغيرهم أنهم لا يحاربون الإسلام، ولكن يحاربون التطرف في فهمه، ويحسبون بذلك أنهم يحسنون صنعًا؛ ولأنهم تركوا أكثر شرائع الإسلام، واقتصروا على النذر اليسير منه، كان مَنْ يلتزم بجملة شرائع الإسلام في نظرهم من المتطرفين الشاذين، وفي الواقع هم المتطرفون الشاذون؛ لأنهم أخذوا طرفًا منه وأعرضوا عن بقيته، وشذوا عن جماعة المسلمين التي تُحافظ على الإسلام كله، وتدعو للإسلام كله: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ (البروج: ٢٠).

٢ ـ ومن الوسائل الحديثة كذلك في مواجهة الصحوة الإسلامية: إغراق الناس في الشهوات، وذلك بالإعلام الماجن الذي يُشِيع الفواحش وينشر الرزيلة، على أمل من القائمين على الحكم أن ينجرف أكثر الشباب في تيار من الإباحية

(١) «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» (٦٩-٧١) بتصرف، ط/ الأزهر.

والفجور، فلا ينفعهم نُصح الناصحين، ووعظ الواعظين، وكما قال بعض أئمة الكفر: كأس وغانية يفعلان في أمة الشرق أكثر مما يفعله ألف مدفع. ولما سألوا الشيوعي كارل ماركس: ما هو البديل عن عقيدة الألوهية؟ قال: البديل هو المسرح، أشغلوهم عن عقيدة الألوهية بالمسرح، وما أدراك ما المسرح في دعوته السافرة إلى محاربة الأخلاق والأديان.

٣ ـ ومن هذه الوسائل: كثرة الاعتقادات والتهديد بالسجن والتعذيب لمن يحمل راية الدعوة الإسلامية، وكم من شباب اشتد عوده في السجن فخرج منه وهو أصلب عودًا، وأقدر على البذل والجهاد في سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهلاك الشباب ليس في السجون، وإنما الهلاك في الدنيا وشهواتها والحرص عليها، قال النبي ﷺ : **«ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تفتح الدنيا عليكم، كما فتحت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»**[(١)] .

٤ ـ **قال الدكتور مصطفى السباعي:** إن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر، فهم كلما أخفقت لهم وسيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق، ابتكروا وسائل أخرى، وهكذا حتى ينتصر الحق انتصاره النهائي، ويلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة[(٢)] .

٥ ـ **قال الشيخ محمد الغزالي:** إن الطحالب العائمة لا تُقف السفن الماخرة، ولئن نقم الجاهليون على المسلمين مروقهم من بين قومهم ـ حتى ليسمونهم الصباة فإن المسلمين لأشد نقمة عليهم، أن سفهوا أنفسهم، وحقروا عقولهم، وتشبثوا بخرافات ما أنزل الله بها من سلطان.

إن الدعوة التي بدأ بها محمد ﷺ من بطن مكة لم تكن لبناء وطن صغير، بل كانت إنشاءً جديدًا لأجيال، وأمم تتوارث الحق وتندفع به في رحاب الأرض،

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٦).

(٢) «السيرة النبوية دروس وعبر» (٥١) المكتب الإسلامي.

إلى أن تنتهي من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء، فماذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة لرسالة هذا شأنها في حاضرها ومستقبلها؟ ومن أولئك الخصوم؟

■ متعصبون تحجرت عقولهم تزين لهم سطوتهم البطش بمن يخالفهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ (الحج: ٧٢).

■ أم مترفون سرتهم ثروتهم يحبون الباطل؛ لأنه على أرائك وثيرة، ويكرهون الحق لأنه عاطل على الحلي والمتاع: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (مريم: ٧٣).

■ أم متعنتون يحسبون هداية الرحمن عبث صبية، أو أزياء غانية، فهم يقولون دع هذا وهات هذا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ (يونس: ١٥).

■ أو مهرجون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر، عندما تقرأ الآيات حتى لا تسمع فتفهم، فتترك أثرًا في عقل نقي وقلب طيب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1] (فصلت: ٢٦).

السمة الثالثة: كثرة العروض على النبي ﷺ من أجل المساومة على الحق الذي يدعو إليه وعدم استجابة النبي ﷺ لشيء من التنازلات:

لما أكثر المشركون من التعذيل والاستهزاء والسخرية بالمسلمين رجاء أن يصدهم ذلك عن دينهم، وكان المسلمون لا يزدادون بذلك إلا إيمانًا ويقينًا، ولم يفلحوا في ذلك، لجأوا إلى أسلوب آخر - بلُغة العصر أكثر دبلوماسية - فأرادوا أن يعرضوا على النبي ﷺ عروضًا لعله يرجع عما هو عليه، أو يتنازل عن بعض الحق الذي يدعو إليه، **فمن هذه العروض:** أنهم أرسلوا عتبة بن ربيعة ليعرض على الرسول ﷺ ما قد رآه حلاً للمشكلة، فقال: يا بن أخي إنك منا حيث

(١) «فقه السيرة» (١٠٧، ١٠٨) باختصار.

قد علمتَ من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقتَ به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفًا، سودناك علينا فلا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ.

فلما فرغ من قوله تلا رسول الله ﷺ صدر سورة فصلت: ﴿حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (فُصلت: ١-٧)، حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[١] (فصلت: ١٣).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال الجزائري:** إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي: إثبات حيرة المشركين إزاء الدعوة المحمدية وإلى اليوم، بيان استعمال المشركين أسلوب المساومات لإحباط الدعوة وإطفاء نورها، ثبات النبي ﷺ ووقوفه كأنه جبلٌ أشم أمام المساومات والتحديات[٢].

٢ ـ ولاشك أن هذا العرض المغري لو عرض على أصحاب الحل البرلماني لقالوا ذلك ما كنا نبغي؛ يكون لنا الحكم والسلطان ثم نُطبِّق شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولكن النبي ﷺ يعلم أن مقابل ذلك ثمن باهظ، وهو المداهنة في قضية التوحيد أخطر

---

(١) **قال الألباني:** هذه القصة أخرجها ابن إسحاق في «المغازي» (١/ ١٨٥) من «سيرة ابن هشام» بسند حسن: عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً، ووصله عبد بن حميد، وأبو يعلى، والبغوي من طريق أخرى من حديث جابر ﷺ كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٩٠، ٩١) وسنده حسن ـ إن شاء الله ـ.
(٢) باختصار من «هذا الحبيب يا محب» (١٠٩، ١١٠).

قضية في الدين وهي لا تقبل المداهنة، فطريق الرسل هو البداية بإصلاح القلوب والجوارح، ثم بعد ذلك يفتح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليهم أسباب العزة والنصر والتمكين.

٣ ـ عدم قبول هذه العروض والدخول في مساومات الكفار داخل، ولا شك في أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر:٩٤)، فالإعراض عن المشركين يشمل الإعراض عن عروضهم ومساوماتهم، ونُلاحظ أن النبي ﷺ لم يناقش اقتراحاته فهي أسقط وأذل من أن يناقشها رسول الله ﷺ، ولكنه وجدها فرصة لأن يدعوه إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويقرأ عليه القرآن والقلوب المستعدة للإيمان المهيأة له تنقاد وتلين به، أما القلوب القاسية فإنها لا تتأثر ولا تزداد إلا غيًا وضلالاً.

السمة الرابعة: اهتمام النبي ﷺ بتربية الإيمان في قلوب الصحابة، وذلك بالاعتقاد الصحيح، والتربية بالعبادات:

لاشك ونحن نتلمس خطوات النبي ﷺ في إقامة دولة الإسلام، يظهر جليًا كيف كان القرآن ينزل في هذه الفترة بتربية الإيمان في قلوب الصحابة الكرام وذلك بتقرير عقيدة التوحيد، والإيمان باليوم الآخر.

عن عائشة ﵂ قالت: أول ما نزل من القرآن سورة فيها ذكر الجنة والنار ـ تعني ﵂ سورة المدثر، وهي ثاني سورة وفيها يقول جلَّ وعلاَّ ـ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (المدثر:٨-١٠)، وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ (المدثر:٣١)، وقوله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (المدثر:٣٨-٤١)، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل من أول الأمر لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، ولو نزل لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، أنزل على النبي ﷺ وأنا جارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ (القمر:٤٦). وما نزلت البقرة والنساء إلا وأنا

عنده بالمدينة. وكانت هذه الفترة المباركة كذلك فرصة لتربية الصحابة بالقيام وسائر العبادات، وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما: عشنا برهة من الدهر وكان أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن. فهذا يدل على أنَّ منهج الصحابة رضي الله عنهم تقديم الإيمان على العلم، وكذلك العلم قبل القول والعمل. عن عائشة رضي الله عنها قالت: فرض الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على نبيه صلى الله عليه وسلم قيام الليل، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وقام الصحابة معه حولاً كاملاً، واحتجز الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خاتمة السورة اثنا عشر شهرًا، ثم نزل بعد ذلك التخفيف[1].

وإنما قصدتْ رضي الله عنها فرض قيام الليل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ② نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ④ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ⑤ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (المزمل:١-٦)، وقصدتْ رضي الله عنها بالتخفيف الآية الأخيرة من السورة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ (المزمل: ٢٠).

وقال صفي الرحمن المباركفوري: ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يُغذي أرواحهم برغائب الإيمان، ويُزكي نفوسهم بتعلم الحكمة والقرآن، ويربيهم تربية دقيقة عميقة، ويحدو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح، ونقاء القلب، ونظافة الخلق، والتحرر من سلطان الماديات، والمقاومة للشهوات، والنزوع إلى رب الأرض والسموات، ويزكي جمرة قلوبهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويأخذهم بالصبر على الأذى، والصفح الجميل، وقهر النفس، فازدادوا رسوخًا في الدين، وعزوفًا عن الشهوات، وتفانيًا في سبيل المرضاة، وحنينًا إلى الجنة، وحرصًا على العلم، وفقهًا في الدين، ومحاسبة للنفس، وقهرًا للنزعات، وغلبة على العواطف، وتسيطرًا على الثائرات والهائجات، وتقيدًا بالصبر والهدوء والوقار[2].

---

(١) جزء من حديث: رواه مسلم (٦/ ٢٦) صلاة المسافرين، وأحمد (٦/ ٥٤)، وأبوداود (١٣٢٨) قيام الليل، والنسائي (٤/ ١٩٩) قيام الليل.

(٢) «الرحيق المختوم» (١٤٧).

السمة الخامسة: تربية النبي ﷺ للصحابة على الصبر على الإيذاء والإعراض عن الجاهلين:

ويظهر هذا جليًا في قصة خباب عندما شكى إلى النبي ﷺ، قال خباب: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردةً في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟! ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتمنَّ الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[(١)].

ولاشك أن في كلام رسول الله ﷺ أبلغ تسلية وتربية على الصبر وهو لاشك ﷺ يستنصر لهم ويدعو لهم إلا أنه أراد ﷺ أن يعلموا أن ذلك سنة ماضية، وأن أهل الإيمان لابد أن يتعرضوا للبلاء، ثم بشرهم كذلك بالنصر والتمكين، وتبديل مخاوفهم أمنًا، كما قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾ (النور: ٥٥).

قال ابن كثير - في تفسير قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ**﴾ (الجاثية: ١٤) -: «أي: يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم، وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد»[(٢)].

وقال سيد قطب: ربما كان ذلك؛ لأن الفترة المكية كانت فترة تربية، وإعداد في بيئة معينة لقوم معينين وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٨).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٤٩) ط/ دار المعرفة، بيروت، للحافظ ابن كثير.

من الضيم يقع على شخصه أو على مَنْ يلوذون به. وربما كان ذلك أيضًا لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ويؤذونهم، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطاب من بينهم، وربما كان أيضًا لقلة عدد المسلمين حينذاك وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة[١].

أما الإعراض عن المشركين في قوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (الحجر: ٩٤).

قال الأستاذ/ منير الغضبان: إنَّ الإعراض عن المشركين يعني فكرتين في وقت واحد:

الفكرة الأولى: المسيرة بالدعوة من الداعية، وإيضاح معالمها غير عابئ بغضب خصومها أو مشاعرهم أو آرائهم.

الفكرة الثانية: عدم مواجهة أذاهم المادي والمعنوي، ومحاولاتهم تجريحه والنيل منه والهزء به، ممثلاً في قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ**﴾ (القصص: ٥٥)، ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا**﴾[٢] (الفرقان: ٦٣)، لذا ننصح أنفسنا وإخواننا بالقيام بالدعوة إلى الله - عزَّ وجلَّ - والجهر بها غير خائفين ولا هيابين، وفي نفس الوقت نُوطِّن أنفسنا على الصبر على الإيذاء والبلاء، نسأل الله لنا ولإخواننا ولسائر المسلمين العفو والعافية في الدنيا والآخرة، وليس معنى ذلك أنْ يتمنى العبد البلاء، فقد قال النبي ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا**»[٣].

---

(١) «في ظلال القرآن» لسيد قطب - رحمه الله - (٣/ ١٤٣٨).

(٢) «المنهج الحركي للسيرة النبوية» (١/ ٤٤).

(٣) رواه البخاري (٦/ ١٨١) الجهاد، ومسلم (١٢/ ٤٥) الجهاد، **وقال النووي:** إنما نهى عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب، والاتكال على النفس، والوثوق بالقوة وهو نوع بغي، وقد ضمن الله تعالى لمن بغي عليه أن ينصره، ولأنه يتضمن قلة الاهتمام واحتقاره، وهذا يُخالف الاحتياط والحزم، وتأوله بعضهم على النهي عن التمني في صورة خاصة وهي إذا شك في المصلحة فيه وحصول =

ولا يستجلب كذلك البلاء لنفسه بأعمال لا يعود منها عز للإسلام وأهله، وإنما هو جلب للبلاء بلا أدنى مصلحة، قال النبي ﷺ: «**لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه**»، قالوا: كيف يذل نفسه؟ قال: «**يعرض نفسه من البلاء لما لا يطيق**»[١]. فلابد من ضبط الأمور بالضوابط الشرعية، وتقدير المصالح والمفاسد، والتفريق بين المصلحة المتيقنة والمتوهمة، حتى لا تضيع الجهود وتتحمل الأضرار والمفاسد طلبًا لمصلحة متوهمة بعيدة المنال. ولعل شوق المسلمين إلى التحاكم إلى شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وحبهم لدين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولانتصاره يجعلهم يتعجلون الخطى، ويتوهمون أن الإسلام صار قاب قوسين أو أدنى، ثم معرفة مراحل الدعوة، والعبودية المطلوبة في كل مرحلة واجب على كل مسلم مخلص يرجو عز الإسلام والمسلمين.

السمة السادسة: تبشير الصحابة ﷺ بالنصر والتمكين وهم يعانون أشد ألوان الأذى:

قال الشيخ محمد الغزالي: كان رسول الله ﷺ يبث عناصر الثقة في قلوب رجاله، ويفيض عليهم مما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام وانتشار مبادئه، وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في المشارق والمغارب، وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضحكهم؛ كان الأسود بن عبد المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتغامزون بهم ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون غدًا على ملك كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون[٢].

= ضرر، وإلا فالقتال كله فضيلة وطاعة والصحيح الأول، ولهذا تممه ﷺ بقوله ﷺ: «**واسألوا الله العافية**»، وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطن في الدين والدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العافية العامة لي ولأحبائي ولجميع المسلمين «شرح النووي على صحيح مسلم» هامش (١٢/ ٤٦).

(١) رواه الترمذي (٩/ ١١٢) الفتن، وابن ماجه (٤٠١٦). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني.

(٢) «فقه السيرة» (١١٣).

وقال صفي الرحمن المباركفوري: كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد، بل ومن قبله، أن الدخول في الإسلام ليس معناه جر المصائب والحتوف، بل إن الدعوة الإسلامية تهدف منذ أول يومها إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها الغاشم، وأن من أهدافها الأساسية بسط النفوذ على الأرض، والسيطرة على الموقف السياسي في العالم، لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله، وتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله.

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات مرة بالتصريح وأخرى بالكناية ـ ففي تلك الفترات القاسية التي ضيقت الأرض على المسلمين وكادت تخنقهم وتقضي على حياتهم، كانت تنزل الآيات بما جرى بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحول التي تطابق تمامًا أحوال مسلمي مكة وكفارها، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين، وإيراث عباد الله الأرض والديار، فكانت في هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة في المستقبل ونجاح المسلمين، مع نجاح الدعوة الإسلامية.

وفي هذه الفترات نزلت آيات تصرح ببشارة غلبة المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ (الصافات: ١٧١-١٧٧)، وقال: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٥)، وقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ (ص: ١١)، ونزلت في الذين هاجروا إلى الحبشة: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤١).

وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان، وكان الكفار يُحبون غلبة الفرس بصفتهم مشركين، والمسلمون يُحبون غلبة الرومان بصفتهم مؤمنين بالله، والرسل، والوحي، والكتب، واليوم الآخر، وكانت الغلبة للفرس، أنزل الله بشارة غلبة الروم



في بضع سنين، ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة الواحدة، بل صرَّح ببشارة أخرى وهي نصر المؤمنين، حيث قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ (الروم: ٤-٥).

وكان رسول الله ﷺ نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى، فكان إذا وافى الموسم، وقام بين الناس في عكاظ ومِجَنَّةَ وذي المجاز لتبليغ الرسالة لم يكن يبشرهم بالجنة فحسب، بل يقول لهم بكل صراحة: «**يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فإذا متم كنتم ملوكًا في الجنة**»(١).

وقال خباب رضي الله عنه: «**وليُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله**» ـ زاد بيان الراوي ـ «**والذئب على غنمه**». وفي رواية: «**ولكنكم تستعجلون**»(٢).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ دلت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة الصحيحة على أن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١)، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة: ٢١)، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: ٩).

قال الألباني ـ رحمه الله ـ: تُبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده ﷺ، وعهد الخلفاء الراشدين، والملوك الصالحين، وليس

(١) لم أقف على الجزء الأخير من الحديث وقوله: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»، ورد في أكثر من حديث، **منها**: ما رواه أحمد (٥/ ٣٧٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٢): رجاله رجال الصحيح، **ومنها**: ما رواه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٤٣) عن مدركة بن الحارث قال: حججتُ مع أبي فلما نزلنا منى إذا نحن بجماعة، فقلت لأبي: ما هذه الجماعة؟ قال: هذا الصابئ. فإذا رسول الله ﷺ يقول: «**يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله**»، قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢١): رجاله رجال الصحيح.
(٢) باختصار من «الرحيق المختوم» (١٤٥، ١٤٦)، والحديث تقدم تخريجه (ص ٦٨).

كذلك، فالذي تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق، كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ بقوله: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى**»، فقالت عائشة: يا رسول الله: إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (الصف:٩)، أن ذلك تامًا، قال: «**إنه سيكون من ذلك من شاء الله**» الحديث(١).

وقد وردت أحاديث أخرى تُوضح مبلغ ظهور الإسلام، ومدى انتشاره بحيث لا يدع مجالاً للشك في أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه، وها أنا أسوق ما تيسر من هذه الأحاديث عسى أن تكون سببًا لشحذ همم العاملين للإسلام، ومحجة على اليائسين المتواكلين.

الأول: «**إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِي لي منها**» الحديث(٢).

الثاني: «**لَيَبْلُغَنَّ هذا ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وَبَر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيز، أو بذل ذليل، عزًا يعزُّ الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر**»(٣).

الثالث: عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسُئِلَ أي المدينتين تُفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتابًا، فقال عبد الله بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سُئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تُفتح أولاً؟ أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مدينة هرقل تُفتح أولاً**»؛ يعني القسطنطينية(٤).

---

(١) رواه مسلم (١٦/ ٣٢) الفتنة وأشراط الساعة، والحاكم (٤/ ٤٤٦، ٤٤٧، ٥٤٩).

(٢) رواه مسلم (١٦/ ١٣) الفتن وأشراط الساعة، والترمذي (٩/ ٢٢) الفتن، وأبوداود (٤٢٣٢) الفتن والملاحم.

(٣) رواه أحمد (٤/ ١٠٣)، والحاكم (٤/ ٤٣٠، ٤٣١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (١٦٣١) «موارد»، وصححه الألباني على شرط مسلم في «تحذير الساجد» (ص١١٩)، وفي «الصحيحة» رقم (٣) (١/ ١/ ٧).

(٤) رواه أحمد (٢/ ١٧٦)، والدارمي (١/ ١٢٦)، والحاكم (٤/ ٥٠٨)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي والألباني في «الصحيحة» رقم (١/ ١/ ٨).

قال الألباني: ورومية هي روما كما في «معجم البلدان»، وهي عاصمة إيطاليا اليوم، وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولابد، ولتعلمن نبأه بعد حين، ولاشك أيضًا أن تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة، وهذا مما يُبشرنا به ﷺ بقوله في الحديث.

الرابع: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا، فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النُبوة، ثم سكت»[(١)] اهـ مختصراً[(٢)].

٢ ـ قد ينتصر الباطل في جولة من الجولات لتقصير أهل الحق في العمل به، والقيام بواجبهم، كما قال أبو سفيان بعد أن حدثت الهزيمة للمسلمين يوم أُحد، لمخالفة بعضهم لأمر رسول الله ﷺ: «يوم بيوم بدر، والحرب سجال»، إلا أن العاقبة والنتيجة في هذه الجولة التي يظهر فيها الباطل تختلف، فلا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، وهذا ما أجاب به عمر رضي الله عنه أبا سفيان ابن حرب، «قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار»[(٣)].

فمن سقط من صفوف المسلمين في المعركة مع الكافرين فهو شهيد يُساق إلى جنة الله، ومن سقط من صفوف الكافرين فإلى الجحيم والعذاب الأليم، فانظرْ كم بين الفريقين، ثم الجولة النهائية لابد أن تكون للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧٣).

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٧٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٨٩): رجاله ثقات، وهو في «الصحيحة» رقم (٥).
(٢) باختصار من «السلسلة الصحيحة» لمحدث العصر الألباني ـ رحمه الله ـ ونفع سائر الناس بعلومه (١/ ٦-١٠).
(٣) سيأتي تخريجه ـ إن شاء الله ـ في غزوة أُحد (ص ١٩٧).

فالقضية هل نحن جند مخلصون لله ـ عزَّ وجلَّ ـ؟ هذه القضية، فإن كنا كذلك فلابد أن يتحقق فينا موعود الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وكما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (النور: ٥٥)، فليبشر شباب الصحوة المباركة بهذه النصوص الواضحة التي تبشر بالنصر والتمكين، رغم أنف المعاندين والمكذبين واليهود والنصارى، ومن والاهم من المنافقين، وليبشر أعداء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذين يصدون عن سبيله ويبغونها عوجًا بالخسار والبوار في الدنيا، والعذاب في الآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٦).

الوقائع العظام والأحداث الجسام
في هذه الفترة من دعوة النبي عليه الصلاة والسلام

بعد أن بينا بحمد الله تعالى السمات العامة لهذه الفترة المباركة، وحتى لا نحرم من صحبة أنفاس النبي ﷺ الطاهرة، نلقي بعض الضوء على أهم أحداث هذه الفترة، ونعيش مع النبي ﷺ في آلامه وأحزانه. ونُلخصها في الآتي:

١ ـ إسلام حمزة بن عبد المطلب.

٢ ـ هجرة الحبشة الأولى.

٣ ـ إسلام عمر بن الخطاب.

٤ ـ هجرة الحبشة الثانية.

٥ ـ الصحيفة الظالمة والمقاطعة العامة.

٦ ـ وفاة خديجة رضي الله عنها، وأبي طالب عم النبي ﷺ.

٧ ـ رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف.

٨ ـ الإسراء والمعراج.

٩ ـ بيعة العقبة الأولى.

١٠ ـ بيعة العقبة الثانية.

ولنشرع في بيان هذه الأحداث العظام والله سبحانه المستعان وعليه التكلان.

١ ـ إسلام حمزة بن عبد المطلب

إن الأفق المتلبد بالسحب قد يتولد منه برق يضيء، فقد كان هذا الإيذاء والاستهزاء بالنبي ﷺ سببًا لإسلام حمزة عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة، فقد روي في سبب إسلامه رضي الله عنه: أن جارية عيَّرته بإيذاء أبي جهل لابن أخيه، فتوجه إليه وغاضبه وسبه، وقال: كيف تسب محمدًا وأنا على دينه، فشجه شجة منكرة، فكان إسلامه في بداية الأمر أنفة، ثم شرح الله صدره بنور اليقين، حتى صار من أفاضل المؤمنين(١).

وعن محمد بن كعب القرظي قال: كان إسلام حمزة رضي الله عنه حمية، وكان يخرج من الحرم فيصطاد، فإذا رجع مرَّ بمجلس قريش، وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة، فيمر بهم فيقول: رميتُ كذا وكذا، وصنعتُ كذا وكذا، ثم ينطلق إلى منزله، فأقبل من رميه ذات يوم فلقيته امرأة، فقالت: ماذا لقي ابن أخيك من أبي جهل شتمه وتناوله وفعل وفعل، فقال: هل رآه أحدٌ؟ قالت: إي والله، لقد رآه الناس، فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة، فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم، فاتكأ على قوسه وقال: رميت كذا وكذا، وفعلت كذا وكذا، ثم جمع يديه بالقوس فضرب بها بين أذني أبي جهل فدق سنتها، ثم قال: خذها بالقوس، وأخرى بالسيف، أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه جاء

(١) رواها البيهقي في «الدلائل» قال: حدثنا أبو عبد الله الحافظ إملاءً، قال: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، قال: حدثنا أحمد بن عبد الجبار، قال: حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني رجل من أسلم وكان واعية (٢/ ٢١٣)، ورواها ابن إسحاق (١/ ٣٠٤)، ونقلها ابن كثير (٣/ ٣٣) «البداية والنهاية».

بالحق من عند الله، قالوا: يا أبا عمارة إنه سبَّ آلهتنا، وإن كنت أنت، وأنت أفضل منه ما أقررناك، وذاك وما كنت يا أبا عمارة فاحشًا[١].

٢ ـ هجرة الحبشة الأولى

أكثر العلماء على أنها كانت في رجب سنة خمس من البعثة، وكانوا اثنى عشر رجلاً وأربع نسوة، ورئيسهم عثمان بن عفان ﷺ ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان في هذا الفوج أبو سلمة وأم سلمة، وأبو سبرة بن أبي رُهم وزوجه أم كلثوم، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وأبو حذيفة بن عتبة ابن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهيل، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وسهيل ابن البيضاء، والزبير بن العوام، وجلهم من قريش، ولما انتهوا إلى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم إلى مقصدهم، فأقاموا آمنين من أذى يلحق بهم من المشركين، ولم يبق مع النبي ﷺ إلا القليل.

٣ ـ إسلام عمر بن الخطاب

عن ابن مسعود ﷺ قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر[٢].

وكان إسلام عمر ﷺ بعد هجرة الحبشة الأولى، ورجح بعض العلماء أن هذا كان من أسباب عودة المهاجرين الهجرة الأولى إلى مكة.

أما قصة إسلامه[٣]: عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر لشيء قط

(١) قال الهيثمي: رواه الطبراني مرسلاً، ورجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٦١)، باب ما جاء في فضل حمزة.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢١٥) مناقب الأنصار.

(٣) اشتهر في كتب السيرة رواية أسلم مولى عمر في قصة إسلام عمر ﷺ ودخوله على أخته وقراءته القرآن، ثم ذهابه إلى دار الأرقم في قصة طويلة مشهورة، قال الحافظ نور الدين الهيثمي: رواه البزار وفيه أسامة بن زيد بن أسلم وهو ضعيف «مجمع الزوائد» (٩/ ٦٥). **قلت:** وفيه أيضًا: إسحاق بن إبراهيم الحنيني، وقد ذكر البزار أنه تفرد به، وقال فيه الحافظ: إسحاق بن إبراهيم الحنيني بضم المهملة ونونين مصغرًا أبو يعقوب المدني ضعيف، مات سنة ست عشرة من التاسعة «تقريب التهذيب» (١/ ٥٥). والقصة ذكرها البيهقي في «الدلائل» مسندة (٢/ ٢١٦)، وقال ابن إسحاق: وكان إسلام عمر فيما بلغني ابن هشام (١/ ٣٥٥).

يقول: إني لأظنه كذا إلا كان كما يظن بينما عمر جالس إذ مرَّ به رجل جميل، فقال عمر: لقد أخطأ ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان هذا كاهنهم عليَّ الرجل، فدعى له فقال له ذلك. فقال: ما رأيتُ كاليوم استقبل به رجل مسلم. قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني. قال: كنتُ كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك؟ قال: بينما أنا يومًا في السوق، جاءتني أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تر الجنَّة وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها

ولحوق القلاص وأحلاسها

قال عمر: بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخًا قط أشد صوتًا منه يقول: يا جَليحْ، أمرٌ نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا أنت، فقمتُ، فما نشبنا أن قيل: هذا نبي[1].

قال الحافظ: لمح المصنف بإيراد هذه القصة في باب إسلام عمر بما جاء عن عائشة وطلحة عن عمر، من أن هذه القصة كانت سبب إسلامه[2]، ومن أسباب إسلامه دعوة النبي ﷺ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم أعزَّ الإسلام بأحبِّ هذين الرجلين إليك؛ بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب**»، قال: وكان أحبهما إليه عمر[3].

(١) رواه البخاري (٧/ ٢١٥، ٢١٦) مناقب الأنصار.
قوله: «**وإبلاسها**» المراد به: اليأس ضد الرجاء.
قوله: «**ويأسها من بعد إنكاسها**» قال ابن فارس: معناه أنها يئست من استراق السمع بعد أن كانت قد ألفته.
قوله: «**ولحوقها بالقلاص وأحلاسها**» **القلاص**: جمع قلوص وهي الفتية من النياق. **والأحلاس**: جمع حلس وهو ما يُوضع على ظهر الإبل تحت الرحل.
قوله: «**يا جليح**» معناه: الوقح المكافح بالعداوة.
قوله: «**رجل فصيح**» من الفصاحة. باختصار من «الفتح» (٧/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٢٢٠).

(٣) رواه الترمذي (١٣/ ١٤٣) المناقب، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من حديث ابن عمر، وصححه الألباني رقم (٢٩٠٧) «صحيح الترمذي».

وعن عبد الله بن عمر ﷺ: «لما أسلم عــمر اجتمع الناس عند داره، وقالوا: صَبَأَ عمر، وأنا غلام فوق ظهر بيتي ـ فــجاء رجل عليه قباء من ديباج فقال: قد صبأ عمر، فما ذاك؟ فأنا له جار، قال: فرأيت الناس تصدعوا عنه. فقلت: من هذا قالوا: العاص بن وائل(١).

وعن ابن عمر قال: لما أسلم عمــر بن الخطاب ﷺ لم تعلم قريش بإسلامه، فقال: أي أهل مكة أنشــأ للحديث؟ فقالوا: جمــيل بن معمر الجُمَــحي، فخرج إليه، وأنا مــعه أتبع أثره أعقل ما أرى وأســمع، فأتاه فقال: يا جمــيل، إني قد أسلمت. قال: فوالله ما ردَّ عليه كلمة حــتى قام عامدًا إلى المسجد، فنادى أندية قريش فقال: يا معشر قريش، إن ابن الخــطاب صَبَأَ. فقال عمر: كذب، ولكني أسلمت وآمنت بالله وصدقت رسوله فثاوروه، فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رؤوسهم حتى فــتر عمر وجلس، فقامــوا على رأسه، فقال عمــر: افعلوا ما بدا لكم، فوالله لو كنا ثلاث مئة رجل لقد تركتــموها لنا أو تركناها لكم. فبينما هم كذلك قــيام عليه، إذ جاء رجل عليــه حُلة حرير وقمــيص قومسي، فقــال: ما بالكم؟ فقــالوا: إن ابن الخطاب قد صَــبَأَ، قال: فَــمَه، امرؤٌ اخــتار دينًا لنفــسه أفتظنون أن بني عدي تُسْلِم إليكم صاحِبهم؟ قال: فكأنما كانوا ثوبًا انكشف عنه، فقلت له بعــد بالمدينة: يا أبتِ من الرجل الذي ردّ عنك القوم يومئــذٍ؟ فقال: يا بني، ذاك العاص بن وائل(٢).

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢١٥) مناقب الأنصار.

(٢) رواه ابن حبــان (١٥/ ٣٠٢، ٣٠٣) رقم (٦٨٧٩) وعبد الله بن أحــمد في زياداته على «فــضائل الصحابة» (٣٧٢)، وقال الهيثمي في «المجمع»: رواه الــبزار والطبراني باختصار ورجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس. وقال شعب الأناؤوط في «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»: إسناده قــوي، ورواه مخــتصــرًا الحاكم (٣/ ٨٥)، وقــال: هذا حديــث صحــيح على شرط مــسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.



٤- هجرة الحبشة الثانية

ظنَّ المهاجرون الكرام ﷺ أن الاضطهاد الواقع على المسلمين بمكة قد خفت وطأته، واشتدت عليهم الغُربة فعادوا فلم يجدوا الأخبار التي وصلتهم صادقة، وكان الأمر أشد على المسلمين، فلم يجد النبي ﷺ بُدًا من أن يُشير عليهم بالهجرة مرة ثانية.

عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو ابن العاص فأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم. قال: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضَوَى إلى بلد الملك مِنّا غِلمانٌ سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي، فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم، فهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن

شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله إذا لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم، فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائنًا في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا ـ وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ـ سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا ديني، ولا دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نُشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. قالت: فعدَّد عليه أمور الإسلام. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فغدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحاولوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على ما سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه صدرًا من «كهيعص» قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحد. انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون. قالت: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه؟ قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، ثم قال بعض لبعض: ما تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائنًا في ذلك ما هو كائن، قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم: قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودًا، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود[1]، الحديث.

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - **قال الجزائري:** إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها فيما يأتي مشروعية الهجرة وهي الانتقال من بلد الكفر حيث تعذر على العبد أن

---

(١) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق (٢/ ٨٧، ٨٨) من «سيرة ابن هشام مع الروض» ومن طريقه أحمد (١٧٤٠ شاكر)، وابن خزيمة (٢٢٦٠) وصححه، وكذا أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١١٥، ١١٦)، والبيهقي في «الاعتقاد» (١١)، **وقال العلامة أحمد شاكر:** إسناده صحيح، وصحح إسناده كذلك الألباني في «تحقيق فقه السيرة» (١٣٤)، وله شاهد عن ابن مسعود في «مسند أحمد» (٤٤٠٠ شاكر).

يعبد الله إلى دار يتمكن فيها من عبادة الله تعالى بدون تعذيب. بيان خطر الشائعات، إذ بها رجع المهاجرون ولاقوا ما لاقوا من العذاب حتى اضطروا إلى الهجرة مرة ثانية(١).

٢ ـ هذه الحادثة مصداق لقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ (الطلاق:٢)، وفيها: لطف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بأوليائه ودفاعه عنهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحج:٣٨)، وفيها: كذلك مصداق لقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ (الأنفال:٣٦)، وفيها كذلك عاقبة الصدق، وكيف أن جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه، ومن معه صدقوا مع النجاشي، ولم يكتموا شيئًا من عقيدتهم، فكانت العاقبة أحسن العواقب وأحمدها.

٣ ـ وفي القصة كذلك فضل النجاشي، وفيه كذلك ما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم حين مات النجاشي: «**مات اليوم رجلٌ صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة**»(٢). والنجاشي: لقب من ملك الحبشة.

٥ ـ الصحيفة الظالمة والمقاطعة العامة

قال الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي: قال أبو الأسود، والزهري، وموسى بن عقبة، وابن إسحاق: إن قريشًا لما رأت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلدًا أصابوا فيه أمنًا وقرارًا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليهم منهم، وأن عمر قد أسلم وكان رجلاً ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبحمزة حتى عازوا قريشًا، فكان هو وحمزة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، فأجمعوا رأيهم واتفق رأيهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا، فقالوا لقومه: خذوا منا ديةً مضاعفة وليقتله رجل من غير قريش وتريحون

(١) «هذا الحبيب يا محب» (١٢٢).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢٣٠) مناقب الأنصار.

أنفسكم، فأبى قومه بنو هاشم من ذلك، وظاهرهم بنو المطلب بن عبد مناف. فلما عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد منعه قومه، فأجمع المشركون من قريش على منابذتهم، وإخراجهم من مكة إلى الشعب، وأجمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا صحيفة، ثم تعاهدوا وتعاقدوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم، وقطعوا عنهم الأسواق، ولم يتركوا طعامًا ولا إدامًا ولا بيعًا إلا بادروا إليه واشتروه دونهم، فلما فعلتْ ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبه مؤمنهم وكافرهم، فالمؤمن دينًا والكافر حَمِيَّةً، وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهرهم.

قال ابن إسحاق وغيره: فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا، لا يصل إليهم شيء إلا سرًا مستخفيًا به من أراد صلتهم من قريش[1].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ثم سعى في نقض تلك الصحيفة أقوام من قريش، فكان القائم في أمر ذلك هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حُبَيِّب بن جذيمة بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي، مشى في ذلك إلى مطعم بن عدي وجماعة من قريش فأجابوه إلى ذلك، وأخبر رسول الله ﷺ قومه أن الله قد أرسل على تلك الصحيفة الأرضة فأكلت جميع ما فيها إلا ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فكان كذلك، ثم رجع بنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة، وحصل الصلح برغم من أبي جهل عمرو بن هشام[2].

---

(١) باختصار من «سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» (٢/ ٥٠٢-٥٠٤) ط/ مجمع البحوث الإسلامية.

(٢) «الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ» للحافظ ابن كثير (٩٠، ٩١) تحقيق وتعليق محمد العيد الخطراوي، ومحيي الدين مستو.

والسؤال الآن: كيف صبر بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم على هذه المحنة الشديدة والبلاء المبين؟

وجوابه: والله أعلى وأعلم وأعز وأحكم، أن صبر المشركين كان من أجل العصبية وحَمِيَّة القرابة والرحم، وإباء الذل الذي كان يتلبس بهم لو أنهم خلوا بين محمد ﷺ ومشركي قريش من غير بني هاشم، وبني المطلب يقتلونه ويفتكون به، بقطع النظر عن العقيدة والدين[١].

أما المسلمون فلأسباب عدة:

١ ـ الإيمان بالله الذي خالطت بشاشته قلوبهم، فلا يُبالون ما ينال أجسادهم من إيذاء، ما دام هذا الإيذاء والتعذيب سببًا من أسباب رحمة الله وفضله، وقد سأل هرقل أبا سفيان ابن حرب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «هل يرتد أحدٌ منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا، فقال: كذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب»[٢].

٢ ـ وجود القيادة المؤمنة الواعية المتصفة بالفضائل، والخالية من القصور والرزائل، ولاشك في أن من أهم أسباب الصبر والنصر وجود مثل هذه القيادة، **كما قال ابن كثير:** رفعت قريش خبيبًا ﷺ على الخشبة عند صلبه ونادته: أتحب

---

(١) روى ابن إسحاق الشعر الذي ذكره أبو طالب، وقد صرح فيه أنه غير مُسلِّم رسول الله ﷺ، ولا تاركه لشيء أبدًا حتى يهلك دونه فقال:

وَلـمَّا رَأيْتُ القَومَ لا وُدَّ فِيهِم ... وَقَدْ قَطعُوا كلَّ العُرَىٰ والوَسَائِلِ
وَقَدْ صَارحُونَا بالعَدَاوةِ والأذَىٰ ... وَقَدْ طَاعُوا أمْرَ العَدوِّ المزايلِ
وَقَدْ حَالفُوا قَومًا علينَا أظِنَّه ... يَعضُونَ غَيْظًا خَلفَنَا بالأنَاملِ
صَبَرتُ لهم نفسِي بسمراءَ سَمْحَة ... وابيضَ عضَبُ مِنْ تُرَاثِ المقَاولِ
وَأحضرتُ عِنْد البَيْتِ رَهْطِي وإخوتِي ... وَأمسكتُ مِن أثوابِه بالوَصَائلِ
قيَامًا معًا مُستَقبلينَ رِتَاجَة ... لَدَى حَيْثُ يَقضِي حلفَه كلُّ نَافِلةِ

شرح «سيرة ابن هشام» «الروض الأنف» (٢/ ١٣).

(٢) الحديث رواه البخاري (١/ ٤٢، ٤٣) بدء الوحي.

أن محمـدًا مكانك وأنك معافًا في أهلك ومالـك قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه، فضحكوا منه. وفي ذلك يقول الشاعر:

أَسَــرْتَ قــريشٌ مُــسلمًــا	فَــمَــضَى بلا وَجَلٍ إلَى السَّـيَّـافِ
ســألوهُ هَل يُرْضِــيْك أنك سَــالمٌ	وَلَكَ الـنَّبي فَــدى مـن الإتـلافِ
فَــأجــابَ كَــلا لا سَلِمْتُ مِن الـرَّدى	وَيُصَــابُ أنفُ مُـحَـمَّـدٍ بِرُعَــافِ

وكان من أثر حبهم لرسـول الله ﷺ، أنهم كانوا يرضون أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر.

٣ ـ الشعور بالمسئولية.

قال صفي الرحمن المباركفوري: فكان الصحـابة يشعرون شعورًا تامًـا ما على كواهل البـشر من المسئولية الـفخمة الضخـمة، وأن هذه المسئوليـة لا يمكن عنها الحيـاد والانحراف بحـال، فالعـواقب التي تترتب على الفـرار عن تحملهـا أشد وخامـة، وأكبر ضررًا عـما هم فيه من الاضطـهاد، وأن الخسارة التي تلحـقهم وتلحق البشرية جـمعاء بعد هذا الفرار، لا يقاس بحـال على المتاعب التي كانوا يواجهونها نتيجة هذا التحمل(١).

٤ ـ تبشيـر القرآن والنبي ﷺ لهم برحمة الله ورضـوانه وعذاب الكافرين: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (القمر:٤٨)، وتبشير الصحابة كذلك بالنصر والتـمكين في الدنيا وهلاك الكافريـن والمكذبين. لاشك أن هذه العوامل الأربعة كانت من أقوى العوامل على الصبر والثبات.

٦ـ وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خـويلد، وأبا طالب هلكا في عام واحد فتتابعت على رسول الله ﷺ المصـائب بهلْك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليـها، وبهلك عمـه أبي طالب وكان له عضـدًا وحرزًا في

(١) «الرحيق المختوم» (١٤٣).

أمره ومنعة وناصراً على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب(١).

عن المسيب أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبوجهل فقال: «**أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فقال أبوجهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرنَّ لك ما لم أُنه عنك**»، فنزلت: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ (التوبة: ١١٣)، ونزلت: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾ (القصص: ٥٦)(٢).

وعن العباس بن عبد المطلب قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»(٣).

ورجح ابن الجوزي في «تلقيح فهوم أهل الأثر»: أن وفاة خديجة ﵂ كان بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو ثلاثة(٤)، وكان في رمضان من السنة العاشرة من البعثة النبوية، ولها خمس وستون سنة، وفي شوال من هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة وكانت ممن أسلم قديمًا، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان زوجها السكران بن عمرو، مات بأرض الحبشة أو بعد الرجوع إلى مكة.

---

(١) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٢/ ١٦٦).

(٢) رواه مسلم (١/ ٣١٤) الإيمان.

(٣) رواه البخاري (٧/ ٢٣٣) مناقب الأنصار، ومسلم (٣/ ٨٤) الإيمان.

(٤) ورجح ابن كثير أنه كان بينهما ثلاثة أيام ـ انظر «الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ» (٩٢).



٧ـ خروج المصطفى ﷺ إلى الطائف

قال ابن إسحاق: ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النُّصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فخرج إليهم وحده[(١)].

عن عروة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟ قال: «**لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل فناداني** فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت: إن شئت أن أُطبِّق عليهم الأخشبين؟ **فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**»[(٢)].

قال الحافظ ما ملخصه: كان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطائف من ثقيف، وقد روى عبد بن حميد في «تفسيره» من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:٣١)، قال: نزلتْ في عتبة بن ربيعة، وابن عبد ياليل الثقفي، ومن طريق قتادة قال: هما الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود. وقد ذكر موسى بن عقبة، وابن إسحاق أن كنانة بن عبد ياليل وفد مع وفد الطائف سنة عشر فأسلموا، وذكره ابن عبد البر في الصحابة لذلك، لكن ذكر المديني أن الوفد أسلموا إلا كنانة، فخرج إلى الروم ومات بعدها بعد ذلك، والله أعلم، وذكر موسى بن عقبة في «المغازي» عن ابن شهاب:

---

(١) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف»(٢/ ١٧٢).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٣٦٠) بدء الخلق، ومسلم (١٢/ ١٥٤، ١٥٥) الجهاد.

أنه ﷺ لما مات أبو طالب توجه إلى الطائف رجاء أن يؤوه، فعمد إلى ثلاثة نفرٍ من ثقيف وهم سادتهم، وهم إخوة عبد ياليل وحبيب، ومسعود بنو عمرو، فعرض عليهم نفسه، وشكى إليهم ما انتهك منه قومه، فردوا عليه أقبح رد، وكذا ذكره ابن إسحاق بغير إسناد مطولاً، وذكر ابن سعد أن ذلك كان في شوال سنة عشرة من المبعث، وأنه كان بعد موت أبي طالب وخديجة[١].

٨- الإسراء والمعراج

قال الجزائري - رحمه الله -: كان مكافأة ربانية على ما لاقاه الحبيب ﷺ من أتراح وآلام وأحزان، إذ كان بعد حصار دام ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، وما لاقاه في أثنائه من جوع وحرمانٍ، إنه كان بعد فقد الناصر الحميم، وفقد خديجة أم المؤمنين، أنه كان بعد خيبة الأمل في ثقيف، وما ناله من سفهائها وصبيانها وعبيدها. بعد هذه الآلام كافأ الحبيب حبيبه فرفعه إليه، وقربه وأدناه، وخلع عليه من حلل الرضا ما أنساه كل ما كان قد لاقاه من حزن وألم ونصب وتعب، وما قد يلاقيه في سبيل إبلاغ رسالته ونشر دعوته، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما ذكر الله الذاكرون، وما غفل عن ذكره الغافلون[٢].

وما أسعدنا في هذا الفصل بالآيات والأحاديث الصحيحة في البخاري ومسلم، فلا ندعها لروايات أهل السير. قال الله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ (الإسراء: ١).

قال القاسمي - رحمه الله -: دلتْ هذه الآية على ثبوت الإسراء، وهو سير النبي ﷺ إلى بيت المقدس ليلاً، وأما العروج إلى السموات، فهذه الآية لا تدل عليه، ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم[٣].

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣٦٣). **وقرن الثعالب** هي: ميقات أهل نجد، ويقال لها: قرن المنازل أيضًا.
(٢) «هذا الحبيب يا محب» (١٣٥).
(٣) بتصرف من «محاسن التأويل» (١٠/ ١٨٧، ١٨٨).

قال القاضي عياض: وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد، وفي اليقظة وهذا هو الحق. قال القاضي عياض: والصحيح -إن شاء الله- أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة[1]. إذ لو كان منامًا لقال بروح عبده ولم يقل بعبده، وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (النجم:١٧)، ولو كان منامًا لما كان فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار ولا كذّبوه فيه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته[2].

ولنذكر رواية مسلم لقصة الإسراء والمعراج؛ لأنها أتم من رواية البخاري، حيث أشارت إلى قصة الإسراء والمعراج، أما رواية البخاري فاقتصرت على قصة المعراج.

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**أتيتُ بالبُراق - وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه - قال: فركبته حتى أتيتُ بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، قال: ثم دخلتُ المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل** عليه السلام **بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن،** فقال جبريل للرسول ﷺ: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه فَفُتِحَ لنا، **فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير،** ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه ففتح لنا،

---

(١) الصحيح عند وجود نص أو قرينة تدل على أن الظاهر غير مراد.

(٢) «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى» (١/ ١٨٩)، ومما يدل على أنه كان يقظة كذلك ما رواه البخاري (٧/ ٢٣٦) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لما كذبتني قريش قمتُ في الحجر، فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقتُ أخبرهم عن آياته**». فلو أنه ﷺ أخبرهم بأنها رؤيا رآها لما اختبروه بالسؤال عن آياته وعلاماته، وهذه أيضًا معجزة ثانية لرسول الله ﷺ.

فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحبا ودعوا لي بخير، ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أُعطى شطر الحسن فَرَحَّب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير، قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم:٥٧)، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بهارون ﷺ، فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بموسى ﷺ، فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، فَفُتِحَ لنا، فإذا بإبراهيم ﷺ مُسْنِداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحدٌ من خلق يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يارب خفف عن أمتي، فحط عني خمسًا، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمسًا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي - تبارك وتعالى - وبين موسى عليه السلام، حتى قال: يا محمد إنهم خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر

فذلك خمسون صلاة، ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، قال: فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى ﷺ فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، **فقال رسول الله ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييتُ منه»**[١].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: واختلف الصحابة هل رأى ربه تلك الليلة أم لا؟ فصحَّ عن ابن عباس أنه رأى ربه، وصحَّ عنه أنه قال: رآه بفؤاده[٢].

وصحَّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقالا: إن قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (النجم:١٣)، إنما هو جبريل[٣].

وصحَّ عن أبي ذر أنه سأله: هل رأيت ربَّك؟ فقال: **«نور أنى أراه»**، أي: حال بين وبين رؤيته النور كما في اللفظ الآخر: **«رأيت نورًا»**[٤]. وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي إتفاق الصحابة على أنه لم يره[٥].

قال ابن القيم: فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم، واستضرارهم عليه وسألهم أن يصف لهم بيت المقدس فجلاه الله له حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئًا، وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال: فلم يزدهم ذلك إلا نفورًا، وأبى الظالمون إلا كفورًا[٦].

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٢١٠-٢١٥) الإيمان، والبخاري (٧/ ٢٤/ ٢٤٢) مناقب الأنصار.

(٢) رواه مسلم (٣/ ٧) الإيمان، والترمذي (١٢/ ١٧٢) التفسير.

(٣) رواه البخاري (٨/ ٤٧٢) التفسير، ومسلم (٣/ ٧) الإيمان. قال أبو هريرة: رأى جبريل، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه، فقد أعظم على الله الفرية.

(٤) رواه مسلم (٣/ ١٢) الإيمان، والترمذي (١٢/ ١٧٢) التفسير.

(٥) «زاد المعاد» (٣/ ٣٦، ٣٧).

(٦) المصدر السابق (٣/ ٣٨، ٣٩).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (الإسراء:١)، **فيه:** فضل المسجد الأقصى.

قال القاسمي: والأقصى بمعنى الأبعد، سُمي بذلك لبعده عن مكة، وقوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، أي: جوانبه ببركات الدين والدنيا؛ لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء، ومهبط وحيهم، ومنمى الزروع والثمار، فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها، فبركته إذن مضاعفة، لكونه في أرض مباركة، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى، والمساجد بيوت الله، ولكونه متعبد الأنبياء ومقامهم، ومهبط وحيه عليهم، فبورك منه ببركتهم ويمنهم أيضًا.

وقد قيل في خصائص «الأقصى»: أنه متعبد الأنبياء السابقين، ومسرى خاتم النبيين، ومعراجه إلى السموات العلى، والمشهد الأسمى، بيت نوَّه الله به في الآيات المفصلة، وتُليت فيه الكتب الأربعة المنزلة لأجله أمسك الله الشمس على يوشع أن تغرب ليتيسر فتحه على من وعدوا به ويقرب، وهو قبلة الصلاة في الملتين، وفي صدر الإسلام بعد الهجرتين، وهو أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، انتهى.

ومن فضائله: ما رواه الإمام أحمد، والنسائي، والحاكم، وصححه عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثًا فأعطاه اثنتين، وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة: سأله حكمًا يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يُريد إلا الصلاة في هذا المسجد ـ يعني بيت المقدس ـ خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه**»، قال النبي ﷺ: «**ونحن نرجو أن يكون الله أعطاه ذلك**»[1].

---

(١) «محاسن التأويل» (١٠/ ١٨٥).

=

فنسأل الله تعالى أن يُطهِّره من أنجاس اليهود، وأن ترفرف راية الإسلام مرة ثانية على القدس وغيرها من بلاد المسلمين، وأن يمتعنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالصلاة فيه كما حدث في عهد صلاح الدين، حيث خطب إمام الجمعة في أول صلاة تُقام فيه بعد عودته، وابتدأ خطبته بقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٥)، فنسأل الله كما قطع دابر الذين احتلوه في المرة الأولى أن يقطع دابرهم في المرة الثانية، وأن يستعملنا في ذلك، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

٢ ـ **قال الغزالي** تحت عنوان حكمة الإسراء: ذلك والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُتيح لرسله فرص الإطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته، حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستنادًا إليه، إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة، ويهاجمون سلطانهم القائم. فقبل أن يرسل الله موسى شاء أن يُريه عجائب قدرته، فأمره أن يُلقي عصاه: قال: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (طه: ١٩-٢٣)، فلما ملأ قلبه إعجابًا بمشاهدة هذه الآيات الكبرى، قال له بعد ذلك: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (طه: ٢٤).

وقد علمت أن ثمرة الإسراء والمعراج إطلاع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى، وربما نقول: إن ذلك حدث بعد الإرسال إليه بقريب من اثنى عشر عامًا على عكس ما وقع لموسى، وهذا حق، وسر ما أسفلنا بيانه من أن الخوارق في سير المرسلين قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة، فهي تدعيم لجانبهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء، وسيرة محمد ﷺ فوق هذا المستوى، فقد تكفل القرآن الكريم بإقناع أولى النهى من أول يوم، وجاءت الخوارق في طريق

= والحديث: رواه أحمد (٢/ ١٧٦) رقم (٦٦٤٤ شاكر)، والنسائي (٢/ ٣٤) المساجد: باب فضل المسجد الأقصى، وابن ماجه (١٤٠٨)، وابن خزيمة (٦٠٧) «صحيح ابن خزيمة»، وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح، والحاكم (١/ ٣٠، ٣١) الإيمان، وقال: صحيح ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح النسائي»، وابن ماجه.

الرسـول ضرب من التكريم لشـخصـه، والإيناس له، غيـر معكرة ولا مـعطلة للمنهج العقلي العادي الذي اشترعه القرآن.

وفي قصـة الإسـراء والمعـراج تلمح أواصـر القربى بين الأنبـياء كـافة، وهذا المعنى من أصـول الإسلام: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة:٢٨٥)، والتحيـات المتبادلة بين النبي وأخوته السابقين توثق هذه الآصرة[1].

٣ ـ **قال صفي الرحمن المباركفوري**: يرى القارئ في سـورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحدة فقط، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبهـهم بأن هذا القرآن يهـدي للتي هي أقوم، فربما يظن الـقارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتبـاط، والأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى يُشـير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليـهود سيعزلون عن منصب قـيادة الأمة الإنسـانية لما ارتكبـوا من الجـرائم التي لم يبق معـها مـجـال لبقـائهم على هذا المنصب، وأن الله سـينقل هذا المنصـب فعـلاً إلى رسـوله ﷺ، ويجـمع له مركزي الدعوة الإبـراهيمية كليهمـا، فقد آن أوان انتقال القيادة الـروحية من أمة إلى أمة، من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى أمة تتدفق بالبـر والخيـرات، ولا يزال رسولهـا يتمـتع بوحي القرآن الذي يهـدي للتي هي أقوم. ولكن كيف تنتقل هذه القيادة، والرسول يطوف في جبال مكة مطرودًا بين الناس؟ هذا السـؤال يكشف الغطاء عن حـقيـقة أخـرى، وهي أن دورًا من هذه الدعوة الإسلاميـة قد أوشك إلى النهاية والتمام، وسيـبدأ دور آخر يختلف عن الأول في مجـراه، ولذلك نرى بعض الآيات تشتـمل على إنذار سافر، ووعـيد شديد بالنسبة إلى المشركين: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (الإسراء:١٦)، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ (الإسراء:١٧).

(١) باختصار من «فقه السيرة» (١٤٣، ١٤٤).

وبجنب هذه الآيات آيات أخرى تُبيِّن للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التي يبتني عليها مجتمعهم الإسلامي، كأنهم قد أووا إلى الأرض[١]، تملكوا فيها أمورهم من جميع النواحي، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رحى المجتمع، ففيه إشارة إلى أن الرسول ﷺ سيجد ملجأ ومأمنًا يستقر فيه أمره، ويصير مركزًا لبث دعوته في أرجاء الدنيا، هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة يتصل ببحثنا فآثرنا ذكره، ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين، والله أعلم[٢].

٤ ـ **قال الحافظ ـ رحمه الله ـ** في فوائد حديث الإسراء والمعراج ما ملخصه: وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم: أن للسماء أبوابًا حقيقية وحفظة موكلين بها، **وفيه:** إثبات الاستئذان وأنه ينبغي لمن يستأذن أن يقول: أن فلان، ولا يقتصر على أنا، لأنه ينافي مطلوب الاستفهام، وأن المار يُسلِّم على القاعد، وإن كان المار أفضل من القاعد، **وفيه:** استحباب تلقي أهل الفضل بالبشر والترحيب والثناء والدعاء، وجواز مدح الإنسان المأمون عليه الافتتان في وجهه، **وفيه:** جواز الاستناد إلى القبلة بالظهر وغيره مأخوذ من استناد إبراهيم إلى البيت المعمور، وهو كالكعبة في أنه قبلة من كل جهة، **وفيه:** جواز نسخ الحكم قبل وقوع الفعل، **وفيه:** فضل السير بالليل على السير بالنهار لما وقع من الإسراء بالليل، ولذلك كانت أكثر عبادته ﷺ بالليل، وكان أكثر سفره ﷺ بالليل، وقال ﷺ: **«عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل»**، **وفيه:** أن التجربة أقوى في تحصيل المطلوب من المعرفة الكثيرة، ويُستفَاد ذلك من قول موسى عليه السلام للنبي ﷺ أنه عالج الناس قبله وجرّبهم، **ويُستفَاد منه:** تحكيم العادة، والتنبيه بالأعلى على الأدنى، لأن من سلف من الأمم كانوا أقوى أبدانًا من هذه الأمة، وقد قال موسى إنه عالجهم على أقل من ذلك فما وافقوه،

(١) الأصح في المعنى: «إلى أرض».
(٢) «الرحيق المختوم» (١٦٧، ١٦٨).

وأشار إلى ذلك ابن أبي جمرة، قال: **ويُستفَاد منه:** أن مقام الخلة مقام الرضا والتسليم، ومقام التكلم مقام الإدلال والانبساط، ومن ثم استبد موسى بأمر النبي ﷺ بطلب التخفيف دون إبراهيم عليه السلام، مع أن النبي ﷺ من الاختصاص بإبراهيم أزيد مما له من موسى لمقام الأبوة ورفعة المنزلة والاتباع في الملة، وقال غيره: الحكمة في ذلك ما أشار إليه موسى عليه السلام في نفس الحديث من سبقه إلى معالجة قومه في هذه العبادة بعينها، وأنهم خالفوه وعصوه، **وفيه:** أن الجنة والنار قد خلقتا، لقوله في بعض طرقه التي بينها «**عُرضت عليَّ الجنة والنار**»، وقد تقدم البحث في بدء الخلق، **وفيه:** استحباب الإكثار من سؤال الله قال: وتكثير الشفاعة عنده لما وقع منه ﷺ في إجابته مشورة موسى في سؤال التخفيف، وفيه فضيلة الاستحياء وبذل النصيحة لمن يحتاج إليها وإن لم يستشر الناصح في ذلك[1].

٥ ـ **قال محمد سعيد رمضان:** وفي اختيار النبي ﷺ اللبن على الخمر حينما قدمهما له جبريل عليه السلام دلالة رمزية على أن الإسلام هو دين الفطرة، أي: الدين الذي ينسجم في عقيدته وأحكامه كلها مع ما تقتضيه نوازع الفطرة الإنسانية الأصيلة، فليس في الإسلام شيء مما يتعارض، والطبيعة الأصلية في الإنسان، ولو أن الفطرة كانت جسمًا ذا طول وأبعاد لكان الدين الإسلامي الثوب المفصِّل على قدره، وهذا من أهم أسرار سعة انتشاره وسرعة تقبل الناس له، إذ الإنسان مهما ترقى في مدارج الحضارة، وغمرته السعادة المادية، فإنه يظل نزاعًا إلى استجابة نوازع الفطرة لديه، ميالاً إلى الانعتاق عن ربقة التكلفات والتعقيدات البعيدة عن طبيعته، والإسلام هو النظام الوحيد الذي يستجيب لأعمق نوازع الفطرة البشرية[2].

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٢٥٨).

(٢) «فقه السيرة» للبوطي (١٢٠، ١٢١).



٩ـ بيعة العقبة الأولى

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ثم إن رسول الله ﷺ لقي عند العقبة في الموسم ستة نفر من الأنصار كلهم من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر ابن عبد الله بن رئاب، فدعاهم رسول الله ﷺ فأسلموا[١]. ثم رجعوا إلى المدينة فدعوهم إلى الإسلام، ففشا الإسلام فيها حتى لم يبق دار إلا وقد دخلها، فلما كان العام المقبل جاء منهم اثنا عشر رجلاً، الستة الأول خلا جابر ابن عبد الله، ومنهم معاذ بن الحارث بن رفاعة أخو عمرو المتقدم، وذكوان بن عبد القيس، وقد أقام ذكوان بمكة حتى هاجر إلى المدينة، فيقال: أنه مهاجري أنصاري، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التيهان وعويمر ابن مالك، هم اثنا عشر[٢].

واختلف في ألفاظ هذه البيعة فروى البخاري عن أبي إدريس عائذ الله بن عبد الله، عن عبادة بن الصامت ـ من الذين شهدوا بدراً مع رسول الله ﷺ، ومن أصحابه ليلة العقبة ـ أخبره أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «**تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا، فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه**»[٣].

---

(١) ذكره ابن القيم في «زاد المعاد» (٣/ ٤٥)، ورواه ابن هشام عن ابن إسحاق في «السيرة» مع اختلاف في اللفظ (٢/ ١٧٦، ١٧٧)، وقال محقق «زاد المعاد»: ورجاله ثقات، وسنده حسن.

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٤٥).

(٣) رواه البخاري (١/ ٨٣) الإيمان، ومسلم (١٠/ ٢٢٢) الحدود، والترمذي (٦/ ٢١٨) الحدود، والنسائي (٧/ ١٤٨) البيعة، وقد رجّح الحافظ في «الفتح» أن هذه الصيغة لم تكن صيغة بيعة العقبة، وإنما كانت بيعة أخرى بعد فتح مكة، وقد بايع عبادة البيعتين، ولما كانت بيعة العقبة من أجل ما يُمتدح به فكان يذكرها إذا حدث تنويهًا بسابقته رضي الله عنه. =

قال ابن إسحاق: فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يُقرأهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة: مصعب وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس أبي أمامة.

ومن أروع ما يروى وأحسن ما يستفاد منه في الدعوة إلى الله - عز وجل - من هذا الداعية الشاب الذي كان من أترف شباب مكة، ولكنه سبق إلى الإسلام وتخرج على رسول الله - عليه الصلاة والسلام -، واختاره ﷺ سفيرًا له في المدينة يُطيبها بالإسلام، ويُعلمها القرآن، ويُجهزها لهجرة النبي - عليه الصلاة والسلام - ما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق قال: وحدثني عبيد الله بن معيقب، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ ابن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر.

قالا على بئر يقال لها: بئر مرق، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأُسيد بن حضير يومئذٍ سيدا قومهما من بني عبدالأشهل،

= **قال الحافظ:** والمبايعة المذكورة في حديث عبادة على الصيغة المذكورة لم تقع ليلة العقبة وإنما كان ليلة العقبة ما ذكر ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي أن النبي ﷺ قال لمن حضر من الأنصار: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**»، فبايعوه على ذلك، وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه، وسيأتي في هذا الكتاب في كتاب الفتن وغيره من حديث عبادة أيضًا قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره» الحديث، وأصرح من ذلك في هذا المراد ما أخرجه أحمد، والطبراني من وجه آخر عن عبادة أنه جرت له قصة مع أبي هريرة عند معاوية بالشام: «فقال: يا أبا هريرة إنك لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول بالحق لا نخاف في الله لومة لائم، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب فنمنعه مما نمنع أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة، فهذه بيعة رسول الله ﷺ التي بايعناه عليها»، ثم قال: والذي يقوي أنها وقعت بعد فتح مكة، بعد أن نزلت الآية التي في الممتحنة وهي قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ**﴾، ونزول هذه الآية متأخر بعد قصة الحديبية بلا خلاف، باختصار من «الفتح» (١/ ٨٤، ٨٥) السلفية.

وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدمًا. قال: فأخذ أُسيد ابن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه، قال: فوقف عليهما متشتمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كفَّ عنك ما تكره. قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله!! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: قد كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد ابن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، قال: فقام سعد مغضبًا مبادرًا تخوفًا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد أن أُسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال

لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في ديارنا بما نكره، وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب جاءك والله سيد من وراءه قومه إن يتبعك لا يتخلس منك منهم اثنان، قال: فقال له مصعب: أوتقعد فتسمع فإن رضيت أمرً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادي قومه ومعه أُسيد بن حضير.

فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فوالله ما أمسى في دار بني الأشهل رجلاً ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - **في هذا الباب وما ختمناه به من قصة مصعب بن عمير في المدينة:** بيان فضل مصعب، وكيف اختاره الرسول ﷺ لفتح قلوب وديار أهل المدينة بالإسلام؟ وكيف نجح رضي الله عنه أيما نجاح في هذه المهمة، وظهرت آثار الدعوة المباركة في عام

---

(١) «الروض الأنف مع سيرة ابن هشام» (٢/ ١٨٦، ١٨٧).

واحد، حتى لم يبق بيت إلا ودخله إسلام، إما آمن بعضه أو آمن كله؟ إلا ما ذكره ابن إسحاق، وهذا يدل على فضل الصحابة عمومًا، وفضل هذا الداعية المبارك الذي عرف كيف تكون الدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وكذلك فضل أسعد بن زرارة، وكيف كان له نعم الناصر والناصح، واسمعه وهو يقول لمصعب: «هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه»، فكان من جزاء الصدق وبركته أن آمن بدعوته رجلان كانا سببًا في إسلام قومهما، وكان جميع ذلك في ميزان مصعب، وأسعد بن زرارة رضي الله عنهما، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النعم»**[1]. وقال: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»**[2].

٢ ـ **في هذا الباب كذلك:** فضل الأنصار وكيف أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جبلهم على الصدق والشهامة والمروءة؟ وكيف هيأ أنفسهم لقبول هذا الدين، ومناصرة سيد الأولين والآخرين؟ **وفيه:** فضل سعد بن معاذ الذي اهتزَّ عرش الرحمن لوفاته، وأُسيد بن حضير الذي نزلت الملائكة تسمع لقراءته، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم: **«لو قرأت لأصبحت ينظر إليها الناس ما تستتر منهم»**[3].

٣ ـ **في هذا الباب كذلك:** بيان ثمرات التربية الصحيحة، وكيف أن التربية قد تستغرق زمنًا طويلاً من أجل بناء من يحمل الدعوة ويُبلغها، ولكنها بعد ذلك تُثمر الثمرات الجليلة الكثيرة في زمن يسير، فهذا مصعب بن عمير الذي رباه النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام وسقاه القرآن، كيف فتح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ به، وإني أتخيلُ أحيانًا رجلاً من الصحابة الكرام يُبعث في زماننا هذا كيف ينفع الله به؟ وكيف يفتح على يديه؟ وإن شئت قلت أحد علماء السلف الذين جمعوا بين

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٨٧) فضائل الصحابة، ومسلم (١٥/ ١٧٨) فضائل الصحابة، ورواه أبو داود بلفظ: **«والله لأن يُهدى بهداك رجل واحد خير لك من حمر النعم»** (٣٦٤٤) العلم.

(٢) رواه مسلم (١٦/ ٢٢٧) العلم.

(٣) رواه مسلم (٦/ ٨٢، ٨٣) صلاة المسافرين، والبخاري تعليقًا مجزومًا به في فضائل القرآن.

العلم والعمل كشيخ الإسلام ابن تيمية أو تلميذه ابن القيم، لو بعث في زماننا وقام بالدعوة إلى الله - عزَّ وجلَّ - فإني على يقين من أن النفع الذي يأتي منه والخير الذي يُساق على يديه من فتح البلاد وقلوب العباد بالإسلام، يكون أكثر من آلاف من الدعاة المعاصرين الذين يقضون أعمارهم في الدعوة، والفرق بيننا وبين هؤلاء الأعلام هو العلم والتربية، والعلم إن كان لله - عزَّ وجلَّ - فهو أيضًا تربية، فظهرت بذلك بركة التربية التي يظن كثير من أصحاب الاتجاهات الإسلامية المعاصرة أنها ليست بذات قيمة، وأن إنفاق الناس أعمارهم فيها ليس فيه فائدة ولا عائدة، وأنها من باب تضييع الزمان، وأن الإسلام يمكن أن يقوم بأناس ما تربوا بالعقيدة الصحيحة وقيام الليل، وصيام النهار، كما تربى الصحابة الكرام، وإنما أطلنا النفس في هذه الفائدة؛ لأنها مقصود الكتاب ولب الخطاب، فنسأل الله أن يوفقنا لسلوك سبيل الصحابة الكرام، وأن يعزَّ الله تعالى بنا الدين كما أعزه بالسابقين الأولين، وأن يجمعنا بهم مع سيد الأولين والآخرين يوم يقوم الناس لرب العالمين.

٤ - **قال الدكتور محمد سعيد رمضان:** إحدى عشرة سنة من الجهاد والصبر المتواصل في سبيل الله وحده هي الثمن والطريق إلى نشأة مد إسلامي زاخر عظيم، ينتشر في شرق العالم وغربه، تتساقط أمامه قوة الروم، وتتهاوى بين يديه عظمة فارس، وتذوب من حوله قيم النظم والحضارات. ثمن من الجهاد والصبر والتعب وخوض الشدائد، كان من السهل جدًا على الله - عزَّ وجلَّ - أن يقيم دعائم المجتمع الإسلامي بدونه، ولكن تلك هي سنة الله في عباده، أراد أن يُحقق فيهم التعبد اختيارًا كما تحققت فيهم صفة العبودية له إجبارًا. ولا يتحقق التعبد بدون بذل الجهد، ولا يمحص الصادق من الكاذب بدون عذاب أو استشهاد، وليس من العدل أن يكسب الإنسان الغنم دون أن يبذل على ذلك شيئًا من الغرم، من أجل ذلك كلف الله الإنسان بأمرين اثنين:

١ ـ إقامة شرعة الإسلام ومجتمعه.

٢ ـ السير في ذلك في طريق شائكة مجهدة غير معبدة[1].

قلت: والدليل عليه مع أحداث السيرة، وكذلك سيرة جميع الرسل قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (محمد: ٤-٦).

١٠ ـ بيعة العقبة الثانية

روى ابن إسحاق، وعنه أحمد وغيره من حديث كعب بن مالك في قصة العقبة الثانية، قال: «فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب، أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع. قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج ـ قال: وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها: إنَّ محمدًا منَّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده، قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قال:

---

(١) «فقه السيرة» (١٢٤، ١٢٥) باختصار.

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام قال: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**»، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر. قال: فاعترض القول، والبراء يُكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**»[(١)].

قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: «**أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم**»، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبًا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، قال كعب: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور، ثم بايع بعده القوم.

فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب[(٢)] هل لكم في مذمم والصباة[(٣)] معه قد اجتمعوا على حربكم؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «**هذا أزب**[(٤)] **العقبة، هذا أزب العقبة** ـ ويقال: ابن أزيب ـ **استمع أي: عدو الله، أما والله لأفرغن لك**». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «**ارفضوا إلى رحالكم**»، قال: فقال له العباس بن عبادة بن فضالة، والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا،

(١) **قال ابن هشام**: ويقال الهدم الهدم: أي: ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٣/ ١٨٩).

(٢) **الجباجب**: المنازل.

(٣) **الصباة**: أي: الذين خرجوا عن دين آبائهم.

(٤) **أزب العقبة**: شيطانها، والأزب: القصير الماكر، والبخيل الخبيث.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم**»، قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤنا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، قال: فانبعث من هناك عن مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه. قال: وقد صدقوا، لم يعلموه، قال: وبعضنا ينظر إلى بعض، قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان جديدان قال: فقلت له كلمة كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث فخلعها من رجليه، ثم رمى بها إليَّ، وقال: والله لتنعلنهما، قال: يقول: أبو جابر: مه أحفظت والله الفتى فاردد إليه نعليه، قال: قلت: لا، والله لا أردهما فأل والله صالح لئن صدق الفأل لأسلبنه»[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال الغزالي:** تلكم بيعة العقبة وما أبرم فيها من مواثيق وما دار فيها من محاورات، إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع، وتمشت في كل كلمة قيلت، وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملي العهود، كلا فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم، والمغانم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة.

---

(١) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق (٢/ ١٨٧-١٩٢) بأطول من هذا، وعنه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٦٠-٤٦٣)، والطبراني (١٩/ ٨٧-٩١)، والحديث بطوله في «مجمع الزوائد» (٦/ ٤٢-٤٦)، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع، وقال الألباني في «تحقيق فقه السيرة»: وهذا سند صحيح، وصححه ابن حبان كما في «الفتح» (٧/ ٤٧٥).

فقد جاءوا من يثرب مؤمنين أشد الإيمان، وملبين داعي التضحية مع أن معرفتهم بالنبي ﷺ كان لمحة عابرة غبرت عليها الأيام، وكان الظن بها أن تزول، لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة والثقة، إنه القرآن، لئن كان الأنصار قبل بيعته الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لمامًا، إن الوحي المشع من السماء أضاء لهم الطريق وأوضح الغاية. لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن، سال على ألسنة الحفاظ وتداولته صحائف السفرة الكرام البررة، والقرآن النازل بمكة صَوّر جزاء الآخرة رأي العين، فتوشك أن تمد يدك تقطف من أثمار الجنة، ويستطيع الأعرابي المتعشق للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أنهار النعيم، والرحيق المختوم.

وحكى القرآن أخبار الأولين كيف أخلص المؤمنين فنجوا مع رسلهم؟ وكيف طغى الكفار وأسكرهم الإمهال فَتَعَنَّتُوا وتجبروا؟ ثم حل العدل الإلهي فذهب الظالمون بددًا، وتركوا وراءهم دنيا مُدَبَّرة ودورًا خربة.

فَأَدْبَرُوا وَوُجُوه الأرضِ تَلْعَنُهُمْ ... كَباطِلٍ مِن جَلالِ الحَقِّ مُنْهَزِم

الإيمان بالله والحب فيه، والأخوة على دينه والتناصر باسمه، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها، يتدافع ليُعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم، ويمنعونه بأرواحهم فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء، إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه، وأرهقوا المسلمين حتى شغلوهم بأنفسهم فناموا نومة المجرم الذي اقترف الإثم وأمن القصاص.

حَسَّنتَ ظَنَّكَ بالأيَّامِ إذ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يأتي بِه القَدَرُ

وسَالمتك الليَّالي فَاغتررت بِها ... وَعِنْدَ صَفْو الليالي يُحْدُثُ الكَدرُ

أجل ففي الليلة تحالف جند الحق أن يقسموا ظهر الوثنية، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء[1].

---

(١) «فقه السيرة» (١٦١-١٦٣) باختصار.

٢ ـ لعل أصحاب الفكر المتسرع الذين يظنون أن الإسلام يمكن أن يُمكَّن بضربة خاطفة يعتبرون بما حدث في هذه البيعة، وكيف أن الأنصار وهم أهل حرب ودراية، وقد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل الوادي فيقتلونهم، فنهاهم ﷺ عن ذلك وقال: «**إني لم أومر بذلك**»، فتعجل الثمار قد يضيع الجهد المبذول، ولا تؤتي الحركة الإسلامية ثمارها، وتكون النتيجة خسارة الأفراد الموجودين وضياع دعوتهم في مقابل مصلحة متوهمة، وهذا شاهد لقول النبي ﷺ لخباب: «**ولكنكم تستعجلون**»[1].

٣ ـ **قال الأستاذ محمد سعيد رمضان:** يتجلى لدى التأمل فيما سردناه من كيفية بدء إسلام الأنصار، أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد مهَّد حياة المدينة وبيئتها لقبول الدعوة الإسلامية، وأنه كان في صدر أهل المدينة تهيؤ نفسي لقبول هذا الدين.

لقد كان سكان المدينة المنورة خليطًا من سكانها الأصليين وهم العرب المشركون واليهود المهاجرون إليها من أطراف الجزيرة، وكان المشركون ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين: **إحداهما:** الأوس. **والثانية:** الخزرج، وكان اليهود ثلاث قبائل: بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع. ولقد احتال اليهود طويلاً كعادتهم حتى زرعوا الضغائن بين قبيلتي الأوس والخزرج، فراح العرب يأكل بعضهم بعضًا في حروب طاحنة متلاحقة، وفي غمار هذه الخصومة الطويلة حالفت كل من الأوس والخزرج قبيلة من اليهود فحالف الأوس بني قريظة، وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع، وكان آخر ما بينهم من المواقع موقعة بُعاث، وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة، وكان يومًا عظيمًا مات فيه أكثر رؤسائهم، وفي أثناء ذلك كان كلما وقع شيء بين العرب واليهود، هدد اليهود في أثناء ذلك بأن نبيًا قد آن أوان بعثته، وأنهم سيكونون من أتباعه ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم.

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٨).

فهــذه الظروف جعلت لدى أهل المدينة تطلعًــا إلى هذا الدين، وعلقت منهم آمالاً قوية به، عسى أن تتــوحد بفضله صفوفهم ويعود فــيلتئم شملهم، وتذوب وتمحى أسباب الشقاق مما بينهم، ولقد كــان هذا مما صنعه الله لرسوله كما يقول ابن القيم فــي «زاد المعاد» حتى يمهــد بذلك لهجــرته إلى المدينة، حيث اقــتضت رحمة الله أن تكون هي المنطلق للمد الإسلامي في أرجاء الأرض كلها(١).

٤ ـ **قــال ابن إسحــاق:** وكان رسول الله ﷺ قبل بيعــة العقبة لم يُؤذن له في الحــرب ولم تحلل له الدمــاء، إنما يُؤمــر بالدعــاء إلى الله والصبــر على الأذى والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهــدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم، فهم بين مــفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فرارًا منهم، منهم مــن بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة وفي كل وجه، فلما عــتتْ قريش على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامــة، وكذَّبوا نبيــه ﷺ، وعذبوا ونفوا من عبــده وحده وصدق نــبيــه واعتــصم بدينه، أذن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لرســوله ﷺ في القتــال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء، والقتال لمن بغى عليهم فــيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قــول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴿٣٩﴾ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴿٤٠﴾ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ (الحج:٣٩-٤١)، أي: إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا، ولم يكن لهم ذنب فيمــا بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، يعني النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين(٢).

---

(١) «فقه السيرة» (١٢٦، ١٢٧) باختصار.

(٢) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٢/ ٢١١).

٥ - الهجرة المباركة
من
مكة إلى المدينة

- هجرة الصحابة رضي الله عنهم إلى المدينة
- هجرة النبي ﷺ وصاحبه رضي الله عنه

هجرة الصحابة ﷺ إلى المدينة

قال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ ما ملخصه: فلما تمت بيعة هؤلاء لرسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكانت سرًا على كفار قومهم وكفار قريش، أمر رسول الله ﷺ من كان معه من المسلمين بالهجرة إلى المدينة أرسالاً. فقيل: أول من خرج أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وحبست عنه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بمكة نحو سنة، ثم أذن لها في اللحاق بزوجها فانطلقت مهاجرة، وشيعها عثمان ابن طلحة وهو كافر إلى المدينة، ونزل أبو سلمة في قباء.

ثم عامر بن ربيعة حليف بني عدي بن كعب معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة ابن غانم، وهي أول ظعينة دخلت من المهاجرات إلى المدينة، ثم عبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد بن جحش الشاعر الأعمى، وأمها وأم إخوتها أميمة بنت عبد المطلب، وهاجر جميع بني جحش بنسائهم فعدا أبو سفيان على دارهم فتملكها إذ خلت منهم، وكانت الفارعة بنت أبي سفيان بن حرب تحت أبي أحمد ابن جحش، فنزل هؤلاء الأربعة بقباء.

وذكر جماعة إلى أن قال: ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة في عشرين راكبًا فقدموا المدينة، فنزلوا في العوالي في بني أمية بن زيد، وكان يصلي بهم سالم مولى أبي حذيفة وكان أكثرهم قرآنًا، وكان هشام بن العاص بن وائل قد أسلم وواعد عمر بن الخطاب أن يهاجر معه، وقال: تجدني أو أجدك عند أضاة بني غفار، ففطن لهشام قومه فحبسوه عن الهجرة، ثم إن أبا جهل والحارث بن هشام أتيا المدينة، فكلما عياش بن أبي ربيعة وكان أخاهما لأمهما وابن عمهما، وأخبراه أن أمه قد نذرت أن لا تغسل رأسها، ولا تستظل حتى تراه، فرقّت نفسه وصدقهما، وخرج راجعًا معهما فكتفاه في الطريق وبلغاه مكة، فحبساه بها مسجونًا إلى أن خلّصه الله بعد ذلك بدعاء رسول الله ﷺ له في قنوت الصلاة: «**اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة**

والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، ثم استنقذ الله عياش بن أبي ربيعة وسائرهم وهاجر إلى المدينة.

ثم قدم طلحة بن عبيد الله فنزل هو وصهيب بن سنان على خبيب بن إساف في بني الحارث بن الخزرج، ويقال: بل نزل طلحة على أبي أمامة أسعد بن زرارة، وكان صهيب ذا مال فاتبعته قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله، فلما أشرفوا عليه ونظر منهم ونظروا إليه قال لهم: قد تعلمون أنِّي من أرماكم رجلاً، ووالله لا تصلون إليَّ أو يموت منكم من شاء الله أن يموت، قالوا: فاترُك مالك وانهض، قال: مالي خلفته بمكة وأنا أعطيكم أمارة فتأخذونه، فعلموا صدقه وانصرفوا عنه إلى مكة، بما أعطاهم من الأمارة فأخذوا ماله، فنزلت فيه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ (البقرة: ٢٠٧).

ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت أخي حسان بن ثابت في بني النجار، ونزل العُزّاب على سعد بن خيثمة وكان عزبًا، ولم يبق بمكة أحد من المسلمين إلا رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعلي أقاما مع رسول الله ﷺ بأمره، وحبس قوم كرهًا، حبسهم قومهم، فكتب لهم أجر المهاجرين بما كانوا عليهم من حرصهم على الهجرة[1].

قال الغزالي: وهكذا أخذ المهاجرون يتركون مكة زُرافات ووحدانًا، حتى كادت مكة تخلو من المسلمين، وشعرت قريش بأن الإسلام أضحت له دار يأرز إليها، وحصن يحتمي به، وتوجست خيفة من هذه المرحلة الخطيرة في دعوة محمد ﷺ، وهاجت في دمائها غرائز السبع المفترس حين يخاف على حياته.

إن محمدًا ﷺ لا يزال في مكة وهو - لابد - مدرك أصحابه اليوم أو غدًا، فلنعجل به قبل أن يستدير إليها[2].

---

(١) باختصار من «الدرر في اختصار المغازي والسير» لابن عبد البر (٧٥-٧٩) بتحقيق د/ شوقي ضيف، ط/ دار المعارف.

(٢) «فقه السيرة» (١٦٨، ١٦٩).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال الأستاذ محمد سعيد رمضان:** كانت فتنة المسلمين من أصحاب النبي ﷺ في مكة فتنة الإيذاء والتعذيب، وما يرونه من المشركين من ألوان الهزء والسخرية، فلما أذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة أصبحت فتنتهم في ترك وطنهم وأموالهم ودورهم وأمتعتهم، ولقد كانوا أوفياء لدينهم مخلصين لربهم، أمام الفتنة الأولى والثانية قابلوا المحن والشدائد بصبر ثابت وعزم عنيد، حتى إذا أشار لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة توجهوا إليها، وقد تركوا من ورائهم الوطن ومالهم فيه من مال ومتاع ونسب، ذلك أنهم خرجوا مستخفين متسللين، ولا يتم ذلك إلا إذا تخلصوا من الأمتعة والأثقال، فتركوا كل ذلك في مكة ليسلم لهم الدين، واستعاضوا عنه بالإخوة الذين ينتظرونهم في المدينة ليؤوهم وينصروهم[1].

٢ ـ **وقال الأستاذ محب الدين الخطيب ـ رحمه الله ـ:** إن النفس الإسلامية يريد لها الإسلام أن تعيش في جو من النظام والحكم يسهل لها فهم هداية الإسلام، ويحبب إليها العمل بهذه الهداية في كل ضرب من ضروب الحياة، وتتوفر فيه حرية الدعوة إلى كل ما ينشده الإسلام من حقيقة وخير، فيتيسر القيام بها جهاراً في جميع أحوال الفرد المسلم والجماعة الإسلامية، ويكون فيه للحق قوة تقمع كل من يصد عن ذلك أو يحول بين المسلمين وبين الدعوة إلى هدايتهم، والعمل بها في بيوتهم وأسواقهم وأنديتهم ومجتمعاتهم، فإذا نشأت النفس الإسلامية ونمت تحت جناح نظام يقيم أحكام الإسلام، ويحمي دعوته، ويحمل الأمة على آدابه، كانت هذه النفس قوة للإسلام تعمل على رفعته وتوسيع دائرته، وتثمر في جناته، أما إذا نشأت ونمت تحت جناح نظام يُخالف الإسلام، ويخذل

---

(١) «فقه السيرة» (١٣٧).

دعوته، ولا يُربي الأمة على آدابه، فإن قوتها تكون معطلة عن تأييد الإسلام وتعميم هدايته[١].

٣ ـ **وقال الشيخ عبد العزيز بن راشد النجدي ما ملخصه:** في هجرة الرسول ﷺ وغيره فوائد كثيرة وعبرًا لمن تأملها نشير إلى جمل منها ليقتدى بهم المؤمن إذا أصابه من الظلمة كالذي أصاب أهل هذه الهجرة متى وجد طريقًا ومناصًا إلى أرض ينجو بدينه فيها، ويُوالي الدعوة إلى الله.

الأول: أن النبي ﷺ لم يخرج من بين قومه حتى هَمُّوا بقتله منعًا له من الدعوة إلى الحق كما أوصلوا إليه ما لا يحتمله من الأذى غيره، وفي هذا عبرة لمن دعا إلى دينه.

الثانية: أن أصحابه ﷺ هاجروا قبله إلى الحبشة والمدينة عندما ضعفوا عن احتمال الأذى مع البقاء على الدعوة إلى دينهم بمكة إلا القليل منهم ممن له منعة تحميه بينهم، فقد بقي معه بها لمحبته إياه، وقوته على الجهاد، وإقامة الحجة على أهل الفساد، والدفاع عن أهل الحق من المستضعفين وغيرهم، فمن كان هكذا فالأولى به أن لا ينتقل من بين الظَّلَمة ما صبر على أذاهم.

الثالثة: أن الإيمان الصحيح بالله وكتابه ورسوله إذا دخل القلوب وأشربته النفس عن علم وفهم لابد أن يؤتى أكله وثمراته من العمل الظاهري والجهاد بالنفس والمال.

الرابعة: كالشرح لما قبله أنهم فارقوا قومهم مفضلين ما بلغهم عن الله ورسوله ﷺ، ومؤثرين الحق مع ما فيه من مرارة على أعز شيء لديهم من مال وولد وأهل وعشيرة ووطن.

الخامسة: أنه لم يمنعهم من الهجرة لدواعيها قلة المال، ولا تعللوا بالعيال والأحبة، وما نشأوا عليه من الدعة والمكاسب التي كانوا ينالونها بمكة بأهون

---

(١) «من إلهامات الهجرة» (٨، ٩) المطبعة السلفية ومكتبتها.

الأسباب، لعلمهم أن كل هذا بل وجميع متع الدنيا لا يوازي ما أعده الله لهم على هجرتهم إليه، كما فهموا أن من ترك شيئًا عوض خيرًا منه دنيا وأخرى، كما حصل وصدقه الواقع.

السادسة: أنهم لم يرضوا بالذلة والخنوع تحت من لا يدين بدينهم ولا يرضى به، حكمًا حتى يحصلوا على قوة عدوهم أو قريب منهم تاركين ما يملكون وراء ظهورهم من غير أسلحة تذكر، معتمدين على الله مع أخذهم بالأسباب التي استطاعوها ويستطيعونها، كالتسلل، والمكر، وإخفاء أمرهم عن عدوهم، وجمع كلمتهم، واتحاد صفوفهم، والعمل مستقبلاً على إيجاد القوة والمنعة من كل عدو لهم، وبهذا وتأييد ربهم فتحوا البلاد النائية، فاستعرض أيها المؤمن صفات المسلمين الذين نسج عليه نير الاستعباد والاستعمار، وخيم عليهم كابوس الظلمة اليوم، وقبل اليوم تجدهم على ضد صفات من ذكرنا[١].

٤ ـ **وقال الغزالي**: ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى مخصبة، إنها إكراه رجل آمن في سربه، ممتد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه وتضحية أمواله والنجاة بشخصه فحسب، وإشعاره وهو يصفى مركزه بأنهم مستباح منهوب، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها، وهذه لا يطيقها إلا مؤمن، أما الخوّار القلق فما يستطيع شيئًا من ذلك، إنه من أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ (النساء:٦٦)، أما الرجال الذين التقوا بمحمد ﷺ في مكة وقبسوا منه أنوار الهدى وتواصوا بالحق والصبر، فإنهم نفروا خفافًا ساعة قيل لهم: هاجروا إلى حيث تعزّون الإسلام وتؤمّنون مستقبله، ونظر المشركون، فإذا ديار بمكة كانت عامرة بأهلها قد أقفرت، ومحال مؤنسة قد أمحلت[٢].

---

(١) «أصول السيرة المحمدية» (٧١-٧٣) باختصار.
(٢) «فقه السيرة» (١٦٦، ١٦٧) باختصار.



هجرة النبي ﷺ وصاحبه رضي الله عنه

قال ابن إسحاق: وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحاب من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُبس أو فُتن إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر ابن أبي قحافة الصديق رضي الله عنهما، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: «**لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا، فيطمع أبو بكر أن يكونه**».

قال الغزالي: واجتمع طواغيت مكة في دار الندوة ليتخذوا قرارًا حاسمًا في هذا الأمر، فرأى بعضهم: أن تُوضع القيود في يد محمد ﷺ ويُشَدُّ وثاقه ويُرمى به في السجن لا يصله منهم إلا الطعام ويترك على ذلك حتى يموت، ورأى آخر: أن ينفى من مكة فلا يدخلها وتنفض قريش يديها من أمره، وقد استبعد هذان الاقتراحان لعدم جدواهما، واستقر الرأي على الاقتراح الذي أبداه أبو جهل، قال أبو جهل: أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابًا نسيبًا وسطًا فتيًا، ثم نُعطي كل فتى سيفًا صارمًا، ثم يضربونه جميعًا ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن أن بني هاشم يقوون على حرب قريش كافة، فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها.

ورضي المؤتمرون بهذا الحل للمشكلة التي حيرتهم، وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه، وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة بقوله: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[1] (الأنفال: ٣٠).

وهذا حديث هجرة النبي ﷺ كما روته عائشة رضي الله عنها، وساقه البخاري في أصح كتب السنة، وبعد أن ذكرت قصة جوار ابن الدغنة لأبي بكر، ورده رضي الله عنه جواره قالت: والنبي ﷺ يومئذٍ بمكة، فقال النبي ﷺ للمسلمين: «**إني أُريتُ**

---

(١) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٢/ ٢٢١).

دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة»، وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله ﷺ : «على رسلك فإني أرجو أن يؤذن»، فقال أبوبكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه[1].

وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمر ـ وهو الخبط ـ أربعة أشهر.

قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة: بينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا ـ في ساعة لم يكن يأتينا فيها ـ فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأمي، والله ما جاء في هذه الساعة إلا أمر. قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرج من عندك»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: «فإني قد أذن لي في الخروج».

فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ : «نعم»، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، فقال رسول الله ﷺ : «بالثمن»، قال عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعتْ أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطتْ به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق. قالت: لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيُصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع شيئًا يكتادان فيه إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك، حتى يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فُهيْرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل ـ وهو

(١) «فقه السيرة» (١٦٩) وهو باختصار، من «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٢/ ٢٢١-٢٢٣).

لبن منحتهما ورضيفهما - حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من الدِّيل - وهو من بني عبد بن عدي هاديًا خِرِّيتًا - **والخريت**: الماهر بالهداية قد غَمسَ حلفًا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما - وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدّليل فأخذ بهم طريق السواحل»[1].

ثم روى البخاري بسنده عن ابن شهاب قال: وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدْلجي - وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشُم - أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٧٢، ٢٧٣) مناقب الأنصار. قال الحافظ: «**بين لابتين وهما الحرتان**» هذا مدرج في الخبر وهو من تفسير الزهري، **والحرة**: أرض حجارتها سُود وهذه الرؤيا غير الرؤيا السابقة أول الباب. اهـ. وهو ما رواه البخاري عن أبي موسى، عن النبي ﷺ، «**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب**»، ذكره البخاري هنا تعليقًا مجزومًا به (٧/ ٢٦٧) مناقب الأنصار: باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

قوله: «**نحر الظهيرة**» أي: أول الزوال وهو أشد ما يكون في حرارة النهار.

قوله: «**هذا رسول الله متقنعًا**» أي: مغطيًا رأسه.

قوله: «**إنما هم أهلك**» أشار بذلك إلى عائشة وأسماء.

قوله: «**الصحابة**» أي: أريد المصاحبة.

قوله: «**بالثمن**» قال السهيلي في «الروض» عن بعض شيوخ المغرب: أنه سُئل عن امتناعه من أخذ الراحلة مع أن أبا بكر أنفق عليه ماله، فقال: أحب أن لا تكون هجرته إلا من مال نفسه.

قوله: «**وصنعنا له سفرة في جراب**» أي: زادًا في جراب.

قوله: «**فيدلج**» أي: يخرج بسحر إلى مكة.

قوله: «**في رسل**» اللبن الطري.

قوله: «**والخريت الماهر بالهداية**» هو: مدرج في الخبر من كلام الزهري.

قوله: «**قد غمس حلفًا**» أي: كان حليفًا وكانوا إذا تحالفوا غمسوا أيديهم في دم أو خلوق، أو في شيء يكون فيه تلويث، فيكون ذلك تأكيدًا للحلف.

جلوس فقال: يا سراقة، إني رأيتُ أسودة بالساحل، أراها محمدًا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت لهم: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا، ثم لبثتُ في المجلس ساعة ثم قمتُ فدخلتُ فأمرتُ جاريتي أن تخرج بفرسي - وهي من وراء أكمة - فتحبسها عليَّ وأخذت رمحي فخرجتُ به من ظهر البيت فخططت بزُجّه الأرض وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوتُ منهم، فعثرت بي فرسي فخرزتُ عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره فركبتُ فرسي - وعصيت الأزلام - تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يد فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدُّخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدِّية، وأخبرتهم أخبار ما يُريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني، ولم يسألاني، إلا أن قال: «**أخْفِ عنا**»، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فُهيرة فكتب في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ[1].

---

(١) سيأتي تخريج الحديث (ص ١٣٥).

قال الحافظ: قوله: «**رأيت آنفًا**» أي: في هذه الساعة. «**أسودة**» أي: أشخاصًا.

قوله: «**وخفضت**» أي: أمسكه بيده وجرَّ زُجه على الأرض فخطها بها، لئلا يظهر بريقه لمن بعد منه، لأنه كره أن يتبعه منهم أحد فيشركوه في الجعالة.

قوله: «**تقرب بي**» التقريب: السير دون العدو وفوق العادة.

قوله: «**الأزلام**» هي الأقداح، وهي السهام التي لا ريش لها ولا نصل.

قوله: «**فخرج الذي أكره**» أي: لا تضرهم.

=

قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارًا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرةِ فينتظرونه، حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود إلى أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر رسول الله ﷺ وأصحابه مُبيّضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقَّوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار - ممن لم ير رسول الله ﷺ - يُحَيِّ أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلى فيه يومئذٍ رجال من المسلمين، وكان مربدًا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت راحلته: «**هذا إن شاء الله المنزل**»، ثم دعا

= قوله: «**فدعا عليه النبي ﷺ**» وفي رواية خليفة في حديث البراء عند الإسماعيلي «فقال: **اللهم اكفناه بما شئت**»، وفي حديث أنس وهو الثامن عشر من أحاديث الباب: فالتفت النبي ﷺ فقال: «**اللهم اصرعه فصرعه فرسه**».

قوله: «**ساخت**» أي: غاصت.

قوله: «**عثان**» أي: دخان، وقيل: دخان بغير نار، وقيل: غبار.

قوله: «**فناديتهم بالأمان**» وفي رواية أبي خليفة: «قد علمت يا محمد أن هذا عملك، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، والله لأعمين عليك من ورائي» أي: الطلب.

قوله: «**فلم يرزآني**» أي: لم ينقصاني مما معي شيئًا، باختصار وتصرف من «الفتح» (٧/ ٢٨٣-٢٨٥).

رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدًا، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدًا، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن:

هَذا الحِمالُ لا حِمالُ خَيْبَر	هَذا أَبَرُّ رَبَّنا وَأَطْهَر
اللَّهُمَّ إنَّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخِرَه	فَارْحَم الأَنْصَارَ وَالمُهَاجِرَه

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يُسَمّ لي، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا - في الأحاديث - أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: «أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يُعرف ونبي الله ﷺ شاب لا يُعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر مَنْ هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل. قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير، فالتفت أبو بكر، فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال: يا رسول الله هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت نبي الله ﷺ فقال: «**اللهم اصرعه**»، فصرعه الفرس، ثم قامت تحمحم، فقال: يا نبي الله مرني بما شئت؟ فقال: «**فقف**

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٨١، ٢٨٢) مناقب الأنصار.

قال الحافظ: قوله «**يغدون**» أي: يخرجون غدوة: «**حتى يردهم**» وفي رواية ابن سعد: «**فإذا أحرقتهم الشمس رجعوا إلى منازلهم**». قوله: «**أوفى رجل من يهود**» أي: طلع إلى مكان عال فأشرف منه. قوله: «**أطم**» وهو الحصن، ويقال: لكل بناء من حجارة كالقصر. قوله: «**مبيضين**» أي: عليهم الثياب البيض التي كساهم إياها الزبير أو طلحة. قوله: «**يزول بهم السراب**» أي: يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له. قوله: «**يا معشر العرب**»، وفي رواية عبد الرحمن بن عويم «**يا بني قيلة**»، وهي الجدة الكبرى للأنصار، والدة الأوس والخزرج، وهي قيلة بنت كاهل بن عذرة. قوله: «**هذا جدكم**» أي: حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه. قوله: «**وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول**» وهذا هو المعتمد، وشذَّ من قال يوم الجمعة، وفي رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب «**قدمها لهلال ربيع الأول**» أي: أول يوم فيه، باختصار من «الفتح» (٧/ ٢٨٦، ٢٨٧).

مكانك، **لا تتركن أحداً يلحق بنا**»، قال: فكان أول النهار جاهداً على نبي الله ﷺ، وكان آخر النهار مَسْلَحَةً له، فنزل رسول الله ﷺ جانب الحرة، ثم بعث إلى الأنصار، فجاءوا إلى نبي الله ﷺ وأبي بكر فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب نبي الله ﷺ وأبو بكر وحَفُّوا دونهما بالسلاح، فقيل في المدينة: جاء نبي الله، جاء نبي الله ﷺ، فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله، فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدث أهله إذ سمع عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فَعَجِل أن يضع الذي يخترف لهم فيها، فجاء وهي معه فسمع من نبي الله ﷺ ثم رجع إلى أهله، فقال نبي الله ﷺ: «**أيُّ بيوت أهلنا أقرب؟**»، فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، قال: «**فانطلق فهيِّىء لنا مقيلاً**». قال: قوما على بركة الله.

فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق، وقد علمتْ يهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمتُ، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمتُ قالوا فيَّ ما ليس فيَّ فأرسل نبي الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق فأسلموا**».

قالوا: ما نعلمه ـ قالوا للنبي ﷺ قالها ثلاث مرار، قال: «**فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟**» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «**أفرأيتم إن أسلم؟**» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم. قال: «**أفرأيتم إن أسلم؟**»، قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم. قال: «**أفرأيتم إن أسلم؟**» قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: «**يا بن سلام اخرج عليهم**»، فخرج فقال: يا معشر اليهود اتقوا الله،

فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحقٍ، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ (١).

ومن أحاديث الهجرة في «صحيح البخاري»، كذلك ما رواه أنس عن أبي بكر رضي الله عنه قال: كنتُ مع النبي ﷺ في الغار فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بأقدام القوم فقلت: يا نبي الله! لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا، قال: «**اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما**» (٢).

وقبل أن ننتقل إلى الفوائد والآثار الإيمانية نُشير إلى حادثتين حدثتا في خلال الهجرة، روى الأولى: البخاري في «صحيحه»، والثانية: الحاكم والطبراني.

روى البخاري عن البراء قال: ابتاع أبو بكر من عازب رحلاً فحملته معه، قال: فسأله عازب، عن سير رسول الله ﷺ قال: «أخذ علينا بالرصد»، فخرجنا ليلاً، فأحثثنا ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة، ثم رفعت لنا صخرة

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٩٤) مناقب الأنصار.

قال الحافظ: قوله: «**مردف**» يحتمل أنه مردف خلفه على راحلته، ويحتمل أن يكون على راحلة أخرى، قال الله تعالى: ﴿**بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ أي: يتلو بعضهم بعضًا. قوله: «**وأبو بكر شيخ**» يريد أنه قد شاب. وقوله: «**يعرف**» أي: لأنه كان يمر على أهل المدينة في سفر التجارة بخلاف النبي ﷺ في الأمرين، فإنه كان بعيد العهد بالسفر من مكة، ولم يشب، وإلا ففي نفس الأمر كان هو - عليه الصلاة والسلام - أسن من أبي بكر. ثبت في «صحيح مسلم» عن معاوية أنه عاش ثلاثًا وستين سنة وكان قد عاش بعد النبي ﷺ سنتين وأشهرًا، فيلزم على الصحيح في سن أبي بكر أن يكون أصغر من النبي ﷺ بأكثر من سنتين. قوله: «**يهديني السبيل**» بيّن سبب ذلك ابن سعد في رواية له: «أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: **أله الناس عني**، فكان إذا سُئل من أنت؟ قال: باغي حاجة، فإذا قيل من معك؟ قال: هاد يهديني» يريد الهداية في الدين و يحسبه الآخر دليلاً.

قوله: «**فإنه ليحدث أهله**» الضمير للنبي ﷺ. قوله: «**فجاء وهي معه**» أي: الثمرة التي اجتناها.

قوله: «**فسمع من نبي الله** ﷺ، **ثم رجع إلى أهله**» وقع عند أحمد، والترمذي، وصححه هو والحاكم من طريق زرارة بن أوفى عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب».

قوله: «**فهيِّء لنا مقيلاً**» أي: مكانًا نقيم فيه القيلولة.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢ ٣) مناقب الأنصار.

فأتيناها ولهـا شيء من ظل. قال: فـفرشت لرسول الله ﷺ فـروة معي، ثم اضطجع عليها النبي ﷺ، فانطلقت أنفض ما حوله، فإذا أنا براع قد أقبل في غنمه يريد من الصـخرة مثل الذي أردنا، فـسألته: لمن أنت يا غلام؟ فـقال: أنا لفلان. فقلت له: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، فقلت له: هل أنت حالب؟ قال: نعم، فأخذ شـاة من غنمه، فقلت له: انفض الضَّرع. قال: فـحلب كُثْبةً من لبن، ومعه إدواة من ماء عليها خرقـة قد روأتها لرسول الله ﷺ، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، ثم أتيت به النبي ﷺ فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت، ثم ارتحلنا والطلب في إثرنا[1].

وعن قيس بن النعمـان قال: لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر مستـخفيان نزلا بأبي معـبد، فقال: والله مـا لنا شاة، وإن شاءنا لحوامل فـما بقي لنا لبن، فقال رسول الله ﷺ أحسبه: **فما تلك الشاة؟** فأتى بها فدعا رسول الله ﷺ بالبركـة عليها، ثم حلب عُـسًا فسـقاه، ثم شربوا فـقال: أنت الذي تزعم أنك صابئ، قال: إنهم يقولون: قال: أشهـد أن ما جئت به حق، قال: أتبعك قال: «**لا، حتى تسمع أنا قد ظهرنا**» فاتبعه بعد[2].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٣٠٠) مناقب الأنصار.

قال الحافظ: قوله: «**ففرشت لرسول الله ﷺ فروة**» فسرها صاحب «النهاية» بأنها الأرض اليابسة. وقيل: اللباس المعروف. وهذا هو الراجح بل هو الظاهر. قوله: «**قد روأتها**» أي: تأنيت بها حتى صلحت، تقول روأت في الأمر إذا نظرت فيه ولم تعجل، باختصار من «الفتح» (٧/ ٣٠١).

(٢) قال الهيثمي: رواه البزار ورجاله رجـال «الصحيح» (٦/ ٥٨) «مجمع الزوائد». وله شاهد عند الحاكم (٣/ ٩، ١٠) من حديث هشـام بن حبيش بن خـويلد صاحب رسول الله ﷺ وقـال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ويسـتدل على صحته وصدق رواته بدلائل: **فمنها:** نزول المصطفى ﷺ بالخيـمتين متواتر في أخـبار صحيـحة ذوات عدد ومنهـا: أن الذين ساقوا الحديث على وجـهه أهل الخيمـتين من الأعاريب الذين لا يتهمـون بوضع الأحاديث والزيادة والنقصان، وقـد أخذوه لفظًا بعد لفظ عن أبي معبد وأم معبد. **ومنها:** أن له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه والأب عن جده لا إرسال، ولا وهن في الرواة. **ومنها:** أن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبي معبد كما أخذه ولده عنه. وحسنه محقق «زاد المعاد» (٣/ ٥٧). وقال الألباني: للحديث طريقين آخرين أوردهما الحافظ ابن كثير في «البداية» (٣/ ١٩٢-١٩٤)، فالحديث بهذه الطرق لا ينزل عن رتبة الحسن، والله أعلم.

ونختم قصة الهجرة بهذه الأبيات الطيبة التي قالها أبو قيس صرمة الأنصاري:

ثَوَى في قُرَيش بِضْعَ عَشْرة حُجَّة ... يَذكُر لَوْ يَلقَى حَبيبًا مُوَاتيا

وَيعرضُ فِي أَهْلِ المواسمِ نَفْسُه ... فَلم يَرَ مَن يُؤى وَلَم يَر دَاعِيا

فَلَمَّا أتانَا واستقرَّت بِه النَّوى ... وَأَصْبَحَ مَسرُورًا بِطَيبَة رَاضِيا

وَأَصْبَحِ لا يَخْشَى ظَلامَة ظَالِمٌ ... بَعِيد ولا يَخْشَى مَن النَّاس بَاغِيا

بَذَلْنَا لَه الأَمْوَالَ مِنْ حلٍّ مَالِنا ... وَأَنفُسَنا عِنْدَ الوَغي والتآسِيا

نُعَادي الَّذي عَادَى مِن النَّاس كُلُهم ... جَميعًا وإِنْ كَان الحبيبُ المصَافِيا

وَنْعلَمُ أَنْ الله لا ربَّ غَيْرَهُ ... وَأَنْ كِتَابَ الله أَصْبَحِ هَادِيا[1]

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - قال الله تعالى في ذكر الهجرة: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠).

قال الغزالي: والجنود التي يخذل بها الباطل، وينصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين من السلاح ولا صورة خاصة من الخوارق، إنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية، وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل في فخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذي لجب: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ (المدثر: ٣١)، ومن صنع الله لنبيه أن تعمى عنه عيون عداته وهو منهم على مد الطرف، ولم يكن ذلك محاباة من القدر لقوم فرطوا في أسباب النجاة، بل هو مكافأة القدر لقوم لم يدعوا وسيلة من وسائل الحذر إلا اتخذوها، وكم من خطّة يضعها أصحابها فيبلغون بها نهاية الإتقان تمر بها فترات عصيبة لأمور فوق الإرادة أو

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٥١٢)، و«زاد المعاد» (٣/ ٦٠).

وراء الحسبان ثم تستقر أخيرًا وفق مقتضيات الحكمة العليا وفي حدود قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١).

٢ ـ **وقال القاسمي:** قال بعض مفسري الزيدية: استدل على عظيم محل أبي بكر من هذه الآية من وجوه: قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وقوله: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ (التوبة: ٤٠)، قيل: على أبي بكر، عن أبي علي والأصم.

قال أبو علي: لأنه الخائف المحتاج إلى الأمن، وقيل: على الرسول ﷺ عن الزجاج، وأبي مسلم، قال: جار الله: من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر؛ لأنه رد كتاب الله تعالى[١].

٣ ـ **وقال الدكتور مصطفى السباعي في الدروس والعظات:** إن الجندي الصادق المخلص لدعوة الإصلاح يفدي قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة، وفي هلاكه خذلانها ووهنها، فما فعله علي رضي الله عنه ليلة الهجرة في بياته على فراش الرسول ﷺ تضحية بحياته في سبيل الإبقاء على حياة رسول الله ﷺ، إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس علي رضي الله عنه انتقامًا منه؛ لأنه سهَّل لرسول الله ﷺ النجاة، ولكن عليًا رضي الله عنه لم يُبالِ بذلك، فحسبه أن يسلم رسول الله ﷺ نبي الأمة وقائد الدعوة[٢].

٤ ـ **وقال أيضًا:** عمى أبصار المشركين عن رؤية رسول الله ﷺ وصاحبه في غار ثور وهم عنده، وفيما تحكيه لنا الروايات من نسيج العنكبوت وتفريخ الطير[٣] على فم الغار مثل تخشع له القلوب من أمثلة العناية الإلهية برسله

---

(١) «محاسن التأويل» (٨/٢١٨).

(٢) «السيرة النبوية دروس وعبر» (٦٧، ٦٨).

(٣) يكفي في ذلك ما رواه أنس عن أبي بكر رضي الله عنه قال: «كنتُ مع النبي ﷺ في الغار فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا قال: **«اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما»**»، تقدم تخريجه (ص١٣٧). وقد ضعف العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ نسج العنكبوت وتفريخ الطير.

ودعاته وأحبابه، فما كان الله في رحمته لعباده ليسمح أن يقع الرسول ﷺ في قبضة المشركين فيقضوا عليه وعلى دعوته، وهو الذي أرسله رحمة للعالمين، وكذلك يعود الله عباده الدعاة المخلصين أن يلطف به في ساعات الشدة، وينقذهم من المآزق والغدر، وليس في نجاة الرسول وصاحبه بعد أن أحاط بهما المشركون في غار ثور إلا تصديق قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١)، وقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[١] (الحج: ٣٨).

٥ ـ **وقال الأستاذ منير الغضبان:** فالبرغم من أن السرية التامة كانت على الجميع حتى من العصبة المسلمة ما عدا من اشترك فيها: عائشة وأسماء وأبو بكر وابن أريقط، وابن فهيرة ورسول الله ﷺ؛ مع هذا كله تكشف جانب من الخطة كان فوق التقدير البشري، فتلقاه رسول الله ﷺ بالتسليم المطلق: «**لا تَحْزَن إنَّ الله مَعَنا، ما قَوْلُكَ فِي اثْنَيْنِ اللهُ ثالِثهُما**»، وما أحرانا نحن وقد شهدنا عبقرية التخطيط للهجرة أن لا تغيب عنا هذه الجوانب الثلاثة:

أولاً: علينا أن نستفرغ الوسع ونبذل كل الطاقة في التخطيط البشري.

ثانيًا: أن يكون اتكالنا على الله تعالى دون اعتمادنا على الأسباب.

ثالثًا: أن نقبل قضاء الله وقدره فيما هو فوق طاقتنا، ونطمئن إلى أنه خير للإسلام والمسلمين[٢].

٦ ـ **وقال كذلك:** إنه حين ينتهي الجهد البشري المطلوب، وحين تستنفذ الطاقة البشرية، فالله تعالى أرحم بنبيه وصاحبه من أن يجعلهما ظفرًا لعدوهما، ولقد قرر الله تعالى في محكم التنزيل هذا المعنى، إذ أكد حمايته لنبيه ونصره له حين تخلت عنه قوة الأرض، وحين كان المسلمون كلهم كقوة بشرية قائمة في المدينة

---

(١) «السيرة النبوية دروس وعبر» (٧١).
(٢) «المنهج الحركي للسيرة النبوية» (١/ ١٩٨، ١٩٩).

أو مختفية في مكة ليس معه للحماية إلا إنسان واحد: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠).

فقوة الأرض كلها بعيدة عن النبي ﷺ المؤمنون والكافرون ووصل إلى قبضة الطاغوت، وأكد رسول الله ﷺ لصاحبه: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، والدعاة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بحاجة دائمًا إلى أن يكون راسخًا في أعماقهم دائمًا عون الله لهم حين تعجز قوتهم البشرية عن إدراك ما يخطط لهم العدو بعد استنفاد الطاقة واستفراغ الوسع، وأن تكون لديهم القناعة التامة كذلك أن النصر أولاً وأخيرًا بيد الله[١].

٧ ـ **قال الغزالي ما ملخصه:** إن أسفار الصحراء توهي العمالقة الأمنين، فكيف بركب مهدر الدم؟ مستباح الحق، ما يحس هذه المتاعب إلا من صلى نارها. وللعرب طاقة على احتمال هذا الشظف مع قلة الزاد والري، وقد مر بك أن الرسول ﷺ وهو طفل ـ قطع هذه الطريق ذهب مع أمه لزيارة قبر أبيه ثم دعا وحده، وإنه الآن ليقطعها وقد بلغ الثلاثة والخمسين، لا لزيارة أبويه الذين ماتا بالمدينة، بل لرعاية رسالته التي تشبثت بأرض يثرب جذورها بعد أن تبرمت مكة بها وبصاحبها وممن حوله، إنه أرسخ أهل الأرض يقينًا بأن الله ناصره ومظهر دينه بيد أنه أسف للفظاظة التي قوبل بها، وللجحود الذي لاحقه من بدء رسالته حتى اضطره إلى الهجرة على هذا النحو العنيف هاهو ذا يخرج من مكة مهاجرًا إلى الله[٢].

٨ ـ **وقال كذلك:** لا نعرف بشرًا أحق بنصر الله وأجدر بتأييده مثل الرسول ﷺ

---

(١) «المنهج الحركي للسيرة النبوية» (١/ ١٩٣).
(٢) «فقه السيرة» للغزالي (١٧٢-١٧٩) باختصار.

الذي لاقى في جنب الله ما لاقى، ومع ذلك فإن استحقاق التأييد الأعلى لا يعني التفريط قيد أنملة في استجماع أسبابه وتوفير وسائله، ومن ثم فإنَّ رسول الله ﷺ أحكم خطة هجرته، وأعدَّ لكل فرض عدته، ولم يدع في حسبانه مكانًا للحظوظ العمياء.

وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة أن يقوم بها كأنها كل شيء في النجاح، ثم يتوكل بعد ذلك على الله؛ لأن كل شيء لا قيام له إلا بالله، فإذا استفرغ المرء جهوده في أداء واجبه فأخفق بعد ذلك، فإن الله لا يلومه على هزيمة بُلِي بها، وقلما يحدث ذلك إلا عن قدر قاهر يعذر المرء فيه، وكثيراً ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيبًا حسنًا، ثم يجيء عون أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الثمار، كالسفينة التي يشق عُباب الماء بها ربان ماهر، فإذا التيار يساعدها والريح تهب إلى وجهتها، فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهي إلى غايتها في أقصر من وقتها المقرر. وهجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة جرت على هذا الغرار[1].

٩ ـ **وقال الشيخ الخضري ـ رحمه الله ـ:** وبهذه الهجرة تمت لرسولنا ﷺ سنة إخوانه من الأنبياء من قبله، فما من نبي منهم إلا نَبَتْ به بلاد نشأته فهاجر عنها، من إبراهيم أبي الأنبياء وخليل الله، إلى عيسى كلمة الله وروحه، كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم أهينوا من عشائرهم فصبروا ليكونوا مثالاً لما يأتي بعدهم من متبعيهم في الثبات والصبر على المكاره ما دام ذلك في ذات الله[2]. قلت: ولذلك قال له ورقة: «ليتني فيها جزعًا إذ يخرجك قومك»[3].

وقال الله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**﴾ (إبراهيم: ١٣).

---

(١) «فقه السيرة» للغزالي (١٧١).

(٢) «نور اليقين» (ص٧٤).

(٣) تقدم تخريجه (ص٥٢).

١٠ ـ **قال الغزالي:** يا عجبًا لنقائض الحياة واختلاف الناس، إن الذي شهرت مكة سلاحها لتقتله ولم ترجع عنه إلا مقهورة، استقبلته المدينة وهي جزلانة طروب، وتنافس رجالها يعرضون عليه المنعة والعدة والعدد[١].

١١ ـ **وقال محمد سعيد رمضان:** قد يخطر في بال المسلم أن يقرن بين هجرة عمر بن الخطاب ﷺ، وهجرة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، **ويتساءل:** لماذا هاجر عمر علانية متحديًا المشركين دون أي خوف ووجل، على حين هاجر رسول الله ﷺ مستخفيًا محتاطًا لنفسه، أيكون عمر بن الخطاب أشد جرأة من النبي ﷺ؟

والجواب: أن عمر بن الخطاب أو أي مسلم آخر غير رسول الله ﷺ يُعتبر تصرفه تصرفًا شخصيًا لا حجة تشريعية فيه، فله أن يتخير من الطرق والوسائل والأساليب ما يحلو له، وما يتفق مع قوة جرأته وإيمانه بالله تعالى، أما رسول الله ﷺ فهو مشرع، أي: أن جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تُعتبر تشريعًا لنا، ولذلك كانت سنته هي المصدر الثاني من مصادر التشريع مجموع أقواله وأفعاله وصفاته وتقريره، فلو أنه فعل كما فعل عمر لحسب الناس أن هذا هو الواجب، وأنه لا يجوز أخذ الحيطة والحذر والتخفي عند الخوف، مع أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أقام شريعته في هذه الدنيا على مقتضى الأسباب ومسبباتها، وإن كان الواقع الذي لاشك فيه أن ذلك بتسبب الله تعالى وإرادته، لأجل ذلك استعمل الرسول ﷺ كل الأسباب والوسائل المادية التي يهتدي إليها العقل البشري في مثل هذا العمل حتى لم يترك وسيلة من هذه الوسائل إلا اعتد بها واستعملها، فترك علي بن أبي طالب ينام في فراشه ويتغطى ببرده، واستعان بأحد المشركين ـ بعد أن أمنه ـ ليدله على الطرق الفرعية التي قد لا تخطر في بال الأعداء، وأقام في الغار ثلاثة أيام متخفيًا إلى آخر ما

(١) «فقه السيرة» للغزالي (١٨٣).

عبّأه من الاحتياطات المادية التي قد يفكر بها العقل، ليوضح بذلك أن الإيمان بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا ينافي استعمال الأسباب المادية التي أرادت حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن تكون أسبابًا[1].

١٢ ـ **وقال أيضًا:** وتكشف لنا الصورة التي استقبلت بها المدينة المنورة رسول الله ﷺ عن مدى المحبة الشديدة التي كانت تفيض بها أفئدة الأنصار من أهل المدينة رجالاً ونساءً وأطفالاً، لقد كانوا يخرجون كل يوم إلى ظاهر المدينة ينتظرون تحت لفح الشمس وصول رسول الله ﷺ إليهم حتى إذا هبَّ النهار ليدبر عادوا أدراجهم ليعودوا إلى الانتظار صباح اليوم التالي، فلما طلع الرسول ﷺ عليهم جاشت العواطف في صدورهم، وانطلقت ألسنتهم تهتف بالقصائد والأهازيج فرحًا لمراه ﷺ ومقدمه عليهم، ولقد بادلهم رسول الله ﷺ نفس المحبة حتى إنه جعل ينظر إلى ولائد بني النجار من حوله وهم ينشدن ويتغنين بمقدمه قائلاً: «**أتحببنني؟ والله إن قلبي ليحبكن**»[2].

١٣ ـ **وقال العلامة محب الدين الخطيب:** لو أننا فهمنا الحكمة التي انطوت عليها حادثة الهجرة، وعلمنا أن كتاب الله الذي نتلوه قد أنحى باللائمة على جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في مكة يصلون ويصومون، ولكنهم ارتضوا البقاء تحت جناح أنظمة تُخالف الإسلام، فلا قوة لهم على تغييرها، ولم يهاجروا إلى قلعة الإسلام ليكونوا من جنوده المتحفزين لتغيير تلك الأنظمة، لعلمنا أن الإسلام لا يكتفي من أهله بالصلاة والصوم، بل يريد منهم مع ذلك أن يقيموا أنظمته وآدابه في بيوتهم وأسواقهم وأنديتهم، ومجامعهم ودواوين حكمهم، وأن عليهم أن يتوسلوا بجميع الوسائل لتحقيق هذا الغرض الإسلامي بادئين به من البيت وملاحظين ذلك في تربية من تحت أمانتهم من بنات وبنين، ومتعاونين عليه مع من يُنشد للإسلام الرفعة والازدهار من إخوانهم، حتى إذا

(١) «فقه السيرة» للبوطي (١٤٤، ١٤٥) باختصار.

(٢) المصدر السابق (١٤٧).

عمَّ هذا الإصلاح أرجاء واسعة، تلاشت تحت أشعته ظلمات الباطل، فكان لهذا الأسلوب من أساليب الهجرة مثل الآثار التي كانت لهجرة النبي ﷺ وأصحابه الأولين.

روى مسلم في كتاب الإمارة في «صحيحه» عن أبي عثمان النهدي أن مجاشع ابن مسعود السلمي قال: جئتُ بأخي أبي معبد إلى رسول الله ﷺ بعد الفتح، فقلت: يا رسول الله بايعه على الهجرة، فقال ﷺ: «**قد مضت الهجرة بأهلها**»، قال مجاشع: فبأي شيء تبايعه؟ قال: «**على الإسلام والجهاد والخير**»، قال أبو عثمان النهدي: فلقيتُ أبا معبد فأخبرته بقول مجاشع فقال: «**صدق**»[(١)].

وفي كتب السنة وبعضه في «الصحيحين» عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وفضالة بن عبيد بن ناقد الأنصاري أن النبي ﷺ قال: «**المهاجر من هجر السيئات**»[(٢)]. فإلى الهجرة أيها المسلمون. إلى هجر الخطايا والذنوب. إلى هجر ما يُخالف أنظمة الإسلام في بيوتنا، وما نقوم به من أعمالنا، إلى هجر الضعف والبطالة والإهمال والترف والكذب والرياء، ووضع الأشياء في غير موضعها[(٣)].

١٤ ـ **وقال الدكتور محمد أبو فارس:** إن الهجرة أهم حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية إذ بالهجرة تكون الكيان السياسي للأمة الإسلامية لنشر الإسلام والدفاع عن حرماته، ولأهميتها كان التأريخ بالهجرة ولم يكن بغيرها من الأحداث الهامة كالميلاد والبعثة أو وقعة بدر أو ما شابهه. ولم يُؤرخ المسلمون بتأريخ غيرهم حفاظًا على استقلالية الأمة وتميزها، تُعلمنا الهجرة كيف أن على الدعاة أن يبحثوا دائمًا عن أماكن خصبة للدعوة تكون مركز انطلاق ونواة تأسيس[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (١٣/ ٧) الإمارة.

(٢) رواه البخاري (١/ ٦٩) الإيمان، ومسلم (٢/ ١٠) الإيمان، وأبوداود (٢٤٦٤) الجهاد، والنسائي (٨/ ١٠٥) الإيمان.

(٣) باختصار من «إلهامات الهجرة» (١١-١٤)، المطبعة السلفية ومكتبتها.

(٤) «في ظلال السيرة النبوية» نقلاً عن «الأساس في السنة» لسعيد حوى (١/ ٣٥٨).

٦ - ما بين قدوم النبي ﷺ المدينة وغزوة بدر الكبرى ويمكن أن نسمي هذه المرحلة تأسيس الدولة الإسلامية بالمدينة النبوية

وتشتمل على:

- قدوم النبي ﷺ المبارك وبناء مسجده بالمدينة
- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
- المعاهدة مع اليهود
- مشروعية القتال
- أحداث في هذه الفترة المباركة



قدوم النبي ﷺ المدينة وبناء مسجده

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في عُلوٍّ المدينة في حي يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم أربع عشرة ليلة؟ ثم أرسل إلى ملأ بني النجار، قال: فجاؤا متقلدي سيوفهم. قال: وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردْفه وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب. قال: فكان يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم. قال: ثم أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار، فجاؤا فقال: «**يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا**»، فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، قال: فكان فيه ما أقول لكم: كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خربٌ، وكان فيه نخلٌ، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنُبشت، وبالخرب فسوِّيت، وبالنخل فقطع، قال: فصفوا النخل قبلة المسجد، قال: وجعلوا عضادتيه حجارة، قال: جعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون، ورسول الله ﷺ معهم.

اللهمَّ لا خَيْـرَ إلاَّ خَيْـرُ الآخِـرَه ... فَانْصُـر الأنْصَارَ والمُهَاجِـرَه[1]

قال ابن إسحاق: فنزل رسول الله ﷺ، فيما يذكرون، على كلثوم بن هدم، ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة، ويقول من يذكر أنه نزل على كلثوم بن هدم إنما كان رسول الله ﷺ إذا خرج من منزل كلثوم بن هدم جلس للناس في منزل سعد بن خيثمة، وذلك أنه كان عَزَبًا لا أهل له، وكان منزل الأعزب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين. ونزل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على حبيب بن إساف، ويقول قائل: كان منزله على خارجة بن زيد.

وأقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاث ليالٍ وأيامها حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٣١١، ٣١٢) مناقب الأنصار.

برسول الله ﷺ فنزل معه على كلثوم بن هدم. فأقام رسول الله ﷺ بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، ويوم الخميس، وأسس مسجده[١].

ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة، فأدركت رسول الله ﷺ الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وادي رانوناء، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة[٢].

قال ابن سيد الناس: وأشرقت المدينة بقدومه ﷺ، وسرى السرور إلى القلوب بحلوله بها، روينا من طريق ابن ماجه: حدثنا بشر بن هلال الصواف، ثنا جعفر بن سليمان الضبعي، ثنا ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء فيها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا[٣].

وروى ابن أبي خيثمة عن أنس: شهدتُ يوم دخول النبي ﷺ المدينة فلم أر يومًا أحسن منه ولا أضوأ[٤].

وروى البخاري عن البراء بن عازب قال: فما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ[٥].

وكان أول ما بدأ به رسول الله ﷺ في بناء دولته الإسلامية المجيدة، بناء مسجده النبوي، الذي لا تشد الرجال إلا إليه، أو المسجد الحرام، أو المسجد

---

(١) المقصود مسجد قباء وهو أول مسجد أُسس على التقوى.

(٢) «تهذيب سيرة ابن هشام» (١٠٨، ١٠٩) ط/ مكتبة السنة لعبد السلام هارون.

(٣) سيأتي تخريجه ـ إن شاء الله ـ في الوفاة النبوية.

(٤) رواه الحاكم (٣/ ١٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٥) «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» (٢/ ١٣)، والحديث رواه البخاري (٧/ ٣٠٥) مناقب الأنصار.

الأقصى، وهذا يُبيِّن لنا أهمية المسجد في الإسلام. وكان المسجد النبوي هو الجامعة التي تخرج منها الأبطال الذين فتحوا قلوب العباد والبلاد بدعوة الإسلام، فلم تكن وظيفة المسجد مجرد مكان للصلوات الخمس، ولكنه كان مدرسة النبوة، ومنارة العلم، كان المسجد هو البوتقة التي انصهرت فيها قلوب الصحابة، وذاب فيها ما كان فيها من عصبيات وتكبر وتمرد، وكان المسجد كير القلوب الذي أخرج ما فيها من شرك وحقد وحسد، حتى صار الصحابة أبر الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا.

واكتملت رسالة المسجد بمشروعية الأذان والصلوات الخمس في السنة الأولى من الهجرة، وكانت الصلاة ركعتين في الصباح وركعتين في المساء قبل الإسراء والمعراج، ثم صارت ركعتين في كل صلاة من الصلوات الخمس[١].

ثم زادت الظهر والعصر والعشاء ركعتين أخريين بعد الهجرة وزيدت المغرب ركعة لأنها وتر النهار.

ثم بنى النبي ﷺ حجرات الطاهرات العفيفات أمهات المؤمنين على يسار المسجد النبوي، وبنى النبي ﷺ في آخر السنة الأولى من الهجرة على أحبِّ نسائه إليه الصديقة بنت الصديق عائشة ؓ، وكان سنها تسع سنوات، وبعد أن بنى النبي ﷺ مسجده آخى بين المهاجرين والأنصار، وذلك لتقوية الجبهة الداخلية وزيادة ترابطها، وحتى يُواسي الأنصار إخوانهم المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم لنصرة دين الله وإعزاز شرعه، ومدح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الأنصار بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩).

---

(١) روى البخاري (١/ ٥٥٣) الصلاة، ومسلم (٥/ ١٩٥) صلاة المسافرين عن عائشة ؓ قالت: الصلاة أول ما فرضت ركعتين، فأقرت صلاة السفر وأتمت صلاة الحضر، وأخرجه البخاري في «الهجرة» (٧/ ٣١٤) بلفظ: «فرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر النبي ﷺ ففرضت أربعًا، وتركت صلاة السفر على الأولى».

قال الدكتور أكرم ضياء العُمَري: ورغم بذل الأنصار وكرمهم، فإن الحاجة إلى إيجاد نظام يكفل للمهاجرين المعيشة الكريمة بقانون ظلت قائمة، خاصة وأن أنفة المهاجرين ومكانتهم تقتضي معالجة أحوالهم بتشريع يبعد عنهم أي شعور بأنهم عالة على الأنصار، فكان أن شرع نظام المؤاخاة، ولا تختلف الروايات في تاريخ تشريعه إلا اختلافًا يسيرًا، فهي تُجمع على أن المؤاخاة وقعت في السنة الأولى الهجرية، وتختلف إن كان ذلك بعد بناء المسجد في المدينة أو خلال بنائه، وكان إعلان هذا التشريع في دار أنس بن مالك كما صرحت الروايات، ووقعت المؤاخاة بين طرفين هما المهاجرين والأنصار، فآخى الرسول ﷺ بين كل مهاجري وأنصاري اثنين اثنين، وقد شملت المؤاخاة تسعين رجلاً، خمسة وأربعين من المهاجرين، وخمسة وأربعين من الأنصار.

وقد ترتب على تشريع نظام المؤاخاة حقوق خاصة بين المتآخين كالمواساة بين الاثنين، والمواساة ليست محددة بأمور معينة، بل مطلقة لتعني كل أوجه العون على مواجهة أعباء الحياة سواءٌ كان عونًا ماديًا، أو رعاية ونصيحة وتزاورًا ومحبة؛ كما ترتب على المؤاخاة أن يتوارث المتآخون دون ذوي أرحامهم مما يرقى بالعلاقات بين المتآخين إلى مستوى أعمق وأعلى من أخوة الدم[1]. ثم نُسِخَ هذا التوارث بقول الله تعالى: ﴿**وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾ (الأنفال: ٧٥)، وذلك بعد أن تغيرت أحوال المهاجرين بإصابة الغنائم، ومعرفة مسالك طلب الرزق في وطنهم الجديد. وهذه صورة مشرفة لمحبة الأنصار لإخوانهم المهاجرين.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: لا، فقالوا: أتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا[2].

---

(١) «المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى» (٧٤-٧٦) باختصار.

(٢) رواه البخاري (٧/ ١٣٣) مناقب الأنصار. إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

وعن أنس ﷺ قال: قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يُناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك دُلّني على السوق، فربح شيئًا من أقط وسمن، فراه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة، فقال النبي ﷺ: «**مهيم يا عبد الرحمن؟**»، قال: يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار. قال: «**فما سُقت فيها؟**»، قال: وزن نواة من ذهب، فقال النبي ﷺ: «**أولم ولو بشاة**»(١).

قال صفي الرحمن المباركفوري: بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، ووثق من رسوخ قواعد المجتمع الإسلامي الجديد بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين، رأى أن يقوم بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وكان همه في ذلك هو توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء، مع تنظيم المنطقة في وفاق واحد، فسنّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم مُلئ بالتعصب والتغالي.

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود كما أسلفنا، وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين ولكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد والمصادرة والخصام، وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية عاصمتها المدينة ورئيسها - إن صح هذا التعبير - رسول الله ﷺ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين وبذلك أصبحتْ المدينة عاصمة حقيقية للإسلام(٢).

وقال ابن القيم - رحمه الله -: ووادع رسول الله ﷺ مَنْ بالمدينة من اليهود، وكتب بينه وبينهم كتابًا، وبادر حبرهم وعالمهم عبد الله بن سلام فدخل في

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٣١٧) مناقب الأنصار، والترمذي (٢٠١٥) البر والصلة، وابن ماجه (١٩٠٧).
(٢) «الرحيق المختوم» (٢٢٥، ٢٢٦) باختصار.

الإسلام وأبى عامتهم إلا الكفر. وكانوا ثلاث قبائل: بنوقينقاع، وبنو قريظة، وحاربه الثلاثة فمنّ على بني قينقاع، وأجلى النضير، وقتل بني قريظة وسبى ذريتهم، ونزلت سورة الحشر في بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قريظة[1].

ومن أهم أحداث هذه السنة الأولى من هجرة النبي ﷺ وبعد أن صارت للإسلام شوكة ودولة، أذن الله تعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين بالقتال:

قال ابن القيم - رحمه الله -: فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأيده الله بنصره، وبعباده المؤمنين الأنصار، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنعه أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمّروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح، حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩).

وقالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية، وهذا غلط لوجوه:

أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

الثاني: أنَّ سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (الحج: ٤٠)، وهؤلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ (الحج: ١٩)، نزلتْ في الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين.

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٦٥).

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحج:٧٧)، والخطاب بذلك كله مدني، فأما الخطاب يا أيها الناس فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد وغيره، ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة فأُمر به في مكة بقوله: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾، أي: بالقرآن: ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ١٥٠)، فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة، وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى في «مستدركه» من حديث الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ (الحج:٣٩)، وهي أول آية نزلت في القتال[١]. وإسناده على شرط «الصحيحين»، وسياق السورة يدل على أن فيها المكي والمدني، فإن قصة إلقاء الشيطان في أمنية الرسول ﷺ مكية، والله أعلم. ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٠)، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرمًا، ثم مأذونًا به، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين، إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور[٢].

ولخَّص الشيخ محمد الخضري حال النبي ﷺ في الجهاد بعد الهجرة فقال ـ رحمه الله ـ، وصار قتال رسول الله ﷺ للأعداء على هذه المبادئ الآتية:

١ ـ اعتبار مشركي مكة محاربين؛ لأنهم بدأوا بالعدوان للمسلمين قتالهم، ومصادرة تجارتهم، حتى يأذن الله بفتح مكة، أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين.

---

(١) رواه الحاكم (٢/٦٦) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأحمد (١/٢١٦)، والترمذي (٣١٧٠) شاكر.

(٢) «زاد المعاد» (٣/٦٩-٧١).

٢ ـ متى رُئي من اليهود خيانةٌ وتحيزٌ للمشركين قوتلوا، حتى يؤمن جانبهم بالنفي أو القتل.

٣ ـ متى تَعَدَّت قبيلة من العرب على المسلمين، أو ساعدت قريشًا قوتلت.

٤ ـ كل من بدأ بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل، حتى يذعن بالإسلام أو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر.

٥ ـ كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحقه، والإسلام يقطع ما قبله[1].

بقي من أحداث هذه الفترة المباركة ما بين قدوم النبي ﷺ الميمون إلى طيبة الطيبة وغزوة بدر الكبرى عدة أحداث نجملها ثم ننتقل بإذن الله تعالى إلى الفوائد والآثار الإيمانية.

١ ـ وفاة كلثوم بن الهدم الذي نزل عليه رسول الله ﷺ بقباء، ثم أسعد بن زرارة أحد النقباء، وهو أول من بايع الرسول ﷺ ليلة العقبة الثانية؛ وهذان من الأنصار الكرام.

وتُوفي من المهاجرين عثمان بن مظعون أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، وكان من أكابر المهاجرين ومتعبديهم، وأول من قُبر بالبقيع. ومات من مشركي مكة الوليد بن المغيرة وروى أنه لما احتضر جزع، فقال له أبو جهل: ما جزعك يا عم؟ فقال: والله ما بي من جزع من الموت، ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبي كبشة بمكة، فقال أبو سفيان: لا تخف إني ضامن ألا يظهر، وفيها أيضًا مات العاص بن وائل السهمي فكفى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ المسلمين شر هذين الشقيين.

٢ ـ ولد في هذه الفترة أول مولود للمهاجرين وهو الصوام القوام الفارس عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فقد جاءت أسماء بنت أبي بكر مهاجرة، فما أن نزلت بقباء حتى وضعت عبد الله بن الزبير، وحنكه رسول الله ﷺ ودعا له بالبركة، واستبشر به المسلمون وكان أول مولود للأنصار النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

---

(١) «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» (٨٥) دار القلم.

٣ ـ ومن أحداث هذه الفترة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس ثم تحويلها إلى الكعبة، حِكَمٌ عظيمة ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين. فأما المسلمون فقالوا: سمعنا وأطعنا وقالوا: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران:٧)، وهم الذين هدى الله ولم تكن كبيرة عليهم. وأما المشركون فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يُوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق. وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبيًا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء. وأما المنافقون فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقًا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل. وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ (البقرة:١٤٣)، وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه[١].

٤ ـ مشروعية صوم رمضان وصدقة الفطر وزكاة المال.

قال الشيخ محمد الخضري: وفي شعبان من هذه السنة، السنة الثانية من الهجرة، أوجب الله صوم شهر رمضان على الأمة الإسلامية، وكان ﷺ قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، والصيام من دعائم هذا الدين والفرائض التي يتم بها النظام، فإن الإنسان مجبول على حب نفسه والسعي فيما يعود عليها بالنفع الخاص تاركًا ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين، فلابد من وازع يزعه لحاجات قوم أقعدتهم قواهم عن إدراك حاجاتهم، ولا أقوى من ذوق قوارص الجوع والعطش، إذ بهما تلين نفسه ويتهذب خلقه فيسهل عليه بذل الصدقات، ولذلك أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر، فترى الإنسان يبذلها بسخاء نفس ومحبة خالصة[٢].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٦٦، ٦٧).
(٢) «نور اليقين» بتصرف (٩٠، ٩١).

وفي هذا العام كذلك فرضت زكاة الأموال، وهذا هو النظام الوحيد الذي يأكل به الفقراء والمساكين من إخوانهم الأغنياء بلا ضرر على هؤلاء، فإذا بلغت الدنانير عشرين أو الدراهم مائتين وحال عليها الحول، وجب عليه أن تؤدى ربع عشرها، أي: اثنين ونصفًا في كل مائة، وما زاد فبحسابه، واللبيب العاقل البعيد عن التعصب يحكم لأول نظرة أن هذا النظام مع عدم إضراره بالأغنياء مقلل لمصائب الفقر التي ألجأتْ كثيرًا من فقراء الأمم أن يُخالفوا نظام دولهم ويؤسسوا مبادئ تقويض العمران وتداعي الأمن[1].

٥ ـ غزوات وسرايا قبل غزوة بدر الكبرى.

قال ابن عبد البر: وأقام رسول الله داعيًا بالمدينة إلى الله ومعلمًا مما علمه الله باقي شهر ربيع الأول، الشهر الذي قدم فيه المدينة وباقي العام كله إلى صفر من سنة اثنتين من الهجرة، ثم خرج غازيًا في صفر المؤرخ، واستعمل على المدينة سعد بن عبادة حتى بلغ وَدّان فوادع بني ضمرة بن عبد مناة بن كنانة، وعقد ذلك معه سيدهم مخشي بن عمرو، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حربًا، وهي أول غزوة غزاها بنفسه ﷺ. ولما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الأبواء أقام بالمدينة بقية صفر وربيع الأول وصدرًا من ربيع الآخر، وفي هذه المدة بعث رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين راكبًا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد إلى سيف البحر من ناحية العيص، فلقي أبا جهل في ثلاثمائة راكب من كفار أهل مكة فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني وتوادع الفريقان على يديه فلم يكن بينهم قتال، إلا أنَّ سعد بن أبي وقاص، وكان في ذلك البعث رمى بسهم، فكان أول سهم رُمي به في سبيل الله، وفرَّ من الكفار يومئذٍ إلى المسلمين المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان، وكانا قديمي الإسلام، إلا أنهما لم يجدا السبيل إلى اللحاق بالنبي ﷺ إلا يومئذٍ.

(١) باختصار من «نور اليقين» (٩١).

ثم خرج رسـول الله ﷺ في ربيع الآخر إلى تمام عـام من مقـدمه المدينة، واستـعمل على المدينة السائب بـن عثمان بن مـظعون حتى بلغ بواط من ناحـية رضوى، ثم رجـع إلى المدينـة ولـم يلق حربًا، فـأقام رسـول الله ﷺ بالمدينة بقيـة ربيـع الآخـر وبعض جمـادى غـازيًا، واسـتخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسـد، وأخذ على الطريق إلى العشيـرة، فأقام هناك بقيـة جمادى الأولى وليـالي من جـمـادى الآخرة، ووادع فيـها بني مـدلج، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حربًا. ولما انصـرف رسول الله ﷺ من العشـيرة لم يقم بالمدينة إلا عـشر ليـالٍ أو نحـوها، أغـار كُـرْز بن جـابر الفـهري على سـرح[1] المدينة، فـخرج رسولُ الله ﷺ في طلبه حتى بلغ واديًا يقال له: سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز فرجع إلى المدينة.

ولما رجع رسول الله ﷺ من طلب كرز بن جابر، وتُعرف تلك الغزوة ببدر الأولى، أقام بالمدينة بقيـة جمادى الآخرة ورجبًـا، وبعث في رجب عبد الله بن جحش ومـعه ثمانية رجـال من المهاجرين، وكـتب لعبد الله بن جحش كـتابًا، وأمـره أن لا ينظر فيـه حتى يسـير يومين ثـم ينظر فيـه، ولا يستكره أحـدًا من أصحابه، وكان أمـيرهم ففعل عبد الله بن جحش ما أمـره به، فلما فتح الكتاب وقـرأه وجد فـيه: «إذا نظرت في كـتابي هذا فـامض حـتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشًا، وتعلَّم لنا من أخبارهم».

فلما قرأ الكتاب قال: سمعًا وطاعة، ثم أخبر أصحابه بذلك، وأنه لا يستكره أحدًا منهم، وأنه ناهض لوجـهه (مع) من طاوعه، وأنه إن لم يطعـه أحد مضى وحده فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، فقالوا: كلنا نرغب فـيمـا ترغب، ومـا منا أحدٌ إلا وهو سـامع مطيع لرسـول الله ﷺ، ونهض ونهضوا مـعه فسلك على الحجاز وشـرد لسعد بن أبي وقاص وعتـبة بن غزوان

(١) السرح: الإبل والأغنام.

جمل كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه، ونفذ عبد الله بن جحش مع سائرهم لوجهه حتى نزل نخلة، فمرت بهم عير لقريش تحمل زبيبًا وتجارة فيها عمرو ابن الحضرمي، فتشاور المسلمون، وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن نحن قتلناهم هتكنا حرمة الشهر الحرام، وإن نحن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم اتفقوا على لقائهم فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو ابن الحضرمي بسهم فقتله، وأسروا عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل بن عبد الله، ثم قدموا بالعير والأسيرين، وقال لهم عبد الله بن جحش: اعزلوا مما غنمنا الخمس لرسول الله ﷺ ففعلوا، فكان أول خمس في الإسلام ثم نزل القرآن: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ (الأنفال: ٤١)، فأقر الله ورسوله فعل عبد الله بن جحش في ذلك، ورضيه وسنه للأمة إلى يوم الدين.

وهي أول غنيمة غنمت في الإسلام، وأول أسيرين، وعمرو ابن الحضرمي أول قتيل، وأنكر رسول الله ﷺ قتل عمرو ابن الحضرمي في الشهر الحرام فسقط في أيدي القوم، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢١٧)، وقبل رسول الله ﷺ الفداء في الأسيرين، فأما عثمان بن عبد الله فمات بمكة كافرًا، وأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله ﷺ حتى استشهد ببئر معونة، ورجع سعد وعتبة إلى المدينة سالمين[١].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال الغزالي:** ليست الأمة الإسلامية جماعة من الناس همها أن تعيش بأي أسلوب، أو تخط طريقها في الحياة إلى أي وجهة، وما دامت تجد القوت واللذة

---

(١) باختصار وتصرف من «الدرر في اختصار المغازي والسير» لابن عبد البر (٩٥-١٠١) دار المعارف.

فقد أراحت واستراحت، كلا كلا، فالمسلمون أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله، وتوضح نظرتهم إلى الحياة، وتنظم شؤونهم في الداخل على أنحاء خاصة، وتسوق صلاتهم بالخارج إلى غايات معينة.

وفرق بين امرئ يقول لك: همي في الدنيا أن أحيا فحسب، وآخر يقول لك: إذا لم أحرس الشرف وأصن الحقوق، وأرض الله وأغضبْ من أجله، فلا سعت بي قدم ولا طرفت لي عين.

والمهاجرون إلى المدينة لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاء ثراء أو استعلاء، والأنصار الذين استقبلوهم وناصبوا قومهم العداء، وأهدفوا أعناقهم للقاصي والداني، لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفق، إنهم جميعًا يريدون أن يستضيئوا بالوحي، وأن يحصلوا على رضوان الله، وأن يحققوا الحكمة العليا التي من أجلها خلق الناس، وكانت الحياة، وهل الإنسان إذا جحد ربه وتبع هواه إلا حيوان ذميم أو شيطان رجيم؟ من هنا شغل رسول الله ﷺ، أول مستقره، بالمدينة بوضع الدعائم التي لابد منها لقيام رسالته وتبيين معالمها في الشئون الآتية:

١ ـ صلة الأمة بالله.

٢ ـ صلة الأمة بعضها ببعض.

٣ ـ صلة الأمة بالأجانب عنها ممن لايدينون دينها[1].

وقال كذلك: إن المؤمنين الذين صحبوا الأنبياء واقتربوا من حياتهم أُتيح لهم ما لم يتيح لغيرهم من منابع الصفاء ووسائل الارتقاء، وقد التف بمحمد ﷺ فريق من الربانيين الأتقياء كانوا له تلاميذ مخلصين فزكت بصحبته نفوسهم، وشفت طباعهم حتى أشرق عليهم من أنوار الإلهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب. والمرسلون الكرام يتعهدون ضمائر البشر بالتعليم والتربية،

(١) «فقه السيرة» (١٩٠).

وأشبه الناس بهم من اقتفى آثارهم وأخذ في طريقهم، وأول أولئك قاطبة من صحبوهم في حياتهم، وقاسموهم أعباء دعوتهم ومغارم جهادهم، قال عبد الله ابن مسعود: من كان مُستنًا فليستن بمن مات فإن الحي لا تُؤمَّن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[١].

٢ ـ **وقال الدكتور مصطفى السباعي:** فلما أن وصل إلى المدينة كان أول عمل عمله بناء مسجد فيها، وهذا يدلنا على أهمية المسجد في الإسلام، وعبادات الإسلام كلها تطهير للنفس، وتزكية للأخلاق، وتقوية لأواصر التعاون بين المسلمين، ووحدة كلمتهم وأهدافهم، وتعاونهم على البر والتقوى، لا جرم أن كان للمسجد رسالة اجتماعية وروحية عظيمة الشأن في حياة المسلمين، فهو الذي يُوحِّد صفوفهم ويُهذّب نفوسهم، ويوقظ قلوبهم وعقولهم، ويحل مشاكلهم، وتظهر فيه قوتهم وتماسكهم.

ولقد أثبت تاريخ المسجد في الإسلام أن منه انطلقتْ جحافل الجيوش الإسلامية لغمر الأرض بهداية الله، ومنه انبعثت أشعة النور والهداية للمسلمين وغيرهم، وفيه ترعرعت بذور الحضارة الإسلامية ونَمَتْ، وهل كان أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وخالد، وسعد، وأبو عبيدة وأمثالهم من عظماء التاريخ الإسلامي إلا تلامذة المدرسة المحمدية التي كان مقرها المسجد النبوي[٢]؟

٣ ـ **وقال محمد سعيد رمضان:** إن من نظام الإسلام وآدابه شيوع آصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين، ولكن شيوع هذه الآصرة لا يتم إلا في المسجد، فما لم

---

(١) باختصار من «فقه السيرة» للغزالي (٢٠٢-٢٠٤).
(٢) «السيرة النبوية، دروس وعبر» (٧٤).

يتلاق المسلمون يومـيًا على مرات متعددة في بيت من بيـوت الله، وقد تساقطت عما بينهم فوارق الحياة والمال والاعتبار، لا يمكن لروح التآلف والتآخي أن تُؤلف بينهم، إن من نظـام الإسلام وآدابه أن تشيـع روح المسـاواة والعـدل فيـمـا بين المسلمين في مختلف شئونهم وأحوالهم، ولكن شيوع هذه الروح لا يمكن أن يتم ما لم يتلاقَ المسلمون كل يوم صفًا واحدًا بين يدي الله - عزَّ وجلَّ -، وقد وقفوا على صعـيد مشتـرك من العبودية، وتعلقت قلوبهم بربهم الواحـد جلَّ جلاله.
فمن أجل تحـقيق هذه المعاني كلها في مـجتمع المسلمين ودولتهـم الجديدة أسرع رسول الله ﷺ قبل كل شيء فبادر إلى بناء المسجد[١].

٤ - **وقـال الدكتور مصطفى السباعي أيضًا:** وفي مؤاخـاة الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنـصار أقوى مظهر من مظاهر عـدالة الإسلام الإنسانية الأخـلاقية البناءة، فالمهاجرون قوم تركوا في سبيل الله أموالهم وأراضيهم، فجاءوا المدينة لا يملكون من حطام الدنيـا شـيئًـا، والأنصار قـومٌ أغنيـاء بزروعهم وأمـوالهم وصناعتهم، فليحمل الأخ أخاه وليقتـسم معه سراء الحياة وضراءها، ولينزله في بيته ما دام فيـه متسع لهما، وليعطه نصف ماله ما دام غنيًـا عنه موفورًا له، فأية عدالة اجتماعية في الدنيا تعدل هذه الأخوة[٢].

٥ - **وقال الأستاذ منير محمد الغضبان:** كما هو معروف في فن الحرب أنَّ الهجوم أقوى وسائل الدفاع، وقـريش مصممة على خوض المعـركة مع الرسول ﷺ، فلتكن المبـادرة منه، ومن أجل هذا كـانت السنة الأولى كلهـا سنة هجـوم على قوافل قريش، فلقد جهز رسول الله ﷺ ثماني سرايا، وكانتْ كلها لاعتراض عير قـريش ما عدا واحدة كـانت ردًا على هجوم قام به كرز بن جـابر الفهري، واستمـرتْ هذه السرايا من رمضان السنة الأولى للهجـرة إلى رمضان في السنـة

(١) باختصار من «فقه السيرة» للبوطي (١٥٢، ١٥٣).
(٢) «السيرة النبوية دروس وعبر» (٧٥، ٧٦) المكتب الإسلامي

الثانية من الهجرة، وكان قادة هذه السرايا جميعًا من المهاجرين، وكان لهذا معنى خاص في هذه الحرب، فأصل العهد مع الأنصار هو حماية رسول الله ﷺ وصحبه في المدينة، وهذه السرايا تعرض للقوافل خارج المدينة، هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية: فلابد من تدريب شباب الدعوة على الحرب بعد أن أُمروا بكف أيديهم خلال ثلاثة عشر عامًا من العهد المكي.

ومن جهة ثالثة: فلابد أن تعرف قريش أن هؤلاء المهاجرين الفارين من اضطهادها في مكة ليسوا موطن ضعف وهوان، بل هم قوة مرهوبة ذات شوكة عليها أن تحسب ألف حساب قبل أن تُفكر في مواجهتهم، ومن جهة رابعة: فعلى قريش أن تذوق وبال أمرها لموقفها المشين من الدعوة، وأن تتجرع مرارة هذا الموقف، فتعلم أن مصالحها وتجارتها صارت مهب الريح بعد أن سيطر المسلمون على شريان حياتها من خلال قوافلها إلى الشام، حيث أصبحتْ رحلة الصيف عندها وخيمة العواقب[1].

٦ ـ من بركة النبي ﷺ على المدينة أنها كانت مكان وباء وحمى، وأصاب أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الحمى فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ دعا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يُحبّبَ إليهم المدينة، وأن ينقل ما بها من وباء إلى الجحفة. عن عائشة ﵂ أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وُعِكَ أبوبكر وبلالٌ. قالت: فدخلت عليهما فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَل أَبِيتَنَّ لَيلَةً ... بِوَادٍ وَحَولِي إذخَرٌ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرِدَنْ يَومًا مِيَاه مِجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُون لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

قالت عائشة: فجئتُ رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «**اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها، ومدها، وانقل حُمَّاها**

(١) «المنهج الحركي للسيرة النبوية» (١/ ٢٣٢، ٢٣٣).

فاجعلها بالجحفة»[١]. ومن بركاته ﷺ على المدينة وأهلها أنه دعا لها بالبركة. عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَي ما جعلت بمكة من البركة**»[٢].

قال الحافظ: أي من بركة الدنيا بقرينة قوله في الحديث الآخر: «**اللهم بارك لنا في صاعنا ومُدِّنا**»، ويحتمل أن يريد ما هو أعم من ذلك، لكن يستثنى من ذلك ما خرج بدليل كتضعيف الصلاة بمكة على المدينة.

وقال النووي: الظاهر أن البركة حصلت في نفس المكيل بحيث يكفي المد فيها من لا يكفيه في غيرها، وهذا أمر محسوس عند من سكنها[٣].

وقال ﷺ: «**لا يكيد أهل المدينة أحدٌ إلا انماع كما ينماع الملح في الماء**»[٤].

وقال ﷺ: «**لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذٍ سبعة أبواب على كل باب ملكان**»[٥]. والأحاديث في فضلها وفضل سكناها كثيرة.

---

(١) رواه البخاري (٧/٣٠٨) مناقب الأنصار.
وقوله: «**يرفع عقيرته**» أي: صوته ببكاء أو بغناء.
وقوله: «**بواد**» أي: بوادي مكة.
وقوله: «**وجليل**» نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت وغيرها.
وقوله: «**مياه مجنة**» موضع على أميال من مكة وكان به سوق.
وقوله: «**يبدون**» أي: يظهر، و«**شامة وطفيل**» جبلان بقرن مكة.
وقال الخطابي: كنتُ أحسب أنهما جبلان حتى ثبت عندي أنهما عينان.
وفي رواية في «الصحيح» عن عائشة قالت: «وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، فكان بطحان يجرى نجلاً تعني ماء آجنًا».
وقال الحافظ: قوله: «**قالت فكان بطحان**» يعني: وادي المدينة. وقولها: «**يجري نجلاً تعني ماء آجنًا**» هو من تفسير الراوي عنها وغرضها بذلك بيان السبب في كثرة الوباء بالمدينة؛ لأن الماء الذي هذه صفته يحدث عنده المرض (فتح الباري» (٤/ ١٢١).
(٢) رواه البخاري (٤/١١٧) فضائل المدينة.
(٣) «فتح الباري» (٤/١١٧، ١١٨) باختصار.
(٤) رواه البخاري (٤/١١٢) فضائل المدينة.
(٥) رواه البخاري (٤/١١٣) فضائل المدينة.

قال الجزائري ـ رحمه الله ـ: ومما يزيد المدينة حبًا في قلوب المؤمنين، ورغبة في المقام بها حتى الموت قوله ﷺ : «**من استطاع أن يموت في المدينة فليمت بها، فإني أكون له شاهداً أو شفيعًا يوم القيامة**»[١]. وعرف هذا عمر رضي الله عنه فكان يدعو ويقول: «اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك، وموتًا في بلد رسولك».

وحسب المدينة شرفًا وفضلاً أن أصبحت دارًا للرسول ﷺ بها مسجده، وفيها قبره، ومنها مبعثه.

وأما أهل المدينة وهم الأنصار فشرفهم كان بمسارعتهم للإيمان وإيواء الرسول والمؤمنين ونصرتهم ومقاسمتهم العيش معهم أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر:٩)، وقرر الرسول ﷺ شرفهم وفضلهم في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ : «**آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**»[٢].

وقوله: «**الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله**»[٣].

وقوله ﷺ : «**لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكتُ وادي الأنصار وشعبهم، الأنصار شعار والناس دثار**»[٤].

٧ ـ **قال صفي الرحمن المباركفوري:** في (شعبان ٢هـ/ فبراير ٦٢٤م) أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أنَّ الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة

---

(١) رواه الترمذي (١٣/ ٢٧٤) المناقب، وقال: هذا حديث حسن غريب من حديث أيوب السجستاني، وابن ماجه (٣١١٢)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (١/ ٨٠) الإيمان، ومسلم (٢/ ٦٣) الإيمان، (٨/ ١١٦) الإيمان.

(٣) رواه البخاري (٧/ ١٤١) مناقب الأنصار، ومسلم (٢/ ٦٣) الإيمان.

(٤) رواه البخاري (٧/ ٦٤٤) المغازي، ومسلم (٧/ ١٥٢) الزكاة.

البلبلة انكشفوا عن المسلمين ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة. وفي تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد لا ينتهي إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم، وإن كانت بأيديهم فلابد من تخليصها يومًا[١].

٨ ـ **قال محمود شيت خطاب بعنوان: دروس من الدوريات:**

١ ـ **الاستطلاع**: استطاع المسلمون التعرف على الطرق المحيطة بالمدينة المنورة والمؤدية إلى مكة المكرمة خاصة الطريق التجارية الحيوية لقريش بين مكة والشام، كما استطاعوا التعرف على قبائل المنطقة وموادعة بعضها.

٢ ـ **القتال**: أثبت المسلمون أنهم أقوياء يستطيعون الدفاع عن أنفسهم تجاه المشركين من قريش، والقبائل المجاورة، وأهل المدينة غير الموالين للمسلمين، وتجاه اليهود، وأن بإمكانهم الدفاع عن عقيدتهم عند الحاجة.

٣ ـ **الكتمان**: ابتكر الرسول ﷺ الرسائل المكتوبة للمحافظة على الكتمان، وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تُفيده عن حركات المسلمين.

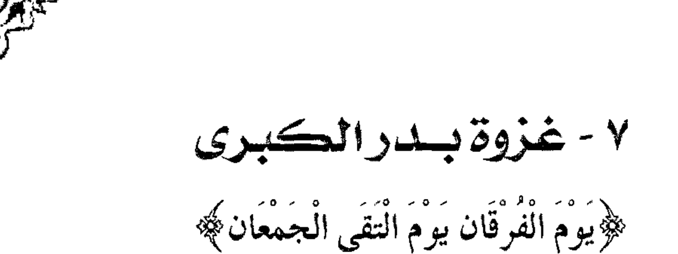
٤ ـ **الحصار الاقتصادي**: هدد المسلمون أهم طريق تجارية بين مكة والشام، فأصبحت قوافل قريش غير آمنة حين تسلك هذه الطريق[٢].

★★

---

(١) «الرحيق المختوم» (٢٣٨).

(٢) باختصار من «الرسول القائد» للواء الركن محمود شيت خطاب (٩٣، ٩٤) دار الفكر.



٧ - غزوة بدر الكبرى

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾

وتشتمل على:

- أحداث الغزوة
- هلاك أئمة الكفر
- مخاطبة النبي ﷺ أئمة الكفر والضلال وقد وصلوا إلى حفرة من النار
- فصل في نزول الملائكة يوم بدر
- فصل في الأساري وإباحة الغنائم
- من روائع الإيمان: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾
- الفوائد والآثار الإيمانية



غـزوة بـدر الكـبرى

أحداث الغزوة:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فلما كان في رمضان من هذه السنة (أي: الثانية من الهجرة) بلغ رسول الله ﷺ خبر العير المقبلة من الشام لقريش صحبة أبي سفيان، وهي العير التي خرجوا في طلبها لما خرجتْ من مكة، وكانوا نحو أربعين رجلاً، وفيها أموال عظيمة لقريش، فندب رسول الله ﷺ الناس للخروج إليها، وأمر من كان ظهره حاضرًا بالنهوض، ولم يحتفل لها احتفالاً بليغًا، لأنه خرج مسرعًا في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان، فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي، وكان معهم سبعون بعيرًا يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد، فكان رسول الله ﷺ وعلي ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيرًا[1].

عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيّانا تُريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا، قال: فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا حتى نزلوا بدرًا، ووردت عليهم روايا قريش وفيهم غلام أسود لبني الحجاج فأخذوه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه، فيقول: مالي علم بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف، فإذا قال ذلك: ضربوه، فقال: نعم، أنا

---

(١) هذا قول ابن إسحاق في «السيرة» (١/ ٦٣/ ١/ ٤١١).

وفي «مسند أحمد» (٣٩٠١، ٣٩٦٥) من حديث ابن مسعود كنا يوم بدر، كل ثلاثة على بعير، أي: يعتقبون، وكان أبو لبابة، وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ. قال: وكانت عقبة رسول الله ﷺ قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: **«ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»**، وصححه الحاكم (٣/ ٢٠)، ووافقه الذهبي وحسنه في «تحقيق الزاد».

أخبركم هذا أبو سفيان، فإذا تركوه فسألوه، فقال: ما لي بأبي سفيان علم ولكن هذا أبو جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف في الناس، فإذا قال: هذا أيضًا ضربوه، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فلما رأى ذلك انصرف، قال: والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقكم وتتركوه إذا كذبكم. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**هذا مصرع فلان**»، قال: ويضع يده على الأرض ههنا وههنا، قال: فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ[(١)].

قال ابن القيم: وأما أبو سفيان فإنه بلغه مخرج رسول الله ﷺ وقصده إياه فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة مستصرخًا لقريش بالنفير إلى عيرهم ليمنعوه من محمد ﷺ وأصحابه، وبلغ الصريخ أهل مكة، فنهضوا مسرعين وأوعبوا في الخروج فلم يتخلف من أشرافهم سوى أبي لهب، فإنه عوَّض عنه رجلاً كان له عليه دين، وحشدوا فيمن حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي، فلم يخرج معهم منهم أحد، وخرجوا من ديارهم كما قال تعالى: ﴿**بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (الأنفال: ٤٧)، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ: «**بحدهم وحديدهم تحاده وتحاد رسوله**»، وجاءوا على حردٍ قادرين، وعلى حميةٍ وغضب، وحنقٍ على رسول الله ﷺ وأصحابه لما يريدون من أخذ عيرهم، وقتل من فيها، وقد أصابوا بالأمس عمرو ابن الحضرمي والعير التي كانت معه، فجمعهم الله على غير ميعاد كما قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً**﴾ (الأنفال: ٤٢)، فسار رسول الله ﷺ إلى بدر وخفض أبو سفيان فلحق بساحل البحر، ولما رأى أنه قد نجا وأحرز العير كتب إلى قريش أن ارجعوا، فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم، فأتاهم الخبر وهم بالجحفة فهموا بالرجوع، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نقدم بدرًا، فنقيم بها ونطعم من

(١) رواه مسلم (١٢/ ١٢٥، ١٢٦) الجهاد والسير.

حضرنا من العرب، وتخافنا العرب بعد ذلك، فأشار الأخنس بن شريق عليهم بالرجوع فعصوه، فرجع هو وبنو زهرة، فلم يشهد بدرًا زهري، فاغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس فلم يزل فيهم مطاعًا معظمًا[١].

قال الدكتور أكرم العمري: وقد وصف علي ﷺ في رواية صحيحة كيف بات المسلمون ليلة السابع عشر من رمضان ببدر وأمامهم معسكر المشركين؟ قال: «لقد رأيتنا يوم بدر، وما منا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ، فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح، ثم إنه أصابنا من الليل طش من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقول: «**اللهم إنك إن تهلك هذه الفئة لا تُعبد**»، فلما طلع الفجر نادى: «**الصلاة عباد الله**»، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرّضَ على القتال[٢].

وعن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبدْ**»، فأخذ أبو بكر بيده فقال: «**حسبك**»، فخرج وهو يقول: «**سيهزم الجمع ويولون الدبر**»[٣].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فأنزل الله في تلك الليلة مطرًا واحدًا، فكان على المشركين وبالاً شديدًا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلاً طهّرهم به، وأذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرض وصلب به الرمل، وثبت به الأقدام، ومهّد به المنزل، وربط به على قلوبهم، فسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل، وصنعوا الحياض، ثم غوروا ما عداها من المياه، ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الحياض، وبُنِيَ

(١) باختصار من «زاد المعاد» (٣/ ١٧٤).

(٢) «المجتمع المدني في عهد النبوة الجهاد ضد المشركين» (٤٦). والحديث: رواه أحمد في «المسند»، «الفتح الرباني» (٢١/ ٣٠، ٣٦).

(٣) رواه البخاري (٧/ ٣٣٥) المغازي.

لرسول الله ﷺ عـريش يكون فيـها على تلٍ يُشـرِّف على المعركـة في موضع المعركة، وجعل يُشير بيده: «**هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته**»[١].

واستنصر المسلمـون الله واستغاثوه، وأخلصوا له وتضرعـوا إليه، فأوحى الله إلى ملائكته: ﴿**أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ**﴾ (الأنفال: ١٢)، وأوحى الله إلى رسوله: ﴿**أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ (الأنفال: ٩)، قرئ بكسر الدال وفتحها، فقـيل المعنى: أنهم ردفٌ لكم، وقيل: يردف بعضهم بعضًا أرسالاً لم يأتوا دفعة واحدة.

قال الدكتور أكرم العمري: وكان رسول الله ﷺ يُباشر القتال بنفسه، قال علي ﷺ: «لقد رأيتنا يوم بدر ونـحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس بأسًا»[٢].

وقد بدأ القـتال بمبارزات فردية حـيث تقدم عتبـة بن ربيعة وتبعـه ابنه الوليد وأخوه شيـبة طالبين المبارزة، فانتدب لهم شـباب من الأنصار فرفضـوا مبارزتهم طالبين مبارزة بني قومـهم، فأمر الرسول ﷺ حمزة وعليًا وعـبيدة بن الحارث بمبارزتهم، وقد تمكَّن حمزة من قـتل عتبة، ثم قتل عليٌّ شيبة، وأما عـبيدة فقد تصدى للوليـد وجرح كل منهما صـاحبه، فعـاونه علي وحمزة فقـتلوا الوليد، واحتملا عبيدة إلى معسكر المسلمين[٣].

وقد أثرت نتيجة المبارزة في معـسكر قريش وبدأوا الهجوم، فأمر النبي ﷺ أصحـابه بنضح المشركين بالنبل إذا اقـتربوا منهم حـرصًا على الإفـادة من النبال

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٧٥، ١٧٦) وقد أشار إلى هذا المعنى حـديث علي عند أحمد (١/ ١١٧)، وما رواه مسلم عن أنس وقد تقدم تخريجه (ص ١٦٩).
(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٢٨)، وقال أحمد شاكر: صحيح.
(٣) رواه أبوداود (٢٦٤٨) الجهـاد، وصحـحه ابن حـجر، وسكت عنه المنذري، وصـححه الألـباني في «صحيح أبي داود» رقم (٢٣٢١).

بأقصى ما يُستطاع فقال: «إذا أكبثوكم فارموهم واستبقوا نبلكم»[١]. ويذكر عروة وقتادة أن رسول الله ﷺ رمى الحصا في وجوه المشركين[٢]، وتدل على صحة ذلك الآية الكريمة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣] (الأنفال: ١٧).

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ثم حمي الوطيس واستدارت رحى الحرب، واشتد القتال، وأخـذ رسول الله ﷺ في الدعاء والابتهـال ومناشدة ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فـرده عليه الصديق وقال: بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك[٤].

وجاء النصر وأنزل الله جنده وأيد رسوله والمؤمنين، ومنحـهم أكتاف المشركين أسرًا وقتلاً، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين[٥].

هلاك أئمة الكفر أبو جهل بن هشام وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط

هلاك أبي جهل:

عن عبـد الرحمن بن عـوف ﷺ قال: إني لفي الصف يوم بـدرٍ إذ التفتُّ، فإذا عن يميني وعن يساري فـتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهـما، إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبـه: يا عم أرني أبا جهل، فقلت: يا بن أخي وما تصنع به؟ قال: عاهدتُ الله إن رأيته أن أقتله أو أمـوت دونه، فقال لي الآخر سرًا من

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٣٥٦) المغازي، وأبوداود (٢٦٤٦) الجهاد.

(٢) عن حكيم بن حزام قال: لمـا كان يوم بدر أمر رسول الله ﷺ فأخـذ كفًا من الحصى فاستقبلنا به فرمى بها، وقال: «شاهت الوجوه» فانهزمنا، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ قال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده حسن وله شاهد عن ابن عباس، رواه الطبراني أيضًا. وقـال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه مسلم (١٢/ ٨٤) الجهاد والسير، وسيأتي الحديث بطوله ـ إن شاء الله ـ.

(٤) باختصار من «زاد المعاد» (٣/ ١٨٠، ١٨١).

(٥) رواه البخاري (٧/ ٣٥٨) المغازي.

صاحبه مثله قال: فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت إليه فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ينظر لنا ما صنع أبو جهل**» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، فقال: وهل فوق رجل قتلتموه أو قال: قتله قومه. قال: وقال أبو مجلز: قال أبو جهل: فلو غير أكار قتلني[1].

هلاك أمية بن خلف:

عن عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبتُ أمية بن خلف كتابًا بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت الرحمن قال: لا أعرف الرحمن كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية فكاتبته عبد عمرو، فلما كان في يوم بدر خرجتُ إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار فقال: أمية بن خلف لا نجوت إن نجا أمية. فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا. فلما خشيت أن يلحقونا خلّفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه، ثم أبوا حتى يتبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: ابرُك فألقيت عليه نفسي لأمنعه فتجللوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، وكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه[2].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٣٤٢) المغازي، رواه مسلم (١٢/ ١٦٠) الجهاد والسير. وقال النووي: قوله: «**لو غير أكار قتلني**» الأكار: الزراع والفلاح، وهو عند العرب ناقص، وأشار أبو جهل إلى ابني عفراء اللذين قتلاه وهما من الأنصار، وهما أصحاب زرع ونخيل، ومعناه: لو كان الذي قتلني غير أكار لكان أحب إليَّ وأعظم لشأني، ولم يكن علي نقص في ذلك «شرح النووي على صحيح مسلم» هامش (١٢/ ١٠٠).

(٢) رواه البخاري (٤/ ٥٦٠) الوكالة، وترجم له البخاري: باب إذا وكل المسلم حربيًا في دار الحرب أو في دار الإسلام جار. وابنه هو علي بن أمية. وقوله: «**بأن يحفظني في صاغيتي**» الصاغية: خاصة الرجل. **قال الأصمعي**: صاغية الرجل كل من يميل إليه، ويطلق على الأهل والمال.

هلاك عقبة بن أبي معيط أشقى القوم:

أما عقبة بن أبي معيط، فقد أمر النبي ﷺ بضرب عنقه، وكان في الأسرى لما نزل بعرق الظبية[1]. وفيه: جواز قتل الأسير الكافر؛ لأنه كان من أشقى القوم، وممن يُطلَّق عليهم بمصطلح العصر مجرم حرب، وسيق هؤلاء الأشقياء الثلاثة إلى النار وبئس القرار، وكم لاقى المسلمون بمكة من إيذائهم واستهزائهم، وليبشر أئمة الكفر في كل زمان ومكان بهذه النهاية المشؤومة، إن لم يتوبوا إلى ربهم، ويثوبوا إلى رشدهم، فإن الله - عزَّ وجلَّ - يُمهل ولا يُهمل: «**إن الله لَيُملِي للظَّالِم حَتَّى إذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِته**»[2].

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢).

مخاطبة النبي ﷺ أئمة الكفر والضلال وقد وصلوا إلى حفرة من النار وبئس القرار

عن قتادة قال: ذكر لنا أنس بن مالك، عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدرٍ بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليالٍ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشُدّ عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الركى، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما و عد ربكم حقًا؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله: ما تُكلِّم من أجساد لا أرواح لها،

---

(١) رواه أبوداود (٢٦٦٩) الجهاد بمعناه وسكت عنه المنذري. ذكر الهيثمي في «المجمع»: عن ابن عباس قال: فادى رسول الله ﷺ أسارى بدر، وكان فداء كل رجل منهم أربعة آلاف، وقتل عقبة بن أبي معيط قبل الفداء، قام إليه علي بن أبي طالب فقتله صبرًا، قال: من للصبية يا رسول الله؟ قال: «**النار**». وقال: رواه الطبراني في «الكبير، والأوسط» ورجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد» (٦/ ٨٩).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٣٥٠، ٣٥١) المغازي.

فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»، قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخًا وتصغيرًا ونقمة وحسرة وندمًا[١].

قال الحافظ: وسيأتي من حديث البراء أن قتلى بدر من الكفار كانوا سبعين، وكأن الذين طُرحوا في القليب كانوا الرؤساء منهم، ثم من قريش، وخُصوا بالمخاطبة المذكورة لما تقدم منهم من المعاندة وطرح باقي القتلى في أمكنة أخرى[٢]. وقال: وقد اختلف أهل التأويل في المراد بالموتى في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ (النمل: ٨٠)، وكذلك المراد بمن في القبور فحملته عائشة على الحقيقة، وجعلته أصلاً احتاجت معه إلى تأويل قوله: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**» وهذا هو قول الأكثر[٣].

فصل في نزول الملائكة يوم بدر

دلتْ أدلة الكتاب والسنة على نزول الملائكة يوم بدر وقتالهم مع المسلمين، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٩-١٠)، عن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «**اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض**»، فما زال يهتف بربه مادًا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه،

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٣٥٢).

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٣٥٤).

(٣) وظاهر القرآن والسنة يجب المصير إليه، وطريق الجمع كما ذكر العلماء أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ على ظاهره وهو عام، أما قوله: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**» خاص، ولا يتعارض خاص وعام. فالأصل أن الموتى لا يسمعون كما دلت عليه الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ ولكن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أسمع هؤلاء معجزة لنبيه ﷺ ولتوبيخهم وزيادة في ذلهم وعذابهم.

فأتاه أبو بكر فأخـذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التـزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩)، فأمده الله بالملائكة، قال أبو زُمَيلٍ: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذٍ يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسَّوْط فوقه، وصوتَ الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فأخْضَر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة، فقتلوا يومئذٍ سبعين وأسروا سبعين**»[1].

وقد أسر رجل من الأنصار العباس بن عبد المطلب، فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق، ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله فقال: «**اسكت، فقد أيدك الله تعالى بملك كريم**»[2].

وفي «صحيح البخاري»: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: أفضل المسلمين، أو كلمة نحوها، قال: «**وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة**»[3].

فإن قيل: ما الحكمة في نزول الملائكة مع أن جبريل وحده قادر على إهلاكهم بأمر الله؟

---

(١) رواه مسلم (١٢/ ٨٥/ ٨٦) الجهاد والسير. وقال النووي: هذه المناشدة إنما فعلها النبي ﷺ ليراه أصحابه بتلك الحال، فتقوى قلوبهم بدعائه وتضرعه، مع أن الدعاء عبادة، وقد كان وعده الله تعالى إحدى الطائفتين، إما العير وإما الجيش، وكانت العير قد ذهبت وفاتت على ثقة من حصول الأخرى، ولكن سأل تعجيل ذلك وتنجيزه من غير أذى يلحق المسلمين.

(٢) رواه أحمد (١/ ١١٧) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب، وهو ثقة «مجمع الزوائد» (٦/ ٧٥، ٧٦).

(٣) رواه البخاري (٧/ ٣٦٢، ٣٦٣) المغازي.

أجاب السبكي بقوله: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله تعالى في عباده، والله تعالى هو فاعل الجميع، والله أعلم[١].

فصل في الأسارى وإباحة الغنائم:

عن ابن عباس قال: لما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارى؟**» فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا بن الخطاب؟**» قلت: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضر أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل، وتمكني من فلان نسيبًا لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيتُ وإن لم أجد بكاء تباكيتُ لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، شجرة قريبة من نبي الله ﷺ، وأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ:** ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾، إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٩)، فأحل الله الغنيمة لهم»[٢].

قال القاسمي في تفسير الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ (الأنفال: ٦٧)، ما صح له وما استقام وقرئ: للنبي على العهد، والمراد على كل نبينا ﷺ، وإنما نُكر تلطفًا به حتى لا يُواجه العتاب وقُرئ: أُسارى.

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٣٦٤).
(٢) رواه مسلم (١٢/ ٨٦، ٨٧) الجهاد والسير.

ومعنى: ﴿يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ (الأنفال: ٦٧) يكثر القتل ويبالغ فيه، حتى يذل الكفر، ويقل حـزبه ويعز الإسـلام، ويستـولي أهله، يقال: أثخن في العـدو، بالغ في قتلهم كما في «الأساس»، وأثخن في الأرض قتلاً إذا بالغ، وقال ابن الأعرابي: أثخن إذا غلب وقهـر. قال الرازي: وإنما حمله الأكثـرون على القتل لأن الدولة إنما تقوى به. قال المتنبي:

لا يَسلَمُ الشَرَفُ الرَفيعُ مِنَ الأَذى ... حَتّى يُراقَ عَلى جَوانِبِهِ الدَمُ

ولأنه يُوجب قوة الرعب وشدة المهابة، فلذلك أمر الله تعالى به[1].

من روائع الإيمان **﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾:**

قال صفي الرحمن المباركفوري: وقد تجلتْ في هذه المعركة مناظر رائعة تبرز فيها قوة الـعقـيدة وثبـات المبدأ، فـفي هذه المعركـة: التقى الآباء بالأبنـاء، والأخوة بالأخوة، خالفتْ بينهما المبادئ، ففصلت بينهما السيوف، والتقى المقهور بقاهره فشفى منه غيظه[2]، **فمن ذلك:**

▪ أن النبي ﷺ أخبر أصحابه أن الله قد أوجب الجنة لمن اسـتشهد في سبيله، فقـام عمير بن الحُـمام فقال: يا رسـول الله، جنَّة عرضها السـموات والأرض؟ قال: «**نعم**»، قال: بخ بخ يا رسول الله، قال: «**ما يحملك على قولك بخ بخ؟**»، قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكـون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها؟**»، قال: فأخـرج تمراتٍ من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن حـييت حتى أكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قُتل[3].

▪ وقتل عمر بن الخطاب ﷺ يومئذٍ خاله العاص بن هشام بن المغيرة.

(١) «محاسن التأويل» (٨/ ٩٧، ٩٨).

(٢) «الرحيق المختوم» (٢٦٠) ط/ مكتبة الصحابة.

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٣٦، ١٣٧)، ومسلم (١٣/ ٤٥) الإمـارة، والحاكم (٣/ ٤٢٦) وقوله: «بخ بخ» اسم فعل بمعنى: استحسن، تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير.

■ وبعد انتهاء المعركة مرَّ مصعب بن عمير العبدري بأخيه أبي عزيز بن عمير الذي خاض المعركة ضد المسلمين، مر به وأحد الأنصار يشد يده، فقال مصعب للأنصار: شد يديك به، فإنّ أمه ذات متاع لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: أهذه وصاتك بي؟ فقال مصعب: إنه - أي: الأنصاري - أخي دونك.

■ **قال ابن إسحاق:** وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، أن عوف بن الحارث، وهو ابن عفراء، قال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «**غمسه يده في العدو حاسرًا، فترك درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قُتل**»[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - استجاب الله - عزَّ وجلَّ - في هذه الغزوة المباركة دعوة النبي ﷺ على مشركي قريش، كما في حديث ابن مسعود في إلقاء المشركين سلا الجزور على ظهر النبي ﷺ وهو يصلي عند البيت، فقال ﷺ: «**اللهم عليك بقريش ثلاث مرات**»، ثم سمى: «**اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط**»[2].

فقتل هؤلاء الستة يوم بدر، وأقر الله - عزَّ وجلَّ - عين نبيه بهلاكهم وتحقق قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (الحجر:٩٥)، أما أبو لهب فقد كان بمكة ولم يخرج إلى بدر، وفجع بهلاك رؤوس الكفر، ثم أهلكه الله - عزَّ وجلَّ - بعد ذلك بقليل، وجعله عبرة للمعتبرين.

عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: كنت غُلامًا للعباس، وكان يكتم إسلامه مخافة قومه، وكان أبو لهب تخلّف عن بدر، وبعث مكانه العاص بن هشام، وكان له عليه دين فقال له: اكفني من هذا الغزو، واترك لك ما عليك، ففعل، فلما جاء الخبر وكبت الله أبا لهب، وكنت رجلاً ضعيفًا أنحت أقداحي في الحجرة وعندي أم الفضل، إذا الفاسق أبو لهب يجر رجليه أراه، قال: حتى

---

(١) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٣/ ٣٩) ط/ الكليات الأزهرية.

(٢) تقدم تخريجه (ص ٦٧).

جلس عند طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فقال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث، فقال أبو سفيان: هلم يا بن أخي، كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء، والله ما هو إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا، وايم الله ما لمت الناس قال: ولِمَ؟ قال: رأيتُ رجالاً بيضًا على خيل بُلْقٍ، لا والله لا يليق شيئًا ولا يقوم لها شيء، قال: فرفعت طنب الحجرة فقلت: تلك والله الملائكة، فرفع أبو لهب يده فلطم وجهي وثاورته، فاحتملني فضرب بي الأرض حتى نزل عليَّ، وقامت أم الفضل فاحتجرتْ وأخذتْ عمودًا من عمد الحجرة فضربته به، ففلقت في رأسه شجة منكرة، وقالت: أي عدو الله استضعفته أن رأيت سيده غائبًا عنه، فقام ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليالٍ حتى ضربه الله بالعدسة فقتله، فتركه ابناه يومان أو ثلاثة ما يدفناه حتى أنتن. فقال رجل من قريش لابنيه: ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته، فقالا: إنا نخشى هذه القرحة، وكانت قريش تتقي العدسة كما تتقي الطاعون، فقال رجل: انطلقا فأنا معكما، قال: فوالله ما غَسَّلاه إلا قذفًا بالماء من بعيد، ثم احتملوه فقذفوه في أعلى مكة إلى جدار، وقذفوا عليه الحجارة[1].

٢ ـ **قال السهيلي في «الروض»:** كيف جعل أبو بكر يأمر رسول الله ﷺ بالكف عن الاجتهاد في الدعاء ويقوي رجاءه ويثبته، ومقام رسول الله ﷺ هو المقام الأحمد ويقينه فوق يقين كل أحد؟ فسمعت شيخنا الحافظ ـ رحمه الله ـ يقول في هذا: كان رسول الله ﷺ في مقام الخوف، وكان صاحبه في مقام الرجاء، وكلا المقامين سواء في الفضل، لا يريد أن النبي ﷺ والصديق سواء، ولكن الرجاء والخوف مقامان لابد للإيمان منهما، فأبو بكر كان في تلك الساعة في مقام الرجاء لله، والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان في مقام الخوف من الله؛ لأن لله أن يفعل ما شاء، فخاف ألا يعبد الله في الأرض بعدها،

---

(١) **قال الهيثمي:** رواه الطبراني، والبزار، وفي إسناده حسين بن عبد الله بن عبيد الله وثقه أبو حاتم وغيره وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات «مجمع الزوائد» (٦/ ٨٩).

وخوفه ذلك عباده، وأما قاسم بن ثابت فذهب في معنى الحديث إلى غير هذا، وقال: إنما قال ذلك الصديق مأوية للنبي ﷺ ورقة عليه، لما رأى من نصبه في الدعاء والتضرع حتى سقط الرداء عن منكبيه، فقال له: بعض هذا يا رسول الله، أي: لم تتعب نفسك هذا التعب والله قد وعدك بالنصر، وكان رقيق القلب شديد الإشفاق على النبي ﷺ(١).

٣ ـ **قال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ:** في التقديم لسورة الأنفال ما ملخصه: في هذه الغزوة التي أجملنا عرضها بقدر المستطاع نزلت سورة الأنفال، نزلت تعرض وقائع الغزوة الظاهرة، وتعرض وراءها فعل القدرة المدبرة، وتكشف عن قدر الله وتدبيره في وقائع الغزوة، وفيما وراءها من خط سير التاريخ البشري كله، وتحدث عن هذا كله بلغة القرآن الفريدة، وبأسلوب القرآن المعجز. لقد بدأتْ السورة بتسجيل سؤالهم عن الأنفال، وبيان حكم الله فيها، وردها إلى الله والرسول، ودعوتهم إلى تقوى الله وإصلاح ذات بينهم، ثم جعل يذكرهم بأمرهم وتدبيرهم لأنفسهم، وتدبير الله لهم، ومدى ما يرونه من واقع الأرض، ومدى قدرة الله من ورائه ومن ورائهم: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال: ٥-٨).

ثم ذكرهم بما أمدهم به من العون، وما يسره لهم من النصر، وما قدره لهم بفضله من الأجر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩)، وهكذا يمضي سياق السورة في هذا المجال يسجل أن المعركة بجملتها من صنع الله وتدبيره وبقيادته وتوجيهه، بعونه ومدده بفعله وقدره له

---

(١) «الروض الأنف» هامش (٣/ ٤٧) مع «سيرة ابن هشام».

وفي سبيله، ومن ثم تجريد للمقاتلين ابتداءً من الأنفال وتقرير أنها لله وللرسول، حتى إذا ردها الله عليهم كان ذلك منًا منه وفضلاً، وكذلك يُجردهم من كل مطمع فيها، ومن كل مغنم ليكون جهادهم في سبيله خالصًا له وحده فترد أمثال هذه النصوص: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: ١٧)، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] (الأنفال: ٢٦).

٤ ـ قال الأستاذ محمود شيت خطاب، تحت عنوان: دروس من بدر ما ملخصه: استفاد الطرفان من دوريات الاستطلاع في الحصول على المعلومات ليحولوا دون مباغتتهم، وكان حصول الطرفين على المعلومات عن القوات ومواقفها على الأرض جيدًا مفيدًا.

وقد ظهرت لنا فائدة استنطاق الأسرى الذي أجراه الرسول ﷺ مع غلامي قريش قبل المعركة في معرفة عدد قوات قريش، كما كان استنتاج أبي سفيان ابن حرب من فحصه روث ركائب المسلمين اللذين استطلعا موقع بدر ومعرفة هويتهما رائعًا حقًا.

القيادة: برزت مزايا الرسول ﷺ في القيادة بمعركة بدر بالشجاعة وضبط الأعصاب، وعقد المؤتمرات الحربية قبل وأثناء وبعد المعركة، ومساواة أصحابه مع نفسه، بكل شيء كما طبق الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام لأول مرة شروط انتخاب المقر الملائم للمعركة وأمن حراسته.

---

(١) باختصار من «ظلال القرآن» (٣/ ١٤٦٣، ١٤٦٤). روى مسلم في سبب نزول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: نزلت في أربع آيات، أصبت سيفًا فأتى به النبي ﷺ فقال: يا رسول الله نفلنيه فقال: **ضعه**، ثم قام فقال له النبي ﷺ: «**ضعه من حيث أخذته**»، ثم قام فقال: نفلنيه يا رسول الله فقال: **ضعه**، فقام فقال: يا رسول الله نفلنيه، أأجعل كمن لا غناء له؟ فقال له النبي ﷺ: «**ضعه من حيث أخذته**»، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (١٢/ ٥٤) «صحيح مسلم».

الضبط والمعنويات والعقيدة:

ظهر بوضوح أثر الضبط المتين، والمعنويات العالية، والعقيدة الراسخة في انتصار المسلمين على قريش، وستبقى هذه المزايا حيوية لكل انتصار في كل حرب[١].

٥ ـ لاشك أن غزوة بدر الكبرى كانت قبل ظهـور النفاق بالمدينة المنورة، فقد دخل المنافقون الإسلام بـعد هذه الغزوة المباركة التي ظهرت فيـها قوة المسلمين، وارتفع شأنهـم، وذاع صيـتهم، وأُصيب أعداؤهم بالهيبة منـهم، فقد نصرهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع قلة عددهم وعُددهم، وتمنن عليهم بقوله: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾ (آل عمران:١٢٣)، وكان هؤلاء الثلة المباركة هم أعمدة الدين، وأفضل المسلمين بعد الأنبياء والمرسلين، وورد في فضلهم الآثار.

عن علي ﷺ قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخـصومة يوم القيامة، وقال قيس بن عُبـاد، وفيهم أنزلت: ﴿**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ**﴾ (الحج:١٩)، قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر، حمزة، وعلي، وعبيدة أو أبو عبيدة ابن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة[٢].

وقال ﷺ: «**ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[٣].

وقال غلام لحاطب للنبي ﷺ: لـيدخلن حاطب النار، قال: «**كذبت إنه قد شهد بدراً والحديبية**»[٤].

□□ ★★ □□

(١) «الرسول القائد» (١٢١، ١٢٢) دار الفكر.

(٢) رواه البخاري (٨/ ٢٩٧، ٢٩٨) التفسير.

(٣) سيأتي تخريجه ـ إن شاء الله ـ في فتح مكة.

(٤) رواه مسلم (١٦/ ٥٧) فضائل الصحابة، والترمذي (١٣/ ٢٤٥) المناقب.

٨ - الحوادث التي أعقبت بدراً وسبقت أحداً

وهي تشتمل على:

١- غزوة بني سليم بالكدر

٢- غزوة السويق

٣- غزوة ذي أمر

٤- غزوة الفرع من بحران

٥- غزوة بني قينقاع

٦- قتل كعب بن الأشرف اليهودي

١ـ غزوة بني سليم بالكدر

قال ابن القيم: ثم نهض بنفسه صلوات الله وسلامه عليه بعد فراغه بسبعة أيام إلى غزو بني سُليم، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة. وقيل: ابن أم مكتوم، فبلغ ماءً يقال له: الكُدْرُ، فأقام عليه ثلاثة ثم انصرف ولم يلق كيدًا[١].

٢ـ غزوة السويق

ثم غزا أبو سفيان ابن حرب غزوة السَّويق في ذي الحجة، وولى تلك الحجة المشركون من تلك السنة، فكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة ورجع فَلُّ قريش من بدر نذر ألا يمس ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا ﷺ، فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه، حتى أتى العريض في طرف المدينة، فحرَّق أصوارًا[٢] من النخل، وقتل رجلاً من الأنصار وحليفًا له وجدهما في حرث لهما ثم كرَّ راجعًا، ثم نفر رسول الله ﷺ والمسلمون في أثره، واستعمل على المدينة أبا لُبابة ابن عبد المنذر، وبلغ رسول الله ﷺ قرقرة الكُدْرِ وفاته أبو سفيان والمشركون، وقد طرحوا سويقًا كثيرًا من أزوادهم يتخففون بذلك، فأخذه المسلمون، فسُميتْ غزوة السَّويق، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة بعد بدر بشهرين وأيام[٣].

٣ـ غزوة ذي أمر

وأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بقية ذي الحجة ثم غزا نجد يريد غَطفان، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان، فأقام ﷺ بنجد صفرًا كله، ثم انصرف ولم يلق حربًا[٤].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٨٩). وذكرها ابن هشام (٣/ ١٣٥)، وابن سعد (٢/ ٣١)، وابن سيد الناس (١/ ٢٩٤)، وابن كثير (٢/ ٥٣٩).

(٢) **أصوارًا:** جمع صور لا واحد له من لفظه، وهو النخل الصغار أو جماع النخل.

(٣) بتصرف من «الدرر في اختصار المغازي والسير» (١٣٩، ١٤٠) **والسويق:** مطحون الحنطة أو الشعير.

(٤) المصدر السابق (١٤٠)، وانظر ابن هشام (٣/ ١٣٦)، وابن سعد (٢/ ٣٠).

٤ ـ غــزوة بحـران

فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة ربيعًا الأول، ثـم غزا يريد قريشًا، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم فبلغ بحران، معدنًا بالحجاز ولم يلق حربًا، فأقام هناك ربيعًا الأول وجمادى الأولى من السنة الثالثة، ثم انصرف إلى المدينة.

٥ ـ إجلاء بني قينقاع

ثم غزا بنـي قينقاع، وكـانوا من يهود المدينة، فنقـضـوا عهـده، فحـاصرهم خمس عشرة ليلـة حتى نزلوا على حكمه، فشفع فيـهم عبد الله بن أُبي، وكان حليفًا لهم، كما كـان عبادة بن الصامت حليفًا لهم، فلما كـان من نقضهم عهد رسول الله ﷺ تبـرأ عبـادة بن الصامت من حـلفهم، وقـال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم. ففيه وفي عبد الله بن أُبي نزلت هـذه القصة من المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**﴾، إلى قوله: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ (المائدة: ٥١-٥٥)، وذكر لتـولي عبادة بن الصامت الله ورسـوله والذين آمنوا، وتبريه من بني قينقاع وحلفهم وولايتهم: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ (المائدة: ٥٦)، فحقن النبي ﷺ دماءهم وأطلقهم، ووكل بجلائهم عبادة ابن الصامت، وأمهلهم ثلاث ليالٍ[1].

وورد في سبب ذلك: ما رواه ابن هشام قال: كان أمـر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لـها فبـاعته بسـوق بني قينقـاع، وجلست إلى صائغ منهم، فـجعلوا

---

(١) انظر «زاد المعـاد» (٣/ ١٩٠)، و«الدرر» (١٣٩، ١٤٠)، و«تهذيب السيرة» (١٣٩، ١٤٠)، و«نور اليقين» (١٠٦، ١٠٧).

يراودونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًا فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فأغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[١].

الفوائد والآثار الإيمانية:

قال الأستاذ/ عبد الحميد جاسم البلالي: تلك الصرخة التي أطلقتها تلك المرأة سمعتها آذان تسمع وقلوب تنبض فيها الدماء تمتزج مع الغيرة والشهامة، تلك الصرخة تلقفها رجال وليسوا أشباه رجال، فكانت أن أصلت إغاثة الأعراض في نفوس المسلمين، فمنذ ذلك التاريخ، والمرأة مصانة عرضها، يسمع لصرختها إذا استنجدت الملايين من المسلمين، كل منهم يحسب أن كل امرأة مسلمة هي عرضه، وإن كانت لا تمت له بصلة إلا صلة العقيدة، حتى جاء زمن المعتصم، ويسمع عن امرأة يعتدى عليها وتهان كرامتها فتصرخ: «**وامعتصماه**»، فتهز قلبه تلك الاستغاثة، وتغلي الدماء في قلبه، فيعد العدة، ويجهز الجيش ليسيره من أرض الخلافة إلى الأرض التي صرخت منها تلك المرأة ليؤدب العدو، ويرد للمرأة اعتبارها وكرامتها، ثم يرجع منصورًا على عدوه الذي استهان بأعراض المسلمين، أما الآن فكم من صرخات تتلاشى وتتفتت على جدار الصامتين من الأنظمة، صرخات أخواتنا في فلسطين كل يوم على أيدي اليهود، وصرخاتهن في مخيمات لبنان على أيدي الكتائب الباطنيين، وصرخات المسلمات العفيفات في أفغانستان على أيدي الجيش الروسي، وصرخاتهن في الفلبين، وفي بلغاريا صرخات، صرخات في كل مكان ولا مجيب، فلقد مات رواد الجيل الأول، ومات جيل المعتصم فلا معتصم، وتظل صيحات النساء المسلمات لا ترى لها صدى، ولا ترى غيرة تتحرك أو دمًا يفور[٢].

---

(١) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٣/ ١٣٧).

(٢) «مواقف تربوية من السيرة النبوية» (٢٤، ٢٥).

٦ـ قتل كعب بن الأشرف

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله**»، فقام محمد بن مسلمة، فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: «**نعم**»، قال: فأذن لي أن أقول شيئًا. قال: «**قل**»، فأتاه محمد بن مسلمة، فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنّانا، وإني قد أتيتك أستسلفك، قال: «**وأيضًا والله لتملنه**»، قال: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تُسلفنا وسقًا أو وسقين ـ وحدثنا عمرو غير مرة فلم يذكر وسقًا أو وسقين ـ فقال: «نعم أرهنوني»، قالوا: أيُّ شيء تريد؟ قال: أرهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا، وأنت أجمل العرب؟ قال: فأرهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيسَبُّ أحدهم فيقال: رهن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة ـ قال سفيان: يعني السلاح ـ فواعده أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة ـ وهو أخو كعب من الرضاعة ـ فدعاهم إلى الحصن، فنزل إليهم فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة، وقال غير عمرو: قالت: أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم، قال: إنما هو أخي محمد ابن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليلٍ لأجاب. قال: ويدخل محمد بن مسلمة ومعه رجلين ـ قيل لسفيان: سماهم عمرو؟ قال: سمي بعضهم. قال عمرو: جاء معه برجلين، وقال غير عمرو: أبو عبسٍ بن جبر، والحارث بن أوس، وعباد بن بشر ـ قال عمرو: جاء معه برجلين فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، وقال مرة: ثم أشمكم، فنزل إليه متوشحًا وهو ينفَحُ منه ريح الطيب فقال: ما رأيتُ كاليوم ريحًا ـ أي: أطيب ـ، وقال غير عمرو: قال: عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب. قال عمرو فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟

قال: نعم. فشمه، ثم أشم أصحابه، ثم قال: أتأذن لي قال: نعم، فلما استمكن منه قال: دونكم: فقتلوه، ثم أتوا رسول الله ﷺ فأخبروه[١].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال الحافظ ـ رحمه الله ـ:** قال السهيلي في قصة كعب بن الأشرف، قتل المعاهد إذا سب الشارع خلافًا لأبي حنيفة. **قلت:** وفيه نظر، وصنيع المصنف في الجهاد يعطي أن كعبًا كان محاربًا، حيث ترجم لهذا الحديث: «الفتك بأهل الحرب»، وترجم له أيضًا: «الكذب في الحرب». **وفيه:** جواز قتل المشرك بغير دعوة إذا كانت الدعوة العامة قد بلغته، **وفيه:** جواز الكلام الذي يحتاج إليه في الحرب، ولو لم يقصد قائله إلى حقيقته، **وفيه:** دلالة على قوة فطنة امرأته المذكورة وصحة حديثها، وبلاغتها في إطلاقها أن الصوت يقطر منه الدم[٢].

٢ ـ **قال ابن إسحاق:** وقال حسان بن ثابت يذكر قتل كعب بن الأشرف.

لله دَر عصابة لا قيتهم ... يابن الحقيق وأنتَ يا بْن الأشْرف
يَسْرُون بالبيض الخفاف إليْكُم ... مَرحًا كأسدٍ في عرين مُغْرِفِ
حَتَّى أتُوكُم في محلِّ بلادِكُم ... فَسَقُوكم حَتْفًا ببيض ذفف
مُستَنْصِرين لِنصر دين نَبِيِّهم ... مُستَصْغرين لِكُلِّ أَمرٍ مُجحف[٣]

٣ ـ استدل بعض الشباب الذي يتعجل الصدام المسلح بمثل هذه الحادثة على ما يذهبون إليه ولا حجة لهم فيها؛ لأن ذلك كان بالمدينة، وللمسلمين دولة وشوكة، أما هم فليس لهم دولة ولا شوكة، ثم كان ذلك إعزازًا للدين وإرهابًا

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٩١) المغازي، ومسلم (١٢/ ١٦١-١٦٣) الجهاد والسير، وأبوداود (٢٧٥١) الجهاد. وقوله: «آذى الله ورسوله» في رواية محمد بن محمود بن محمد بن مسلمة عن جابر عند الحاكم في «الإكليل»: «فقد آذانا بشعره وقوى المشركين».

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٣٩٥).

(٣) «الروض الأنف» ((٣/ ١٤٢).

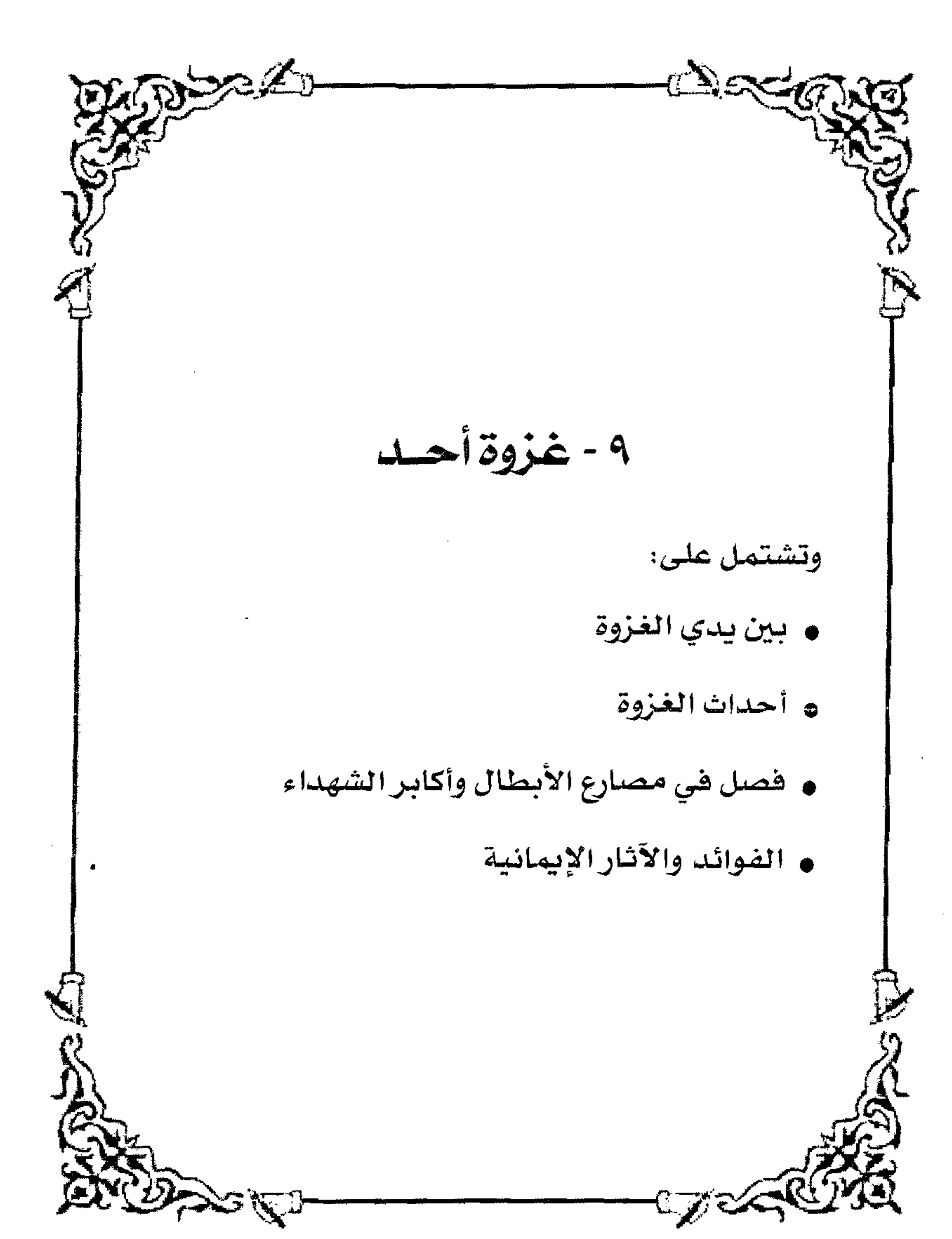
للكافرين، وكانت كلها مصالح لا مفسدة معها. أما ما يحدث في فترات الاستضعاف من هذه الحوادث فإنها يعقبها من الشر والفساد، واستباحة دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ما لا يخفى على بصير وبلا مصلحة حقيقية مرجوة، وإنما هي مصالح متوهمة، ومثل هذه الأعمال لا يُبيحها الشرع، ولا يُفتي بجوازها من عنده مسكة من علم وخبرة بواقع الدعوة، والله المستعان.

٤ ـ قال بعض العلماء في قوله: «ولكن نرهنك اللأْمَة»، إنما قالوا ذلك لئلا يُنكر مجيئهم بالسلاح، وفيه: إلهام الصحابة الرشد في القول والعمل، والله غالب على أمره.

٥ ـ واستنبط البخاري من قوله: «فأذن لي أن أقول شيئًا»، قال: «قُلْ» جواز الكذب في الحرب، فبوب عليه: «الكذب في الحرب».

قال الحافظ: وقد ظهر من سياق ابن سعد للقصة: أنهم استأذنوا أن يشكوا منه ويعيبوا رأيه، ولفظه: «فقال له: كان قدوم هذا الرجل علينا من البلاء، حاربتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة»، وعند ابن إسحاق بإسناد حسن عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ مشى معهم إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم فقال: **انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم**»[1].

(١) «فتح الباري» (٧/ ٣٩٢).



٩ - غزوة أحـد

وتشتمل على:

- بين يدي الغزوة
- أحداث الغزوة
- فصل في مصارع الأبطال وأكابر الشهداء
- الفوائد والآثار الإيمانية

غــزوة أحـد

بين يدي الغزوة:

هي الغزوة التي اجتمع فيها النصر والهـزيمة، وظهر فيها النفاق بأظهر علاماته وأجلى صـفاتـه، والإيمان وما يفـعله في النفس البـشـرية من الاسـتعـلاء على الشهوات، والإخلاص لرب الأرض والسموات.

الغزوة التي كانت درسًا عمليًا للصـحب الكرام، وإن كان الثمن غاليًا من القتلى والجرحـى، وما أصاب المـصطفى ﷺ، إلا أن الدرس باقٍ على مر العـصـور، يتعـلم منه المسلـمون أسباب النصر وأسباب الهزيمة، ثمار التوكل على الله والثقـة به، وآثار التطلع إلى الدنيا والرغبة في أعراضها وشهواتها، ولقد كانت الدروس القرآنية وإيقاف الصحابة على مواطن الدرس والعظة رقيقة لطيفة تُناسب النفوس المكلومة، والأبدان التي أصابها القـرح، فبينما قال الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ لهم بعد غزوة بدر وهم في فرحـة النصـر وعافـية الأبدان: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٨).

قـال لهم بعد أُحُـد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

ثم كيف عزّاهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهذا العزاء الرقيق فذكرهم بعقوبة المكذبين، وأن هذه جولة عارضة، من أجل التربيـة والتمحيص، ولكن السنة الدائمة أن الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ يمكّن لعـباده المؤمنين، وتـكون العاقـبـة للمـتقين، والهـلاك للمكذبين، فقـال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٧-١٣٩).

والحرب دول بين أولياء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأعدائه، ولكن العاقبة في النهاية للمتقين. وأهل الحق، الله مولاهم وحسيبهم وكفيلهم وعليه إثابتهم، وأعداء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا مولى لهم، فالشهداء يحتسبهم المؤمنون عند ربهم، ويعلمون أن مالهم عند الله خير من الدنيا وما فيها، وما من مكلوم يُكلَّم في سبيل الله، والله أعلم بمن يُكْلَم في سبيله إلا أتى يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا اللون لون الدم والريح ريح المسك، قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

أحداث الغزوة:

بعد أن أصيبت قريش في عظمائها، وأئمة الكفر فيها يوم بدر وقلوبهم تغلي حقدًا وحنقًا وغيظًا على المسلمين، فعبأت قوتها، واستعانت بحلفائها، وخرجت في ثلاثة آلاف مقاتل، ووافت مشارف المدينة بعد سنة وشهر تقريبًا من غزوة بدر في منتصف شوال من السنة الثالثة من الهجرة على الراجح.

ولما علم النبي ﷺ بمسيرهم، استشار أصحابه، وكان النبي ﷺ قد رأى رؤيا تُشير إلى ما حدث: عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «**رأيتُ في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهْلِي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب، ورأيتُ في رؤياي هذه أني هززت سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أُصيب من المؤمنين يوم أُحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيتُ فيها أيضًا بقرًا والله خير، فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أُحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير بعد وثواب الصدق الذي آتانا الله بعد**»[1].

فلما شاور النبي ﷺ أصحابه أشار عليه الشباب، ومن حرم من شهود بدر وغلبه الشوق إلى الجهاد، وملاقاة العدو بالخروج إليهم، وكان من رأيه ﷺ ورأى الشيوخ، وكذلك عبد الله بن أُبي ابن سلول المكث في المدينة ومقاتلتهم إذا دخلوها في الأزقة، ومن أسطح البيوت.

---

(١) رواه البخاري (١٢/ ٤٢١) التعبير، ومسلم (١٥/ ٣١، ٣٢) الرؤيا، وابن ماجه (٣٩٢١) الرؤيا.

روى أحمد عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيتُ كأني في درع حصينة، ورأيتُ بقرًا منحرةً فأوَّلت أن الدرع الحصينة المدينة، وأن البقر هو والله خير**»، قال: فقال لأصحابه: «**لو أنا أقمنا بالمدينة، فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم**»، فقالوا: يا رسول الله، والله ما دُخِلَ علينا فيها في الجاهلية، فكيف يدخل علينا فيها في الإسلام؟ قال عفان في حديثه: فقال: «**شأنكم إذا قال: فلبس لامته**»، قال: فقالت الأنصار: رددنا على رسول الله ﷺ رأيه، فجاءوا فقالوا: يا نبي الله شأنك إذًا، فقال: «**إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يُقاتل**»[1].

فخرج النبي ﷺ لملاقاة قريش[2]، وبينما هو في الطريق انسحب من الجيش عبد الله بن أُبيّ رأس النفاق بثلث الجيش - ثلاثمائة مقاتل -، وكانت هذه أول فائدة من فوائد هذه الغزوة، وهي تمييز المنافقين، والفصل بينهم وبين المؤمنين الصادقين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[3] (آل عمران: ١٦٦-١٦٧).

وتعلل عبد الله بن أُبيّ بأن النبي ﷺ خالفه وأخذ بقول غيره، وأكذبه الله - عزَّ وجلَّ - في كل ما ادعاه بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٧).

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٥١)، والدارمي (٢/ ١٢٩، ١٣٠)، وله شاهد عن ابن عباس، رواه الحاكم (٢/ ١٢٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي والألباني. وله بقية سوف نذكرها في موضعها من حديث ابن عباس.

(٢) قال محمد بن إسحاق: وخرج رسول الله ﷺ يوم الجمعة حين صلى الجمعة، فأصبح بالشعب من أحد، فالتقوا يوم السبت في النصف الأول من شوال. قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٣) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «لما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة أُحد رجع ناس ممن خرج معه، وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتين، فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ وقال: «**إنها طيبة تنقي الذنوب، كما تنقي النار خبث الفضة**»، رواه البخاري (٧/ ٤١٢).

وهذا الغدر من المنافقين هو المتوقع منهم، لأن الدافع للبذل والتضحية هو الإيمان بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ والرغبة في ثوابه ورضاه، فإذا عدم الإيمان فلأي شيء يُعرِّض المنافق نفسه للخطر، وكادتْ هذه الخيانة أن تؤثر في بعض المؤمنين إلا أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عصمهم من ذلك لحبهم لله ـ عزَّ وجلَّ ـ والرغبة في نصرة دينه، كما قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران:١٢٢)، وهم بنو سلمة (من الخزرج)، وبنو حارثة (من الأوس).

عن جابر ﷺ قال: فينا نزلتْ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾»[١].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يومئذٍ، وأعطى اللواء مصعب بن عمير، وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو، واستعرض الشباب يومئذ فردَّ من استصغره عن القتال وكان منهم عبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وأُسيد بن ظهير، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزم وأجاز من رآه مطيقًا وكان منهم سَمُرَة بن جندب، ورافع بن خديج ولهما خمس عشرة سنة، ورد من رد لصغره عن سن البلوغ[٢].

وكان عدد جيش المسلمين بعد رجوع عبد الله بن أبي بثلث الجيش سبعمائة مقاتل، وأوقف النبي ﷺ عبد الله بن جبير في خمسين من الرماة يحمون

---

(١) رواه البخاري (٨/٧٣) التفسير، ومسلم (١٣/٦٦، ٦٧) فضائل الصحابة. قال القاسمي: أي: لفرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله تعالى، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية، وأن تلك الهمة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى «محاسن التأويل» (٤/٢١٦).

(٢) باختصار من «زاد المعاد» (٣/١٩٥) عن ابن عمر ﷺ قال: «عرضني رسول الله ﷺ يوم أُحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني، وعرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

ظهورهم، وأمرهم أن لا يفارقوا أماكنهم. وتـعبأت قريش للقتال وهم في ثلاثة آلاف، وفيهم مائتا فارس، فجعلوا على مـيمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وبدأ القتال بانتصار ساحق للمسلمين.

روى الحاكم في «مـستدركه» عن ابن عـباس قال: «مـا نُصِر النبي ﷺ في موطن كـما نصر يوم أُحـد. قال الراوي عنه ـ عبيـد الله بن عتبـة ـ: فأنكرنا ذلك، فقـال ابن عباس: بين وبين من أنكر ذلك كتـاب الله ـ عزَّ وجلَّ، إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول في يوم أُحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٢)، وإنما عني بهـذا الرمـاة، وذلك أنَّ النبي ﷺ أقـامهم في مـوضع، ثم قـال: **«احـموا ظهـورنا، فإن رأيتـمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتـمونـا قد غنمنا فلا تشركونا»**، فلما غنم رسـول الله ﷺ وأباحوا عـسكر المشركين انكشف الرمـاة جميـعاً، فدخلوا في العـسكر ينتهبـون، وقد التقت صـفوف أصحـاب النبي ﷺ فهم هكذا وشبك بين أصـابع يديه والتبسـوا، فلما أخلَّ الرماة تـلك الخلة التي كانوا فيها، دخل الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي ﷺ، فضرب بعضهـم بعضـًا والتبسـوا، وقُـتـل من المسلمين ناس كثـير، وقد كـان لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحـاب لواء المشركين سبعة أو تسعة، وجال المسلمون جولة نحو الجبل»[1].

وروى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قـال: لقينا المشركين يومئذٍ وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله وقال: **«لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا عليهم فلا تعينونا»**، فلما لقينا هربوا، حتى رأيـت النساء رفـعن عن سوقهـن قد بدتْ خلاخِلـهن، فأخذوا يـقولون:

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٢٩٦) التفسير، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله: عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صُرف وجوههم فأُصيب سبعون قتيلاً، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «**لا تجيبوه**»، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «**لا تجيبوه**»، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك.

قال أبو سفيان: أُعْلُو هُبَلْ. فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا: ماذا نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**»، قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزَّى لكم، فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا: ماذا نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**»، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مثلةً لم أمر بها ولم تسؤني[1].

وأُشيع بين الصحابة ﷺ أن رسول الله ﷺ قد قُتل، كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿**فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ**﴾ (آل عمران:١٥٣)، قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: ﴿**فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ**﴾.

فأثابكم بغمكم أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ، بعد الذي كان قد أراكم في كل ذلك ما تُحبون بمعصيتكم أمر ربكم وخلافكم أمر نبيكم ﷺ غم ظنكم أن نبيكم قد قُتل، وميل العدو عليكم ونبوكم منهم[2].

ودلَّ على ذلك كذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ (آل عمران:١٤٤)، وفر كثير من الصحابة ﷺ وعفا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بفضله ورحمته عنهم، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ**

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٠٥) المغازي.
(٢) «جامع البيان» (٤/ ٩١) ط. دار المعرفة بيروت لبنان.

أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ (آل عمران:١٥٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران:١٥٥)، وثبت مع النبي ﷺ نفر قليل منهم: طلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وأبو دجانة، وأبو طلحة الأنصاري كما نزلت ملائكة من السماء تقاتل عن رسول الله ﷺ[١].

عن قيس قال: «رأيتُ يد طلحة شَلاَّء وقَى بها النبي ﷺ يوم أُحد»[٢].

قال الحافظ: وقع بيان ذلك عند الحاكم في «الإكليل» من طريق موسى بن طلحة. «جرح يوم أُحد تسعًا وثلاثين أو خمسًا وثلاثين وشلت إصبعه، أي: السبابة والتي تليها»، وللطيالسي من طريق عيسى بن طلحة عن عائشة قالت: «كان أبو بكر إذا ذكر يوم أُحد قال: كان ذلك اليوم كله لطلحة. قال: كنتُ أول من فاء، فرأيتُ رجلاً يقاتل عن رسول الله ﷺ قال: فقلت: كن طلحة، قلتُ: حيث فاتني يكون رجل من قومي، وبيني وبينه رجل من المشركين، فإذا هو أبو عبيدة، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ فقال: «**دونكما صاحبكما**»، يريد طلحة، فإذا هو قد قطعت إصبعه، فلما أصلحنا من شأنه»، وفي حديث جابر عند النسائي: «فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال: «**من للقوم؟**»، فقال طلحة: أنا، فذكر قتل الذين كانوا معهما من الأنصار»[٣].

وممن قاتل بين يديه ﷺ ونال هذا الشرف العظيم في هذه الساعة: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: عن سعيد بن المسيب قال: سمعتُ سعد بن أبي وقاص

---

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أُحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهقوه قال: «**من يردهم عنا، وله الجنة أو هو رفيقي في الجنة**»، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل، ثم رهقوه فقال: «**من يردهم عنا وله الجنة أو هو رفيقي في الجنة**» فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «**ما أنصفنا أصحابنا**» رواه مسلم (١٢/ ١٤٧، ١٤٨) الجهاد.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٤١٦) المغازي.

(٣) «فتح الباري» (٧/ ٤١٨) المغازي.

يقول: «نَثَل لي النبي ﷺ كنانته يوم أُحد: فقال: **ارم فداك أبي وأمي**»[١].

ومن هؤلاء الأبطال الذين أبلوا بلاءً حسنًا يوم أُحد: أبو دجانة سماك بن خرشة، عن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أُحد فقال: من يأخذ مني هذا؟ فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول: أنا أنا. قال: فمن يأخذه بحقه؟ قال: فأحجم القوم، فقال سماك بن خرشة أبو دجانة: أنا آخذه بحقه. قال: فأخذه ففلق به هام المشركين[٢].

ومن هؤلاء الأبطال الذين أبلوا بلاءً حسنًا يوم أُحد: أبو طلحة الأنصاري، عن أنس قال: «لما كان يوم أُحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مُجوَّبٌ عليه بجحف له، وكان أبو طلحة رجلاً راميًا شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثًا، وكان الرجل يمرُّ معه بجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحةٍ، فقال: ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سُليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما، تنقزان القرب على متونهما تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنه، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثًا»[٣].

ومن الذين قاتلوا بين يديه ﷺ: ملائكة من السماء، عن سعد رضي الله عنه قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يُقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٤١٥) المغازي.

(٢) رواه مسلم (١٦/ ٢٤) فضائل الصحابة.

(٣) رواه البخاري (٧/ ٤١٨) المغازي، ومسلم (١٢/ ١٨٩) الجهاد والسير.

(٤) رواه البخاري (٧/ ٤١٤، ٤١٥) المغازي، ومسلم (١٥/ ٦٦) الفضائل. قال النووي: فيه: بيان كرامة النبي ﷺ على الله تعالى، وإكرامه إياه بإنزال الملائكة تقاتل معه، وبيان أن الملائكة تقاتل، وأن قتالهم لم يختص بيوم بدر وهذا هو الصواب خلافًا لمن زعم اختصاصه، فهذا صريح في الرد عليه. وفيه: فضيلة الثياب البيض، وأن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء بل يراهم الصحابة والأولياء. وفيه: منقبة لسعد بن أبي وقاص الذي رأى الملائكة، والله أعلم. «شرح النووي» (١٥/ ٦٦).

قال الحافظ: هما جبريل وميـكائيل، كذا وقع في مسلم عن طريق أخرى عن مسعر، وفي آخره «يعني جبريل وميكائيل».

وجرح وجه رسول الله ﷺ يوم أُحد، وكسرت رباعـيته، وهشمت البيضة على رأســه بأبي هو وأمي، عن أنس أن رسول الله كُـسرتْ رباعـيتـه يوم أُحد، وشجَّ في رأسه، فجـعل يسلُت الدم عنه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسـروا رباعـيتـه، وهو يدعـوهم إلى الله**»، فأنزل الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾**[1] (آل عمران:١٢٨).

وعن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد يسأل عن جُرح رسول الله ﷺ يوم أُحد فقـال: جُرِحَ وجه رسول الله ﷺ، وكُسـرتْ رباعيته، وهُشمتْ البـيضة على رأسه، فـكانت فاطمة بنـت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكـان علي بن أبي طالب يسكب عليه بالمجنِّ، فلما رأتْ فاطمـة أن الماء لا يزيده إلا كثرة، فأخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادًا، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم[2].

وبعـد أن اشتـد الكرب والغم بالمؤمنين ومـحّص الله قلوبهم، وابتلى مـا في صدورهم، واتخذ ما شاء من الشهداء، أنزل عليهم أمنًا ونعاسًا أصاب الصادقين منهم فـخـفف عنهم مصـابهم، وربط به عـلى قلوبهم. وأمـا أصحـاب الريب والشكوك والظنون السيئة، فقد أهمتـهم أنفسهم، وتلاعبتْ بهم الشياطين، قال الله تعالى: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** (آل عمران: ١٥٤).

---

(١) رواه مسلم (١٢/ ١٤٩) الجهاد والسير.

(٢) رواه مسلم (١٧٩٠) الجهاد والسير، والبخاري (٧/ ٤٣٠، ٤٣١) المغازي.

قال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ: ولقد أعقب هول الهزيمة وذعرها وهرجها ومرجها سكون عجيب، سكون في نفوس المؤمنين الذين ثابوا إلى ربهم، وثابوا إلى نبيهم، لقد شملهم نعاس لطيف يستسلمون إليه مطمئنين! ﴿**ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ**﴾ (آل عمران: ١٥٤).

وهي ظاهرة عجيبة، تشي برحمة الله التي تحف بعباده المؤمنين، والنعاس حين يلم بالمجهدين المرهقين المُفزَّعين ولو لحظة واحدة يفعل في كيانهم فعل السحر، ويردهم خلقًا جديدًا.

أما الطائفة الأخرى: فهم ذوو الإيمان المزعزع الذين شغلتُهم أنفسهم وأهمتهم، والذين لم يتخلصوا من تصورات الجاهلية، ولم يسلموا أنفسهم كلها لله خالصة، ولم يستسلموا بكليتهم لقدره، ولم تطمئنْ قلوبهم إلى أن ما أصابهم إنما هو ابتلاء للتمحيص، وليس تخليًا من الله عن أوليائه لأعدائه، ولا قضاء منه سبحانه للكفر والشر والباطل بالغلبة الأخيرة والنصر الكامل.

إن هذه العقيدة تُعلِّم أصحابها ـ فيما تعلم ـ أن ليس لهم في أنفسهم شيء، فهم كلهم لله، وأنهم حين يخرجون للجهاد في سبيله يخرجون له، ويتحركون له، ويقاتلون له بلا هدف آخر لذواتهم في هذا الجهاد[1]. عن أبي طلحة ﷺ قال: كنتُ فيما تغشاه النعاس يوم أُحد حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه[2].

ولما تركت قريش ساحة القتال، اشتغل النبي ﷺ بدفن الشهداء وأمر بدفنهم في دمائهم وثيابهم، ولم يُغسلوا، ولم يصل عليهم، وأمر بدفنهم في أماكن استشهادهم. عن جابر بن عبد الله: لما كان يوم أُحد جاءت عمتي بأبي

---

(١) باختصار من «الظلال» (١/ ٤٨٩).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٢٢) المغازي.

لتدفنه في مقابرنا، فنادى منادي رسول الله ﷺ: ردُّوا القتلى إلى مضاجعهم[١].

وكان رسول الله ﷺ يجمع يبن الرجلين من قـتلى أُحُد في ثوب واحد يقول: «أيهم أكثـر أخذًا للقرآن» فـإن أشير إلى أحدهمـا قدمه في اللحـد، وقال: «**أنا شهيد على هؤلاء**»، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصل عليهم ولم يُغسلهم[٢].

وقد حنَّ إلـيهم رسول الله ﷺ فـصلى عليهم قـبل وفاته، فكـان كالمودع لهم، عن عقـبة أن النبي ﷺ خرج يومًـا فصلى على أهل أُحُـد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «**إني فرط لكم، وأنا شهيدٌ عليكم**»[٣].

فصل في مصارع الأبطال وأكابر الشهداء

ويشمل هذا الفصل قصص استشهاد الأكابر بعد أن أبلوا أحسن البلاء، وكانوا أمثلة نادرة للشجاعة والفداء، نسأل الله أن يجمعنا بهم في دار الشهداء، وأن ينفع بحبهم والنسج على منوالهم من يشاء من الأولياء.

١ ـ قصة استشهاد سيد الشهداء حمزة:

وحمـزة هو عم النبي ﷺ وأخوه من الرضـاعة: أسد الله وأسـد رسوله، الأسد الهادر الذي طالما أطار بسيفه هامات الكفار، وكان قتله غدرًا ولم يكنْ في ساحة النزال، حيث يتقابل الأبطال.

عن جعفر بن عـمرو بن أمية الضَّمري قال: خرج مع عـبيد الله بن عدي بن الخيار، فلما قدمنا حمص قال لي عبيد الله بن عدي: هل لك في وحشي نسأله عن قتل حمزة؟ قلت: نعم، وكان وحشي يسكـن حمص، فسألنا عنه فقيل لنا:

---

(١) رواه أحمـد (٣/ ٣٩٨) بطوله ومختـصرًا في (٣/ ٣٠٨)، والنسـائي (٤/ ٧٩) مختـصرًا في الجنائز، وابن ماجه (١٥١٦) الجنائز، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٣٣) المغـازي، والترمذي (٤/ ٢٥٣) الجنائز، وقال: حسن صحـيح، وابن ماجه (١٥١٤) الجنائز.

(٣) رواه البخاري (٧/ ٤٣٦، ٤٣٧) المغازي.

هو ذاك في ظل قصره كأنه حميت[1]. قال: فجئنا حتى وقفنا عليه بيسير فسلمنا فرد السلام قال: وعبيد الله معتجز بعمامته ما يرى وحشي إلا عينيه ورجليه، فقال عبيد الله: يا وحشي أتعرفني؟ قال: فنظر إليه، ثم قال: لا والله، إلا أني أعلم أن عدي بن الخيار تزوج امرأة يقال لها: أم قتالٍ بنت أبي العيص، فولدت له غلامًا بمكة، فكنت أسترضع له، فحملت ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياه، فكأني نظرتُ إلى قدميك. قال: فكشف عبيد الله عن وجهه، ثم قال: ألا تُخبرنا بقتل حمزة؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدرٍ، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمِّي فأنت حُر، قال: فلما خرج الناس عام عينين - وعينين جبل بحيال أُحد بينه وبينه واد - خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سِباع فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: يا سباع يا بن أمِّ أنمار مقطعة البظور أتحاد الله ورسوله ﷺ، قال: ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب، قال: وكمنت لحمزة تحت صخرة فلما دنا مني رميتُه بحربتي، فأضعها في ثُنَّته حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجتُ إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسلاً، فقيل لي: إنه لا يهيج الرسل، قال: فخرجتُ معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ، فلما رآني قال: «**آنت وحشي؟**». قلت: نعم. قال: «**أنت قتلت حمزة؟**». قلت: قد كان من الأمر ما بلغك. قال: «**فهل تستطيع أن تُغيب وجهك عني؟**». قال: فخرجتُ، فلما قُبِضَ رسول الله ﷺ، فخرج مسيلمة الكذاب، قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله فأكافئ به حمزة. قال: فخرجتُ مع الناس فكان من أمره ما

(١) قوله: «حميت» بوزن رغيف أي: زق كبير، وأكثر ما يُقال ذلك إذا كان مملوءًا. قوله: «استرضع له» أي: أطلب من يرضعه، زاد في رواية ابن إسحاق «والله ما رأيتك منذ ناولتك أمك السعدية التي أرضعتك بذي طوى، فإني ناولتكها وهي على بعيرها، فأخذتك فلمعت لي قدمك حين رفعتك، فما هو إلا أن وقف عليَّ فعرفتها»، قال الحافظ: وهذا يوضح قوله في رواية الباب «فكأني نظرت إلى قدميك» يعني: أنه شبه قدميه بقدم الغلام الذي حمله، فكأنه هو هو، وبين الرؤيتين قريب من خمسين سنة فدل ذلك على ذكاء مفرط ومعرفة تامة بالقافة. «فتح الباري» (٧/ ٤٢٦).

كان، قـال: فإذا رجل قائم في ثلمـة جدار كأنه جـمل أورق ثائر الرأس، قال: فرميـته بحربتي، فأضعهـا بين ثدييه حتى خرجت من بين كتـفيـه، قال: ووثب رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته[١].

٢ ـ قصة استشهاد أنس بن النضر رضي الله عنه:

عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عـمي أنس بن النضر عن قتال بدر فـقال: يا رسول الله! غبت عن أول قتال قـاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المـشركين لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع، فلما كان يوم أُحد، وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني أصـحـابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المـشـركين ـ ثم تقـدم فاستقبـله سعد بن معاذ، فقـال: يا سعد بن معاذ الجنة وربِّ النضر إني أجد ريحها من دون أُحُـد. قـال سعد: فمـا استطعـت يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فـوجدنا به بضعًا وثمـانين ضربة بالسيف، أو طعنة بالرمح، أو رمـية بسهـم، ووجدناه قد قتل، وقد مثَّل به المشركـون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه. قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيــه وفي أمثاله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[٢] (الأحزاب: ٢٣).

٣ ـ قصة استشهاد عبد الله بن حرام؛ والد جابر رضي الله عنهما:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما قُتل أبـي جعلتُ أكشف الثوب عن وجهه أبكي وينهوني، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يـنهـاني فجعـلت عـمتي فاطمة تبكي، فـقال النبي صلى الله عليه وسلم: «تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه»[٣].

---

(١) رواه البـخاري (٧/ ٤٢٤، ٤٢٥) المغازي، قـوله: «كأمس الذاهب» هي كناية عن قـتله، أي: صيـره عدمًا. قوله: «في ثنته» هي العانة. وقيل: ما بـين السرة والعانة. قوله: «جمل أورق» أي: لونه مثل الرماد من غبار الحرب.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٣٥٤، ٣٥٥)، ومسلم (١٣/ ٤٧، ٤٨) الإمـارة، والترمذي (١٢/ ٨٠، ٨١ عارضة) التفسير. وقوله: «فما استطعت يا رسول الله ما صنع» أي: أصنع مثلِ ما صنع أو أصف ما صنع.

(٣) رواه البخاري (٣/ ١٣٥) الجنائز.

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لما حضر قتال أُحد دعاني أبي من الليل فقال: إني لا أراني إلا مقتولاً في أول من يُقتل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإني والله ما أدع أحدًا ـ يعني أعز عليَّ منك بعد نفس رسول الله ﷺ ـ وإنَّ عليَّ دَيْنًا فاقض عني ديني، واستوص بإخوتك خيرًا، قال: فأصبحنا فكان أول قتيل، فدفنته مع آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع آخر في قبرٍ، فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته غير أذنه[1].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى لا يُكلِّم أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كَلَّم أباك كفاحاً**»، فقال: تمنَّ عليَّ وذكر الحديث[2].

٤ ـ قصة استشهاد اليمان؛ والد حذيفة ﷺ:

عن محمود بن لبيد قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد وقع اليمان بن جابر أبي حذيفة وثابت بن وقش ابن زعوراء في الآطام مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: لا أبًا لك ما ننتظر فوالله ما بقي لواحد منا من عمره إلا ظمأ حمار[3]، إنما نحن هامة القوم[4]، ألا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ، فدخلا في المسلمين ولا يعلمون بهما، فأما ثابت ابن وقش فقتله المشركون، وأما أبا حذيفة فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه، ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي أبي، فقالوا: والله ما عرفناه، وصدقوا. فقال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَه، فتصدق به حذيفة على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ[5].

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٢٠٣) معرفة الصحابة، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٢٠٤) معرفة الصحابة، وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) **قال السهيلي**: إنما قال ذلك لأن الحمار أقصر الدواب ظمأً والإبل أطولها أظمأ.

(٤) في «أسد الغابة»: إنما نحن هامة اليوم أو غدًا.

(٥) رواه الحاكم (٣/ ٢٠٢) معرفة الصحابة، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأخرج البخاري الجزء الأخير في قتل اليمان في «صحيحه» (٧/ ٤١٨) المغازي.

٥ـ قصة استشهاد عمرو بن الجموح:

وكـان أعرج شـديد العـرج، وكـان له أربعـة أبنـاء شبـاب يُغـزون مع رسول الله ﷺ، فلما توجه إلى أُحد أراد أن يخرج معه فقال له بنوه: إن الله جعل لك رخصـة فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجـهاد، فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال: إن بني هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك، ووالله إني لأرجو أن أستشهد، فأطأ بعرجتي في الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: «**أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد**»، وقال لبنيه: «**وما عليكم أن تدعوه، لعل الله ـ عزَّوجلَّ ـ أن يرزقه الشهادة**»، فخرج مع رسول الله ﷺ، فقتل يوم أُحد شهيدًا[١].

٦ ـ قصة استشهاد عبد الله بن جحش رضي الله عنه:

عن سعيد بن المسيب قال: قال عبد الله بن جحش: اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غدًا فيقتلوني ويجدعوا أنفي وأذني ثم تسألني بما ذاك؟ فأقول: فيك. قال سعيد بن المسيب: إني لأرجو أن يبر الله آخر قسمه كما بر أوله[٢].

٧ ـ قصة استشهاد مصعب بن عمير رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق: وقاتل مـصعب بن عـمير دون رسـول الله ﷺ حتى قُتل، قـتله ابن قمئة الليـثي، وهو يظنه رسول الله فرجع إلى قريـش فقال: قتلت محمدًا[٣].

وعن خبَّابٍ قـال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نبتـغي وجه الله فوقع أجرنا على الله، فمنا من مضى لسبيله لم يأكل من أجـره شيئًا منهم مصعب بن

(١) رواه ابن هشام (٢/ ١٣٩) عن ابن إسـحاق، وبعضـه في «المسند» (٥/ ٢٩٩) من حديث أبي قـتادة، وصحح الألباني إسناده في «تحقيق فقه السيرة» هامش (٢٨١).

(٢) رواه الحاكم (٣/ ١٩٩، ٢٢٠) معرفة الصحابة، وقال: صـحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: لكن له شاهد موصول، وأخرجه البغوي كما في «الإصابة» من طريق إسحـاق بن سعد بن أبـي وقاص: حدثني أبي أن عـبد الله بن جحش قـال: فذكـره بنحوه وزاد في آخره. قال سعد: «فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه معلقتان في خيط».

(٣) رواه ابن هشام (٢/ ٧٣)، وابن سعد (٣/ ١/ ٨٥)، وانظر «سير أعلام النبلاء» (١/ ١٤٨).

عميـر، قُتل يوم أُحد، ولم يترك إلا نمِرة كنا إذا غطيـنا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، فـقال رسول الله ﷺ: «**غطوا رأسه واجعلوا على رجليه من الإذخر**»، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها[(١)].

فصل في خروج النبي ﷺ إلى حمراء الأسد

أشفق النبي ﷺ من أن يعـود جيش أبي سفيـان إلى المدينة، ونما إلى علمه أنه يُفكِّر في ذلك، فدعا الصحابة ﷺ إلى الخروج فلم يستسلموا للأحزان على الشـهـداء، ولا للجراح التي بهم، وخـرجوا مع رسـول الله ﷺ، واشتـرط رسول الله ﷺ أنْ لا يخـرجَ معه إلا من خرج مـعه بالأمس، فخرجـوا حتى بلغوا حمراء الأسد - وهي على بعد ثمانية أميال من المدينة على يسار الطريق إذا أردت ذا الحليفة - روى البخاري عن عائشة ﵂: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٢)، قالت لعروة: يا أخي، كـان أبواك منهم: الزبيـر وأبو بكر، لمـا أصاب رسـول الله ﷺ مـا أصاب يوم أُحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا قال: من يذهب في أثرهم، فانتدب منهم سبعون رجلاً. قال: كان فيهم أبو بكر والزبير[(٢)].

قال الحافظ: قوله: «باب: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾»، أي: سبب نزولها وأنها تتـعلق بأُحُد. قال ابن إسحـاق: كان أُحد يوم السـبت لنصف من شوال، فلما كان الغـد يوم الأحد سادس عشر شـوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأن لا يخـرج معنا إلا من حضر بالأمس، فاسـتأذنه جابر ابن عبد الله في الخروج معه فأذن له، وإنما خرج مرهبًا للعدو، وليظنوا أن الذي أصابهم لهم يوهنهم عن طلب عدوهم، فلما بلغ حمـراء الأسد لقيه سعد بن أبي معبـد الخزاعي فيما حـدثني عبد الله بن أبي بكر، فعزاه بمصـاب أصحابه، فأعلمـه أنه لقي أبا سفـيان، ومن معـه وهم بالرَوحاء وقـد تلوموا في أنفـسهم

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٣٣) المغازي.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٣٢) المغازي، ورواه مسلم مختصرًا (١٥/ ١٩١) فضائل الصحابة.

وقـالوا: أصبنـا جُل أصحـاب مـحـمـد ﷺ وأشـرافهم، وانصـرفنا قـبل أن نستأصلهم وهمـوا بالعودة إلى المدينة، فأخبرهــم معبد أن محمـدًا قد خرج في طلبكم في جمع لم أر مثله ممن تخلف عـنه بالمدينة قال: فثناهم ذلك عن رأيهم فرجعوا إلى مكة، وعند عبد بن حميد من مرسل عكرمة نحو هذا[١].

الفوائد والآثار الإيمانية:

استفـاض ابن القيم ـ رحمه الله ـ في ذكـر الفوائد الفقهيـة والحكم والغايات المحمـودة التي كـانتْ في هذه الغزوة، وابن القـيم ـ رحمـه الله ـ إذا تكلم في مسألة أعـيا من بعده أن يأتي بمزيد، وصار من بعده عـالة عليه في هذه المسألة، وسوف نختصر ما ذكره ـ رحـمه الله ـ وإذا تيسر مزيد ذكرناه، والله يتولانا وإياه برحمته ورضاه، ويبلغنا من الآمال فوق ما نتمناه:

١ ـ قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ ما ملخصه فصل فيما اشتملت عليه هذه الغزوة من الأحكام الفقهية منها:

■ أن الجهـاد يلزم بالشروع فـيه حـتى إن مَنْ لبس لأمتـه وشرع في أسـبابه، وتأهب للخروج، ليس له أن يرجع عن الخروج، حتى يقاتل عدوه.

■ أنه لا يجب على المسلمين إذا طرقهم عـدوهم في ديارهم الخروج إليه، بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم ويقاتلوهم فيها.

■ جواز سلوك الإمام بالعسكر في بعض أملاك رعيته، وإن لم يرض المالك.

■ أنه لا يأذن لمن لا يُطيق القتال من الصبيان غير البالغين.

■ جواز الغزو بالنساء والاستعانة بهن في الجهاد.

(١) «فتح البـاري» (٧/ ٤٣٢)، والمشهور في كـتب المغازي: أن الذين خرجـوا مع رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد كل من شهد أُحدًا وكانوا سبـعمائة قتل منهم سبعون، وظاهر رواية البخاري: أن الذين خرجوا سبعين، فالله أعلم بالصواب، وقد جمع بعض العلماء بأن السبعين سبقوا إلى حمراء الأسد، ثم تبعهم الباقون.

- جواز الانغماس في العدو كما انغمس أنس بن النضر وغيره.
- أن الإمام إذا أصابته جراحة صلى بهم قاعدًا.
- جواز دعاء الرجل أن يُقتل في سبيل الله.
- أن السنة في الشهيد أنه لا يُغسل، ولا يُصلى عليه، ولا يُكفن في غير ثيابه، بل يُدفن بدمه وكلومه، إلا أن يسلبها فيكفن في غيرها.
- أن السنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم، ولا ينقلوا إلى مكان آخر.
- جواز دفن الرجلين أو الثلاثة في القبر الواحد، ويُقدم أكثرهم قرآنًا.
- أن من عذره الله في التخلف عن الجهاد يجوز له الخروج، وإن لم يجب عليه.

أن المسلمين إذا قتلوا واحدًا منهم في الجهاد يظنونه كافرًا فعلى الإمام ديته من بيت المال[1].

٢ - وقال ابن القيم - رحمه الله - ما ملخصه: فصل في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أُحد:

وقد أشار الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أمهاتها وأصولها في سورة (آل عمران) حيث افتتح القصة بقوله: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ**﴾ (آل عمران: ١٢١)، إلى تمام ستين آية؛ **فمنها**: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ**﴾ (آل عمران: ١٥٢)، فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرًا ويقظةً وتحرزًا من أسباب الخذلان.

- أن حكمة الله في رسله وأتباعهم جرتْ بأن يدلوا مرة ويُدال عليهم أخرى،

---

(١) باختصار من «زاد المعاد» (٣/ ٢١١-٢١٨).

لكن تكون لهم العاقبة، وليتميز الصادق من غيره، كما قال هرقل لأبي سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال سجال: يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرى، قال: كذلك الرسل تُبتلى، ثم تكون لهم العاقبة[1].

■ أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإنَّ المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت، دخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن سبَّبَ لعباده محنة ميزتْ بين المؤمن والمنافق، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ١٧٩).

■ استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السّراء والضّراء، وفيما يُحبون ويكرهون، فإذا ثبتوا فهم عبيده حقًا.

■ أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا وأظفرهم بعدوهم في كل موطن لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء، فهو المدبر لعباده بحكمته.

■ أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة ذلوا وانكسروا، فاستوجبوا العزَّ والنصر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (آل عمران: ١٢٣).

■ أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، فقيض لهم الأسباب التي تُوصلهم إليها.

■ أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة، والنصر والغنى طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة.

■ أن الله سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء تُراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ولا سبيل إلى هذه الدرجة إلا بالأسباب المفضية إليها.

■ أنَّ الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قيض لهم الأسباب، ومِنْ أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في أذى أوليائه، فيتمحص بذلك

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٠-٤١) بدء الوحي.

أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤١).

- أن وقعة أُحد كانت مقدمة وإرهاصًا بين يدي موت رسول الله ﷺ فثبتهم ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ أو قُتل؛ بل الواجب عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، فقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

٣ - **قال محمد الغزالي ما ملخصه:** ولئن أفادت وقعة بدر في خذل الكافرين، فإن وقعة أُحد أفادت مثلها في فضح المنافقين، وربَّ ضارة نافعة، وربما صحت الأجساد بالعلل. ولعل ما ترتب على عصيان الأوامر في هذه الموقعة درس عميق، يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة، فالجماعة التي يحكمها أمر واحد، أو التي تغلب على أفرادها وطوائفها النزعات الفردية النافرة لا تنجح في صدامٍ، بل لا تشرف نفسها في حرب أو سلام، والأمم كلها مؤمنها وكافرها تعرف هذه الحقيقة.

وأسرع الناس إلى الشغب والتمرد مَنْ أقصوا من الرئاسة وهم إليها طامحون، وكان عبد الله بن أبي مثلاً لهذه الفئة التي تُضحي بمستقبل الأمة في سبيل أطماعها الخاصة. أما الرماة الذين عصوا الأوامر بلزوم أماكنهم مهما كانت أطوار القتال، فقد مرتْ بهم فترة ضعف وذهول تيقظت خلالها بقية في أنفسهم من حب الدنيا، والإقبال على عرضها الزائل، فكان أثر ذلك ما كان، ولذلك لما دهش المسلمون للكارثة التي قلبت عليهم الأمور بيَّن الله لهم أنهم هم مصدرها، فما أخلفهم موعدًا، وظلمهم حقًا. ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] (آل عمران: ١٦٥).

٤ - **قال القاسمي في قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو

(١) «فقه السيرة» للغزالي (٢٨٦، ٢٨٧).

فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٥٢)، أي: كفكم عنهم حتى حالتْ الحال، ودالت الدولة، وفيه: من اللطف بالمؤمنين ما لا يخفى، ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، أي: ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى الله، وترجعوا إليه وتستغفروه فيما خالفتم فيه أمره وملتم إلى الغنيمة، ثم أعلمهم أنه تعالى قد عفا عنهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، أي: تفضلاً عليكم لإيمانكم، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: في الأحوال كلها، إما بالنصرة، وإما بالابتلاء، فإن الابتلاء فضل ولطف خفي، ليتمرنوا بالصبر على الشدائد والثبات في المواطن، ويتمكنوا في اليقين، ويجعلوه ملكة لهم، ويتحققوا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولا يميلوا إلى الدنيا وزخرفها ولا يذهلوا عن الحق، وليكون عقوبة عاجلة للبعض فيتمحصوا عن ذنوبهم، وينالوا درجة الشهادة، فيلقوا الله طاهرين. أفاده القاشاني. إلى أن قال: **فائدة:** قوله تعالى: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران:١٥٢)، التنبيه على عظم المعصية، لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد، وكان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموا عليها سلبوا ذلك الإكرام.

وقال: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، أنه تعالى عفا عنهم من غير توبة؛ لأنها لم تُذكر، فدلّ على أنه تعالى قد يعفو عن أصحاب الكبائر.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، دليل على أن صاحب الكبيرة مؤمن، فإن الذنب في الآية كان كبيرة[1].

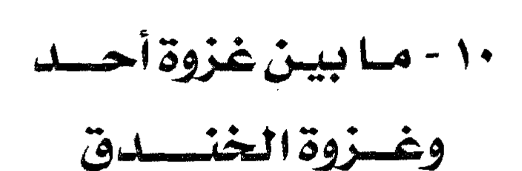
٥ ـ **وقال الغزالي:** على أن المسلمين دفنوا موجدتهم في أفئدتهم، ولم يستسلموا لأحزان المصاب الذي حلَّ بهم، وكان تكاثر خصومهم حولهم سببًا في أن يقاوموا عوامل الخور، وأن يُبدوا للناس بقية من قوة ترد عنهم كيد المتربصين على نحو ما قال الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع[2]

---

(١) باختصار من «محاسن التأويل» (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) «فقه السيرة» للغزالي (٢٩٠).



١٠ - ما بين غزوة أحد وغزوة الخندق

وتشتمل على:

- يوم الرجيع في سنة ثلاث
- حادثة بئر معونة سنة أربع
- إجلاء بني النضير
- غزوة بدر الآخرة
- غزوة دومة الجندل سنة خمس
- حوادث أخرى في السنة الرابعة من الهجرة



يوم الرجيع(١)

عن أبي هريرة ﷺ قال: «بعث النبي ﷺ سرية عينًا، وأمَّر عليهم عاصم ابن ثابت - وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فانطلقوا حتى إذا كان بين عُسفان ومكة، ذكروا لحي من هُذَيل يُقال لهم: بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر فأبى أن يصحبهم فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخُبيب وزيد، حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خُبيب هو قاتل الحارث يوم بدرٍ، فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد به فأعارته، قالت: فغفلتُ عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعتُ فزعةً عُرِفَ ذاك مني وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله، وكانت تقول: ما رأيتُ أسيرًا قط خيرًا من خُبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ ثمرة،

---

(١) قال الحافظ: **الرجيع**: اسم للروث سُمي بذلك لاستحالته، والمراد هنا: اسم موضع من بلاد هذيل كانت الوقعة بقرب منه فسميت به، قوله: «**لجئوا إلى فدفد**»، هي الرابية المرتفعة. قوله: «**اللهم أخبر عنا رسولك**»، في رواية الطيالسي عن إبراهيم بن سعد «فاستجاب الله لعاصم فأخبر رسوله خبره، فأخبر أصحابه بذلك يوم أُصيبوا»، وفي رواية بريدة «فقال عاصم: اللهم إني أحمي لك اليوم دينك، فاحم لي لحمي». قوله: «**ما أن أبالي**»، هكذا للأكثر وللكشميهني «**فلست أبالي**» وهو أوزن. قوله: «**أوصال شلو ممزع**» الأوصال: جمع وصل وهو العضو والشلو الجسد والممزع المقطع، ومعنى الكلام: أعضاء جسد يقطع.

وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا ما بي جزع من الموت لزدتُ: فكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، ثم قال:

مَا أَنْ أُبالِيَ حَيْنَ أُقْتَلُ مُسْلمًا ... عَلى أي شِقٍ كَانَ لله مَصرعِي

وَذاكَ فِي ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشا ... يُبارِكُ عَلى أوصالِ شِلوٍ مُمزعِ

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله. وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر فبعث الله عليه مثل الظُّلَّة من الدَّبْر فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شيء»[(١)].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال الحافظ:** وفي الحديث أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكن من نفسه ولو قتل، أنفة من أن يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة، فإن أراد الأخذ بالرخصة فله أن يستأمن. قال الحسن البصري: لا بأس بذلك. وقال سفيان الثوري: أكره ذلك، **وفيه:** الوفاء للمشركين بالعهد، والتورع عن قتل أولادهم، والتلطف بمن أُريد قتله، وإثبات كرامة الأولياء، والدعاء على المشركين بالتعميم، والصلاة عند القتل، **وفيه:** إنشاد الشعر، وإنشاده عند القتل دلالة على قوة يقين خُبيب وشدته في دينه.

وفيه: أن الله يبتلي عبده المسلم بما شاء كما سبق في علمه ليثيبه، ولو شاء ربك ما فعلوه، **وفيه:** استجابة دعاء المسلم وإكرامه حيًا وميتًا، وغير ذلك من الفوائد مما يظهر بالتأمل، وإنما استجاب الله له في حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٣٧، ٤٣٨) المغازي، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣١٠)، وفي رواية ابن إسحاق: عن عاصم بن عمر، عن قتادة قال: «كان عاصم بن ثابت أعطى الله عهدًا أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدًا، فكان عمر يقول لما بلغه خبره: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما حفظه في حياته».

من قتله لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من هتك حرمته بقطع لحمه، وفيه: ما كان عليه مشركو قريش من تعظيم الحرم والأشهر الحرم[١].

٢ ـ **وفي الحديث**: تعظيم الصحابة لسنة النبي ﷺ، وكيف أن خُبيبًا مع أنه في أسر المشركين، ويعلم أنه سيُقتل بين عشية أو ضحاها، ومع ذلك كان حريصًا على سنة الاستحداد، واستعار الموسى لذلك، **وفي هذا**: واعظ لمن يستهين بكثير من السنن، بل وكثير من الواجبات بحجة أن لا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظروف التي تمر بها الأمة، وفي الواقع لا منافاة بين تعظيم السنة والدخول في شرائع الإسلام كافة، والسعي لإقامة شرع الله، والله تعالى يقول: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾ (الحج: ٤٠)، وقال: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ (محمد: ٧)، ونصر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو نصر دينه والعمل بشرعه، والله المستعان.

حادثة بئر معونة

عن أنس بن مالك ﷺ: «أن رِعلاً وذكوان وعصية وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نُسميهم القراء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة قتلوهم، وغدروا بهم، فبلغ النبي ﷺ فقنت شهراً يدعو في الصبح على أحياء من أحياء العرب على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان، قال أنس: فقرأنا فيهم قرآنًا، ثم إن ذلك رفع: بلغوا عنا قومنا، أنا لقينا ربنا، فرضى عنا وأرضانا»[٢]. وهذه رواية مختصرة وقدمناها لأنها في الصحيح.

وهنا روايات أخرى رواها أحمد والطبراني بأسانيد، قال عنها الهيثمي: رجالها رجال الصحيح، منها: ما رواه عبد الرحمن بن كعب بن مالك وغيره:

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٤٥) المغازي، ومسلم (١٣/ ٤٦، ٤٧) الإمارة.

«أن عامر بن مالك الذي يُدعى ملاعب الأسنة، قدم على رسول الله ﷺ وهو مشرك، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، وقال رسول الله ﷺ: «**إني لا أقبل هدية مشرك**»، فقال عامر بن مالك: ابعث يا رسول الله من رسلك من شئت، فأنا له جار، فبعث رسول الله ﷺ رهطًا فيهم المنذر بن عمرو الساعدي ـ وهو الذي يقال له: أعتق ليموت ـ، عينًا في أهل نجد، فسمع بهم عامر بن الطفيل، فاستنفر لهم من بني سليم فنفروا معه، فقتلهم ببئر معونة غير عمرو بن أمية الضّمرِي، أخذه عامر بن الطفيل فأرسله، فلما قدم على رسول الله ﷺ من بينهم، وكان فيهم عامر بن فهيرة، فزعم لي عروة أنه قُتل يومئذٍ، فلم يوجد جسده حين دفنوه، كانوا يرون الملائكة هي دفنته، فقال حسان: يعرض على عامر بن الطفيل:

بَنِي أم البَنِينَ أَلَمْ يَرُعْكُم ... وَأَنتُم مِنْ ذَوَائِبَ أَهْلِ نَجْدِ

تَهكُّمَ عَامِرٌ بِأَبِي بَرَاء ... لِيَخْفُرَهُ وَمَا خَطَأ كَعَمْدِ

فطعن ربيعةُ بن عامر بن ربيعة بن مالك عَامرَ بن الطفيل في فخذه طعنة فقده»(١). وفي «الصحيح» عن هشام بن عروة، قال: أخبرني أبي قال: «لما قتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمري، قال له عامر بن الطفيل: من هذا وأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة فقال: لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إليه بين السماء والأرض، ثم وضع، فأتى النبي ﷺ خبرهم فنعاهم، فقال: إن أصحابكم قد أُصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا، فأخبرهم عنهم، وأصيب فيهم عروة بن أسماء بن الصلت فسمى عروة به، ومنذر بن عمرو سُمي به منذرًا»(٢).

---

(١) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٢٧)، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه أحمد عن أنس (٣/ ٢١٠، ٢٧٠، ٢٨٩).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٥٠) المغازي.

وفي رواية للبخاري عن أنس: «أن حرام بن مِلْحان قال: أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله ﷺ؟ فجعل يحدثهم، وأومئوا إلى رجل فأتاه من خلفه فطعنه، قال همام: أحسبه حتى أنفذه بالرمح، قال: الله أكبر، فُزتُ وربِّ الكعبة»[١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لما طُعن حرام بن ملحان ـ وكان خاله ـ يوم بئر معونة قال: بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزتُ وربِّ الكعبة»[٢]. وكانت هذه الحادثة كما رجحه ابن إسحاق وتبعه ابن القيم في «الزاد» وغيره في صفر من السنة الرابعة.

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال الغزالي:** إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوبًا كثيرة، ولا ريب أن تأميل المسلمين في المستقبل، وارتقابهم المزيد من الفتح، زاد ضغن الضاغنين، وقد كان الناقمون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٩)، غير أن هذه الكراهية اختفت أمدًا بعد انتصار بدر، بل لعل هذا النصر أغرى جمهورًا من الضعاف المترددين بالانضواء تحت علم الدين الجديد، فلما تقلبت الليالي بالمسلمين، ولحقتهم الهزائم انفجر الحقد المكبوت، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان[٣].

٢ ـ **وفي القصة:** كرامة ظاهرة لعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، والكرامة هي الخارقة الرحمانية التي يسوقها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على يد ولي من أوليائه، ومن أولى بذلك من الصحابة الكرام الذين كانت آيات صدقهم ظاهرة، وعلامات إيمانهم وجهادهم باهرة.

(١، ٢) رواهما البخاري (٧/ ٤٤٦) المغازي.

(٣) «فقه السيرة» (٢٩٨).

وفيها كذلك: منقبة ظاهرة لحرام بن ملحان، وعلامة على صدقه في طلب الشهادة وتمنيها، حتى نضح الدم على وجهه ورأسه وقال: فزت ورب الكعبة، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بفضله، وأن يرزقنا شهادة في سبيله، تكون كفارة للذنوب، وتلحقنا بهؤلاء الأئمة الأعلام والأولياء الكرام.

٣ ـ حادثة بئر معونة وغيرها مما يدل على أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، كما دلتْ على ذلك أدلة أخرى، منها: قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ (الأعراف:١٨٨)، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو وحده عالم الغيب، والرسل والملائكة لا يعلمون عن الغيب إلا ما علمهم ربهم ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (الجن:٢٦، ٢٧).

إجلاء بني النضير[1]

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما كما حدثني يزيد بن رومان، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في ذينك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن

---

(١) ذكر البخاري ـ رحمه الله ـ حديث بني النضير في كتاب المغازي بعد غزوة بدر، وعلق عن الزهري عن عروة كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أُحد. وأشار كذلك إلى خلاف ابن إسحاق فقال: وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونة، وأُحد (٧/ ٣٨٢) «فتح الباري». قال ابن القيم: وزعم محمد ابن شهاب الزهري أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وهم منه أو غلط عليه، بل الذي لاشك فيه أنها كانت بعد أُحد، والتي كانت بعد بدر بستة أشهر هي غزوة بني قينقاع، وقريظة بعد الخندق، وخيبر بعد الحديبية «زاد المعاد» (٣/ ٢٤٩).

كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليُلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي ـ رضوان الله عليهم ـ، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، قال ابن إسحاق: ثم سار بالناس حتى نزل بهم. قال ابن هشام: وذلك في شهر ربيع الأول فحاصرهم ست ليالٍ ونزل تحريم الخمر.

قال ابن إسحاق: فتحصَّنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها. وقال: كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم: عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، ووديعة، ومالك بن أبي قوقل، وسويد، وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام[1].

وفي هذه المعركة: نزلت سورة الحشر بأسرها، وهي تسمي سورة النضير عن سعيد ابن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: قُل سورة النضير[2]، وعن

---

(١) رواه ابن هشام في «السيرة» (٣/ ٢٤٠، ٢٤١) مع «الروض الأنف».

(٢) رواه البخاري (٧/ ٣٨٣) المغازي.

ابن عمر رضي الله عنهما قال: «حرَّقَ رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1] (الحشر: ٥). وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ حرق نخل بني النضير قال: ولها يقول حسان بن ثابت:

وَهَانَ عَلَى سُرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ... حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

قال فأجابه أبو سفيان بن الحارث:

أَدَامَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعٍ ... وَحَرَّقَ فِي نَوَاحِيهَا السَّعِيرُ

سَتَعْلَمُ أَيُّنَا مِنْهَا بِنُزْهٍ ... وَتَعْلَمُ أَيَّ أَرْضَيْنَا تَضِيرُ[2]

وقال السهيلي: ولم يختلفوا في أن أموال بني النضير كانت خاصة برسول الله ﷺ، وأن المسلمين لم يُوجفوا عليهم بخيل ولا ركاب، وأنهم لم يقع بينهم قتال أصلاً[3].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال الغزالي:** في هذه المعركة نزلتْ سورة الحشر بأكملها فوصفت طرد اليهود في صدرها بقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ (الحشر: ٢)، ثم فضح القرآن مسلك منافقي المدينة الذين حاولوا إعانة يهود في غدرها وحربها وحرّضوا على مقاتله المسلمين، بما وعدوها من إمداد وعتاد

(١) رواه البخاري (٧/ ٣٨٣) المغازي، ومسلم (١٢/ ٥٠) الجهاد والسير.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٣٨٣) المغازي، ومسلم (١٢/ ٥٠، ٥١) الجهاد والسير. وقوله: **«سراة»**: جمع سرى وهو الرئيس. **«مستطير»**: أي مشتعل. قال الحافظ: وإنما قال حسان ذلك تعييرًا لقريش، لأنهم كانوا أغروهم بنقض العهد، وأمروهم به، ووعدوهم أن ينصروهم إن قصدهم النبي ﷺ. قوله: **«فأجابه أبو سفيان ابن الحارث»** أي: ابن عبد المطلب وهو ابن عم النبي ﷺ، وكان حينئذٍ لم يسلم وقد أسلم بعد الفتح. قوله: **«ستعلم أينا منه بنزه»** أي: ببعد وزنًا ومعنى. وقوله: **«تضير»** من الضير وهو بمعنى الضر، وأراد أبو سفيان: أن أرض بني النضير إذا خربت أضرت ما جاورها من أراضي الأنصار بخلاف أرض قريش فهي بعيدة.

(٣) «الروض الأنف» بتصرف هامش (٣/ ٢٥٠) مع «سيرة ابن هشام».

فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1] (الحشر: ١١).

٢ ـ **قال محمد سعيد رمضان البوطي:** هذه صورة ثانية من الغدر والخيانة المتأصلة في نفوس اليهود، وقد رأينا من قبلها صورة أخرى من خيانتهم فيما أقدم عليه يهود بني قينقاع، وتلك حقيقة تاريخية صدَّقتها الوقائع التي لا تُحصى، وذلك هو سر اللعنة الإلهية التي حاقت بهم، وسجلها بيان الله تعالى في قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (المائدة: ٧٨)، وقال: قطع نخيل بني النضير وإحراقها ثبت بالاتفاق، والذي أتلفه الرسول ﷺ من ذلك إنما هو البعض ثم ترك الباقي، وقد نزل القرآن تصويبًا لما أقدم عليه النبي ﷺ من ذلك قطعًا وإبقاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الحشر: ٥)، وقد استدل عامة العلماء بذلك: على أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام أو القائد من مصلحة النكاية بأعدائهم، وهذا الذي قلناه من إباحة قطع شجر الكفار أو إحراقه إذا اقتضت المصلحة هو مذهب نافع مولى ابن عمر، ومالك، والثوري، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وجمهور الفقهاء. وروي عن الليث بن سعد، وأبي ثور، والأوزاعي القول بعدم جوازه[2].

اتفق الأئمة على أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم بدون قتال وهو الفيء، يعود النظر والتصرف فيه إلى ما يراه الإمام من المصلحة، وأنه لا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كما تقسم عليهم الغنائم التي غنموها بعد قتال وحرب، مستدلين على ذلك بسياسته ﷺ في تقسيم فيء بني النضير، فقد خصَّ به كما رأيت المهاجرين وحدهم، وقد نزل القرآن تصويبًا لذلك[3].

---

(١) «فقه السيرة» للغزالي (٣٠١).
(٢) باختصار من «فقه السيرة» للبوطي (٢٠٤، ٢٠٥)، والجزء الأخير من «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٢/ ٥٠).
(٣) «فقه السيرة» للبوطي (٢٠٥) باختصار.

٣ ـ فضح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ اليهود في هذه السورة كما فضح المنافقين، فقال تعالى: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر: ١٤).

قال القاسمي: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، أي: اليهود وإخوانهم. ﴿جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾، أي: بالحصون، فلا يبرزون إلى البراز. ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾، أي: من خلف حيطان لفرط رهبتهم منكم. ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾، قال الزمخشري: يعني أن البأس الشديد الذي يُوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة، لأن الشجاع يجبن، والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله، انتهى.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، أي: تظنهم مجتمعين لاتفاقهم في الظاهر، والحال أن قلوبهم متفرقة، لاختلاف مقاصدها، وتجاذب دواعيها، وتفرقها عن الحق بالباطل، ﴿ذَٰلِكَ﴾، قال المهايمي: أي: الاجتماع في الظاهر مع افتراق البواطن، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾، أي: أنه يُوجب جبنهم المفضي إلى الهلاك الكلي، انتهى.

وفي هذه الآيات الثلاث: تشجيع للمؤمنين على منازلتهم والحمل عليهم، وتبشير لهم بأنهم المنصورون الغالبون(١).

غـزوة بـدر الآخـرة

قال ابن إسحاق: ثم خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان، حتى نزله فأقام عليه ثماني ليالٍ ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية الظهران، ثم بدا له في الرجوع، فقال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا، فرجعوا الناس فسماهم أهل مكة جيش السَّويق يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

وأقام رسول الله ﷺ ينتظر أبا سفيان لميعاده، فأتاه مخشى بن عمرو الضَّمْري

(١) «محاسن التأويل» (١٦/ ١٠٧) ط/ دار الفكر.

وهو الذي كان وادعه على بني ضمرة في غزوة وَدان فقال: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «**نعم، يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك**». قال: لا والله يا محمد مالنا بذلك منك من حاجةٍ، فأقام رسول الله ﷺ، ثم انصرف إلى المدينة[1].

غزوة دومة الجندل

قال ابن إسحاق: فأقام بها شهرًا حتى مضى ذو الحجة، وولى تلك الحجة المشركون، وهي سنة أربع، ثم غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل. قال ابن هشام: في شهر ربيع الأول، واستعمل على المدينة سُباع بن عُرفطة الغفاري. **قال ابن إسحاق:** ثم رجع رسول الله ﷺ قبل أن يصل إليها، ولم يلق كيدًا فأقام بالمدينة بقية سنته[2].

حوادث أخرى في السنة الرابعة

١ ـ وفاة أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمة رسول الله ﷺ برة بنت عبد المطلب، وأول من هاجر من أصحابه إلى المدينة بأهله، ثم فرق المشركون بينهما.

٢ ـ وفاة عبد الله بن عثمان بن عفان وابن رقية بنت رسول الله ﷺ وله من العمر ست سنين.

٣ـ ولادة الحسين بن علي رضي الله عنهما، وهو سبط النبي ﷺ ابن فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

٤ ـ زواج النبي ﷺ بزينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية والملقبة بأم المساكين.

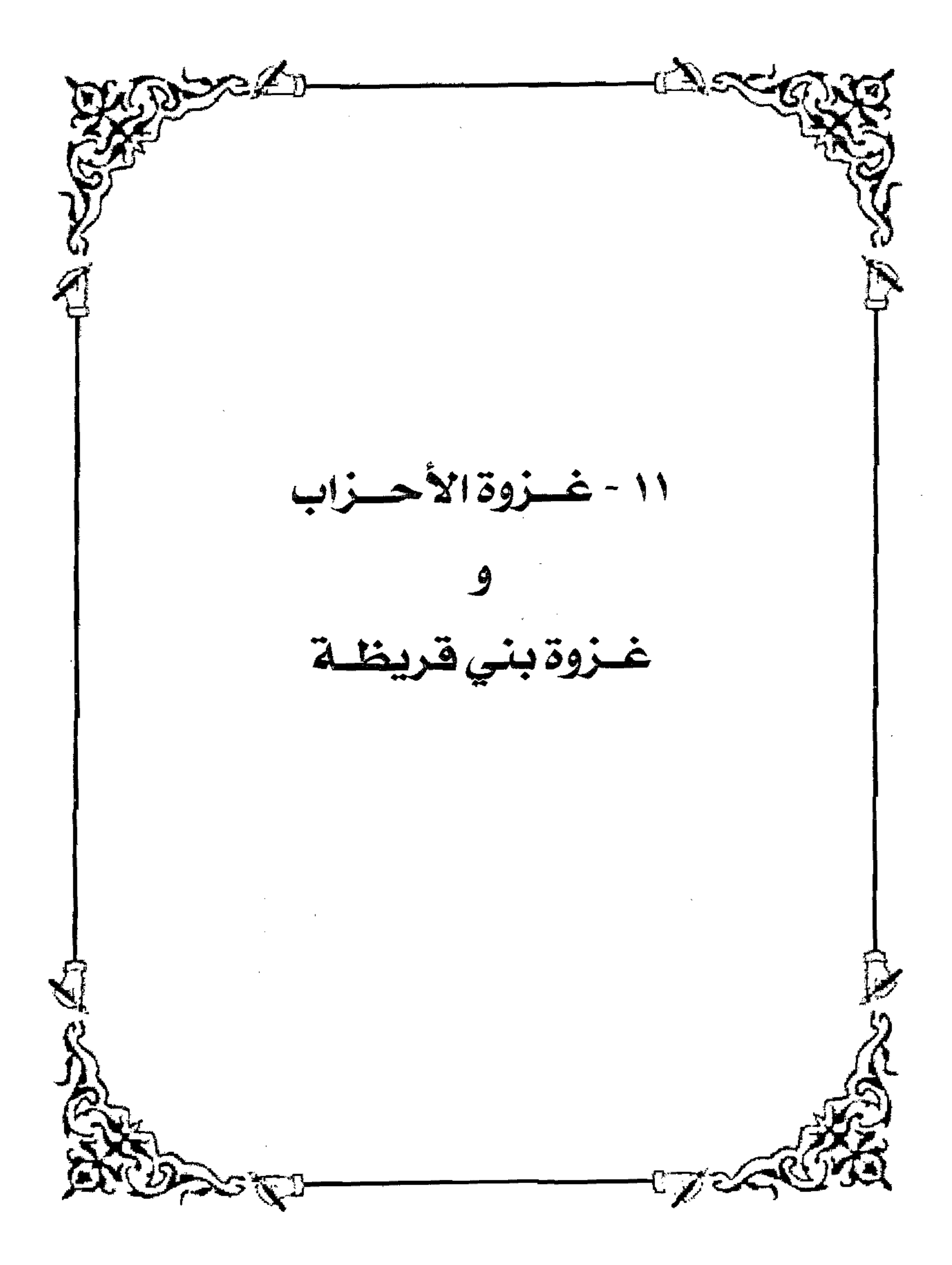
٥ ـ تزوج النبي ﷺ بأم سلمة بعد انقضاء عدتها من أبي سلمة رضي الله عنهما.

★★

---

(١) باختصار من «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٤٨- ٢٥٠) مع «الروض الأنف».

(٢) «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٥٨) مع «الروض الأنف».



١١ - غزوة الأحزاب
و
غزوة بني قريظة



غزوة الأحزاب

قال موسى بن عقبة: كانت في شوال سنة أربع، وذهب إليه أيضًا ابن حزم، واستدلوا بما رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ عرضه يوم أُحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يُجزه، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة فأجازه، ورجح ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي أنها كانت سنة خمس، لاحتمال أن يكون ابن عمر كان في أُحد في أول الرابعة عشرة، واستكمل في الأحزاب خمس عشرة، وأن أبا سفيان تواعد مع النبي ﷺ يوم أُحد على السنة المقبلة، فكانت عام جدب فعاد من الطريق، فدل على أن الأحزاب لم تكن بعد أُحد بعام واحد.

قال الحافظ: وقد بيَّن البيهقي سبب هذا الاختلاف، وهو أن جماعة من السلف كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة، ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان في «تاريخه» فذكر أن غزوة بدر الكبرى كانت في السنة الأولى، وأن غزوة أُحد كانت في الثانية، وأن الخندق كانت في الرابعة، وهذا عمل صحيح على ذلك البناء، لكنه بناء واهٍ مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة، وعلى ذلك تكون بدر في الثانية، وأُحد في الثالثة، والخندق في الخامسة، وهو المعتمد[1].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وكان سبب غزوة الخندق: أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحد، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين، فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل، خرج أشرافهم كَسلام بن أبي الحقيق، وسلام ابن مشكم، وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ ويؤلبونهم، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٤٥٤).

قريش، ثم خرجـوا إلى غطفان فدعوهم، فـاستجابوا لهم، ثم طافـوا في قبائل العـرب يدعونهم إلى ذلك، فـاسـتـجاب لهم من اسـتـجـاب، فخرجت قـريش وقائدهم أبو سفـيان في أربعة آلاف، ووافتهم بنو سـليم بمر الظّهران، وخرجت بنو أسد وفزارة، وأشجع وبنو مرة، وجاءت غطـفان وقائدهم عيينة بن حصن، وكان من وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف[١].

ولما استشـار النبي ﷺ الصحابة الكرام أشاروا عليه بعـمل خندق في الجهة الشماليـة بين حرة الواقم وحرة الوبرة، ولم تكن العرب تعرف ذلك فاسـتحسن النبي ﷺ هذه الفكرة، وشـرع وأصحـابـه الكـرام فـي حـفر الخندق، وكـان النبي ﷺ يُشاركـهم في ذلك، ويُخفف عنهم مشـقة الحفر، وكـانوا في غاية الجهد والجوع والبرد.

عن أنس ؓ قـال: «خرج رسول الله ﷺ إلى الخـندق، فإذا المهـاجرون والأنصار يحفـرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعـملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللَّهُمَّ إن العَـيْشَ عَـيْشُ الآخِـرة ... فَـاغـفِـرْ للأنَصْـارِ والمهَـاجِـرَةِ

فقالوا مجيبين له:

نَحْنُ الَّذينَ بَايَعُـوا مُـحَـمَّـداً ... عَلَى الجِـهَـادِ مَـا بَقِـيَنا أَبَداً[٢]

وقال ابن بطال في قوله: «**اللهم إن العيش عيش الآخرة**» هو قول ابن رواحة تمثل به النبي ﷺ، ولو لم يكن من لفظه لم يكن لذلك النبـي ﷺ شاعراً. قال: وإنما يسـمى شاعراً من قـصده، وعلم السبب والوتد وجـميع معـانيه من الزحاف ونحو ذلك[٣].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٥٣) المغازي، ومسلم (١٢/ ١٧٢) الجهاد، والترمذي (١٣/ ٢٤٢) المناقب.

(٣) «فتح الباري» (٧/ ٤٥٥).

وجُمع على الصحابة ﷺ مع الأحزاب الذين تمالأوا عليهم، واجتمعوا على حربهم، شدة الجوع، وشدة البرد وشدة الخوف، وظهر النفاق، ونزل في ذلك صدر سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ٩-١١).

ومن شأن الشدة والبلاء تمحيص المؤمنين، وإظهار المنافقين الذين تذهب بهم الظنون الفاسدة كل مذهب، فهم يظنون أن الله يمكن أن يسلم رسوله وعباده المؤمنين لأعدائهم حتى يهلكوهم وما علموا أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يبتلي المؤمن حتى يرتفع عند الله، وحتى يظهر صدق الصادقين، فحكى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مقالة المنافقين في هذا الموطن: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا﴾ (الأحزاب: ١٢-١٤)، وكانت الآيات والمعجزات التي يؤيد بها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نبيه تظهر في مثل هذه الأحوال.

عن جابر ﷺ قال: «إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُدية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجرٍ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكدية فعاد كثيبًا أهيل أو أهيم، فقلتُ: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئًا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم بالبرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين

الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعَيِّم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب. قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي، فقال: «**قوموا**»، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: «**ادخلوا ولا تضاغطوا**»، فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويُخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرِّب إلى أصحابه، ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: «**كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة**»(١).

قال الحافظ: ووقع عند أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب قال: «لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرض لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، اشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول فقال: بسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة وقال: بسم الله فقطع بقية الحجر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة»(٢).

وكان النبي ﷺ ينقل بنفسه التراب، روى البراء رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه ـ أو اغبّر بطنه، يقول:

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٥٧) المغازي.

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٤٥٨)، والحديث: رواه أحمد (٤/ ٢٠٣) من حديث البراء، ورواه الطبراني في «الكبير» رقم (١٢٠٥٢). وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٣٢): ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله ابن أحمد بن حنبل، ونعيم العبدي وهما ثقتان.

والله لَـــوْلا الله مَـــا اهتَـــدَيْنَا | وَلا تَـصَـــدَّقْـنَـــا ولا صَـلَّيْنَا
فَـــأَنْزِلَـــنَّ سَـكِـيـنَـــةً عَـلَـيْـنَـــا | وَثَـبِّـتْ الأقْـــدَامَ إِنْ لاقَـــيْـنَـا
إِنَّ الأُلَـــى قَـــدْ بَغَـــوْا عَلَـيْـنَـــا | إِذَا أرادُوا فِـــتْـنَـــةً أَبَـيْـنَـــا

ويرفع بها صوته «أبينا أبينا»[1]، وتم حفر الخندق قيل: في خمسة عشر يومًا، وقيل: في أربعة وعشرين، وقيل: في شهر.

قال ابن عبد البر: فلما فرغ رسول الله ﷺ أقبلتْ قريش في نحو عشرة آلاف بمن معهم من كنانة وأهل تهامة، وأقبلتْ غطفان بمن معها من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى نزلوا بظهر سَلْع في ثلاثة آلاف، وضربوا عسكرهم والخندق بينهم وبين المشركين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم في قول ابن شهاب[2].

واشتد الخطب على المؤمنين حينما غدرت يهود بني قريظة، ونكثوا عهدهم كعادة اليهود في كل زمان أو مكان، وكان موقعهم يُمكِّنهم من إيقاع ضربة بالمسلمين من الخلف، وصار المسلمون كما وصفهم الله - عزَّ وجلَّ - بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ٩-١١).

قال الدكتور أكرم العمري: وقد فوجئت قريش برؤية الخندق، واحتاروا في كيفية اقتحامه، إذ كلما هموا بذلك أمطرهم المسلمون بالسهام، واشتد الحصار، وطال أربعة وعشرين ليلة، لم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبال. وقال قتادة: أن الحصار دام شهرًا، وقال موسى بن عقبة: دام عشرين ليلة.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٦١) المغازي.
(٢) «الدرر في اختصار المغازي والسير» (١٧١).

وقـد أورد ابن إسحـاق، وابن سـعد روايات دون أسـانيـد تفيـد: أن بعض المشركين اقتحموا الخندق، وذكروا أسمـاء خمسة منهم، وأن عليًا بارز عمرو بن عبد ودٍ فارس قريش وقتله، وأن الزبير قتل نوفل المخزومي، وأن الثلاثة الآخرين فروا إلى معسكرهم، ولكن هجمـات المشركين لم تنقطع، حتى أن الرسول ﷺ والمسلمين لم يتمكنوا من أداء صـلاة العصر في أحد الأيام في وقـتها بل صلوها بعدما غربت الشمس، ولم تكن صلاة الخوف قد شُرِعتْ بعد، لأنها إنما شرعت بعد ذلك في غزوة ذات الرقاع[1].

وقد ذكرت كتب السير إسلام نعيم بن مسعود بن عامر، وكيف أنه أسلم؟ وقال له النبي ﷺ : «**إنما أنت رجل واحد فَخَذّل عنا مـا اسـتطعت**». فسـعى في إيقاع الفرقة بين الأحزاب المتجمعة واليهود، ولم يرد ذلك بنص صحيح مسند، وأولى من ذلك أن يُصار إلى ما نطقت به الآيات وما رواه الثـقات، وقد أشارت الآيات إلى أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أرسل عليهم: ﴿رِيحًا وَجُنُودًا﴾ (الأحزاب:٩)، أي: الملائكة، وقال النبي ﷺ : «**نُصرت بالصبـا، وهلكت عـاد بالدبور**»، فالله ـ عـزَّ وجلَّ ـ هو الذي أعزَّ جنده، ونصـر عبـده، وهزم الأحزاب وحده، والمسلمـون كانوا في غـاية الجوع والخوف والبرد وبذلوا مع ذلك ما يمكنهـم، إلا أن البلاء إذا اشتد بالمؤمنين، ولم يكن لهم به حـول ولا قوة، تتـدخل عند ذلك القـوة القاهـرة، وينصر المؤمنين مـولاهم وربهم: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ (المدثر:٣١)، وجُرِحَ في هذه الموقعـة سيد الأوس، وولي من أولياء الله اهتز لموته عرش الرحمن، وهو سعد بن معاذ رضي الله عنه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أُصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له: حِبّان بن العـرقة رماه في الأكحل، فـضرب النبي ﷺ خيمـة في المسجد ليعوده من قريب»[2]. وسيأتي إن شاء الله كاملاً في غزوة بني قريظة.

---

(١) «المجتمع المدني في عهد النبوة الجهاد ضد المشركين» (١٢٠، ١٢١).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٧٥) المغازي، ومسلم (١٢/ ٩٤) الجهاد.

وصف حذيفة ﷺ حال المسلمين من الضعف والجوع والبرد والخوف، وكيف أرسل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على جنود الكافرين من الريح الشديدة والرعب والفزع ما أجلاهم وأبعدهم عن مدينة رسول الله ﷺ إلى غير رجعة.

روى مسلم عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كنا عند حذيفة، فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلتُ معه وأبليتُ. فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك، لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وَقَرٌّ، فقال رسول الله ﷺ: **«ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟»**، فسكتنا، فلم يجبه منا أحد، ثم قال: **«ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟»**، فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: **«ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة»**، فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: **«قم يا حذيفة! فأتنا بخبر القوم»**، فلم أجد بُدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: **«اذهب فائتني بخبر القوم ولا تَذْعرهُمْ علي»**، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمَّام، حتى أتيتهم، فرأيتُ أبا سفيان يَصْلي ظهره بالنار، فوضعتُ سهمًا في كبد القوس فأردتُ أن أرميه، فذكرتُ قول رسول الله ﷺ: **«ولا تذعرهم عليّ»**، ولو رميته لأصبته، فرجعتُ وأنا أمشي في مثل الحمَّام، فلما أتيتُه أخبرتُه بخبر القوم، وفرغت قررُت فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائمًا حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: **«قم يا نومان»**[1].

وصفوة الكلام أن يُقال في سبب هزيمة الأحزاب: أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ استجاب

(١) رواه مسلم (١٢/ ١٤٥، ١٤٦) الجهاد والسير. قال النووي: قوله: **«وأخذتنا ريح وقر»**، وهو البرد، وقوله بعد هذا: «قررت» أي: بردت. قوله: **«لا تذعرهم»** لا تفزعهم عليَّ ولا تحركهم عليَّ. قوله: **«فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام»**، يعني: أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس، ولا من تلك الريح الشديدة شيئًا، بل عافاه الله منه ببركة إجابة النبي ﷺ وذهابه فيما وجهه له، ودعائه ﷺ له، واستمر ذلك اللطف به ومعافاته من البرد حتى عاد إلى النبي ﷺ، فلما رجع ووصل عاد إليه البرد الذي يجده الناس، وهذه من معجزات رسول الله ﷺ. باختصار من «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٢/ ١٤٥، ١٤٦).

لدعاء رسول الله ﷺ وهو ما رواه البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»[(١)].

وقد قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ (الأحزاب: ٩)، قال مجاهد: سلط الله عليهم الريح فكفأت قدروهم، ونزعت خيامهم حتى أظعنتهم، وقال ﷺ: «**نُصرت بالصَّبا**»[(٢)]. وهي الريح الشرقية، ولذا كان النبي ﷺ ينسب الفضل كله في هزيمة الأحزاب إلى الله - عزَّ وجلَّ - وحده، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا إله إلا الله وحده، أعزّ جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده**»[(٣)]. وكانت هذه الغزوة نهاية غزو الكفار للمدينة، عن سليمان بن صرد قال: «سمعتُ النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: «**الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم**»[(٤)].

قال الحافظ: قوله في رواية إسرائيل «**حين أُجْلِي**» بضم الهمزة وسكون الجيم وكسر اللام، أي: رجعوا عنه، **وفيه:** إشارة إلى أنهم رجعوا بغير اختيارهم بل بصنع الله تعالى لرسوله، قال: **وفيه:** علم من أعلام النبوة، فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ، وأخرج البزار بإسناد حسن من حديث جابر شاهدًا لهذا الحديث ولفظه: أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب، وقد جمعوا له جموعًا كثيرة: «**لا يغزونكم بعد هذا أبداً، ولكن أنتم تغزونهم**»[(٥)].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٦٩) المغازي، ومسلم (١٢/ ٤٧) الجهاد، وأبوداود (٢٦١٤) الجهاد.
(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٦١) المغازي، ومسلم (٦/ ١٩٦) الاستسقاء.
(٣) رواه البخاري (٧/ ٤٦٩) المغازي.
(٤) رواه البخاري (٧/ ٤٦٧) المغازي.
(٥) «فتح الباري» (٧/ ٤٦٨).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ مع أن هذه الغزوة لم يكن فيها التحام بين الجيشين، إلا أنها كانت للظروف التي لابستها وكثرة المشركين، وغدر بني قريظة، والريح والبرد القارص في هذا الوقت، وحصول المجاعة في المدينة جعلتها من أشد الغزوات امتحانًا لقلوب المؤمنين، وأي وصف أبلغ من قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (الأحزاب: ١٠)، ونجم النفاق، وظهرت أمراض القلوب، فروي أن بعضهم كان يقول: كان محمد يَعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وكان المنافقون والذين في قلوبهم مرض يستأذنون في العودة إلى بيوتهم، ويتعللون بأن بيوتهم عورة، وقد قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (الأحزاب: ١٣)، وكما أن الشدائد تُظهر نفاق المنافقين، فهي كذلك تُظهر إيمان المؤمنين، فقد قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٢).

٢ ـ كان تأييد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنبيه ﷺ وللمؤمنين في هذه الغزوة للظروف السالفة أعظم تأييد وأتمه، تارة بالمعجزات والخوارق الرحمانية، كما حدث في بيت جابر بن عبد الله، وكما حدث مع حذيفة رضي الله عنه حيث أذهب الله عنه البرد، فكان كأنه في حمام من الدفء، وما رأى النبي ﷺ في حفر الخندق وبشَّر الصحابة به من الفتوحات العظيمة، وكانت الملائكة تنزل على رسول الله ﷺ تُقاتل معه، كما حدث في بدر، وكما أنزل الله عليه ﷺ من يدافع عنه، وقد انكشف المسلمون يوم أُحد إلا أن في هذه الغزوة أيده الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالملائكة التي تُزلزل قلوب الكفار وتُلقي فيها الرعب، وبالريح التي تُقوِّض خيامهم، وتطفأ نارهم، ولا تدع لهم قِدرًا إلا كفأتها، فالمسلمون إذا بذلوا جهدهم وطاقتهم في إعزاز الدين، ورفع راية رب العالمين، وإن كان الجهد

قليلاً بالنسبة للأسباب التي يتمتع بها أعداؤهم، فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُؤيد عباده بجند من عنده: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ (المدثر:٣١)، لا أقـول بنـزول الملائكة تُقاتل كما كانت تُقاتل مع النبي ﷺ، ولكن ليست الملائكة وحدها جنود الله، بل يُهيئ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الأسباب والظروف الـتي ينصر بها عباده المؤمنين، كما قـال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات:١٧٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ (غافر:٥١)، فالنصر لـيس قاصراً على الرسـل الكرام بل هو لعموم المومنين كـما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم:٤٧)، ويظهر ذلك لمن كانت له دراية بالفتوحات الإسلامية العظيمة التي كانت بعـد وفاة النبي ﷺ، فنسأل الله تعالى أن يعـزنا بهذا الدين، وأن يعز بنا هذا الدين.

٣ ـ **في هذه الغزوة وكذلك غزوة بدر:** ظهر فضل التضرع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وكيف أن الأسباب إذا كـانت قليلة فيعوضها ويفـضل عنها التوكل على الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ القوى المتين رب الأرباب، ومـالك الأسبـاب، وكمـا قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء:٦٢)، لما قيل له: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ (الشعراء:٦١)، وقال النبي ﷺ لأبي بكر: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة:٤٠)، لما قال له أبو بكر: لو نظر أحـدهم تحت قدمـيه لأبصـرنا، وقال الله تعـالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ (الزمر:٣٦)، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ (الطلاق:٣).

٤ ـ **في هذه الغزوة كذلك:** تعليم للقـادة أن لا يتمـيزوا عن جنودهم، فـهذا رسول الله ﷺ لو قعد عن حفر الخندق، واكتـفى بالإشراف والتوجيه لما لامه أحد، ولكنه ﷺ كان يشاركهم في جـوعهم، ويربط على بطنه الحجر، وكان يحـمل التراب بنفـسه ﷺ بأبـي هو وأمي، وهو أشرف نفس بشـرية وطأت قـدماها الأرض، ولاشك أن في مـشـاركة النبي ﷺ لـهم في حفـر الخندق

ودعائه لهم، وما كان ينشده من شعر ابن رواحة كان يُخفف عنهم مشقة الحفر، ويُنسيهم ما يجدونه من جوع وخوف، وأولى الناس بكل خير رسول الله ﷺ، فهو القدوة للقائد، وللعالم، وللعابد، وللمعلم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٢١).

٥ ـ **هذه الغزوة:** يظهر فيها بجلاء غدر اليهود وخيانتهم، وكيف أنهم كانوا السبب في تجميع الأحزاب حول المدينة، ثم في خيانة يهود بني قريظة في أشد الأوقات وأعظمها محنة، فبدلاً من أن يكونوا عونًا للمسلمين بحسب العهد الذي بينهم كانوا حربًا عليهم مع بقية قوى الكفر، فهذه طبيعة اليهود مع أن ما حدث مع بني قينقاع وبني النضير ليس منهم ببعيد، ولكن هذه طبيعتهم التي لا ينفكون عنها، ولا يستطيعون التخلص منها، ولذا وصفهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بقوله: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ (البقرة: ١٠٠)، وهم أتباع المسيح الدجال، فإذا قُتل المسيح الدجال انهزم جنوده من اليهود، فما يختبئ يهودي وراء حجر أو شجر إلا نطق وقال: يا مسلم هذا يهودي ورائي تعالَ فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود، فهذا من باب: اعرف عدوك[1].

٦ ـ **قال الغزالي:** طبائع الناس تتفاوت تفاوتًا كبيرًا لدى الأزمات العضوض: **منها:** الهش الذي سرعان ما يذوب ويحمله التيار معه كما تحمل المياه الغثاء والأوحال، **ومنها:** الصلب الذي تمر به العواصف المجتاحة، فتنكسر حدتها على متنه، وتتحول رغوة خفيفة وزبدًا. أجل من الناس من يهجم على الشدائد ليأخذها قبل أن تأخذه، وعلى لسانه قول الشاعر:

---

(١) **قال الغزالي:** ومسلك بني إسرائيل بإزاء المعاهدات التي أمضوها قديمًا وحديثًا، يجعلنا نجزم بأن القوم لا يدعون خستهم أبدًا، وأنهم يرعون المواثيق ما بقيت هذه المواثيق متمشية مع أطماعهم ومكاسبهم وشهواتهم، فإذا وقفت تطلعهم الحرام، نبذوها نبذ النواة ولو تركت الحمير نهيقها والأفاعي لدغها، ترك اليهود نقضهم للعهود، وقد نبه القرآن إلى هذه الخصلة الشنعاء في بني إسرائيل، وأشار إلى أنها أحالتهم حيوانًا لا أناس فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ «فقه السيرة» (٣٢٤، ٣٢٥).

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِى الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا

ومنهم: من إذا مسه الفزع طاش لبه فولى الأدبار وكلما هاجه طلب الحياة وحب البقاء، أوغل في الفرار، وقد نعى القرآن الكريم على هذا الصنف الجزوع موقفه في معركة الأحزاب فقال: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [١] (الأحزاب: ١٦-١٧).

غزوة بني قريظة

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه، فاخرج إليهم، قال: «**فإلى أين؟**»، قال: هاهنا، وأشار إلى قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم[٢].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كأني أنظر إلى الغبار ساطعًا في زقاق بني غنم موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة»[٣].

ولاشك أن سبب هذه الغزوة هو ما تقدم في قصة الخندق من نقض عهدهم مع رسول الله ﷺ، ومعاونتهم الأحزاب على حربه. قال الحافظ: كانت لسبع بقين من ذي القعدة، وأنه خرج إليهم في ثلاثة آلاف، وذكر ابن سعد أنه كان مع المسلمين ستة وثلاثين فرسًا[٤]. وتعجل النبي ﷺ الصحابة للخروج إليهم قبل أن يتحصنوا بالحصون ويأخذوا العدة لذلك، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «**لا يُصلينَّ أحد العصر إلا في بني قريظة**»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نُصلي حتى نأتيهم.

---

(١) «فقه السيرة» للغزالي (٣٢٣).

(٢، ٣) رواه البخاري (٧/ ٤٧٠) المغازي.

(٤) «فتح الباري» (٧/ ٤٧١).

وقال بعضهم: بل نُصلـي، لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدًا منهم[١].

وروى أحمد عن عائشة رضي الله عنها في قصة جرح سعد بن معاذ، وغزوة الخندق قالت رضي الله عنها: خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض من ورائي يعني: حس الأرض ـ قالت: فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحرث ابن أوس يحمل مجنة. قالت: فجلستُ إلى الأرض فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم فمر وهو يرتجز ويقول:

لَبِثْ قَلِيلاً يُدْرِكُ الهَيْجَا حَمَلْ ... مَا أَحْسَنَ المَوت إِذَا حَانَ الأَجَلُ

قالت: فاقتحمت حديقة فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب وفيهم رجل عليه تسبغة[٢] له يعني المغفر، فقال عمر: ما جاء بك لعمري إنك لجريئة، وما يُؤمِّنك أن لا يكون تجوز. قالت: فما زال يلومني حتى تمنيتُ أن الأرض انشقت لي ساعتئذ فدخلتُ فيها قال: فرفع الرجل التسبغة عن وجهه، فإذا طلحة بن عبيد الله. فقال: ويحك يا عمر إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التجوز والفرار إلا إلى الله تعالى. قالت: ويرمي سعدًا رجل من المشركين من قريش يقال له: ابن العرقة بسهم له. فقال له: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله فقطعه، فدعا الله سعد فقال: اللهم لا تمتني حتى تُقرّ عيني من بني قريظة فيخرجوا من صياصيهم[٣]. ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمر بقبة من أدم فضربت على سعد في المسجد، قالت: فلبس رسول الله ﷺ لامته وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ فمر على

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٧١) المغازي.

(٢) التسبغة: شيء من حلق الدروع والزرد، يعلق بالخوذة دائرًا معها ليستر الرقبة وجيب الدرع.

(٣) أي: حصونهم، وكل شيء امتنع به وتحصن فهو صيصة.

بني غنم، وهم جيران المسجد، فقال: مَنْ مر بكم؟ فقالوا: مر بنا دحية الكلبي وكان دحية تشبه لحيته ووجهه جبريل عليه السلام.

قالت: فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسة وعشرين ليلة، فلما اشتد حصرهم واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح. فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ، فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حمل عليه وحف به قومه، وقالوا له: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت، فلم يرجع إليهم شيئًا، ولا يلتفت إليهم حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه، فقال: قد أتى لي أن لا يأخذني في الله لومة لائم. قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم فأنزلوه**». قال عمر: سيدنا الله، قال: أنزلوه فأنزلوه. قال رسول الله ﷺ: «**أحكم فيهم**» قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم، وتُقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله - عزَّ وجلَّ - وحكم رسوله**».

قال: ثم دعا سعد فقال: اللهم إن كنتُ أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنتُ قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. قالت: فانفجر كَلْمه، وكان قد برأ إلا مثل الخرص[1].

قالت: ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ. قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر. قالت: فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح:٢٩)، قال علقمة: فقلت: أي أمه فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد،

(١) الحلقة الصغيرة من الحلمة.

ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته[١]. وفي بني قريظة نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٦-٢٧).

قال القاسمي: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾، أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب الرسول ﷺ، ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، يعني: بني قريظة، كان نزل أباؤهم الحجاز لما فروا من الاضطهاد وتشتتوا كل شتات في أطراف البلاد، ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾، أي: حصونهم وآطامهم التي كانوا فيها، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، أي: الخوف جزاءً وفاقًا[٢].

قال ابن كثير: ثم لما استنزلوا من حصونهم، حبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق يخرج بهم إليه أرسالاً، وفيهم عدو الله حُيَي بن أخطب، وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة أو سبعمائة، وسُبي من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم[٣].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال ابن كثير:** لأنهم كانوا مالأوا المشركين على حرب النبي ﷺ ـ وليس من يعلم كمن لا يعلم ـ وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب إليهم القتال، لما انشمر المشركون وراحوا بصفقة المغبون، فكما راموا العز ذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾، يعني: قتل الرجال المقاتلة، وسبي الذراري والنساء.

---

(١) **قال الهيثمي:** في الصحيح بعضه رواه أحمد، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات «مجمع الزوائد» (٦/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) «محاسن التأويل» (١٣/ ٢٤٥).

(٣) نقلاً عن «محاسن التأويل» (١٣/ ٢٤٤).

روى الإمام أحمد، عن عطية القـرظي، قال: عُرضت على النبي ﷺ يوم قريظة، فأمر بي النبي ﷺ أن ينظروا هل أنبت بعد؟ فنظروني فلم يجدوني أنبت، فخلى عني، وألحقني بالسبي، وكذا رواه أهل السنن كلهم، وقال الترمذي: حسن صحيح[(١)].

٢ ـ **وقال القاسمي:** وبتمام تلك الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة، ولم يبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها، وهم الذين كانوا السبب في إثارة الأحزاب[(٢)].

٣ ـ **قال بعض العلماء:** يالله! ما أسوأ عاقبة الطيش! فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدرٍ يظنون من ورائه النجاح فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم، وهذا ما حصل لليهود في الحجاز فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر، ولكن اليهود لم يُوفوا بتلك العهود حسدًا منهم وبغيًا، فتم ما تم، فإن الله لا يصلح أعمالهم: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾، أي: وقد شاهدتم بعض مقدوراته، فاعتبروا بغيرها.

٤ ـ ليس في قول النبي ﷺ: «**لا يُصلينَّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة**»[(٣)] وعدم تعنيف النبي ﷺ لمن صلى في الطريق، ولمن لم يصل حتى فات وقت العصر عملاً بظاهر الأمر، دليل على أن الحق يتعدد، وأن كل مجتهد مصيب في اجتهاده، ولكن فيه معذرة من بذل جهده، وإن كان اجتهاده خطأ فالحق واحد لا يتعدد، ومثل ذلك قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ (الأنبياء: ٧٩).

ويشهد له أيضًا قوله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد**»[(٤)]. فالمجتهد مأجور على كل حال، إما أجرًا كاملاً أو أجرًا ناقصًا، وهو معذور في خطأه مرفوع عنه الإثم، لأنه لم يقصد مخالفة الحق، وقد بذل جهده ووسعه في الوصول إليه، وقد شاع استدلال البعض بهذه القصة

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٧٨).
(٢) «محاسن التأويل» (١٣/ ٢٤٦).
(٣) تقدم تخريجه ص (٢٣٨).
(٤) رواه البخاري (١٣/ ٣٣٠) «الاعتصام»، ومسلم (١٢/ ١٣) الأقضية، وأبوداود (٣٥٥٧) الأقضية.

في تصويب جميع الاجتهادات وجميع الأقوال المنسوبة إلى العلماء، وبذلك يُسَوِّغونَ لأنفسهم التقليد للأئمة، وعدم معرفة المسائل المختلف فيها بأدلتها الشرعية، حتى صار الأصل هو التقليد، وانقطع السند بينهم وبين رسول الله ﷺ .

قال الحافظ: ثم الاستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح، وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيمه، **وحاصل ما وقع في القصة:** أن بعض الصحابة حملوا النهي على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحًا للنهي الثاني على النهي الأول، وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها، واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، والبعض الآخر حملوا النهي على غير الحقيقة، وأنه كناية على الحث والاستعجال، والإسراع إلى بني قريظة، وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد، لأنه ﷺ لم يُعنف أحدًا من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنف من أثم[1] .

٥ - ورد في مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه أحاديث صحيحة صريحة في علو درجته وارتفاع منزلته، كيف لا وهو سيد الأنصار، وأثبت له ذلك ﷺ عندما قال: «**قوموا إلى سيدكم**»[2] .

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**اهتز العرش لموت سعد بن معاذ**»[3] .

وعن البراء قال: أُهديت للنبي ﷺ حُلّة حرير فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها فقال: «**أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ خير منها أو ألين**»[4] .

وعن أنس قال: لما حُملتْ جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته! فقال النبي ﷺ : «**إن الملائكة كانت تحمله**»[5] .

---

(١) باختصار من «الفتح» (٧/ ٤٧٣).
(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٧٥) المغازي.
(٣) رواه البخاري (٧/ ١٥٤) مناقب الأنصار، والترمذي (١٣/ ٢٣٥) المناقب، واهتزازه فرحًا واستبشارًا وسرورًا بقدوم روحه، وابن ماجه (١٥٨) المقدمة.
(٤) رواه البخاري (٧/ ١٥٣، ١٥٤) مناقب الأنصار، والترمذي (١٣/ ٢٣٤، ٢٣٥) المناقب.
(٥) رواه الترمذي (١٣/ ٢٣٦) المناقب، وابن ماجه (١٥٧) المقدمة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب وصححه الألباني رقم (٣٠٢٤) من «صحيح الترمذي»، ورقم (٦٢٢٨) «المشكاة».

١٢ - الأحداث التي أعقبت الأحزاب وبني قريظة وسبقت صلح الحديبية

وتشتمل على:

- قتل أبي رافع ابن أبي الحقيق
- غزوة بني لحيان
- سرية نجد وقصة ثمامة بن أثال
- غزوة المريسيع (بني المصطلق)

ومن أحداثها

(أ) قول عبد الله بن أُبَيّ رأس النفاق: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل

(ب) قصة الأعرابي الذي رفع السيف على رسول الله ﷺ

(جـ) قصة الإفك



قتل أبي رافع ابن أبي الحقيق

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وقد قدمنا أن أبا رافع كان ممن ألبَ الأحزاب على رسول الله ﷺ، ولم يقتل مع بني قريظة كما قتل صاحبه حُيي بن أخطب، ورغبت الخزرج في قتله مساواة للأوس في قتل كعب بن الأشرف، وكان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل هذين الحيين يتصاولان بين يدي رسول الله ﷺ في الخيرات، فاستأذنوه في قتله، فأذن لهم، فانتدب له رجال كلهم من بني سلمة، وهم عبد الله بن عتيك وهو أمير القوم، وعبد الله بن أنس، وأبو قتادة الحارث ابن ربعي، ومسعود بن سنان، وخزاعي بن أسود[1].

وهذه قصة قتله كما رواها البخاري عن البراء بن عازب قال: «بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس ـ وراح الناس بسرحهم ـ فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعليَّ أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على ودٍّ قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسْمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدتُ إليه فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقتُ عليّ من داخل. قلت: إن القوم نَذِروا بي لم يخلصوا إليّ حتى أقتله، فانتهيتُ إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع! قال: من هذا؟ فأهويتُ نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئًا وصاح فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد، ثم

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦).

دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل إن رجلاً بالبيت ضربني قبل بالسيف.

قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيت إلى درجة له فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة، ثم انطلقتُ حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته. فلما صاح الديك قام الناعى على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقتُ إلى أصحابي فقلت: النجاء فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيتُ إلى النبي ﷺ فحدثته فقال لي: «**ابسط رجلك**»، فبسطتُ رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط»[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال الحافظ:** في هذا الحديث من الفوائد: جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصر، وقتل من أعان على رسول الله ﷺ بيده أو ماله أو لسانه، وجواز التجسس على أهل الحرب وتطلب غرتهم، والأخذ بالشدة في محاربة المشركين، وجواز إيهام القول للمصلحة، وتعرض القليل من المسلمين للكثير من

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٣٩٥، ٣٩٦) المغازي.

قال الحافظ ما ملخصه: ولأبي رافع أخوان مشهوران من أهل خيبر أحدهما: كنانة، وكان زوج صفية بنت حيي قبل النبي ﷺ، وأخوه: الربيع بن أبي الحقيق، وقتلهما النبي ﷺ جميعًا بعد فتح خيبر. قوله: «**وراح الناس بسرحهم**» أي: رجعوا بمواشيهم التي ترعى. قوله: «**ثم علق الأغاليق على ود**» وهو الوتد، والأغاليق جمع غلق، والمراد بها المفاتيح. قوله: «**فقمتُ إلى الأقاليد**» جمع إقليد وهو المفتاح. قوله: «**في علالى له**» وهي الغرفة. قوله: «**نذروا بي**» أي: علموا، وأصله من الإنذار وهو الإعلام بالشيء الذي يحذر منه. وذكر ابن سعد أن عبد الله بن عتيك كان يرطن باليهودية فاستفتح فقالت له امرأة أبي رافع: من أنت؟ قال: جئت أبا رافع بهدية ففتحت. قوله: «**ضبيب السيف**» وزن رغيف، قال الخطابي: هكذا يروى وما أراه محفوظًا، وإنما هو ظبة السيف وهو حرف حد السيف ويُجمع على ظبات ـ باختصار من «الفتح» (٧/ ٣٩٦ – ٤٠٠).

المشركين، والحكم بالدليل والعلامة لاستدلال أبي عتيك على أبي رافع بصوته، واعتماده على صوت الناعي بموته، والله أعلم[١].

٢ - وفي القصة كذلك: تسابق الصحابة ﷺ في الخيرات، وهو السباق المشروع بل المأمور به كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦)، أما التسابق في الدنيا فهو مذموم كما قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (التكاثر: ١-٢)، وهو السعي من كل إنسان حتى يكون أكثر من أخيه في أعراض الدنيا. وقال بعض السلف: إذا رأيت الرجل يُنافسك في الدنيا فنافسه في الدين. وقال بعضهم: إذا استطعت ألا يسبقك أحد إلى الله - عزَّ وجلَّ - فافعل. وقد قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ (الحديد: ٢١)، وهذا في أمر الدين، أما أمر الدنيا فقد قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ (الملك: ١٥)، ففي أمر الآخرة عبّر بالتسابق والمسارعة، وفي السعي على المعاش، قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿فَامْشُوا﴾.

غزوة بني لحيان

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفرًا وشهري ربيع، وخرج في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة إلى بني لِحيان يطلب بأصحاب الرجيع: خُبيب بن عدي وأصحابه، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غِرَّة[٢].

قال ابن القيم: وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن عُزان وادٍ من أودية بلادهم، وهي بين أمج وعُسفان حيث كان مصاب أصحابه فترحم عليهم، ودعا لهم وسمعت بنو لحيان، فهربوا في رؤوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومين بأرضهم وبعث السرايا فلم يقدروا

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٤٠٠).

(٢) «تهذيب السيرة» (١٨٤) لعبد السلام هارون.

عليهم، فسار إلى عُسفان فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش ثم رجع إلى المدينة، وكانت غيبته أربع عشرة ليلة[١].

سرية نجد وقصة ثمامة بن أثال

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ثم بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت بثمامة بن أثال الحنيفي سيد بني حنيفة[٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**».

قال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**».

فقال: عندي ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: «**ما عندك يا ثمامة**».

فقال: عندي ما قلت لك فقال: «**أطلقوا ثمامة**»، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ. والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدين إليّ، والله ما كان بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبحت بلدك أحبّ البلاد إليّ، وأن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل:

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٧٦).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٢٧٧).

صبوت؟ قال: لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال الحافظ:** وفي قصة ثمامة من الفوائد: ربط الكافر في المسجد، والمن على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيء؛ لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حبًا في ساعة واحدة لما أسداه النبي ﷺ من العفو والمن بغير مقابل، **وفيه:** الاغتسال عند الإسلام وأن الإحسان يزيل البغض ويثبت الحب، وأن الكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم شرع له أن يستمر في عمل ذلك الخير، **وفيه:** الملاطفة بمن يرجى إسلامه من الأسرى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولاسيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه، **وفيه:** بعث السرايا إلى بلاد الكفر، وأسر من وجد منهم، والتخيير بعد ذلك في قتله أو الإبقاء عليه[2].

غزوة المريسيع وهي غزوة بني المصطلق

عن محمد بن إسحاق قال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ومحمد بن يحيى بن حبان كل قد حدثني ببعض حديث بني المصطلق قال: أبلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له فأمدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له:

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٦٨٨) المغازي، ومسلم (١٢/ ٨٨، ٨٩) الجهاد والسير. قال النووي: قوله: «**إن تقتل تقتل ذا دم**» اختلفوا في معناه، فقال القاضي عياض في المشارق، وأشار إليه في «شرح مسلم» معناه: إن تقتل تقتل صاحب دم لدمه موقع يشتفى بقتله قاتله ويدرك قاتله به ثأره أي لرياسته وفضيلته وحذف هذا لأنهم يفهمونه في عرفهم، وقال آخرون: معناه تقتل من عليه دم ومطلوب به وهو مستحق عليه فلا عتب عليك في قتله، ورواه بعضهم في «سنن أبي داود» وغيره ذا ذم، أي: ذا ذمام وحرمة في قومه، ومن إذا عقد ذمة وفي بها «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٢/ ٨٧، ٨٨).

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٦٩٠).

المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحمت الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق وقتل الحارث بن أبي ضرار أبا جويرية، وقتل من قتل منهم، ونفل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم، وكان رسول الله ﷺ أصاب منهم سبيًا كثيرًا قسمه بين المسلمين، وكان فيما أصاب يومئذٍ منْ الناس جويرية بنت أبي ضرار سيدة قومها[(١)].

قال ابن إسحاق: ثم غزا بني المصطلق من خزاعة في شعبان سنة ست[(٢)].

وروي البخاري، عن ابن عون قال: «كتبتُ إلى نافع، فكتب إليّ: إن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق، وهم غارون، وأنعامهم تسقي على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأصاب يومئذٍ جويرية، حدثني به ابن عمر وكان في ذلك الجيش»[(٣)].

وعن عائشة ﵂ قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له وكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي قال: **«فهل لك في خير من ذلك»**، قالت: وما هو يا رسول الله، قال: **«أقضي كتابتك وأتزوجك»**،

(١) قال الهيثمي في «المجمع»: رواه الطبراني ورجاله ثقات «مجمع الزوائد» (٦/ ١٤٢).
(٢) «تهذيب سيرة ابن هشام» (١٨٦) لعبد السلام هارون.
(٣) رواه البخاري (٥/ ٢٠٢) العتق، ومسلم (١٢/ ٣٥، ٣٦) الجهاد والسير، ولفظه في مسلم عن ابن عون قال: كتبتُ إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال قال: فكتب إليّ إنما كان ذلك في أول الإسلام قد أغار رسول لله. .» الحديث.

قالت: نعم يا رسول الله، قال: «قد فعلت»، قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية بنت الحارث فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما بأيديهم قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها»[١].

أحداث خطيرة فيها عبر وعظات أثناء هذه الغزوة

(أ) قول عبد الله بن أُبي رأس النفاق: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

(ب) قصة الأعرابي الذي رفع السيف وقال لرسول الله ﷺ : من يمنعك مني؟

(جـ) حديث الإفك.

ولنشرع في بيانها بشيء من التفصيل، والله المستعان.

(أ) قول عبد الله بن أُبي: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا في غزاة - قال سفيان مرة في جيش - فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ما بال دعوى جاهلية؟**» قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: «**دعوها فإنها منتنة**»، فسمع بذلك عبد الله بن أُبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ : «**دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»، وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد[٢].

---

(١) رواه ابن إسحاق (٤/ ٩٠٨) من «سيرة ابن هشام» مع «الروض الأنف»، وعنه أحمد (٦/ ٢٧٧)، وصحح إسناده الألباني في تحقيق «فقه السيرة».

(٢) رواه البخاري (٧/ ٥١٦) المغازي، ومسلم (١٧/ ١٢٠) صفات المنافقين وأحكامهم.

قال الحافظ: قوله: «**كنا في غزاة**»، سمي ابن إسحاق هذه الغزوة غزوة بني المصطلق، وكذا وقع عند الإسماعيلي من طريق ابن أبي عمر عن سفيان. وقال: يرون أن هذه الغزوة غزاة بني المصطلق.

قوله: «**فكسع**» المشهور فيه: أن ضرب الدبر باليد أو الرجل. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عقيل عن الزهري، عن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت أنهما أخبراه أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع وهي التي هدم فيها رسول الله ﷺ مناة الطاغية التي كانت بين قفا المشلل وبين البحر، فاقتتل رجلان فاستعلى المهاجري على الأنصاري فقال حليف الأنصار: يا معشر الأنصار فتداعوا إلى أن حجز بينهم، فانكفأ كل منافق إلى عبد الله بن أُبَيّ فقالوا: كنت تُرجى وتدفع فصرت لا تضر ولا تنفع. فقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فذكر القصة بطولها وهو مرسل جيد.

قوله: «يا للأنصار»، هي للاستغاثة أي: أغيثوني. قوله: «**دعوها فإنها منتنة**» أي: دعوى الجاهلية، من النتن، أي: أنها كلمة قبيحة خبيثة[1].

قال ابن عبد البر: وبلَّغ زيد بن أرقم رسول الله ﷺ مقالة عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول، فأنكرها ابن أبي، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه سورة المنافقين، فقال رسول الله ﷺ لزيد بن أرقم: وَفَت أذنك وتبرأ عبد الله بن عبد الله بن أُبي من فعل أبيه، وأتى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله أنت ـ والله ـ العزيز وهو الذليل، أو قال: أنت الأعز وهو الأذل، وإن شئت ـ والله ـ لنخرجنَّه من المدينة.

وقال سعد بن عبادة: يا رسول الله! إن هذا رجل يحمله حسده على النفاق فدعه إلى عمله، وقد كاد قومه على أن يتوجوه بالخرز قبل قدومك المدينة

(١) باختصار من «فتح الباري» (٨/ ٥١٧) التفسير.

ويقدموه على أنفسهم، فهو يرى أنك نزعت ذلك منه، وقد خاب وخسر إن كان يضمر خلاف ما يظهر، وقد أظهر الإيمان فكله إلى ربه.

وقال عبد الله بن عبد الله بن أُبي ابن سلول، يا رسول الله! بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت تريد ذلك فمرني بقتله فوالله إن أمرتني بقتله لأقتلنه، وإني أخشى يا رسول الله ﷺ إن قتله غيري أن لا أصبر عن طلب الثأر فأقتل به مسلمًا فأدخل النار، وقد علمت الأنصار أني من أبر أبنائها بأبيه، فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له وقال له: «**بر أباك، ولا يرى منك إلا خيرًا**»، فلما وصل رسول الله ﷺ والمسلمون إلى المدينة من تلك الغزاة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي لأبيه بالطريق وقال: والله لا تدخل المدينة حتى يأذن لك رسول الله ﷺ بالدخول، فأذن رسول الله ﷺ بدخوله[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ الأسماء الشريفة إذا قصد بها تفريق المسلمين وتفتيت جماعتهم تصير من دعوى الجاهلية، وهي منتنة كما أخبر النبي ﷺ، فمع أن اسم المهاجرين واسم الأنصار من الأسماء الشريفة التي تدل على شرف أصحابها وقد سماهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهذه الأسماء على سبيل المدح لهم فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

وكان للمهاجرين راية في القتال وللأنصار راية، إلا أن هذه الأسماء لما استعملت الاستعمال الخاطئ لتفريق المسلمين وإحياء العصبيات الجاهلية، أنكر ذلك رسول الله ﷺ وقال: «**دعوها إنها منتنة**»، وكذا والله أعلم اسم السلفية أو أهل السنة أو أنصار السنة إذا تعصب أصحاب هذه الأسماء لها ولم يكن ولاؤهم للمنهج، فإن هذا يدخل في الذم المذكور، ويكون ذلك من دعوى

---

(١) «الدرر في اختصار المغازي والسير» (١٨٩، ١٩٠).

الجاهلية، والجماعة المقصودة بحديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة: هم الصحابة، ومن كان على معتقدهم وفهمهم للكتاب والسنة.

ولا يجوز تفريق المسلمين أصحاب المنهج الصحيح بحسب الرايات والأسماء التي يعملون تحتها، وعلى كل مسلم مخلص أن يسعى لتآلف المسلمين وجمعهم على الفهم الصحيح والعقيدة الصحيحة.

٢ ـ **في هذه القصة:** بيان عزة الإيمان وأن الكافر ذليل والمنافق ذليل، وكيف أن العزة لله جميعًا، ولا تطلب هذه العزة إلا بطاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠)، ولا أذل لعبد الله بن أُبيّ رأس النفاق من وقوف ولده له، وعدم سماحه بدخول المدينة حتى يأذن رسول الله ﷺ فبان بذلك مَنْ العزيز ومَنْ الذليل.

٣ ـ **في القصة كذلك:** بيان أن المشروع أن يدفع بالمفسدة الصغرى المفسدة الكبرى، فادعاء الناس أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه ممن يُظهر الإسلام لاشك مفسدة عظيمة، فتحمل النبي ﷺ دسائس وغدرات ابن أُبَيّ وهي مفاسد دفعًا لهذه المفسدة، والله أعلم.

٤ ـ **وفي القصة كذلك:** شرف النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين وهو أشرف النبيين وإمام المرسلين، ولو أمر عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ بقتل أبيه لفعل وابتغى بذلك رضا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ورضا رسوله ﷺ ولكنه قال له: «**بر أباك**»، فصلى الله عليه وسلم تسليمًا ثم هو ﷺ لم يكن لينتقم لنفسه ولا ليغضب لنفسه بل يغضب لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولاشك أن ما لاقاه النبي ﷺ من إيذاء واستهزاء وصبره على ذلك من أسباب رفعة النبي ﷺ وعلو درجته زاده الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تشريفًا وتكريمًا وصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

(ب) قصة الأعرابي الذي رفع السيف على رسول الله ﷺ وقال: من يمنعك مني؟

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد، فلما أدركنا القائلة، وهو وادٍ كثير العضاه، فنزل تحت شجرة واستظل بها وعلَّق سيفه، فتفرّق الناس في الشجر يستظلون، وبينما نحن كذلك إذ دعانا رسول الله ﷺ فجئنا، فإذا أعرابي قاعد بين يديه، فقال: «إن هذا أتاني وأنا نائم فاخترط سيفي، فاستيقظتُ وهو قائم على رأسي مخترط سيفًا صلتًا قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فشامه ثم قعد، فهو هذا» قال: ولم يعاقبه رسول الله ﷺ[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **في هذه القصة:** تصديق لقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧)، وقد سبق ذلك قصص كثيرة في سيرة النبي ﷺ **منها:** قصة أبو جهل ـ قبحه الله ـ عندما أراد أن يطأ على رقبة النبي ﷺ، وهي في «صحيح مسلم»، وقصة سراقة، وما حدث يوم أُحد، وقصة إجلاء بني النضير، وقصة الشاة المسمومة وستأتي في غزوة خيبر.

٢ ـ **وفيها:** قوة إيمان النبي ﷺ ورباطة جأشه، وثقته بربه، فكم من إنسان يتحقق صدق وعد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلا أنه في المواقف الحرجة تتزعزع هذه الثقة، ويدخله ـث والخوف.

٣ ـ **وفيها:** ما جُبل عليه النبي ﷺ من الأخلاق العالية، وعفوه عن الجاهلين، وعدم الانتصار لنفسه، والغضب لها، وعلى ذلك ينبغي أن يتربى الدعاة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فإنه قدوتهم ومثلهم الأعلى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١).

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٩٤) المغازي.

جـ - قصة الإفك

قال ابن شهاب: حدثني عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة رضي الله عنها - زوج النبي صلى الله عليه وسلم - حين قال لها: أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصًا، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضًا، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض قالوا: قالت عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرًا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أنزل الحجاب، فكنت أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنونا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، وقالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوني، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يَهْبُلْنَ ولم يَغْشَهُن اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنتُ جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدتُ عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السُّلَمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب فاستيقظتُ باسترجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها

فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول، قالت: فهلك من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أُبي ابن سلول.

قال عروة: أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده، فيقره ويستمعه ويستوشيه. وقال عروة أيضًا: لم يسمٍّ من أهل الإفك أيضًا إلا حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة ـ كما قال الله تعالى ـ وإن كبر ذلك يقال: عبد الله بن أُبي ابن سلول. قال عروة: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدُهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُم وُقَاءُ

قالت عائشة: فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيءٍ من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «**كيف تيكم؟**» ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشهر، حتى خرجتُ حين نقهتُ، فخرجت مع أمِّ مسطح قبل المناصع. وكان متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا. قالت: فخرجت أنا وأم مسطح ـ وهي ابنة أبي رُهم بن المطلب ابن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح ابن أثاثة بن عبد بن المطلب ـ فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدرًا قالت: أي هنتاه ولم تسمعي ما قال؟ قالت: وقلت: ما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك. قالت: فازددتُ مرضًا على مرضي فلما رجعت إلى بيتي، ودخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلم، ثم قال: «**كيف تيكم؟**» فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما.

قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ. فقلت لأمي: يا أمتاه، ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحتُ أبكي. قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلُك ولا نعلم إلا خيرًا.

وأما علي فقال: يا رسول الله لم يُضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «**أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟**»، قالت له بريرة: والذي بعثك بالحقِّ ما رأيتُ عليها أمرًا قط أغمصه، غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله. قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أُبيّ وهو على المنبر، فقال: «**يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا**»، قالت: فقام سعد بن معاذ[1] - أخو بني عبد الأشهل - فقال: أنا يا رسول الله أعذرك فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج - وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا، ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد: كذبت، لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل.

---

(١) **قال ابن القيم - رحمه الله -**: قال محمد بن إسحاق: إن غزوة بني المصطلق كانت في سنة ست بعد الخندق، وذكر فيها حديث الإفك إلا أنه قال: عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عائشة - فذكر الحديث. فقال: فقام أسيد بن الحضير، فقال: أنا أعذرك منه، فرد عليه سعد بن عبادة، ولم يذكر سعد بن معاذ قال أبو محمد ابن حزم: وهذا هو الصحيح الذي لاشك فيه، وذكر سعد بن معاذ وهم؛ لأن سعد بن معاذ مات إثر فتح بني قريظة بلاشك - «زاد المعاد» (٣/٢٦٦).

فقام أسيد بن حضير ـ ابن عم سعد ـ فقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تُجادل عن المنافقين. قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يُخفضهم حتى سكتوا وسكت. قالت: فبكيتُ يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أني لأظن أن البكاء فالق كبدي. فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنتْ عليَّ امرأة من الأنصار فأذنتُ لها، فجلستْ تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبَلها، ولقد لبث شهرًا لا يُوحى إليه في شأني بشيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «**أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرؤك الله، وإن كنت ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف، ثم تاب، تاب الله عليه**»، قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال: فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلتُ لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال: قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلتُ ـ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرًا ـ: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفتُ لكم بأمر ـ والله يعلم أني منه بريئة ـ لتصدّقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾ (يوسف:١٨)، ثم تحولت فاضطجعت على فراشي والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله تعالى مُنزِّل في شأني وحيًا يُتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يُبرّؤني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء، حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان

ـ وهو في يوم شات ـ من ثقل القول الذي أنزل عليه. قالت: فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: «**يا عائشة، أما الله فقد برأك**»، قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. قالت: وأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ**﴾ (النور: ١١)، العشر الآيات.

ثم أنزل الله تعالى هذا في براءتي. قال أبو بكر الصديق ـ وكان يُنفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره ـ: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله تعالى: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ**﴾، إلى قوله: ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (النور: ٢٢)، قال أبو بكر الصديق: بلى والله، إني لأحبُّ أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال لزينب: «**ماذا علمت أو رأيت**»، فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع. قالت: وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك. قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط. ثم قال عروة: قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله والذي نفسي بيده ما كشفتُ عن كنف أنثى قط. قالت: ثم قُتل بعد ذلك في سبيل الله[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ هذه الحادثة على ما فيها من شدة وألم على رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين، وعلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانت في وقتها لم تبلغ العشرين سنة من عمرها المبارك؛ لأن النبي ﷺ بنى بها بعد الهجرة، وكانت في

(١) رواه البخاري (٧/٤٩٦ - ٤٩٩) المغازي، ومسلم (١٨/١٠٢-١١٣) التوبة. قال البخاري: والإفك بمنزلة النِّجْسِ والنَّجَسِ.

التاسعة، وعلى أبيها الصديق ﷺ أفضل ولي لله بعد الأنبياء والمرسلين، وعلى أمها أم رومان ﷺ، وعلى صفوان بن المعطل ﷺ الذي شهد له رسول الله ﷺ بأنه ما علم عنه إلا خيرًا وقد رزقه الله - عزَّ وجلَّ - الشهادة بعد ذلك، وعلى كل مؤمن يتألم لألم رسول الله ﷺ فما يملك المؤمن نفسه عن البكاء، ولا يدري هل يبكي على رسول الله ﷺ الذي اتهم في عرضه، وهو أشرف الخلق وأطيب البشر، أم على أم المؤمنين التي أحبها رسول الله ﷺ وكانت أحبُّ نسائه إليه، وما كان الله - عزَّ وجلَّ - يرزق رسوله محبتها إلا لطيبها وشرفها، كيف لاوهي من أطيب بيوت قريش البيت الذي آمن كله أبوها وجدها وإخوتها والله - عزَّ وجلَّ - العليم الخبير يقول بعد أن انصهر المؤمنون في جحيم هذه الحادثة أكثر من خمسين يومًا: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ﴾ (النور: ١١)، فإن كان فيها شدة وألم، ففيها من الدروس والعبر والتربية للأمة ما يفوق هذا الشر بكثير، والذين ابتلوا بهذا البلاء أجرهم عند الله - عزَّ وجلَّ - الذي لا يظلم مثقال ذرة: «**وما ظلم عبد مظلمة، فصبر عليه إلا زاده الله عزاً**»[1].

فكم ارتفعت عائشة ﷺ حين نزل ببراءتها قرآن يُتلى إلى يوم القيامة، وكان غاية ما تتمناه أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا ببراءتها، فمن اتهمها بعد ذلك بما برأها الله - عزَّ وجلَّ - منه فقد كفر بكتاب الله المنزل، وما أشقى الشيعة بعقائدهم الباطلة فيها وفي أبيها ﷺ، وإنما كان هذا الحادث فتنة ظهر به نفاق المنافقين وإيمان المؤمنين.

والذي تولى كبره في هذا الاتهام الباطل بشره الله - عزَّ وجلَّ - في الآخرة بعذاب عظيم، والمؤمنون الذين تهاونوا بنقل حديث الإفك وظنوه أمرًا هينًا، أدبهم الله - عزَّ وجلَّ - وطهرهم بإقامة الحد عليهم، فكانوا عبرة لغيرهم من المؤمنين، فكم حدث من شر وبلاء لاستصغار الذنوب والتهاون بها، وقد كان من نتائج هذا الحادث حدوث فتنة بين الأوس والخزرج كادوا يقتتلون ولكن الله سلم، وكان يمكن أن تأتي

---

(١) جزء من حديث: رواه الترمذي (٩/ ١٩٩، ٢٠٠) أبواب الزهد، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٤/ ٢٣١) من حديث أبي كبشة الأنماري، وله شاهد من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» بلفظ: «**وما تواضع عبد لله إلا رفعه الله**».

تشريعات تحريم القذف وحدِّه، وتحريم نقل الأخبار التي لم يتثبت منها بدون هذه الحادثة، ولكنها لن تستقبل بمثل ما استقبلت به هذه الآيات بعد الشدة والمحنة، فهذه تربية ربانية للأمة المشرفة تربية بالبلاء والمحنة، فيزداد بها أهل الإيمان إيمانًا، ويظهر بها النفاق وأهله. **وفيها أيضًا:** بيان كيف يأتي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالفرج والسرور بعد الشدة والبلاء فحين بلغ الأمر مداه من الشدة والابتلاء وتحيرتْ الصديقة وأبوها وأمها ﷺ بماذا يُجيبون؟ أتاهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بما تقر به أعينهم من الوحي الصادق على رسول الله ﷺ، فنزل كالغيث الذي جاء بعد القحط والشدة.

قال الزمخشري: ومعنى كونه خيرًا لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم، لأنه كان بلاءً مبينًا ومحنةً ظاهرة، وأنه نزلتْ فيه ثماني عشرة آية كل واحدة منها مستقلة، بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لأهل البيت وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة، وفوائد دينية، وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها[1].

٢ ـ **قال أبو السعود:** وحيث كان رسول الله ﷺ أطيب الأطيبين، وخيرة الأولين والآخرين، تبين كون الصديقة ﷺ من أطيب الطيبات بالضرورة، واتضح بطلان ما قيل في حقها من الخرافات حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (النور:٢٦)، وهو الجنة[2].

٣ ـ **قال القرطبي:** قال هشام بن عمار: سمعتُ مالكًا يقول: من سَبَّ أبا بكر أُدِّب، وعمر أُدِّب، ومن سب عائشة قُتِلَ، لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (النور:١٧)، فمن سب عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتِل.

قال ابن العربي: قال أصحاب الشافعي: من سب عائشة ﷺ أدب كما في

(١) «الكشاف» (٣/ ٢١٧، ٢١٨) ط. الريان.

(٢) «محاسن التأويل» (١٢/ ١٠٢).

سائر المؤمنين، وليس قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، في عائشة - لأن ذلك كفر -، وإنما هو كما قال ﷺ: «**لا يُؤمن من لا يأمن جاره بوائقه**»[1]. ولو كان سلب الإيمان في مَنْ سب عائشة حقيقة، لكان سلبه في قوله: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[2] حقيقة. **قلنا**: ليس كما زعمتم، فإن أهل الإفك رموا عائشة المطهرة بالفاحشة فبرأها الله تعالى، فكل من سبها بما برأها الله منه مكذِّبٌ لله، ومن كذب الله فهو كافر، فهذا طريق قول مالك، وهو سبيل الآية لأهل البصائر، ولو أنَّ رجلاً سب عائشة بغير ما برأها الله منه لكان جزاؤه الأدب[3].

٤ - **قال ابن القيم - رحمه الله -**: فما بال رسول الله ﷺ توقف في أمرها وسأل عنها واستشار. وهو أعرف بالله وبمنزلته عنده وبما يليق به، وهلا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم، كما قاله فضلاء الصحابة؟

فالجواب: أن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سببًا لها وامتحانًا وابتلاءً لرسوله ﷺ ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقوامًا، ويضع بها آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانًا، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء؛ أن حُبِسَ عن رسول الله ﷺ الوحي شهرًا في شأنها ولا يوحى إليه في ذلك شيء لتتم حكمته التي قدرها وقضاها، وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانًا وثباتًا على العدل والصدق، وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقًا، ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها والافتقار إلى الله، والذل له، وحسن الظن به، والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول النُّصرة والفرج على يد أحد من

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٩٤٥٧) الأدب، ومسلم (٢/ ١٧) الإيمان، قال الحافظ: زاد أحمد والإسماعيلي: قالوا: وما بوائقه؟ قال: شره.

(٢) رواه البخاري (١٠/ ٣٠) الأشربة، ومسلم (٢/ ٤١، ٤٢) الإيمان.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٥٩٧، ٤٥٩٨).

الخلق، ولهذا وفّت هذا المقام حقه، لما قال لها أبواها: قومي إليه وقد أنزل الله عليه براءتها، فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي.

وأيضًا: فكان من حكمة حبس الوحي شهرًا؛ أن القضية مُحصت وتمحضت، واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته، والصديق وأهله وأصحابه والمؤمنون، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع وألطفه، وسروا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على الفور بذلك لفاتت هذه الحكم وأضعافها، بل أضعاف أضعافها. وأيضًا: فإن الله سبحانه وتعالى أحبَّ أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه، والرد على أعدائه وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا ينسب إليه بل يكون هو وحده المتولي كذلك الدفاع لرسوله وأهل بيته[1].

٥ ـ **وقال الحافظ:** وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم:

- جواز الحديث عن جماعة ملفقًا مجملاً.
- **وفيه:** مشروعية القرعة حتى بين النساء، وفي المسافرة بهن، والسفر بالنساء حتى في الغزو.
- وجواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل ولو كان فيه مدح ناس وذم ناس، إذا تضمن بذلك إزالة توهم النقص عن الحاكم إذا كان بريئًا عند قصد نصح من يبلغه ذلك لئلا يقع فيما وقع من سبق، وأن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير في الإثم أولى من تركه يقع في الإثم وتحصيل الأجر للموقوع فيه.
- **وفيه:** استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام.

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٦١-٢٦٣).

■ وأن الهودج يقوم مقام البيت في حجب المرأة.

■ وجواز ركوب المرأة الهودج على ظهر البعير، ولو كان ذلك مما يشق عليه، حيث يكون مطيقًا لذلك.

■ وفيه: خدمة الأجانب للمرأة من وراء الحجاب.

■ وجواز تستر المرأة بالشيء المنفصل عن البدن.

■ وصيانة المال ولو قلَّ، للنهي عن إضاعة المال، فإن عُقْدَ عائشة لم يكن من ذهب ولا جوهر.

■ وتغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي، وإطلاق الظن على العلم.

■ وفيه: البحث عن الأمر القبيح إذا أُشيع، وتعرف صحته وفساده بالتنقيب على من قيل فيه هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه؟

■ واستصحاب حال من اتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفًا بالخير، إذا لم يظهر عند البحث ما يُخالف ذلك.

■ وفيه: استعمال: «لا نعلم إلا خيرًا» في التزكية، وأن ذلك كافٍ في حق من سبقت عدالته ممن يطلع على خفي أمره.

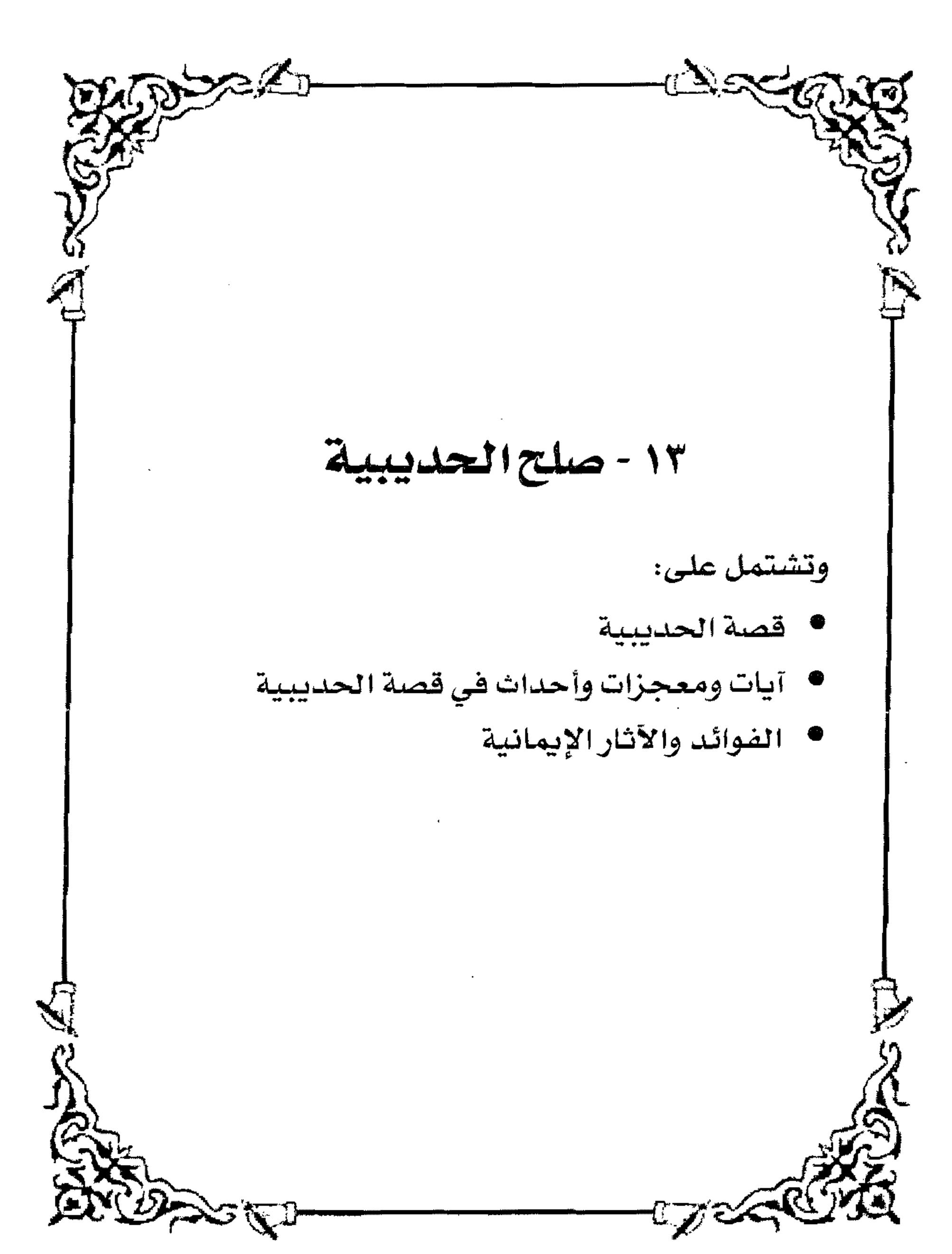
■ وفيه: أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج، وفضل من يفوض الأمر لربه، وأن من قوي على ذلك خف عنه الهم والغم، كما وقع في حالتي عائشة قبل استفسارها عن حالها وبعد جوابها، والله المستعان.

■ وفيه: الحث على الإنفاق في سبيل الخير، خصوصًا في صلة الرحم، ووقوع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه، أو صفح عنه.

■ وفيه: التسبيح عند التعجب، واستعظام الأمر، وذم الغيبة، وذم سماعها، وزجر من يتعاطاها، لاسيما إذا تضمنت تهمة المؤمن، بما لم يقع منه وذم إشاعة الفاحشة[1].

★★

(١) باختصار من «فتح الباري» (٨/ ٣٣٧-٣٣٩).



١٣ - صلح الحديبية

وتشتمل على:

- قصة الحديبية
- آيات ومعجزات وأحداث في قصة الحديبية
- الفوائد والآثار الإيمانية



قصة الحديبية(١)

روى البخاري عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن المسور ابن مخرمة ومروان ـ يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه ـ قالا: «خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «**إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمن، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش**»، فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ. فألحَّت. فقالوا: خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ: «**ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**»، ثم قال: «**والذي نفسي بيده لا يسألونني خطةً يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**»، ثم زجرها فوثبت. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يَتَبَرَّضَهُ الناس تبرضًا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة ـ فقال: إني تركت كعب بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذنَّ الله أمره**».

فقال بديل: فسأبلغهم ما تقول. قال: فانطلق حتى أتى قريشًا قال: إنا جئناكم من

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦).

عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول: قال سمعته يقول: كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ، فقام عروة بن مسعود، فقال: أي قوم ألستم بالوالد؟ قالوا: نعم. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلّحوا عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد اقبلوها، ودعوني آته. قالوا: ائته. فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل.

فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لا أرى وجوهًا، وإني لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا عنك ويدعوك. فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحنُ نَفِرُ عنه ونَدعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يُكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته والمغيرة ابن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قال: «**المغيرة ابن شعبة**». فقال: أي غُدَر، ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم، وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم. فقال النبي ﷺ: «**أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء**»، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضُوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه

النظر تعظيمًا له. فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مليكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له. وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة دعوني آتيه، فقالوا: آئته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: «**هذا فلان، وهو من قوم يُعظمون البدن، فابعثوها له**»، فبعثت له واستقبله الناس يُلبّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْن قد قُلّدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص. فقال: دعوني آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «**هذا مِكْرَز، وهو رجل فاجر**»، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي ﷺ: «**سهل لكم من أمركم**»، قال معمر: قال الزهري في حديثه. فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتابًا فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي، ولكن أكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: «**اكتب باسمك اللهم**»، ثم قال: «**هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله**» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله» فقال النبي ﷺ: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب محمد بن عبد الله**».

قال الزهري: وذلك لقوله: «**لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**»، فقال له النبي ﷺ: «**على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به**»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ في قُيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ.

فقال النبي ﷺ: «**إنا لم نقض الكتاب بعد**»، قال: فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا. قال النبي ﷺ: «**فأجزه لي**»، قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: بلى فافعل، قال: ما أنا بفاعل، قال مِكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عُذّب عذابًا شديدًا في الله، قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيتُ نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقًا؟ قال: «**بلى**»، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**»، قلت: فَلِم نعطى الدَّنِيَّة في ديننا إذًا؟ قال: «**إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**».

قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟**» قال: قلت: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**». قال: فأتيتُ أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقًا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصى ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنَّا نأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آته ومطوف به، قال

الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**»، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتُحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يُكلِّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا.

وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا. ثم جاءه نسوة مومنات، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾، حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠)، فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما: معاوية بن أبي سفيان، والأخرى: صفوان بن أمية، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم.

فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك يا فلان جيدًا، فاستله الآخر، فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت به، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «**لقد رأى هذا ذعرًا**»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: «**قتل والله صاحبي وإني لمقتول**»، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم، قال النبي ﷺ: «**ويل أمه مسعر حربٍ لو كان له أحد**»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتي سِيف البحر قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق

بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله لا يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، حتى بلغ: ﴿الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (الفتح: ٢٤-٢٦)، وكان حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت[١]. قال أبو عبد الله: **معرة العُرّ**: الجربُ.

تزيلوا: أنمازوا.

وحميت القوم: منعتهم حماية.

وأحميت الحمى: جعلته حمى لا يُدْخَل. **وأحميت الرجل**: إذا أغضبته إحماءً.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض، وأن يرجع عنهم عامه ذلك، حتى إذا كان العام المقبل قَدِمها، وخلوا بينه وبين مكة فأقام بها ثلاثًا، وأن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب، والسيوف في القرب، وأن من أتانا من أصحابك لم نرده عليك، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا، وأن بيننا وبينك عيبة مكفوفة[٢] وأنه لا إسلال ولا إغلال[٣]، فقالوا: يا رسول الله نعطيهم هذا؟ فقال: «**من أتاهم منا فأبعده الله، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم، جعل الله له فرجًا ومخرجًا**»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٣٨٨-٣٩٢) الشروط، وأبوداود (٢٧٤٨) الجهاد، وأحمد (٤/ ٣٢٣).

(٢) **العيبة**: هنا مثل والمعنى أن بيننا صدور سليمة في المحافظة على العهد الذي عقدناه بيننا، وقد يشبه صدر الإنسان الذي هو مستودع سره وموضع مكنون أمره بالعيبة التي يودعها حر متاعه ومصون ثيابه.

(٣) قوله: «**لا إسلال ولا إغلال**» الإسلال من السلة وهي السرقة والإغلال الخيانة، يقول: إن بعضنا يأمن بعضًا في نفسه وماله، فلا يتعرض لدمه ولا لماله سرًا ولا جهرًا، ولا يخونه في شيء من ذلك.

(٤) وهو معنى حديث رواه أحمد (٤/ ٣٢٥) من طريق ابن إسحاق، قال محقق «زاد المعاد» ورجاله ثقات، ورواه أبوداود (٢٧٤٩) الجهاد، وحسنه الألباني رقم (٢٤٠٤) «صحيح أبي داود».

آيات ومعجزات وأحداث في قصة الحديبية:

١ ـ **فمن ذلك:** أن بئر الحديبية نزح حتى ما بقي فيه قطرة ماء، فبصق النبي ﷺ فيها ودعا، فروي منها الصحابة حتى ارتحلوا. عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ، فأتى البئر وقعد على شفيرها ثم قال: «**ائتوني بدلو من مائها**» فأتى به فبصق فدعا، ثم قال: «**دعوها ساعة فأرووا أنفسهم وركابهم حتى ارتحلوا**»[١].

وفي رواية أخرى: «توضأ وتمضمض ودعا، ثم صبه فيها».

عن البراء رضي الله عنه قال: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية: كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء فتوضأ ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا»[٢].

٢ ـ **ومن ذلك:** أنه لم يبق عند الصحابة ماء إلا ركوة بين يدي النبي ﷺ، فوضع يديه فيها، فنبع الماء من بين أصابعه حتى توضئوا من عند آخرهم.

عن جابر رضي الله عنه قال: «عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله ﷺ: «**مالكم؟**»، قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ماء نتوضأ به، ولا نشرب إلا ما في ركوتك. قال: فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قال: فشربنا وتوضأنا»[٣].

٣ ـ **ومن ذلك:** أنه شرع فدية الأذى.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٠٥) المغازي، وأحمد (٤/ ٢٩٠).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٥٠٥) المغازي.

(٣) رواه البخاري (٧/ ٥٠٥) المغازي، ومسلم مختصرًا (١٣/ ٤) الإمارة، وأحمد (٣/ ٣٢٩).

عن كعب بن عجرة أن رسول الله ﷺ رآه وقمله يسقط على وجهه فقال: «**أيؤذيك هوامك؟**»، قال: نعم، فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق وهو بالحديبية، ولم يبين لهم أنهم يحلّون بها وهم على طمع أن يدخلوا مكة، فأنزل الله الفدية، فأمره رسول الله ﷺ أن يُطعم فرقًا بين ستة مساكين، أو يهدي شاة، أو يصوم ثلاثة أيام»[(١)].

٤ ـ **ومن ذلك:** أن النبي ﷺ نهاهم عن الاستسقاء بالأنواء، وأعلمهم أن هذا من الكفر.

عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية فأصابنا مطر ذات ليلة، فصلى لنا رسول الله ﷺ الصبح، ثم أقبل علينا فقال: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**»، قلنا: الله ورسوله أعلم. فقال: «**قال الله: أصبح عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال: مُطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله، فهو مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مُطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٦) الحج، ومسلم (٨/ ١٨) الحج، ومالك في «الموطأ» (١/ ٤١٧) الحج، والنسائي (٥/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٥٠٣، ٥٠٤) المغازي، ومسلم (٢/ ٥٩، ٦٠). قال النووي: وأما معنى الحديث فاختلف العلماء في كفر من قال: مطرنا بنوء كذا على قولين: **أحدهما:** هو كفر بالله سبحانه وتعالى سالب لأصل الإيمان، مخرج من ملة الإسلام، قالوا: وهذا فيمن قال ذلك معتقدًا أن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم، ومن اعتقد هذا فلاشك في كفره وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء والشافعي منهم وهو ظاهر الحديث قالوا: وعلى هذا لو قال: مُطرنا بنوء كذا معتقدًا أنه من الله تعالى وبرحمته وأن النوء ميقات له وعلامة اعتبارًا بالعادة فكأنه قال: مطرنا في وقت كذا، فهذا لا يكفر، واختلفوا في كراهته والأظهر كراهته لكنها كراهة تنزيهية لا إثم فيها، وسبب الكراهة: أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها، ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم.
والقول الثاني: في أصل تأويل الحديث: أن المراد كفر نعمة الله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب، وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب، ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة في الباب: «**أصبح من الناس شاكر وكافر**»، وفي الرواية الأخرى: «**ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين**»، وفي الرواية الأخرى: «**ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين**» فقوله: «بها» يدل على أنه كفر بالنعمة، والله أعلم ـ «شرح النووي على صحيح مسلم» (٢/ ٦٠، ٦١).

٥ ـ **وفي الحديبية:** أنزلت سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ (الفتح:١، ٢)، وتقدم حديث البراء وفيه: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»[1].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: نزلتْ هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتي من قابل فأجابهم إلى ذلك، على تكره من جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله، فلما نحر ﷺ هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه[2].

وقد اشتملت هذه السورة العظيمة على المبشرات الكثيرة الطيبة لرسول الله ﷺ وللصحابة الكرام ﷺ، يجبر بذلك كسرهم وصدهم عن المسجد الحرام، وكانوا في غاية الشوق إليه، وهذا مما جعلهم يتأخرون في تنفيذ أمر النبي ﷺ بنحر الهدي وحلق الرؤوس أو تقصيرها، وكأنهم ينتظرون أمرًا آخر أحب إلى قلوبهم، فلما سلموا وسمعوا وأطاعوا، نزلتْ هذه السورة تُسليهم وتُبشرهم، **فمن المبشرات:** تسمية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذا الصلح فتحًا للمسلمين، وظهرت دلائل وعلامات هذا الفتح، **ومن المبشرات الخاصة برسول الله ﷺ:** مغفرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما تقدم وما تأخر من ذنبه. وتبشير المؤمنين بالجنة، وقد قال النبي ﷺ: «**لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة**»[3].

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٧٢). (٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٨٢).

(٣) رواه أبوداود (٤٦٢٧) السنة، والترمذي (١٣/ ٢٤٣)، وأحمد (٣/ ٣٥٠) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

وقال تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٥).

ومن المبشرات: التبشير بفتح خيبر كما قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ (الفتح: ٢٠)، وقيل هذه: غنائم خيبر.

ومن أعظم هذه البشريات: إخبار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ برضاه عنهم وهو أكبر من الجنة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨)، وقال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢).

ومدحهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بقوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الفتح: ٢٦).

وأخبرهم أن الرؤيا التي رآها رسوله ﷺ بدخولهم المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ومقصرين آمنين لا يخافون شيئًا لابد أن تتحقق، وكان ذلك بعد عام واحد من صلح الحديبية في عمرة القضاء في ذي القعدة من سنة سبع، وبشرهم بالعز والتمكين وظهور الدين، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (الفتح: ٢٨).

قال شيخ الإسلام: وقد أظهره الله علمًا وحجة وبيانًا على كل دين، كما أظهره قوة ونصرًا وتأييدًا، وقد امتلأت الأرض منه ومن أمته في مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله كما زال ملك اليهود، وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها.

وقال ابن جرير: وهذا إعلام من الله تعالى نبيه ﷺ، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية من أصحابه؛ أن الله فاتح عليهم مكة وغيرها من البلدان مسليهم بذلك عما نالهم من الكآبة والحزن بانصرافهم عن مكة قبل دخولها وقبل طوافهم بالبيت[1].

(١) «جامع البيان» (٢٦/ ٦٩) ط. دار الفكر.

وخُتمت السورة بوصف رسول الله ﷺ والذين معه ومثلهم في التوراة والإنجيل، ومدح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لهم، فكانت السورة تبشيراً ومدحًا وإعلامًا بالرضى وغير ذلك، وكان فضل الله عظيمًا، نسأل الله العظيم من فضله.

الفوائد والآثار الإيمانية:

أ ـ **قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ ما ملخصه:** فصل في بعض ما في قصة الحديبية من الفوائد الفقهية:

■ **فمنها:** اعتمار النبي ﷺ في أشهر الحج، فإنه خرج إليها في ذي القعدة.

■ **ومنها:** أن الإحرام بالعمرة من الميقات أفضل كما أن الإحرام بالحج كذلك.

■ **ومنها:** أن سوق الهدي مسنون في العمرة المفردة، كما هو مسنون في القِران.

■ **ومنها:** أن الاستعانة بالمشرك المأمون جائزة عند الحاجة؛ لأن عينه الخزاعي كان كافراً[1].

■ **ومنها:** رد الكلام الباطل ولو نسب إلى غير مكلف كما رد عليهم ﷺ قولهم: خلأت القصواء، فقال: «**ما خلأت وما ذاك لها بخلق**».

■ **ومنها:** أن تسمية ما يلابسه الرجل من مراكبه ونحوها سنة.

■ **ومنها:** أن المشركين وأهل البدع والفجور إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمات الله تعالى أجيبوا إليه، وأعطوه، وأعينوا عليه.

■ **ومنها:** أن من نزل قريبًا من مكة، فإنه ينبغي له أن ينزل في الحل ويصلي في الحرم.

■ **ومنها:** جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه.

---

(١) وسيأتي الرد عليه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

■ **ومنها:** أن الفخر والخيلاء في الحرب ليس مذمومًا، فإن المغيرة بن شعبة لم يكن عادته أن يقوم على رأس النبي ﷺ.

■ **ومنها:** أن مال المشرك المعاهد معصوم؛ لأن النبي ﷺ لم يقبل مال المغيرة ابن شعبة الذي أخذه من المشركين ولم يضمنه لأنه كان قبل إسلامه.

■ **ومنها:** احتماله قلة أدب رسل الكفار للمصلحة العامة.

■ **ومنها:** طهارة النخامة، وكذلك الماء المستعمل.

■ **ومنها:** استحباب التفاؤل لقوله لما جاء سهيل: «**سَهُلَ أمركم**».

■ **ومنها:** أن من حلف على شيء أو وعد بشيء لم يعين وقتًا كان على التراخي لا الفور.

■ **ومنها:** أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من الحل أو الحرم. فقوله تعالى: ﴿**وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ**﴾ (الفتح: ٢٥)، يدل على أن الموضع الذي نحر فيه الهدي كان من الحلّ لا من الحرم.

■ **ومنها:** أن المحصر لا يجب عليه القضاء، ولم يأمر النبي ﷺ أحدًا بالقضاء.

■ **ومنها:** أن الأمر المطلق على الفور، وإلا لم يغضب ﷺ لتأخرهم.

■ **ومنها:** أن الأصل مشاركة أمته له في الأحكام إلا ما خصه الدليل، ولذلك قالت أم سلمة: «اخرج ولا تكلم أحدًا حتى تحلق رأسك، وتنحر هديك»، وعلمت أن الناس سيتابعونه.

■ **ومنها:** أن خروج البضع عن ملك الزوج متقوّم، ولذلك أوجب الله سبحانه رد المهر على من هاجرت امرأته وحيل بينه وبينها[1].

٢ - **وقال - رحمه الله - ما ملخصه:** فصل في الإشارة إلى بعض الحكم التي تضمنتها هذه الهدنة:

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٣٠٠-٣٠٩).

■ **فمنها:** أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله وجنده.

■ **ومنها:** أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح، فإن الناس أمن بعضهم بعضًا، واختلط المسلمون بالكفار، وبادؤوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان مختفيًا بالإسلام.

■ **ومنها:** ما سببه سبحانه للمؤمنين من زيادة الإيمان، والإذعان، والانقياد على ما أحبوا وكرهوا، وما حصل لهم في ذلك من الرضا بقضاء الله.

■ **ومنها:** أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذي حكم به لرسوله وللمؤمنين سببًا لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولإتمام نعمته عليه ولهدايته الصراط المستقيم، ونصره النصر العزيز، ورضاه به، وانشراح صدره به، مع ما فيه من الضيم، وإعطاء ما سألوه كان من الأسباب التي نال بها الرسول وأصحابه ذلك، ولهذا ذكره الله سبحانه جزاءً وغاية، وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى وفتحه[1].

٣ ـ **قال الحافظ: وفي الحديث أيضًا:** فضل الاستشارة لاستخراج وجه الرأي، واستطابة قلوب الأتباع، وجواز بعض المسامحة في أمر الدين، واحتمال الضيم فيه، ما لم يكن قادحًا في أصله إذا تعين ذلك طريقًا للسلامة في الحال، والصلاح في المآل سواء كان ذلك في حال ضعف المسلمين أو قوتهم، وأن التابع لا يليق به الاعتراض على المتبوع بمجرد ما يظهر في الحال، بل عليه التسليم؛ لأن المتبوع أعرف بمآل الأمور غالبًا بكثرة التجربة، ولاسيما مع من هو مؤيد بالوحي. **وفيه:** جواز الاعتماد على خبر الكافر إذا قامت القرينة على صدقه، قاله الخطابي مستدلاً بأن الخزاعي الذي بعثه النبي ﷺ عينًا له ليأتيه بخبر قريش كان حينئذٍ كافرًا. قال: وإنما اختاره لذلك مع كفره ليكون أمكن له في الدخول فيهم والاختلاط بهم والاطلاع على أسرارهم، قال: ويستفاد من ذلك

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٠٩-٣١١).

جواز قبول قول الطبيب الكافر. **قلت:** ويحتمل أن يكون الخزاعي المذكور كان قد أسلم، ولم يشتهر إسلامه حينئذ، فليس ما قاله دليلاً على ما ادعاه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب(١).

٤ ـ **قال الدكتور حافظ محمد الحكمي:** جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم أن النبي ﷺ بعث بسر بن سفيان الخراعي عينًا إلى مكة. وقد استدل بعض العلماء بقصة بسر هذه على جواز الاستعانة بالمشركين في الجهاد.

قال ابن القيم: إن الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة؛ لأن عينه الخزاعي كان كافرًا إذ ذاك وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم، هكذا قال ابن القيم، وقد سبقه إلى ذلك مجد الدين ابن تيمية وتبعهما بعض المتأخرين. والظاهر أنه ليس في قصة الخزاعي هذه دلالة على جواز الاستعانة بالمشرك في الجهاد؛ لأنه لم يرد في هذا الحديث ولا في غيره ما يدل على أنه كان كافرًا إذ ذاك. بل ورد عن بعض العلماء أنه أسلم قبل الحديبية.

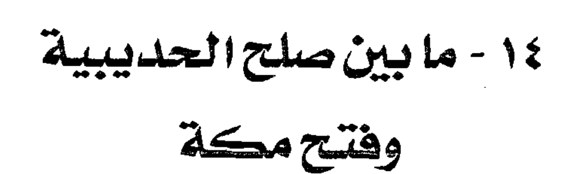
قال ابن عبد البر: بسر بن سفيان بن عويمر الخزاعي أسلم سنة ست من الهجرة، وبعثه النبي ﷺ عينًا إلى قريش إلى مكة، وشهد الحديبية وهو المذكور في حديث الحديبية من رواية الزهري، عن عروة، عن المسور ومروان، قالوا: حتى إذا كان بغدير الأشطاط لقيه عينه الخزاعي، فأخبره خبر قريش وجموعهم، قالوا: هو بسر بن سفيان هذا، وقد نقل ابن حجر كلام ابن عبد البر وسكت عليه.

وقال الزرقاني: واختار بسر بن سفيان بن عمرو هذا لقرب عهده بالإسلام؛ لأنه أسلم في شوال فلا يظنه من رآه عينًا فلا يؤذيه. وعلى فرض أنه لم يثبت ما ورد في إسلامه فلا تصح قصته دليلاً على جواز الاستعانة بالمشرك لوجود الاحتمال لاسيما وهي معارضة بأحاديث صحيحة(٢).

---

(١) «فتح الباري» (٥/ ٤١٥، ٤١٦).

(٢) «روايات غزوة الحديبية» د/ حافظ محمد الحكمي باختصار (٢٨٩، ٢٩٠)، وكلام ابن عبد البر نقلاً عن «الاستيعاب» (١/ ٣٠٩) مع «الإصابة» ط/ دار ابن القيم، وكلام الزرقاني نقلاً عن «شرح الزرقاني على المواهب اللدنية» (٢/ ١٨١).



١٤ - ما بين صلح الحديبية وفتح مكة

وتشتمل على:

١ - غزوة ذات القرد

٢ - غزوة خيبر

٣ - عمرة القضية

٤ - غزوة مؤتة

١ ـ غزوة ذات القرد

قال البخاري: وهي الغزوة التي أغاروا على لقاح النبي ﷺ قبل خيبر بثلاث[١].

وقال ابن القيم: وهذه الغزوة كانت بعد الحديبية وقد وهم فيها جماعة من أهل السير، فذكروا أنها كانت قبل الحديبية، والدليل على صحة ما قلناه: ما رواه الإمام أحمد، والحسن بن سفيان، عن أبي بكر ابن أبي شيبة، قال: حدثنا هشام بن القاسم، قال: حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثني إياس ابن سلمة، عن أبيه قال: قدمتُ المدينة زمن الحديبية مع رسول الله ﷺ قال: خرجت أنا ورباح بفرس لطلحة أنديه مع الإبل، فلما كان بغلس أغار عبد الرحمن بن عيينة على إبل رسول الله ﷺ فقتل راعيها وساق القصة، رواها مسلم في «صحيحه» بطولها[٢].

والقصة: رواها البخاري ومسلم مختصرة، ورواها مسلم كذلك مع قصة مبايعة سلمة بالحديبية، وكذلك غزوة خيبر في خبر واحد. **أما القصة مختصرة:**

فعن يزيد بن أبي عبيد قال: سمعتُ سلمة بن الأكوع يقول: خرجت قبل أن يؤذَّن بالأولى، وكانت لقاح رسول الله ﷺ ترعى بذي قرد، قال: فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف، فقال: أُخذَ لِقاح رسول الله ﷺ فقلت: من أخذها؟ قال: غطفان. قال: فصرخت ثلاث صرخات: يا صباحاه. قال: فأسمعت ما بين لابتي المدينة، ثم اندفعتُ على وجهي حتى أدركتهم بذي قَرد، وقد أخذوا يسقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلي وكنت راميًا وأقول:

أَنَا ابْنُ الأَكْوَع   وَاليَوْمُ يَوْم الرُضَّع

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٥٢٦) المغازي: باب غزوة ذات قرد.

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٢٧٨، ٢٧٩)، وقد ذكرها ابن القيم ـ رحمه الله ـ قبل غزوة الحديبية مع أنه رجح أنها كانت بعد الحديبية وسماها غزوة الغابة.

فأرتجز حتى استنقذتُ اللقاح منهم، واستلبتُ منهم ثلاثين بردة. قال: وجاء النبي ﷺ والناس، فقلت: يا نبي الله إني قد حميت القوم الماء وهم عطاش، فابعث إليهم الساعة، فقال: «**يا بن الأكوع ملكت فاسجح**». قال: ثم رجعنا ويردفني رسول الله ﷺ على ناقته، حتى دخلنا المدينة[١].

أما الرواية المطولة: فعن إياس بن سلمة عن أبيه في قصة الحديبية وذات قَرد وخيبر، وسوف نقتصر على الجزء من الحديث الخاص بذات قرد.

قال سلمة رضي الله عنه: «ثم قدمنا المدينة، فبعث رسول الله ﷺ بظهره مع رباح غلام رسول الله ﷺ وأنا معه، وخرجت معه بفرس طلحة أنديه[٢] مع الظهر، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ فاستاقه أجمع، وقتل راعيه، قال: فقلت: يا رباح خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة ابن عبيد الله، وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه، ثم قمت على أكمة فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثًا: يا صباحاه ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجز أقول:

أَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ ... وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُضَّعِ

فألحق رجلاً منهم، فأصك سهمًا في رحله حتى خلص نصل السهم إلى كتفه، قال: قلت: خذها.

أَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ ... وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُضَّعِ

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٢٦) المغازي، ومسلم (١٢/ ١٧٣، ١٧٤) الجهاد والسير، **والقرد:** ماء على نحو بريد مما يلي غطفان، وقيل: على مسافة يوم. **والأولى:** المقصود بها صلاة الصبح. **واللقاح:** ذوات الدر من الإبل. قوله: «**يا صباحاه**» هي كلمة تقال: عند استنفار من كان غافلاً عن عدوه. قوله: «**واليوم يوم الرضع**» جمع راضع وهو اللئيم، فمعناه: اليوم يوم اللئام، أي: اليوم يوم هلاك اللئام، والأصل فيه أن شخصًا كان شديد البخل، فكان إذا أراد حلب ناقته ارتضع من ثدييها لئلا يحلبها، فيسمع جيرانه أو من يمر به صوت الحلب فيطلبون اللبن. وقيل: بل معنى المثل ارتضع اللؤم من بطن أمه. وقوله: «**قد حميت القوم الماء**» أي: منعتهم من الشرب. قوله: «**يا بن الأكوع ملكت فاسجح**» والمعنى: قدرت فاعف، والسجاحة: السهولة. باختصار من «الفتح» (٧/ ٥٢٦-٥٢٩).

(٢) **قال النووي:** معناه: أن يورد الماشية الماء فتسقى قليلاً، ثم ترسل في المرعى، ثم ترد الماء فترد قليلاً، ثم ترد إلى المعنى ـ «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٢/ ١٧٨).

قال: فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم[١]. فإذا رجع إلى فارس أتيت شجرة فجلست في أصلها، ثم رميته فعقرت به، حتى إذا تضايق الجبل، فدخلوا في تضايقه علوت الجبل، فجعلت أردِّيهم بالحجارة، قال: فمازلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحًا يستخفون، ولا يطرحون شيئًا إلا جعلتُ عليه آرامًا من الحجارة يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى أتوا متضايقًا من ثنية، فإذا هم قد أتاهم فلان ابن بدر الفزاري، فجلسوا يتضحون ـ يعني يتغذون ـ وجلستُ على رأس قرن. قال الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البَرْحَ، والله ما فارقنا منذ غلس يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا، قال: فليقم إليه نفر منكم أربعة. قال: فصعد إليَّ منهم أربعة في الجبل، قال: فلما أمكنوني من الكلام قال: قلت: هل تعرفوني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قال: قلت: أنا سلمة بن الأكوع، والذي كرّم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم فيدركني، قال أحدهم: أنا أظنُّ.

قال: فرجعوا فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، قال: فإذا أولهم الأخرم الأسدي على إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكِنْدي، قال: فأخذت بعنان الأخرم. قال: فولوا مدبرين قلت: يا أخرم احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه، قال: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق، والنار حق، فلا تَحُل بيني وبين الشهادة، قال: فخليته، فالتقى هو وعبد الرحمن قال: فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله وتحول على فرسه،

(١) قوله: «أعقر بهم» أي: أعقر خيلهم. وقوله: «**فجعلت أرديهم بالحجارة**» أي: أرميهم بالحجارة التي تسقطهم وتنزلهم. قوله: «**فجعلت عليها آراماً من الحجارة**» هي الأعلام وهي حجارة تجمع وتنصب في المفازة يهتدى بها، واحدها أرم. قوله: «**لقينا من هذا البرح**» أي: شدة.

ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن فطعنه، فوالذي كرم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجلي حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم شيئًا، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له: ذو قَرد ليشربوا منه وهم عطاش. قال: فنظروا إليّ أعدو وراءهم فخليتهم عنه[1] يعني: أجليتهم عنه فما ذاقوا منه قطرة، ويخرجون فيشتدون في ثنية فأعدو فألحق رجلاً منهم فأصكه بسهم في نغص كتفه[2]. قال: قلت: خذها.

أَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُضَّعِ

قال: يا ثكلته أمه أكوعُة بكرة[3]. قال: قلت: نعم يا عدو نفسه أكوعك بكرة. قال: وأردَوا فرسين[4] على ثنية، قال: فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ، قال: ولحقني عامر بسطيحة فيها مذقة من لبن وسطيحة فيها ماء، فتوضأت وشربت، ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي خليتهم عنه، فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل وكل شيء استنقذته من المشركين وكل رمح وبردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل الذي استنقذت من القوم، و إذا هو يشوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها، قال: قلت: يا رسول الله خَلِّني فأنتخب من القوم مائة رجل، فأتّبع القوم فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته، قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النار فقال: «**يا سلمة أتراك كنت فاعلاً**»، قلت: نعم والذي أكرمك فقال: «**إنهم الآن ليقرون في أرض غطفان**»، قال: فجاء رجل من غطفان فقال: نحر لهم فلان جزورًا، فلما كشفوا جلدها رأوا غبارًا، فقالوا: أتاكم القوم فخرجوا هاربين، فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «**كان خير فرساننا اليوم: أبو قتادة وخير رجالتنا سلمة**». قال:

---

(١) قوله: «**فخليتهم عنه**»: أي: طردتهم.

(٢) قوله: «**فأصكه بسهم في نغص كتفه**» هو العظم الرقيق على طرف الكتف، سمي بذلك لكثرة تحركه.

(٣) قوله: «**يا ثكلته أمه أكوعة بكرة**» معنى ثكلته أي: فقدته، والمعنى: أنت الأكوع الذي كنت بكرة هذا النهار.

(٤) قوله: «**وأردوا فرسين**» معناه: أهلكوهما وأتعبوهما حتى أسقطوهما، ومنه التردية.

ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين سهم الفارس وسهم الراجل فجمعهما لي جميعًا، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، قال: فبينما نحن نسير، قال: وكان رجل من الأنصار لا يسبق شدًا، قال: فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة، فجعل يعيد ذلك. قال: فلما سمعت كلامه قلت: أما تكرم كريمًا ولا تهاب شريفًا؟ قال: لا، إلا أن يكون رسول الله ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله بأبي وأمي ذرني فلأسابق الرجل، قال: «إن شئت»، قال: قلت: اذهب إليك وثنيت رجلي فطفرت فعدوت فربطت عليه شرفًا أو شرفين أستبقى نفسي، ثم عدوت في إثره فربطت عليه شرفًا أو شرفين، ثم إني رفعت حتى ألحقه، قال: فأصكه بين كتفيه، قال: قلت: قد سبقت والله. قال: أنا أظن. قال: فسبقته إلى المدينة، قال: فوالله ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ[(١)].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال الحافظ: في الحديث:** جواز العدو الشديد في الغزو، والإنذار بالصياح العالي، وتعريف الإنسان نفسه إذا كان شجاعًا ليرعب خصمه، واستحباب الثناء على الشجعان، ومن فيه فضيلة لاسيما عند الصنع الجميل ليستزيد من ذلك، ومحله حيث يؤمن الافتتان، وفيه: المسابقة على الأقدام، ولا خلاف في جوازه بغير عوض، وأما بالعوض فالصحيح لا يصح[(٢)].

٢ ـ **قال النووي:** ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين، سهم الفاس، وسهم الراجل فجمعهما لي، هذا محمول على أن الزائد على سهم الراجل كان نفلاً وهو حقيق باستحقاق النفل ﷺ لبديع صنعه في هذه الغزوة[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (١٢/ ١٧٧-١٨٣) الجهاد والسير. «يسبق شدًا» يعني: عدوًا على الرجلين. قوله: «فطفرت» أي: وثبت وقفزت. قوله: «ربطت عليه شرفًا أو شرفين أستبقى نفسي» معنى ربطت: حبست نفسي عن الجري الشديد، والشرف: ما ارتفع من الأرض. وقوله: «أستبقى نفسي» بفتح الفاء أي: لئلا يقطعني البهر. «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٢/ ١٨٢، ١٨٣).

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٥٢٩) المغازي.

(٣) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٢/ ١٨٢، ١٨٣).

٣ ـ وفيه: ما كان عليه الصحابة ﷺ من الشجاعة، ولذلك عصمهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الكذب، فلم يؤثر عن أحد منهم كذب على رسول الله ﷺ أو حتى على الناس، والذي يدفع للكذب هو الجبن والخوف، والشواهد كثيرة جدًا على حفظ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لهم من ذلك، وهذا صحابي واحد قد قاوم جمعًا من الكفار، وأرهبهم واستنقذ منهم ما سرقوه من إبل النبي ﷺ، وزاد على ذلك من متاعهم، فرضي الله عنهم أجمعين، وجمعنا بهم في عليين.

٢ ـ فتح خيبر

قال ابن إسحاق: حدثني الزهري، عن عروة، عن مروان بن الحكم والمسور ابن مخرمة، أنهما حدثاه جميعًا قالا: انصرف رسول الله ﷺ عام الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيها خيبر: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ (الفتح: ٢٠)، خيبر. فقدم رسول الله ﷺ المدينة في ذي الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم[١]، فنزل رسول الله ﷺ بالرَّجيع: واد بين خيبر وغطفان، فتخوف أن تمدهم غطفان فبات به حتى أصبح، فغدا إليهم[٢].

وقد وصل النبي ﷺ إلى خيبر ليلاً، وكان إذا وصل ليلاً لا يقاتل حتى يصبح، ففوجئ يهود خيبر وهم ذاهبون إلى حروثهم بمساحيهم وآلات زروعهم بالنبي ﷺ، فقالوا: محمد والخميس أي: الجيش، واستبشر النبي ﷺ برؤية آلات الزراعة والهدم فاستبشر بخراب خيبر.

عن أنس ﷺ: أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً، وكان إذا أتى قومًا بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: والله محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «**خربت خيبر إنا إذا نزلنا**

---

(١) أي: من السنة السابعة وهو قول الجمهور وهو الصحيح.

(٢) نقلاً عن «زاد المعاد» (٣/٣١٧)، وقال المحقق: رجاله ثقات.

بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[١]. فحاصرهم النبي ﷺ بضع عشرة ليلة كما قال ابن إسحاق، وقيل: أكثر من ذلك، وكان ذلك في شدة الحر وأصابتهم مخمصة شديدة، فقال النبي ﷺ: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه**»، واستشرف أكابر الصحابة لذلك، فكان الفائز بذلك «حيدرة» علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقتل قائدهم وفتح الله به.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**»، قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «**أين علي بن أبي طالب**»، فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا.

فقال: «**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النعم**»[٢]. وروى مسلم من حديث سلمة: «... حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ قال: فجعل عمي عامر يرتجز بالقوم:

تَاللهِ لَوْلاَ اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَا اسْتَغْنَيْنَا ... فَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

وَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٣٤) المغازي، ومسلم (١٢/ ١٦٥) الجهاد والسير.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٥٤٤) المغازي. قال الحافظ: والراية بمعنى: اللواء وهو العلم في الحرب يُعرف به موضع صاحب الجيش، وقد يحمله أمير الجيش، وقد يدفعه لمقدم العسكر، وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما، لكن روى أحمد والترمذي من حديث ابن عباس: كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ولواؤه أبيض. «فتح الباري» (٧/ ٥٤٥).

فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ هذا؟**» قال: أنا عامر. قال: «**غفر لك ربك**»، قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد. قال: فنادى عمر ابن الخطاب وهو على جمل له: يا نبي الله لولا متعتنا بعامر. قال: «فلما قدمنا خيبر»، قال: خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي مَرحَبُ شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُجَرِبُ

إِذَا الحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلْهَّبُ

قال وبرز له عمي عامر فقال:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي عَامِرُ شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُغَامِرُ

قال: فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في تُرْس عامر، وذهب عامر يسفُل له فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله، فكانت فيها نفسه، قال سلمة: فخرجتُ، فإذا نفر من أصحاب النبي ﷺ يقولون: بطلَ عمل عامر قتل نفسه، فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله: بطل عمل عامر. قال رسول الله ﷺ: «**من قال ذلك؟**»، قلت: ناس من أصحابك. قال: «**كذب من قال ذلك**»، بل له أجره مرتين ثم أرسلني إلى علي وهو أرمد، فقال: «**لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله**»، قال: فأتيت عليًا فجئت به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله ﷺ، فبصق في عينيه فبرأ وأعطاه الراية، وخرج مرحب فقال:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي مَرحَبْ شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُجَرِبْ

إذا الحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلْهَبُ

فقال علي:

أنا الذي سمَّتْني أُمّي حَيْدَرَه كَلَيث غَابَاتٍ كَريه المنْظَرَهْ

أُوفيهم بالصَّاع كَيْل السَّنْدَرَهْ

قال: فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه[١]. وقال بعضهم: أن من قتل مرحبًا محمد بن مسلمة، ولكن ما في «الصحيح» هو الصحيح، وقال الحاكم في «المستدرك»: إن الأخبار متواترة بأسانيد كثيرة أن قاتل مرحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وقسم رسول الله ﷺ خيبر على ستة وثلاثين سهمًا جمع كلُّ سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، وكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثلاثمائة سهم لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه، وما ينزل به من أمور المسلمين[٣]. وقال البيهقي: وهذا لأن خيبر فتح شطرها عنوة، وشطرها صلحًا.

قال ابن القيم: وهذا بناء منه على أصل الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه يجب قسم الأرض المفتوحة عنوة كما تُقسم سائر المغانم، فلما لم يجده قسم النصف من خيبر قال: إنه فتح صلحًا، ومن تأمل السير والمغازي حق التأمل تبين له أن خيبر إنما فُتحت عنوة، وأن رسول الله ﷺ استولى على أرضها كلها بالسيف عنوة، ولو فتح شيء منها صلحًا لم يجلهم رسول الله ﷺ منها، فإنه لما عزم على إخراجهم منها، قالوا: نحن أعلم بالأرض منكم دعونا نكون فيها ونعمرها لكم بشطر ما يخرج منها، وهذا صريح جدًا في أنها إنما فتحت عنوة، إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: فالصواب الذي لاشك فيه أنها فتحت عنوة، والإمام مخير في أرض العنوة بين قسمتها ووقفها، أو قسم بعضها ووقف البعض، وقد فعل رسول الله ﷺ الأنواع الثلاثة:

---

(١) رواه مسلم (١٢/ ١٨٣-١٨٦) الجهاد والسير.

(٢) «مستدرك الحاكم» (٣/ ٤٣٧).

(٣) رواه أبوداود (٢٩٤، ٢٩٥) الخراج: باب ما جاء في حكم أرض خيبر. وقال الألباني: صحيح بما قبله رقم (٢٦٠٥) «صحيح أبي داود».

فقسم قريظة والنضير، ولم يقسم مكة، وقسم شطر خيبر وترك شطرها.

وقسم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهمًا، وكانوا ألفًا وأربعمائة، وفيهم مائتا فارس، هذا هو الصحيح الذي لا ريب فيه[1].

ولما فتح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على المسلمين الحصن ذكر لرسول الله ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب، وقد قُتل زوجها فاصطفاها لنفسه، وعرض عليها الإسلام فأسلمتْ فوهبها نفسها، أي: جعل مهرها عتقها، وتزوجها بين خيبر والمدينة حيث حلت من زوجها.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قدمنا خيبر فلما فتح الله عليه الحصن ذكر له جمال بنت حيي بن أخطب، وقد قُتل زوجها، وكانت عروسًا فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا سدّ الصهباء حلت، فبنى بها رسول الله ﷺ ثم صنع حيسًا في نطع صغير، ثم قال لي: «**آذن من حولك**»، فكانت تلك وليمته على صفية، ثم خرجنا إلى المدينة، فرأيتُ النبي ﷺ يُحوّي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب»[2].

أحداث وافقت غزوة خيبر:

١ ـ قدوم جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم: عن أبي بردة، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم: أحدهما: أبو بُردَة، والآخر: أبو رُهم ـ إما قال: في بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي ـ فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا، فوافقنا النبي ﷺ حين

---

(١) باختصار من «زاد المعاد» (٣/ ٣٢٨، ٣٢٩).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٥٤٧) المغازي، وأبوداود (٢٩٧٩) الخراج والإمارة والفيء

افتتح خير، وكان أناس من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس ـ وهي ممن قدم معنا ـ على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرتْ إلى النجاشي فيمن هجر، فدخل عمر على حفصة ـ وأسماء عندها ـ فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم. فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يُطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار ـ أو في أرض ـ البُعداء البُغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وايم الله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيد عليه».

فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله، إن عمر قال: كذا وكذا، قال: «**فما قلت له؟**» قالت: قلت له: كذا وكذا. قال: «**ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان**». قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ[1].

٢ ـ *أهديت إلى النبي ﷺ في هذه الغزوة شاة مسمومة:*

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «**اجمعوا من كان هاهنا من اليهود**» فجمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه؟**»، فقالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**من أبوكم؟**»، فقالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: «**كذبتم بل أبوكم فلان**»، فقالوا: صدقت وبررت.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٥٣، ٥٥٤) المغازي، ومسلم (١٦/ ٦٤، ٦٥) فضائل الصحابة. قال الحافظ: زاد في فرض الخمس، فأسهم لنا ولم يسهم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئًا، ولا لمن شهدها معه إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، فإنه قسم لهم معهم.

فقال: «**هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟**»، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**من أهل النار؟**»، فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفوننا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**كذبتم اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا**»، ثم قال لهم: «**هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟**»، قالوا: نعم، فقال: «**هل جعلتم في هذه الشاة سُمًا؟**»، فقالوا: نعم، فقال: «**ما حملكم على ذلك؟**»، فقالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرك[1].

وأورده البخاري مختصرًا في المغازي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم»[2]. وفي رواية ابن إسحاق: أن الذي أهدى الشاة زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم وقد سألت: أي عضو من الشاة أحبُّ إلى رسول الله ﷺ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها، فأما النبي ﷺ فلاك منها شيئًا فلم يُسغها، وأما بشر بن البراء بن معرور فأساغها، وقال النبي ﷺ: «**إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم**»، ثم دعا بها فاعترفت. فيقال: إنه عفا عنها لأنه كان لا ينتقم لنفسه، فلما مات بشر رضي الله عنه قتلها به قصاصًا.

وقد ورد كذلك أن هذه الأكلة كانت من أسباب مرض النبي ﷺ مرض الوفاة. عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «**يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم**»[3].

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٢٢٥) الطب عن أبي هريرة. ورواه البخاري، ومسلم، وأبوداود عن أنس بن مالك.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٥٦٨) المغازي.

(٣) رواه البخاري تعليقًا مجزومًا به عن يونس، عن الزهري، عن عروة عنها رضي الله عنها (٧/ ٧٣٧) المغازي، وقال الحافظ: ووصله البزار والحاكم والإسماعيلي من طريق عنبسة بن خالد عن يونس بهذا الإسناد (٧/ ٧٣٧) من «الفتح».

قال الحافظ: وفي الحديث: إخباره ﷺ عن الغيب، وتكليم الجماد له، ومعاندة اليهود له لاعترافهم بصدقه فيما أخبر به عن اسم أبيهم، وبما وقع منهم من دسيسة السم، ومع ذلك فعاندوا واستمروا على تكذيبه، **وفيه:** قتل من قتل بالسم قصاصًا، وعن الحنفية إنما تجب فيه الدِّية، ومحل ذلك إذا استكرهه عليه اتفاقًا، وأما إذا دسه عليه ففيه اختلاف للعلماء، فإن ثبت أنه ﷺ قتل اليهودية ببشر بن البراء، **ففيه:** حجة لمن يقول بالقصاص في ذلك، والله أعلم، **وفيه:** أن الأشياء ـ كالسموم وغيرها ـ لا تؤثر بذواتها بل بإذن الله، لأن السم أثر في بشر فقيل: إنه مات في الحال، وقيل: إنه بعد حول[1].

٣ ـ *ومن ذلك تحريم لحوم الحُمر وزواج المتعة:*

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمر الإنسية»[2]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ نهى عن المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر»[3].

قال الحافظ: قال الماوردي في «الحاوي» في تعيين موضع تحريم المتعة وجهان:

أحدهما: أن التحريم تكرر ليكون أظهر وأنشر حتى يعلمه من لم يكن علمه، لأنه قد يحضر في بعض المواطن من لا يحضر في غيرها.

والثاني: أنها أُبيحت مرارًا، ولهذا قال في المرة الأخيرة «إلى يوم القيامة» إشارة إلى أن التحريم الماضي كان مؤذنًا بأن الإباحة تعقبه، بخلاف هذا، فإنه تحريم مؤبّد لا تعقبه إباحة أصلاً.

وهذا الثاني هو المعتمد، ويرد الأول التصريح بالإذن فيها في الموطن المتأخر عن الموطن الذي وقع التصريح فيه بتحريمها كما في غزوة خيبر ثم الفتح.

---

(١) باختصار من «الفتح» (٧/ ٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٥٥٠) المغازي.

(٣) رواه البخاري (٩/ ٧١) النكاح.

وقال النووي: الصواب أن تحريمها وإباحتها وقعا مرتين، فكانت مباحة قبل خيبر ثم حرمت فيها، ثم أُبيحت عام الفتح وهو عام أوطاس، ثم حرمت تحريمًا مؤبدًا، قال: ولا مانع من تكرير الإباحة[١]. أما تحريم الحمر الإنسية، وفي رواية الأهلية، فقيل: الحكمة فيها أنها تأكل العذرة، وقيل: لأنها كانت حمولة الناس، فكره أن تذهب حمولتهم.

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - **قال ابن القيم - رحمه الله - ما ملخصه:** فصل فيما كان في غزوة خيبر من الأحكام الفقهية:

▪ **فمنها:** محاربة الكفار ومقاتلتهم في الأشهر الحرم ولا خلاف في جواز القتال في الشهر الحرام إذا بدأ العدو، وإنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداءً، فالجمهور جوزوه وقالوا: تحريم القتال فيه منسوخ، وهو مذهب الأئمة الأربعة - رحمهم الله -.

▪ **ومنها:** قسمة الغنائم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم.

▪ **ومنها:** أنه يجوز لآحاد الجيش إذا وجد طعامًا أن يأكله ولا يخمسه كما أخذ عبد الله بن المغفل جراب الشحم الذي دُلِّيَ يوم خيبر، واختص به بمحضر النبي ﷺ[٢].

▪ **ومنها:** أنه إذا لحق بالجيش مدد بعد تَقَضِّي الحرب فلا سهم لهم إلا بإذن الجيش ورضاهم، فإن النبي ﷺ كلم أصحابه في أهل السفينة حين قدموا عليه بخيبر - جعفر وأصحابه - أن يسهم لهم، فأسهم لهم.

---

(١) باختصار من «الفتح» (٩/ ٧٥)، ونكاح المتعة: هو أن يتزوج الرجل امرأة إلى أجل، وإنما دعت إلى ذلك ضرورة الخروج للجهاد وشدة العزوبة، ثم حرمت حرمة مؤبدة إلى يوم القيامة، والشيعة - قبحهم الله - يبيحونها ويضربون بالأدلة الصحيحة الصريحة الدالة على التحريم عرض الحائط.

(٢) الحديث: رواه البخاري (٧/ ٥٤٩) المغازي.

■ **ومنها**: جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من الأرض من ثمر أو زرع، كما عامل رسول الله ﷺ أهل خيبر على ذلك وهو من باب المشاركة وهو نظير المضاربة سواء.

■ **ومنها**: أنه دفع إليهم الأرض على أن يعملوها من أموالهم، ولم يدفع إليهم البذر، ولا كان يحمل إليهم البذر من المدينة قطعًا، فدل على أن هديه عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض.

■ **ومنها**: أن أهل الذمة إذا خالفوا شيئًا مما شرط عليهم لم يبق لهم ذمة وحلّت دماؤهم وأموالهم، لأن رسول الله ﷺ عقد لهؤلاء الهدنة وشرط عليهم أن لا يغيبوا ولا يكتموا، فإذا فعلوا حلت دماؤهم وأموالهم، فلما لم يفوا بالشرط استباح دماءهم وأموالهم.

■ **ومنها**: أن ما لا يؤكل لحمه لا يطهر بالذكاة لا جلده ولا لحمه، وأن ذبيحته بمنزلة موته، وأن الزكاة إنما تعمل في مأكول اللحم.

■ **ومنها**: أن من أخذ من الغنيمة شيئًا قبل قسمته لم يملكه، وإن كان دون حقه، وأنه إنما يملكه بالقسمة، ولهذا قال في صاحب الشملة التي غلّها: «**إنما تشتعل عليه نارًا**»، وقال لصاحب الشراك الذي غله: «**شراك من نار**»[(١)].

■ **ومنها**: أن الإمام مخير في أرض العنوة بين قسمتها وتركها، وقسم بعضها وترك بعضها.

■ **ومنها**: جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم، كما قال النبي ﷺ: «**نقركم ما أقركم الله**»، وأجلاهم عمر بعد موته ﷺ وهو قول قوي يسوغ العمل به إذا رأى الإمام فيه المصلحة.

---

(١) رواه البخاري (٥٥٨/٧) المغازي، ومسلم (٢٩/٢) الإيمان، ومالك في «الموطأ» (٤٥٩/٢) الجهاد، وأبوداود (٢٦٩٤) الجهاد، والنسائي (٢٤/٧) الإيمان والنذور.

■ **ومنها:** جواز عتق الرجل أمته، وجعل عتقها صداقًا لها ويجعلها زوجته بغير إذنها، ولا شهود، ولا ولي غيره ولا لفظ إنكاح ولا تزويج كما فعل ﷺ بصفية، ولم يقل قط هذا خاص بي ولا أشار إلى ذلك، والقياس الصحيح يقتضي جواز ذلك، فإنه يملك رقبتها ومنفعة وطئها وخدمتها، فله أن يسقط حقه من ملك الرقبة، ويستبقي ملك المنفعة أو نوعًا منها.

■ **ومنها:** قبول هدية الكافر(١).

٢ ـ **وقال الجزائري ـ رحمه الله ـ** تحت عنوان نتائج وعبر:

(أ) جواز الحداء والأناشيد الحسنة الخالية من السوء والبذاء.

(ب) بيان آية النبوة المحمدية في نعي عامر بن الأكوع قبل استشهاده ودخوله المعركة.

(جـ) بيان فضل علي بن أبي طالب وما فاز به من حب الله ورسوله.

(د) بيان صدق وعد الله تعالى في غنائم خيبر إذ وعد المؤمنين بها فأنجزها لهم وله الحمد والمنة(٢).

٣ ـ **وقال محمد سعيد رمضان:** ثم إن في هذه الغزوة حادثتين كل منهما ثابت بالحديث الصحيح تعدان من الخوارق العظيمة التي أيد الله بها محمدًا ﷺ.

أولاهما ـ أنه ﷺ تفل في عين علي رضي الله عنه وقد كان يشتكي منها، فبرأت في الوقت نفسه حتى كأن لم يكن به وجع.

الثانية ـ ما أوحى الله إليه من أمر الشاة المسمومة عندما أراد الأكل منها ولأمر ما سبق قضاء الله تعالى، فابتلع بشر بن البراء لقمته قبل أن ينطق رسول الله ﷺ بأنها مسمومة، فكان قضاؤه في ذلك، ولعل في ذلك مزيدًا من بيان ما اختص

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٣٣٩-٣٥٤) باختصار.

(٢) «هذا الحبيب يا محب» (٣٦٤، ٣٦٥).

الله تعالى به نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الحفظ والعصمة من أيدي الناس وكيدهم تنفيذًا لوعده جلَّ جلاله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧)[1].

٣ ـ عمرة القضية

وكانت في ذي القعدة من السنة السابعة من الهجرة، واختلف في سبب تسميتها عمرة القضاء، فقيل: المراد ما وقع من المقاضاة بين المسلمين والمشركين من الكتاب الذي كتب بينهم بالحديبية، فالمراد بالقضاء الفصل الذي وقع عليه الصلح، ولذلك يقال لها: عمرة القضية[2].

وقال السهيلي: ويروى أيضًا عمرة القضاء، ويقال لها: عمرة القصاص، وهذا الاسم أولى بها لقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ (البقرة: ١٩٤)، وهذه الآية فيها نزلت، وهذا الاسم أولى بها، وسميت عمرة القضية؛ لأن النبي ﷺ قاضى قريشًا عليها لا لأنه قضى العمرة التي صد عن البيت فيها، فإنها لم تكن فسدت بصدهم عن البيت، بل كانت عمرة تامة متقبلة فهي معدودة في عمر النبي ﷺ، وهي أربع: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، وعمرة الجعرانة، والعمرة التي قرنها مع حجه في حجة الوداع[3]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ خرج معتمرًا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر

(١) «فقه السيرة» للبوطي (٢٦٢، ٢٦٣).

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٥٧١).

(٣) باختصار من «الروض الأنف مع سيرة ابن هشام» هامش (٤/ ٧٦، ٧٧)، وبوب البخاري في كتاب المحصر، «باب من قال: ليس على المحصر بدل» وقال: وقال روح، عن شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنما البدل على من نقض حجه بالتلذذ، فأما من حبسه عذر أو غير ذلك فإنه يحل ولا يرجع. وإن كان معه هدى وهو محصر نحره إن كان لا يستطيع أن يبعث به، وإن استطاع أن يبعث به لم يحل حتى يبلغ الهدى محله. وقال مالك وغيره: ينحر هديه ويحلق في أي موضع كان ولا قضاء عليه؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه بالحديبية نحروا وحلقوا وحلوا من كل شيء قبل الطواف، وقبل أن يصل الهدى إلى البيت. ثم لم يذكروا أن النبي ﷺ أمر أحدًا أن يقضوا شيئًا ولا يعودوا له، والحديبية خارج من الحرم «فتح الباري» (٤/ ١٤) كتاب المحصر.

هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحًا عليهم إلا سيوفًا، ولا يُقيم بها إلا ما أحبوا، فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن أقام بها ثلاثًا أمروه أن يخرج فخرج»[1].

قال الحافظ: وقال الحاكم في «الإكليل»: تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هلّ ذو القعدة، أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وأن لا يتخلف منها أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان[2].

وعن ابن شهاب قال: لما أمر رسول الله ﷺ عمرة القضاء أمر أصحابه فقال: «**اكشفوا عن المناكب، واسعوا في الطواف**»، ليرى المشركين جلدهم وقوتهم وكان يكيدهم بكل ما استطاع، فانكفأ أهل مكة الرجال والنساء ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت، وعبد الله بن رواحة يرتجز بين يدي رسول الله ﷺ متوشحًا بالسيف يقول:

خَلّوا بَني الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِه ... أَنَا الشَّهِيدُ أَنَّه رَسُولُه
فَاليَوْمَ نَضْرِبُكم عَلَى تَأْوِيلِه ... كَمَا ضَرَبْنَاكُم عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يزِيلُ الهَامَ عَن مَقِيلِه ... وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِه

وبعث رجالاً من أشراف المشركين كراهية أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيظًا وحنقًا ونفاسة وحسدًا، خرجوا إلى نواحي مكة، فكمل رسول الله ﷺ نسكه وأقام ثلاثًا[3].

وروى البخاري عن ابن عباس ﷺ قال: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وقد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٧١) المغازي.
(٢) «فتح الباري» (٧/ ٥٧٢).
(٣) قال الهيثمي في «المجمع»: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح (٦/ ١٤٦، ١٤٧).

أن يرملوا الأشـواط الثلاثـة، وأن يمشوا بين الركنين، ولـم يمنعه أن يأمـرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم»(١). والرمل هو الإسراع ومقاربة الخطى. وقال ابن دريد: هو شبيه بالهرولة، وأصله أن يحرك الماشي منكبيه في مشيه.

قال الحافظ: ويؤخـذ منه: جواز إظهـار القوة بالعـدة والسلاح ونحـو ذلك للكفـار إرهابًا لهم، ولا يعد ذلك من الرياء المـذموم، **وفيه**: جواز المعـاريض بالفعل كما يجـوز بالقول، وربما كانت بالفعل أولى(٢). فأقام النبي ﷺ ثلاثة أيام بمكة، ثم سأله المشركون الوفاء بالعقد فأذن بالرحيل.

عن البراء ﷺ قال: «... فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليًا، فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فـقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعـته ابنة حمزة تُنادي: يا عم، يا عم، فتناولها عليٌ فأخذ بيدها وقال لفاطمة ـ عليها السلام ـ: دونك ابنة عمك حـمليهـا: فاختصـم فيها عـليٌ وزيد وجعفـر: قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي، وقال جعفـر: ابنة عمي وخالتها تحتي. وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخـالتها وقال: «**الخالة بمنزلة الأم**». وقال لعلي: «**أنت مني وأنا منك**»، وقال لجعفر: «**أشبهت خَلْقي وخُلُقي**»، وقال لزيد: «**أنت أخونا ومولانا**»، وقال عليٌ: ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال: «**إنها ابنة أخي من الرضاعة**»، وتزوج النبي ﷺ ميمونة وبنى بها بسرف(٣).

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وأما قول ابن عـباس: «إن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة وهو مـحرم وبنى بها وهو حلال، فمما استـدرك عليه، وعُدّ من وهمه. **قال سعيد بن المسيب**: ووهم ابن عباس، وإن كانت خالته ما تزوجها رسول الله ﷺ إلا بعد ما حل.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٥٤٨، ٥٤٩) الحج.
(٢) «فتح الباري» (٣/ ٥٤٩).
(٣) رواه البخاري (٧/ ٥٧١) المغـازي. وقوله: «حـمليهـا»، وفي رواية للبـخاري «احـمليهـا»، وللحاكم «امسكيها عندك».

وقال يزيد بن الأصم عن ميمونة: «تزوجني رسول الله ﷺ ونحن حلالان بِسَرَف»[١].

وقال أبو رافع: «تزوج رسول الله ﷺ ميمونة وهو حلال، وبنى بها وهو حلال، وكنت الرسول بينهما»[٢]. صح ذلك عنه. إلى أن قال: فالأقوال ثلاثة:

أحدها: أنه تزوجها بعد حله من العمرة وهو قول ميمونة نفسها، وقول السفير بينها وبين رسول الله ﷺ وهو أبو رافع، وقول سعيد بن المسيب وجمهور أهل النقل.

والثاني: أنه تزوجها وهو محرم وهو قول ابن عباس، وأهل الكوفة، وجماعة.

والثالث: أنه تزوجها قبل أن يُحرم.

وقد حمل قول ابن عباس أنه تزوجها وهو محرم على أنه تزوجها في الشهر الحرام لا في حال الإحرام قالوا: ويقال: أحرم الرجل: إذا عقد الإحرام وأحرم إذا دخل في الشهر الحرام، وإن كان حلالاً بدليل قول الشاعر:

قَتَلُوا ابْنَ عَفَّانَ الخَلِيفَةَ مُحْرِمًا ... ورعًا فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ مَقْتُولاً

وإنما قتلوه في المدينة حلالاً في الشهر الحرام[٣].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - **قال الدكتور أكرم العمري:** وقد نزل في عمرة القضاء قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

---

(١) رواه مسلم (٩/ ١٩٧) النكاح، وأبوداود (١٨٢٦) المناسك، والترمذي (٤/ ٧٣) الحج، وأحمد في «المسند» (٦/ ٣٣٣)، وابن ماجه (١٩٦٤).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٧١) أبواب الحج، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وأحمد (٦/ ٣٩٢، ٣٩٣)، وضعفه الألباني، وقال الأرناؤوط في تحقيق «الجامع»: وفي سنده مطر بن طهمان أبو رجاء الوراق السلمي وهو صدوق كثير الخطأ، كما قال الحافظ في «التقريب»، ولكن يشهد لبعضه الحديثان اللذان بعده، وانظر «جامع الأصول» (٣/ ٥٢)، و«صحيح الترمذي» (١/ ٢٥٣).

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٣٧٣، ٣٧٤).

ومُقصِّرين لا تخافُون فعلم ما لمْ تعلمُوا فجعل من دُون ذلك فتْحًا قريبًا﴾ (الفتح: ٢٧)، ومن الأحكام التي اتضحت في هذه العمـرة حكم من اعتمر فصد عن الـبيت، فقال الجمهور: يجب عليه الهدي ولا قضاء عليه(١).

٢ ـ **وقال ابن القيم**: وفي هذه القصة من الفقه: أن الخـالة مقدمة في الحضانة على سائر الأقارب بعد الأبوين(٢).

٣ ـ **قال الجزائري ـ رحمه الله ـ: لطيفة**: في أن آخر من تزوج الرسول ﷺ من نسائه ميـمونة، وآخر من مات من نسـائه بعده ميمونة، وأنـها ﵂ بنى بها بسرف، وماتت ودفنت بسرف، فمكان عرسها هو مكان دفنها، فرضي الله عنها وأرضاها، وجعل الجنة مأواها(٣).

٤ ـ غـزوة مـؤتـة

قـال ابن القـيم ـ رحـمـه الله ـ: وهي بأدنى البلقـاء من أرض الشام، وكـانتْ في جمادى الأولى سنة ثمـان، وكان سببهـا: أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عـميـر الأزدي أحد بني لِـهْب بكتابه إلى الـشام إلى ملك الروم أو بصـرى، فعرض له شرحبـيل بن عمرو الغساني، فأوثقه رباطًا ثم قـدمه، فضرب عنقه، ولم يقتل لرسـول الله ﷺ رسول غيره، فاشـتد ذلك عليه حين بلغـه الخبر، فبعث البعوث واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: «**إن قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر، فعبد الله بن رواحة**»(٤).

وعن عروة بن الزبير قال: بعث النبي ﷺ بعثًا إلى مؤتة في جمادى الأولى من سنة ثمان، واستعمل علـيهم زيد بن حارثة فقال لهم: «**إن أُصيب زيد فجعفر**

(١) «المجتمع المدني في عهد النبوة»، «الجهاد ضد المشركين» (١٦٢).
(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٣٧٥).
(٣) «هذا الحبيب يا محب» (٣٧٥).
(٤) «زاد المعاد» (٣/ ٣٨١)، والحديث: رواه البخاري (٧/ ٥٨٣) المغازي.

ابن أبي طالب على الناس، وإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس»، فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، فلما ودّع عبد الله بن رواحة مع من ودع بكى فقيل له: ما يبكيك يا بن رواحة؟ فقال: والله ما بي حب الدنيا، وصبابة ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم:٧١)، فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود، فقال لهم المسلمون: صحبكم الله، ورفع عنكم، وردكم إلينا صالحين. فقال عبد الله بن رواحة:

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً ... وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا

أَوْ طَعْنَةً بِيَدَي حَرَّانَ مُجْهِزَةً ... بِحَرْبَةٍ تَنْفُذُ الأَحْشَاءَ وَالكَبِدَا

حَتَّى يَقُولُوا إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي ... أَرْشَدَهُ اللهُ مِن غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا

ثم إن القوم تهيأوا للخروج، فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ يُودعه فقال:

يُثَبِّتُ اللهُ مَا أَتَاكَ مِنْ حُسْنٍ ... تَثْبِيت موسى وَنَصْرًا كَالذي نَصَرُوا

إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الخَيْرَ نَافِلَةً ... فَرَاسَةً خَالَفْتُهُم فِي الذي نَظَرُوا

أَنْتَ الرَّسُولُ فَمَنْ يُحْرَمْ نَوَافِلَهُ ... وَالوَجْهَ مِنْه فَقَدْ أَزْرَى بِهِ القَدَرُ

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم، قال عبد الله بن رواحة:

خَلَفَ السَّلامُ عَلَى امْرِئٍ وَدَّعْتُهُ ... فِي النَّخْلِ غَيْرَ مُوَدَّعٍ وَكَلِيلِ

ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغهم أن هرقل في باب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وقد اجتمعت إليهم المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهرام وبلي في مائة ألف، عليهم رجل يلي أخذ رايتهم يقال له: ملك بني زانة، فلما بلغ ذلك المسلمين قاموا بمعان ليلتين ينظرون في أمرهم

وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، فشــجع عبد الله بن رواحة الناس وقال: يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم له تطلبون الشهــادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكــرمنا الله به فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة، قال عبد الله بن رواحة في مقامهم ذلك.

قال ابن إسحاق: كما حدثني عبد الله بن أبي بكر، أنه حدث عن زيد بن أرقم قال: كنتُ يتيمًــا لعبد الله بن رواحة في حجره، فخــرج في سفرته تلك مردفي على حقيبة راحلته، ووالله إنا لنسير ليلة إذ سمعته يتمثل ببيته هذا:

إِذَا أَدَّيْــتَــنِــي وَحَــمَــلْــتُ رَحْــلِـي   مَــسِــيَــرة أَرْبَع بَعْــدَ الحِــسَــاءِ

فلما سمعته منه بكيت فـخفقني بالدرة وقال: ما عليك يا لكع أن يرزقني الله الشهادة، وترجع من شعبتي الرحل، ومـضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء يقال لها: مــاب، ثم دنا المسلمون، وانحاز المسلمون إلى قرية يقــال لها: مؤتة، فالتقى الناس عندها، وتعــبأ المسلمون فجعلوا على ميمــنتهم رجلاً من بني عذرة يقال له: قطبة بن قــتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصــار يقال له: عبادة بن مالك ثم التقى الناس، واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القــوم، ثم أخذها جعفر فقــاتل بها حتى إذا ألحمه القتــال اقتحم عن فرس له شقــراء فعقرها فقــاتل القوم حتى قُتل، وكان جـعفر أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام[1].

---

(١) **قال الهيثمي:** رواه الطبراني ورجــاله ثقات إلى عروة ـ «مجـمع الزوائد» (٦/١٠٧-١٠٩). وقال ابن إسحــاق: وحدثني يحيى بن عبــاد بن عبد الله بن الزبيــر، عن أبيه عباد قــال: حدثني أبي الذي أرضعني وكان أحــد بني مرة بن عوف، وكان في تلك الغزوة ـ غــزوة مؤتة ـ قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، ثم قاتل حتى قتل وهو يقول:

يَا حَــبَّــذَا الجَنَّــةَ واقْــتِــرَابُــهَــا   طَيِّــبَــة وَبَــــاردُ شَــرَابُــهَــا

وَالــرُّومُ رُوم قَــدْ دَنَا عَــذَابُــهَــا   كَــافِــرَة بَعِــيــدة أَنْــسَــابُــهَــا

عَلَــى إِنْ لاَقَــيْــتُــهَــا ضِــرَابُــهَــا

=

وعن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: حدثني أبي الذي أرضعني وكان أحد بني مرة بن عوف، وكان في تلك الغزاة ـ غزوة مؤتة ـ قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر بن أبي طالب حين اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، ثم قاتل القوم حتى قُتل، فلما قُتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، وتردد بعض التردد، ثم قال:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسِي لتَنْزِلنَّه طَائِعَةً أَوْ لَتَكْرَهِنَّه
مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّةَ إن أَجْلَبَ النَّاس وَشَدُّوا الرنَّة
لَطَالمَا قَدْ كُنتِ مُطْمَئِنَّة هَل أَنْتِ إلا نُطْفَةٌ فِي شِنَّة

وقال عبد الله بن رواحة:

يَا نَفْس إلا تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَام المَوْتِ قَدْ صَلَيْتِ
وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ لَقِيتِ إنْ تَفْعَلِي فَعَلَهُمَا هُدِيْتِ

ثم نزل فلما نزل أتاه ابن عم له بعظم من لحم فقال: اشدد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذه من يده فانتهش منه نهشةً ثم سمع الحطمة في ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قُتل، فأخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بني عجلان، وقال: يا أيها الناس اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم ثم انحاز حتى انصرف[1].

= **وقال ابن هشام:** وحدثني من أثق من أهل العلم أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل ﷺ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأتاه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء، ويقال: إن رجلاً من الروم ضربه يومئذٍ ضربة فقطعه نصفين ـ «سيرة ابن هشام من الروض الأنف» (٤/ ٧٢).

(١) **قال الهيثمي:** رواه الطبراني ورجاله ثقات (٦/ ١٥٩، ١٦٠) «مجمع الزوائد».

عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ نعى زيدًا، وجعفرًا، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم: فقال: «**أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب. وعيناه تذرفان. حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**»[١].

وعاد خالد بن الوليد رضي الله عنه بالجيش بعد أن أوقع الخسائر الفادحة في جيش الروم، ولاشك أن النجاة بهذا الجيش الذي لا يتجاوز الثلاثة آلاف من جيش الكفار الذي بلغ مائتي ألف نجاح عظيم، ولذلك سمى النبي ﷺ ذلك فتحًا ووصف خالدًا بأنه سيف من سيوف الله، فرضي الله عن الصحابة الكرام الذين شاركوا في هذه الغزوة، وألحقنا الله بالذين فازوا فيها بالشهادة، وكان حظهم الجنة وزيادة.

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ بمثل هؤلاء الفرسان، وبمثل هذه الشجاعة والبطولة يمكن للإسلام وأهله. ومتى يصل المسلمون إلى درجة اليقين بالآخرة، والرغبة في الجنة، والشهادة إلى هذه الدرجات العلى؟ ومتى يظهر فيهم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد؟ والله إنهم فخر للبشرية، ومثال للنفس البشرية إذا آمنت بالله ورسوله، وتعلقت القلوب بالجنة، وكانت الهمم أعلى من حطام الدنيا. عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذٍ وهو قتيل قال: فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره. يعني ظهره[٢]. وفي رواية أخرى في «الصحيح» كذلك: قال عبد الله: «كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٨٥) المغازي.

(٢، ٣) رواهما البخاري (٧/ ٥٨٣) المغازي.

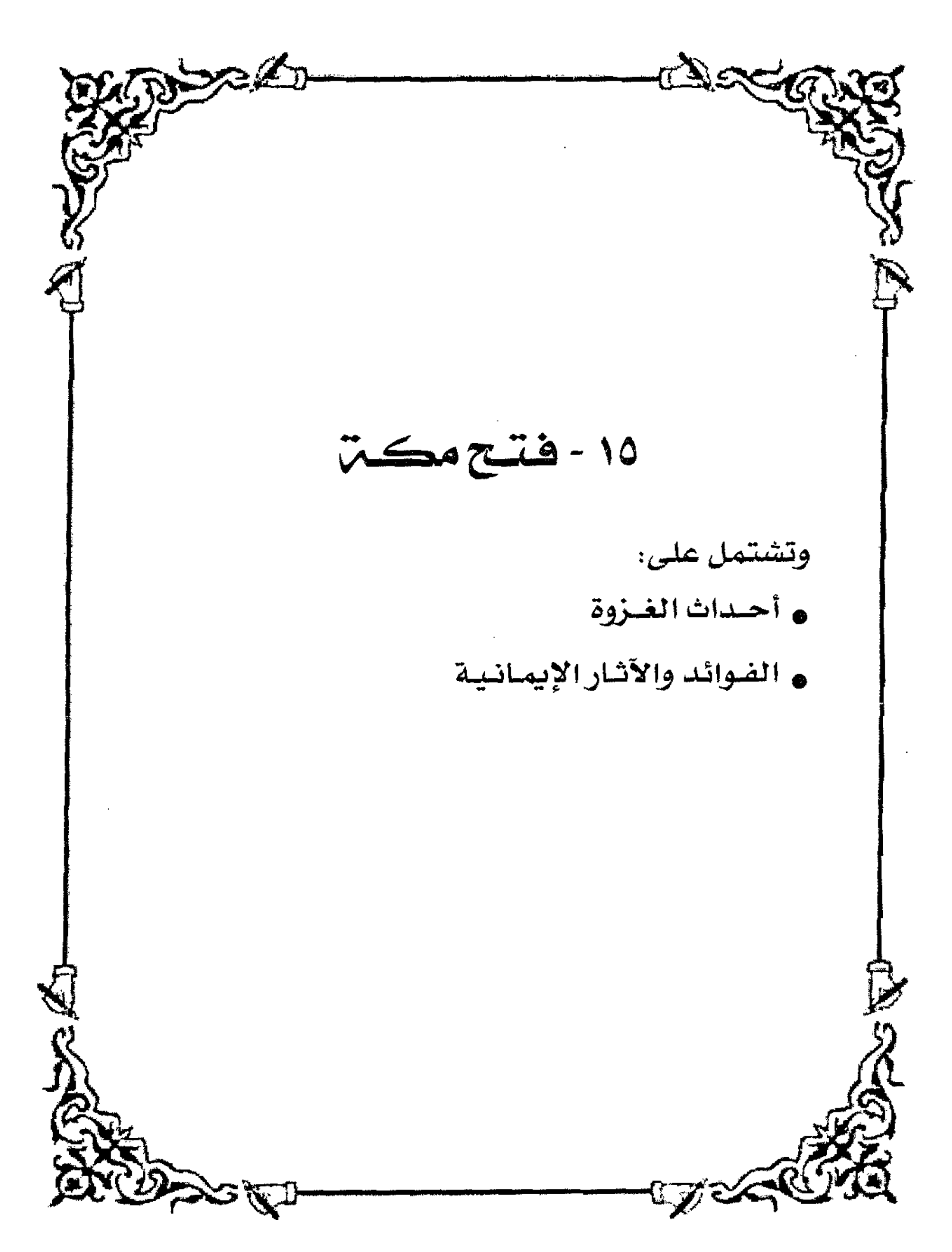
قال الحافظ: وظاهرهما التخالف، ويجمع بأن العدد قد لا يكون له مفهوم، أو بأن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمى السهام، فإن ذلك لم يُذكر في الرواية الأولى، أو الخمسين مقيدة بكونها ليس فيها شيء في دبره أي: في ظهره، فقد يكون الباقي في بقية جسده، ولا يستلزم ذلك أنه ولي دبره وهو محمول على أن الرمي إنما جاء من جهة قفاه أو جانبيه، ولكن يؤيد الأولى أن في رواية العمري عن نافع: «فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده» بعد أن ذكر العدد بضع وتسعون[1]. وعن عامر قال: «كان ابن عمر إذا حيًّا ابن جعفر قال: «السلام عليك يا بن ذي الجناحين»[2].

وعن أبي حازم قال: سمعتُ خالد بن الوليد يقول: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية»[3].

٢ ـ **قال الحافظ في فوائد هذه الغزوة ما ملخصه: وفي الحديث:** جواز الإعلام بموت الميت ولا يكون ذلك من النعي المنهيْ عنه، **وفيه:** جواز تعليق الإمارة بشرط وتولية عدة أمراء على الترتيب، واختيار الإمام مقدم على غيره لأنه أعرف بالمصلحة العامة، **وفيه:** جواز التأمر في الحرب بغير تأمير. قال الطحاوي: هذا أصل يُؤخذ منه أن على المسلمين أن يقدموا رجلاً إذا غاب الإمام يقوم مقامه إلى أن يحضر، **وفيه:** جواز الاجتهاد في حياة النبي ﷺ، **وفيه:** علم ظاهر من أعلام النبوة، وفضيلة ظاهرة لخالد بن الوليد ولمن ذكر من الصحابة[4].

❑❑ ★★ ❑❑

(١) «فتح الباري» (٧/ ٥٨٥).
(٢، ٣) رواهما البخاري (٧/ ٥٨٨) المغازي.
(٤) باختصار من «الفتح» (٧/ ٥٨٦).



١٥ - فتح مكة

وتشتمل على:

- أحداث الغزوة
- الفوائد والآثار الإيمانية



فتح مكة

هو ثمرة الدعوة التي بدأها رسول الله ﷺ في ربوع مكة ثلاث سنوات سرًا لا يستطيع أن يجهر بها ما بين نزول قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر: ١-٧)، وقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: ٩٤)، ثم جهر بالدعوة إلى الله، وسبَّ آلهة القوم، وبيَّن ضلالهم في عبادتها، وتعرض ﷺ هو وصحبه الكرام ﷺ للإيذاء والاستهزاء، والتعذيب والتكذيب، ثم هاجر ﷺ هو وصاحبه ثاني اثنين إذ هما في الغار خفية من قومه وعشيرته التي أجمعتْ على قتله، انتصارًا للآلهة الباطلة وحمية وعصبية للباطل، ثم تأسست دولة الإسلام بالمدينة المنورة، وبدأ النبي ﷺ في إقامة المجتمع المسلم على المحبة والإخاء، والتناصر والتناصح، وحالف يهود المدينة وكثيرًا من القبائل المحيطة، ثم أذن له في الجهاد والجلاد بنزول قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ㊴ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

فما كان يكاد يمر شهر إلا وفيه غزوة أو سرية من سرايا رسول الله ﷺ، وكانت الحرب بينه وبين أعداء الله سجالاً، تارة ينصره الله نصرًا مؤزرًا كما حدث في بدر، فيغنمون ويسلمون وتقوى شوكتهم ويهابهم أعداؤهم، وتارة يدال عليهم فيمتحنون بالشدة والبلاء، ويتخذ الله الشهداء، ويمحص قلوبهم ويربيهم، ويمحق أعداءهم كما حدث في أُحُد، ولكن الإيمان له قوة ساحرة إذا خالطتْ بشاشته القلوب، ووجد العبد حلاوته، فإنه يشغل به عن الجسد وما يتعرض له من شدة وبلاء، فإن سعادة المؤمنين في قلوبهم، فبعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة

التي سقط فيها من صفوف المسلمين من سقط، وأعز الله وأكرم من شاء من الذين كانوا حربًا على الإسلام وأهله بالإسلام، حتى صار من جنده المخلصين، وكان النبي ﷺ في هدنة مع قريش بحسب صلح الحديبية الذي كان سببًا في الفتح العظيم، بل كان في نفسه فتحًا مبينًا، وقد دخل في حلف قريش بنو بكر، ودخلتْ خزاعة في حلف رسول الله ﷺ، فعدت بنو بكر على خزاعة فبيتوهم وقتلوا منهم، وأعانتْ قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، فكان هذا هو السبب المباشر في الفتح العظيم، الذي وصفه ابن القيم ـ رحمه الله ـ بقوله: الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياءًا وابتهاجًا، خرج له رسول الله ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضين من رمضان، واستعمل على المدينة أبا رُهم كلثوم بن حصين الغفاري، وقال ابن سعد: بل استعمل عبد الله بن أم مكتوم[1].

وكان عدد من خرج مع النبي ﷺ عشرة آلاف من جنود الإسلام من سائر القبائل، وكان النبي صائمًا حتى بلغ الكديد أفطر وأفطروا، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ خرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون، حتى بلغ الكديد ـ وهو بين عسفان وقُدَيد ـ أفطر وأفطروا»[2].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٣٩٤).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٥٩٥) المغازي.

وأحب النبي ﷺ أن يُباغت قريشًا ويفاجأهم بمقدمه في هذه الألوف المؤمنة حتى يستسلموا ويسلموا، فلا يكون هناك قتال ومقاومة، فأرسل أحد الصحابة الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وتشرف بشهود بدر كتابًا إلى أهل مكة يُخبرهم بخبر رسول الله ﷺ، ونترك كلامنا لما رواه البخاري عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها**»، قال: فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة - إلى ناس بمكة من المشركين - يُخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يا حاطب ما هذا؟**»، قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ: إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش - يقول: كنت حليفًا - ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببتُ إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنه قد صدقكم**».

فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم**»، فأنزل الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ**﴾، إلى قوله: ﴿**فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾[1] (الممتحنة: ١)، فشفع لهذا الصحابي الجليل شهوده بدرًا، وكانت هذه السيئة مغمورة بالحسنة العظيمة التي نالها يوم بدر.

وسار الجيش المبارك يطوي الفيافي والقفار قاصدًا أم القرى وبيت الله الحرام، وكانت القبائل قد تركوا رسول الله مع قومه يقولون: إن انتصر عليه قومه فقد

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٩٢) المغازي.

كفونا قتاله، وإن ظهر على قومه دل على صدق رسالته، فكان فتح مكة لذلك فتحًا عظيمًا بل كان علامة على اقتراب أجل الحبيب محمد ﷺ حيث قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر: ١-٣).

واقتربتْ جحافل الإسلام من مكة وخرج أبو سفيان عظيم قريش، وحكيم بن حزام، وبُديل بن ورقاء يلتمسون الأخبار فوقعوا أسرى للجيش المبارك، فكان ما كان من شأنهم مما قصه عروة بن الزبير.

عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: «لما سار رسول الله ﷺ عام الفتح، فبلغ ذلك قريشًا خرج أبو سفيان ابن حرب، وحكيم بن حزام، وبُديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرَّ الظهران، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما هذه لكأنها نيران عرفة، فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو. فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك. فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسول الله فأسلم أبو سفيان، فلما سار قال للعباس: «**احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين**»، فحبسه العباس، فجعلتْ القبائل تمرّ مع النبي ﷺ تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان فمرتْ كتيبة فقال: يا عباس من هذه؟ فقال: هذه غفار، فقال: مالي ولغفار. ثم مرتْ جهينة قال مثل ذلك.

ثم مرتْ سعد بن هُذيم فقال مثل ذلك. ومرتْ سليم فقال مثل ذلك، حتى أقبلتْ كتيبة لم يُر مثلها، قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد بن عبادة: يا أبا سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يوم الذّمار. ثم جاءت كتيبة ـ وهي أقل الكتائب ـ فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ مع الزبير بن العوام، فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما

قال سعد بـن عبادة؟ قال: «ما قال؟» قال: كذا وكذا فقال: «كذب سعد، ولكن هذا يوم يُعظم الله فيه الكعبة، ويوم تُكسى فيه الكعبة» قال: وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون»[١].

أما عن قصة دخول الجيش المظفر مكة: فروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البياذقة وبطن الوادي، فقال: يا أبا هريرة ادع لي الأنصار فدعوتهم، فجاؤا يُهرولون. فقال: يا معشر الأنصار هل ترون أوباش قريش قالوا: نعم.

قال: انظروا إذا لقيتموهم غدًا أن تحصدوهم حصدًا، وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله، وقال: موعدكم الصفا. قال: فما أشرف يومئذٍ لهم أحد إلا أناموه، وصعد رسول الله ﷺ الصفا. وجاءت الأنصار فأطافوا بالصفا، فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله أُبيدتْ خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم. قال أبو سفيان: قال رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»[٢].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وتجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المسلمين، وكان حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يعد سلاحًا قبل دخول رسول الله ﷺ، فقالتْ له امرأته: لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، قالت: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال: إني والله لأرجو أن أُخْدمَك بعضهم، ثم قال:

إنْ يقبلوا اليومَ فما لي علَّهْ ... هذا سلاحٌ كاملٌ وألَّهْ
وذو غرارين سريعُ السلَّهْ[٣]

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٩٧، ٥٩٨) المغازي.
(٢) رواه مسلم (١٢/ ١٣١-١٣٣) الجهاد والسير.
(٣) الألة: الحربة لها سنان طويل. وذو غرارين: سيف ذو حدين.

ثم شهـد الخندمة مع صـفوان، وعكرمـة، وسهـيل بن عمـرو، فلما لقـيهم المسلمون ناوشوهم شيئًا من قتال، فقتل كرز بن جابر الفهري، وخنيس بن خالد ابن ربيعة من المسلمين، وكانا في خيل خالـد بن الوليد، فشذا عنه فسلكا طريقًا غير طريقه فقتلا جميعًـا، وأُصيب من المشركين نحو اثني عشر رجلاً ثم انهزموا وانهزم حـماس صـاحب السلاح حـتى دخل بيتـه، فقال لامـرأته: أغلقي عليّ بابي. فقال: وأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنَّكِ لَو شَـهِـدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَـهْ ... إذْ فَـرَّ صَـفْـوَانُ وَفَـرَّ عِكْرِمَـهْ

وَاسْتَـقْبَلَتْنَا بِالسُّـيُوفِ المُسْلِمَـهْ ... يَقْطَعْنَ كَلَّ سَـاعِدٍ وَجُـمْجُـمَـهْ

ضَـرْبًا فَـلا نَسْمَعُ إلاَّ غَـمْـغَـمَـهْ ... لَهُمْ نَهِـيتٌ حَـوْلَنَا وَهَمَـهَـمَـهْ

لَمْ تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أدْنَى كَلِمَـهْ[1]

ودخل رسول الله ﷺ من أعلى مكة كـما روى البخاري عن عـبد الله بن عمـر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ أقـبل يوم الفتح من أعلى مكة علـى راحلته مردفًا أسامة بن زيد، ومـعه بلال، ومعه عثمان بن طلحة مـن الحجبة حتى أناخ في المسجد، فأمره أن يأتي بمفتاح البـيت، فدخل رسول الله ﷺ ومعه أسامة ابن زيد وبلال وعثـمان بن طلحة، فمكث فـيه نهارًا طويلاً، ثم خرج فـاستبق الناس، فكان عـبد الله بن عمـر أول من دخل فوجـد بلالاً وراء الباب قـائمًا، فسأله: أين صـلى رسول الله ﷺ؟ فأشار له إلى المكان الذي صلى فـيه. قال عبد الله: فنسيت أن أسأله: كم صلى سجدة؟»[2].

قال الدكتور أكرم العمري: وقد أمر الرسول ﷺ بتـحطيم الأصنام، وتطهير البيت الحرام منها، وشـارك بذلك بيده، فكان يهوى بقوسه إليها فـتتساقط وهو يقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١)، وكانت سـتين

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٤٠٤، ٤٠٥).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٦١١) المغازي.

وثلاثمائة من الأنصاب، ولطخ بالزعفران صور إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهم يستقسمون بالأزلام، وفي رواية: أن صورة مريم كانت داخل الكعبة أيضًا.

ولم يدخل الرسول ﷺ الكعبة إلا بعد أن مُحيتْ هذه الصور منها، ثم دخلها فصلى فيها ركعتين وذلك بين العمودين المقدمين فيها، وكانت مبنية على ستة أعمدة متوازية، وقد جعل باب الكعبة خلف ظهره، وترك عمودين عن يساره وعمودًا عن يمينه وثلاثة وراءه، ثم خرج فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه مفتاح الكعبة، وكانت الحجابة في بني شيبة في الجاهلية فأبقاها بأيديهم، ثم استلم الرسول ﷺ الحجر الأسود، وطاف بالبيت مُهللاً مكبرًا ذاكرًا شاكرًا، وكان غير محرم، وعلى رأسه المغفر، ثم لبس عمامة سوداء مما يدل على جواز دخول مكة بغير إحرام لمن لم يُرد حجًا ولا عمرة[١].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة، ثم دخل رسول الله ﷺ دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل وصلى ثمان ركعات في بيتها، وكانت ضحى فظنها مَنْ ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح، وأجارت أم هانئ حَمَوَيْنِ لها، فقال رسول الله ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»[٢].

ولما استقر الفتح، أمن رسول الله ﷺ الناس كلهم إلا تسعة نفر، فإنه أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن خطل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبّار بن الأسود، وقينتان لابن خطل كانتا تُغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب.

---

(١) «المجتمع المدني في عهد النبوة» ـ «الجهاد في سبيل الله» (١٨١، ١٨٢).

(٢) رواه مالك (١/ ١٥٢) قصر الصلاة، والبخاري (١/ ٥٥٩) الصلاة، ومسلم (٥/ ٢٢٢) صلاة المسافرين.

فأما ابن أبي سرح فأسلم، وكان أسلم قبل ذلك ثم ارتد ورجع إلى مكة، وأما عكرمة فاستأمنت له امرأته بعد أن فرَّ فأمنه النبي ﷺ وحسن إسلامه، وأما ابن خطل، والحارث، ومقيس، وإحدى القينتين فقتلوا، وأما هبّار بن الأسود فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ ففر ثم أسلم وحسن إسلامه، واستؤمن رسول الله ﷺ لسارة ولإحدى القينتين فأمنهما فأسلمتا[1].

وتحقق بذلك موعود الله - عزَّ وجلَّ - لرسوله الكريم، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وسقطت الجاهلية والوثنية، وفرح المؤمنون بنصر الله، وأعز الله دينه ورسوله وعباده المؤمنين، وكان ذلك بعد جهاد وجلاد وصبر دام أكثر من عشرين سنة، ولكن رجالاً ممن شاركوا في هذا الفتح العظيم بجهدهم وجهادهم وصبرهم ودعوتهم بل بدمائهم وأرواحهم لم يشاركوا المؤمنين فرحة النصر، إنهم قضوا نحبهم في الطريق، بعد أن دفعوا كل ما يملكون لإعزاز الدين ورفع راية رب العالمين، أمثال: مصعب بن عمير وحمزة بن عبد المطلب، وابن رواحة، وسعد بن معاذ، وعبد الله بن حرام، وحرام بن ملحان وغيرهم كثير، ولكن أجرهم كامل غير منقوص عند الله الذي خلقهم وهداهم لهذا الدين، وأكرمهم بصحبة رسوله الكريم سيد الأولين والآخرين، فليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق والباطل، فقد يخترمه الأجل في المراحل الأولى منه، وقد يصرع في هزيمة عارضة، وتوفية الأعمال يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، نسأل الله العلي العظيم أن يعز بنا الدين، وأن يستعملنا في الفتح المبين، وأن نكون في جميع ذلك مخلصين.

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - كان فتح مكة بداية فتح عظيم للمسلمين، فقد كان الناس تبعًا لقريش في جاهليتهم كما أنهم تبع لقريش في إسلامهم، وكانت مكة عاصمة الشرك

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٤١١).

والوثنية، وكانت القبائل تنتظر ما يفعل رسول الله ﷺ مع قومه وعشيرته، فإن نصره الله عليهم دخلوا في دينه، وإن انتصرت قريش يكونون بذلك قد كفوهم أمره، فقد روى أبو قلابة عن عمرو بن سلمة قال: قال لي أبو قلابة: «ألا تلقاه فتسأله ـ القائل أيوب ـ قال: فلقيته فسألته قال: كنا بنا ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا، فكنتُ أحفظ ذلك، فكأنما يقر في صدري، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم» الحديث[١].

٢ ـ **قال محمد سعيد رمضان:** وإن تأملت أحداث هذا الفتح الأكبر تستطيع أن تُدرك تمامًا قيمة الجهاد والاستشهاد والمحن التي تمت من قبله إن شيئًا من ذلك لم يذهب بددًا، ولم ترق نقطة دم لمسلم هدرًا، ولم يتحمل المسلمون كل ما لاقوه مما قد رأيت في غزواتهم وأسفارهم؛ لأن رياح المصادفة فاجأتهم بها، ولكن كل ذلك كان وفق حساب، وكل ذلك كان يؤدي أقساطًا من ثمن الفتح والنصر وتلك هي سنة الله في عباده لا نصر بدون إسلام صحيح، ولا إسلام بدون عبودية له، ولا عبودية بدون بذل وتضحية، وضراعة على بابه، وجهاد في سبيله[٢].

٣ ـ **اختلف العلماء هل فتحت مكة عنوة أم صلحًا؟** فذهب الشافعي وأحمد ـ رحمهما الله ـ إلى أنه ﷺ دخلها صلحًا، وكان الممثل لقريش في هذا الصلح هو أبو سفيان، وكان الاتفاق والشرط فيه أنه من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، إلا من أهدر دمه ﷺ.

وذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنه دخلها عنوة، واستدلوا على ذلك بما وقع من القتال من خالد بن الوليد رضي الله عنه، وما حدث من أوباش قريش.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٦١٦) المغازي.
(٢) «فقه السيرة» للبوطي (٢٨٢).

واتفق الجميع على أنه لم يغنم منها مالاً، ولم يسب فيها ذرية، فمن ذهب إلى أنها فتحت صلحًا فسبب ذلك واضح، ومن ذهب إلى أنها فتحت عنوة فقد قالوا: إن الذي منع الرسول ﷺ من قسمتها أنها دار نسك ومتعبد وحرم الرب تعالى، فكأنه وقف من الله تعالى على العالمين، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى منع بيع أراضيها ودورها، والأدلة على خلافه، والله أعلم[1].

٤ ـ وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ ما ملخصه فصل في الإشارة إلى ما في الغزوة من الفقه واللطائف:

■ **فيها:** أن أهل العهد إذا حاربوا من هم في ذمة الإمام وجواره وعهده صاروا حربًا له بذلك، ولم يبق بينهم وبينه عهد، فله أن يبيتهم في ديارهم ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء، وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة، فإذا تحققها صاروا نابذين لعهده.

■ **وفيها:** انتقاض عهد جميعهم بذلك، ردئهم ومباشرهم إذا رضوا بذلك.

■ **وفيها:** جواز صلح أهل الحرب إذا كان بالمسلمين ضعف وعدوهم أقوى منهم.

■ **وفيها:** أن رسول الكفار لا يُقتل.

■ **وفيها:** جواز قتل الجاسوس، وإن كان مسلمًا وهو راجع لرأي الإمام لمصلحة المسلمين.

■ **وفيها:** أن الرجل إذا نسب مسلمًا إلى النفاق والكفر متأولاً وغضبًا لله ورسوله ودينه، فإنه لا يكفر بذلك بل لا يأثم ويُثاب على نيته وقصده، بخلاف أهل الأهواء والبدع.

■ **وفيها:** أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة كما وقع الجسُّ من حاطب مكفرًا بشهوده بدرًا.

■ **وفيها:** جواز دخول مكة للقتال المباح بغير إحرام كما دخل رسول الله ﷺ والمسلمون وهذا لا خلاف فيه.

---

(١) انظر: «الأحكام السلطانية» للماوردي (١٦٤)، و«زاد المعاد» لابن القيم (٤٢٩-٤٤٠).

■ وفيها: البيان الصريح بأن مكة فُتحتْ عنوة كما ذهب إليه جمهور أهل العلم، ولا يعرف في ذلك خلاف إلا عن الشافعي وأحمد في أحد قوليه، وسياق القصة أوضح شاهد لقول الجمهور.

■ وفيها: تعيين قتل الساب لرسول الله ﷺ، وأن قتله حَدًا لابد من استيفائه، فإن النبي ﷺ لم يؤمن مقيس بن صبابة وابن خطل والجاريتين اللتين كانتا تغنيان بهجائه مع أن نساء أهل الحرب لا يقتلن كما لا تقتل الذرية[١].

٥ ـ **وقال ـ رحمه الله ـ:**

■ **وفي القصة:** أن النبي ﷺ دخل البيت وصلى فيه، ولم يدخله حتى مُحيتْ الصور منه، ففيه: دليل على كراهة الصلاة في المكان المصور.

■ **وفي القصة:** أنه دخل مكة وعليه عمامة سوداء، ففيه: دليل على جواز لبس السواد أحيانًا.

■ **ومما وقع في هذه الغزوة:** إباحة متعة النساء ثم حرمها قبل خروجه من مكة.

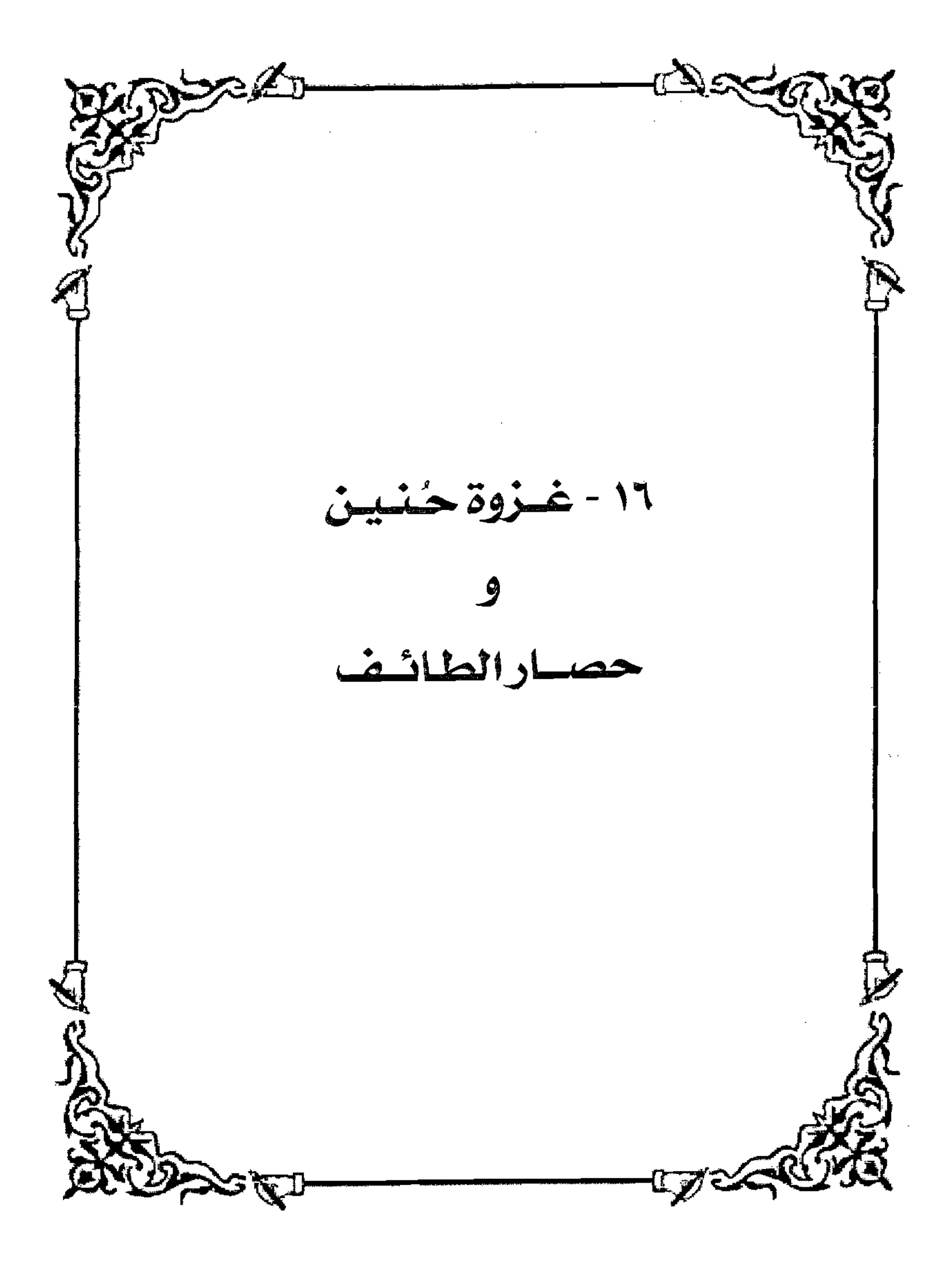
■ **وفي قصة الفتح من الفقه:** جواز إجارة المرأة وأمانها للرجل والرجلين، كما أجاز النبي ﷺ أمان أم هانئ لحمويها.

■ **وفيها من الفقه:** جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردته من غير استتابة، فإن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وهاجر، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتد ولحق بمكة، فلما كان يوم الفتح أتى به عثمان بن عفان رسول الله ﷺ ليبايعه، فأمسك عنه طويلاً ثم بايعه. وقال: إنما أمسكت عنه طويلاً ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه، فقال له رجل: هلا أومأت إليّ يا رسول الله فقال: «**ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**»[٢].

---

(١) «زاد المعاد» باختصار (٣/ ٤٢٠-٤٤١).

(٢) «زاد المعاد» باختصار (٣/ ٤٥٨-٤٦٤)، والحديث: رواه أبوداود (٢٦٦٦) الجهاد، و(٤٣٣٧) الحدود، والنسائي (٧/ ١٠٥، ١٠٦) تحريم الدم، والحاكم (٣/ ٤٠) المغازي. وصححه الحاكم، والذهبي، والألباني. وقال الخطابي في تفسير خائنة الأعين: هو أن يضمر في قلبه غير ما يظهره للناس، فإذا كف لسانه وأومأ بعينه إلى ذلك فقد خان. وقد كان ظهور تلك الخيانة من قبيل عينه فسُميتْ خائنة الأعين.



١٦ - غـزوة حُنيـن

و

حصـار الطائـف



(١) غزوة حنين

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة: ٢٥-٢٦).

عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ سار إلى حُنين لما فرغ من فتح مكة، جمع مالك بن عوف النصري من بني نصر وجشم، ومن بني سعد ابن بكر، وأوزاع من بني هلال وناسًا من بني عمرو بن عاصم بن عوف بن عامر، وأوزعت معهم الأحلاف من ثقيف وبنو مالك، ثم سار بهم إلى رسول الله ﷺ وسار مع الأموال والنساء والأبناء، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ، بعث عبد الرحمن بن أبي حدرد الأسلمي فقال: اذهب فادخل بالقوم حتى تعلم لنا من علمهم، فدخل فمكث فيهم يومًا أو يومين، ثم أقبل فأخبره الخبر، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: «**ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد؟**»، فقال عمر: كذب ابن أبي حدرد فقال ابن أبي حدرد: كذبتني فربما كذبت من هو خير مني، فقال عمر: يا رسول الله: ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد؟ فقال رسول الله ﷺ: «**قد كنت يا عمر ضالاً فهداك الله ـ عز وجل ـ**»، ثم بعث رسول الله ﷺ إلى صفوان بن أمية فسأله أدرعًا وما يصلحها من عدتها فقال: أغصبًا يا محمد؟ قال: «**بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك**»، ثم خرج رسول الله ﷺ سائرًا[١].

قال ابن إسحاق: وحدثني ابن شهاب الزهري، عن سنان أبي سنان الدؤلي، عن أبي واقد الليثي، أن الحارث بن مالك قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية، قال: فسرنا معه إلى حُنين، قال:

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٤٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي (٦/ ٨٩)، وله طريق آخر أخرجه أبوداود (٣٥٤٥) الإجارة، وأحمد (٦/ ٤٦٥)، والحاكم (٢/ ٤٧)، وصححه الألباني، وحسنه محقق «زاد المعاد».

وكانت كفار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط، يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يومًا، قال: فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة، قال: فتنادينا من جنبات الطريق، يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. قال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر، قلتم والذي نفسي بيده ـ كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾** (الأعراف:١٣٨)، **إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم**»[١].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، قيل: كانوا اثنى عشر ألفًا، وقيل: أحد عشر ألفًا وخمسمائة، وقيل: ستة عشر ألفًا. فقال بعضهم: لن نغلب اليوم عن قلة، فوكلوا إلى هذه الكلمة. فكان ماذكرناه من الهزيمة في الابتداء، إلى أن تراجعوا، فكان النصر والظفر للمسلمين ببركة سيد المرسلين ﷺ، فبيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الآية أن الغلبة إنما تكون بنصر الله لا بالكثرة، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ (آل عمران: ١٦٠).

وروى مسلم عن كثير بن عباس بن عبد المطلب قال: قال عباس: شهدتُ مع رسول الله ﷺ يوم حُنين فلزمت أنا وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذاميُّ، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تُسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أي عباس! ناد أصحاب السَّمُرة**»،

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٢٩٣٩)، والحديث: رواه الترمذي (٩/ ٢٧، ٢٨) الفتن، وأحمد (٥/ ٢١٨)، وابن أبي عاصم في «كتاب السنة» (٧٦). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الألباني: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير يعقوب بن حميد وهو ثقة فيه ضعف يسير، وقد توبع كما يأتي فالحديث صحيح.

فقال عباس: «وكان رجلاً صيّتا» فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها. فقالوا: يا لبيك يالبيك قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار! قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث ابن الخزرج فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج! يا بني الحارث بن الخزرج! فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا حين حمي الوطيس**»، قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: «**انهزموا ورب محمد**»، قال: فذهبتُ أنظر، فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبرًا[1].

وروى كذلك عن أبي إسحاق قال: جاء رجل إلى البراء فقال: أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة؟ فقال: أشهد على نبي الله ﷺ ما ولى، ولكنه انطلق أحفاء من الناس وحُسّر إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة، فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان ابن الحارث يقود به بغلته، فنزل ودعا واستنصر وهو يقول:

«**أَنَا النَّبِي لا كَذِب أَنَا ابْن عَبْد الْمُطَّلِب**

اللهم نزل نصرك».

قال البراء: كنا والله إذا احمرّ البأس نتقي به، وإنَّ الشجاع منا للذي يُحاذي به يعني النبي ﷺ[2].

---

(١) رواه مسلم (١٢/١١٣-١١٧) الجهاد والسير.

(٢) رواه مسلم (١٢/ ١٢٠، ١٢١). قال النووي: **الرشق**: اسم للسهام التي ترميها الجماعة دفعة واحدة وقوله: «**كأنها رجل من جراد**» يعني: كأنها قطعة من جراد وكأنها شبهت برجل الحيوان لكونها قطعة منه. وقوله: «**احمر البأس**» كناية عن شدة الحرب، واستعير ذلك لحمرة الدماء الحاصلة فيها في العادة، أو لاستعار الحرب واشتعالها كاحمرار الجمر.

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المشركون، أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف، وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجه بعضهم نحو نخلة، وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعري، فأدرك من الناس بعض من انهزم فناوشوه القتال فرمى بسهم فقتل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري وهو ابن أخيه فقاتلهم حتى فتح الله عليه فهزمهم الله وقتل قاتل أبي عامر[1].

وعن أبي بردة عن أبيه قال: لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقي دُرَيْد بن الصِّمة فقتل دريد وهزم الله أصحابه، فقال أبوموسى: وبعثني مع أبي عامر قال: فرمى أبو عامر في ركبته رماه رجل من بني جُشم بسهم فأثبته في ركبته فانتهيتُ إليه، فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار أبو عامر إلى أبي موسى فقال: إن ذاك قاتلي تراه ذلك الذي رماني، قال أبو موسى: فقصدت له فاعتمدته فلحقته فلما رآني ولى عني ذاهبًا فأتبعته وجعلتُ أقول له: ألا تستحي ألست عربيًا ألا تثبت فكف، فالتقيتُ أنا وهو، فاختلفنا أنا وهو ضربتين، فضربته بالسيف فقتلته، ثم رجعت إلى أبي عامر فقلت: إن الله قد قتل صاحبك قال: فانزع هذا السهم فنزعته فنزا منه الماء. فقال: يا بن أخي انطلق إلى رسول الله ﷺ فاقرئه مني السلام. وقل له: يقول لك أبو عامر استغفر لي. قال: واستعملني أبو عامر على الناس، ومكث يسيرًا ثم إنه مات فلما رجعتُ إلى النبي ﷺ دخلتُ عليه وهو في بيت على سرير مُرْمَل، وعليه فراش، وقد أثر رمال الحصير بظهر رسول الله وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقلت له: قال: قل له يستغفر لي فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ منه ثم رفع يديه، ثم قال: «**اللهم اغفر لعبيد أبي عامر**» حتى رأيتُ بياض إبطيه، ثم قال: «**اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس**»، فقلت: ولي يا رسول الله فاستغفر. فقال النبي ﷺ: «**اللهم اغفر لعبد الله بن**

---

(١) باختصار من «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٤/١٢٨، ١٢٩).

قيس ذنبه، وادخله يوم القيامة مدخلاً كريماً»، قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى[(١)].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألفًا، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية فضة فاستأنى بهم رسول الله ﷺ أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة.

ثم بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، فأعطى أبا سفيان ابن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال: ابني يزيد، فقال: اعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال: ابني معاوية؟ فقال: اعطوه مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه، وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين، وأعطى العباس بن مرداس أربعين، فقال في ذلك شعرًا فكمل له المائة. ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس، ثم فضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربعًا من الإبل وأربعين شاة، فإن كان فارسًا أخذ اثني عشر بعيرًا وعشرين ومائة شاة[(٢)].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال ناس من الأنصار ـ حين أفاء الله على

---

(١) رواه مسلم (١٦/ ٥٩، ٦٠) فضائل الصحابة، والبخاري (٧/ ٦٣٧) المغازي، ورواه مختصرًا (٦/ ٩٤، ٩٥) الجهاد.

(٢) بتصرف من «زاد المعاد» (٣/ ٤٧٣). قال الحافظ: وفي هذه العطية يقول العباس بن مرداس السلمي كما أخرجه أحمد ومسلم والبيهقي في «الدلائل» من طريق عباية بن رفاعة بن رافع بن خديج عن جده رافع بن خديج: «أن رسول الله ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم من سبي حُنين مائة من الإبل، فأعطى أبا سفيان ابن حرب مائة، وأعطى صفوان بن أمية مائة، وأعطى عيينة بن حصن مائة، وأعطى مالك بن عوف مائة، وأعطى الأقرع بن حابس مائة، وأعطى علقمة بن علاثة مائة، وأعطى العباس بن مرداس دون المائة، فأنشأ يقول:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس في المجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

قال: فأكمل له «المائة» «فتح الباري» (٧/ ٦٥٢).

رسوله ﷺ مـا أفاء من أموال هوازن، فطفق النبـي ﷺ يُعطي رجالاً المائة من الإبل فقالوا: يغـفر الله لرسول الله ﷺ ، يعطي قريشًا ويتـركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهـم. قال أنس: فحـدِّث رسول الله ﷺ بمقالتـهم، فأرسل إلى الأنصار فجـمعهم في قبـة من أدم. ولم يدعُ معهم غيـرهم، فلما اجتمـعوا قام النبي ﷺ فـقال: «**ما حـديث بلغني عنكم؟**»، فقـال فقـهاء الأنصـار: أما رؤساؤنا يا رسـول الله فلم يقولوا شيئًـا، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فـقالوا: يغفـر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشًـا ويتركنا، وسيوفـنا تقطر من دمائهم. فقال النبي ﷺ : «**فإني أُعطي رجالاً حـديثي عهـد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به**»، قالوا: يا رسول الله قد رضـينا. فقال لهم النبي ﷺ : «**ستجدون أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ فإني على الحوض**»، قال أنس: فلم يصبروا[1]. ثم أتتْ هوازن مسلمين، وسألوا رسول الله ﷺ أموالهم وسبيهم، فخيرهم فاختاروا النساء والذرية.

عن عروة بن الزبير أن مروان والمسور بن مـخرمة أخبراه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يرد إليـهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ : «**معي من ترون، وأحبّ الحديث إليَّ أصدقه فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبى وإما المال**» ـ وقـد كنـت استـأنيتُ بكم ـ وكـان أنظرهم رسـول الله ﷺ بضع عشـرة ليلة حين قفل من الـطائف ـ فلما تبـيَّن لهم أن رسول الله ﷺ غيـر راد إليهم إلا إحدى الطائفتـين قالوا: فإنا نختار سـبينا، فقـام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى علـى الله بما هو أهله، ثم قال: «**أما بعد فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيتُ أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه**

(١) رواه البخاري (٧/ ٦٤٩، ٦٥٠) المغازي.

من أول ما يفيء الله عليه فليفعل»، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم**» فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا، هذا الذي بلغني عن سبي هوازن[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ ما ملخصه**: فصل في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنكت الحكمية:

كان الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد وعد رسوله وهو صادق الوعد أنه إذا فتح مكة، دخل الناس في دينه أفواجًا ودانتْ له العرب بأسرها، فلما تم له الفتح المبين اقتضتْ حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين ليظهر أمر الله، وتمام إعزازه لرسوله ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكرانًا لأهل الفتح، فقد حرك الله سبحانه قلوب المشركين لغزوهم، وقذف في قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشائهم وسبيهم معهم نزلاً وضيافة وكرامة لحزبه وجنده، فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه، وبردت الغنائم لأهلها، وجدت فيها سهام الله ورسوله قيل: لا حاجة لنا في دمائكم ولا في نسائكم وذراريكم، فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة فجاءوا مسلمين، فقيل: إن من شكر إسلامكم أن نرد عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم: ﴿**إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الأنفال: ٧٠).

- **وفيها**: أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة، وفرحهم بما نالوه من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم، وإن كان عين جبرهم.
- **وفيها**: أن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدوه.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٦٢٧، ٦٢٨) المغازي، وأبو داود (٢٦٧٦) الجهاد.

■ **وفيها**: أن النبي ﷺ شرط لصفوان في العارية الضمان فقال: «**بل عارية مضمونة**»، فهل هذا إخبار عن شرعه في العارية، ووصف لها بوصف شرع الله فيها، أو إخبار عن ضمانها بالأداء بعينها؟ هذا مما اختلف فيه الفقهاء.

■ **وفيها**: جواز عقر فرس العدو ومركوبه إذا كان ذلك عونًا على قتله كما عقر علي ﷺ جمل حامل الراية، وليس هذا من تعذيب الحيوان المنهي عنه.

■ **ومنها**: ما ظهر في هذه الغزاة من معجزات النبوة وآيات الرسالة، ومن ثباته وقد تولى عنه الناس.

■ **ومنها**: إيصال الله قبضته التي رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منه، وبركته في تلك القبضة حتى ملأت أعين القوم إلى غير ذلك من معجزاته فيها كنزول الملائكة للقتال حتى رآهم العدو جهرة ورآهم بعض المسلمين.

■ **ومنها**: جواز انتظار الإمام بقسم الغنائم إسلام الكفار، ودخولهم في الطاعة فيرد عليهم غنائمهم وسبيهم، وفي هذا دليل لمن يقول: إن الغنيمة إنما تلك بالقسمة لا بمجرد الاستيلاء عليها.

■ وفي هذه الغزوة قال ﷺ: «**من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه**»[1]. وقاله في غزوة أخرى قبلها، فاختلف الفقهاء، هل هذا السلب مستحق بالشرع أو بالشرط؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد[2].

٢ ـ **وقال القاسمي ـ رحمه الله ـ في تفسير الآيات:** ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**﴾، قال بعضهم: دلت الآية على أنه يجب الانقطاع إلى الله تعالى والاتكال عليه، ودل ما وقع في القصة على جواز ما ورد حسنه من جواز التأليف وملاطفة المؤمنين، والرمي بالحصا حالة الحرب والأصوات التي يرهب بها.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٦٣١، ٦٣٢) المغازي، ومسلم (١٢/ ٥٨) الجهاد، وأبوداود (٢٧٠٠) الجهاد، ومالك في «الموطأ» (٢/ ٤٥٤، ٤٥٥).

(٢) «زاد المعاد» باختصار (٣/ ٤٧٧ ـ ٤٩٤).

▪ قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، قيل: منصوب بمضمر معطوف على نصركم أي: ونصركم يوم حنين.

قال الشهاب: فيكون عطف يوم حُنين على منوال ملائكته وجبريل، كأنه قيل: نصركم الله في أوقات كثيرة، وفي وقت إعجابكم بكثرتكم[1].

٣ ـ يظهر في تقسيم غنائم هوازن وإعطاء المؤلفة الذين هم حديثو عهد بالإسلام، ولم يغنوا غناء المهاجرين والأنصار، وحرمان الذين نصروا رسول الله ﷺ من أول يوم حقارة الدنيا، وكيف أن النبي ﷺ تألف بها أهل الطمع فيها والرغبة في أعراضها، ووكل سادات المهاجرين والأنصار إلى ما في قلوبهم من الإيمان، وإلى ثواب الرحمن، فاختار لكل قوم ما هو أليق بحالهم ورغباتهم، وقد خفيت هذه الحكمة على بعض الأنصار فقالوا: «يغفر الله لرسول الله ﷺ»، فلما جَلاَّها لهم اطمأنوا لقسمهم ونصيبهم وفرحوا بحظهم، وكفاهم حظًا وشرفًا وسعادة أن النبي ﷺ يعود معهم إلى المدينة، ويترك بلده وبلد أجداده وأهله وعشيرته.

أما المؤلفة قلوبهم فقد أثر فيهم هذا العطاء حتى قال صفوان بن أمية: ما زال رسول الله ﷺ يُعطيني من غنائم حنين، وهو أبغض الخلق إليّ، حتى ما خلق الله شيئًا أحب إليّ منه.

٤ ـ **قال الدكتور أكرم العمري في الأحكام المستنبطة من غزوة حنين:** نزول الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٢٤)، في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوجات، وقد فرق السبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالسبي، وتنقضي العدة بالوضع للحامل وبالحيض لغير الحامل[2].

---

(١) «محاسن التأويل» (٨/ ١٦٠).

(٢) «المجتمع المدني في عهد النبوة» (٢٢٤)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٧٣).

(٢) حصار الطائف

قال الدكتور أكرم العمري: بعد أن شتت المسلمون هوازن وتعقبوها في نخلة أوطاس، اتجهوا إلى مدينة الطائف التي تحصنت فيها ثقيف ومعهم مالك بن عوف النصري قائد هوازن، وكانت الطائف تمتاز بموقعها الجبلي وبأسوارها القوية وحصونها الدفاعية، وليس إليها منفذ سوى الأبواب التي أغلقتها ثقيف بعد أن أدخلت من الأقوات ما يكفي لسنة كاملة، وهيأت من وسائل الحرب ما يكفل لها الصمود طويلاً، وكان وصول المسلمين إلى الطائف في حدود العشرين من شوال دون أن يستجم الجيش طويلاً من غزوة حنين وسرايا نخلة وأوطاس التي بدأت في العاشر من شوال، واستغرقت أكثر من أسبوع.

وقد حاصر المسلمون الطائف بضع عشرة ليلة في رواية عروة بن الزبير وموسى بن عقبة، وحددت رواية عن عروة أيضًا المدة بنصف شهر، ورغم أن سائر هذه الروايات مراسيل لا تقوم بها حجة، فإن عروة وموسى من أجل كتب المغازي وأوثقهم، وروايتهم تتفق مع تواريخ الأحداث وسياقها[١].

عن عبد الله بن عمرو قال: حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف، فلم ينل منهم شيئًا فقال: «**إنا قافلون إن شاء الله**»، قال أصحابه: نرجع ولم نفتتحه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**اغدوا على القتال**»، فغدوا عليه فأصابهم جراح، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إنا قافلون غدًا**»، قال: فأعجبهم ذلك، فضحك رسول الله ﷺ[٢].

قال النووي: معنى الحديث أنه ﷺ قصد الشفقة على أصحابه والرفق بهم بالرحيل عن الطائف لصعوبة أمره وشدة الكفار الذين فيه وتقويتهم بحصنهم، مع أنه ﷺ علم أو رجى أنه سيفتحه بعد هذا بلا مشقة كما جرى، فلما رأى

---

(١) «المجتمع المدني في عهد النبوة» «الجهاد ضد المشركين» (٣٠٩، ٣١٠).

(٢) رواه مسلم (١٢/ ١٢٢، ١٢٣) الجهاد والسير، والبخاري (٧/ ٦٤٠) المغازي.

حرص أصحابه على المقام والجهاد أقام وجدّ في القتال، فلما أصابتهم الجراح رجع إلى ما كان قصده أولاً من الرفق بهم، ففرحوا بذلك لما رأوا من المشقة الظاهرة، ولعلهم نظروا فعلموا أن رأى النبي ﷺ أبرك وأنفع وأحمد عاقبة وأصوب من رأيهم، فوافقوا على الرحيل وفرحوا، فضحك النبي ﷺ تعجبًا من سرعة تغير رأيهم، والله أعلم[١].

وقال الحافظ: في مرسل ابن الزبير عند ابن أبي شيبة قال: لما حاصر النبي ﷺ الطائف، قال أصحابه: يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم، قال: «**اللهم اهد ثقيفًا**»[٢]. وذكر أهل المغازي أن النبي ﷺ لما استعصى عليه الحصن، وكانوا قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة ورموا على المسلمين سكك الحديد المحماة ورموهم بالنبل فأصابوا قومًا، فاستشار نوفل بن معاوية الديلي فقال: هم ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك فرحل عنهم وذكر أنس في حديثه عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يومًا، وعند أهل السير اختلاف قيل: عشرين يومًا. وقيل: بضع عشرة. وقيل: ثمانية عشر. وقيل: خمسة عشر[٣].

وقد وجه النبي ﷺ نداء إلى عبيد الطائف أن من ينزل منهم من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر. فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفي فأسلموا فأعتقهم[٤].

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» هامش (١٢/ ١٢٤).

(٢) الحديث: رواه أحمد (٣/ ٣٤٣)، والترمذي (١٣/ ٢٩٣) المناقب، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وقال في تحقيق «جامع الأصول»: فيه عنعنة أبي الزبير، ولم يذكره الألباني في «صحيح الترمذي» فلعله لهذه العلة.

(٣) «فتح الباري» (٧/ ٦٤١).

(٤) «المجتمع المدني في عهد النبوة»، «الجهاد ضد المشركين» (٢١٢). وهذا العدد ثابت في الصحيح، فعن أبي العالية ـ أو أبي عثمان النهدي ـ قال: «سمعت سعدًا وأبا بكرة عن النبي ﷺ قال عاصم: قلت: لقد شهد عندك رجلان حسبك بهما قال: أجل، أما أحدهما: فأول من رمي بسهم في سبيل الله، وأما الآخر: فنزل إلى النبي ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف». رواه البخاري (٧/ ٦٤٢) المغازي.

قال ابن القيم: واستشهد مع رسول الله ﷺ بالطائف جماعة ثم خرج رسول الله ﷺ من الطائف إلى الجعرانة، ثم دخل منها محرمًا بعمرته. ثم رجع إلى المدينة[١].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ومنها:** جواز غزو الرجل وأهله معه، فإن النبي ﷺ كان معه في هذه الغزوة أم سلمة وزينب.

■ **ومنها:** جواز نصب المنجنيق على الكفار ورميهم به، وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية.

■ **ومنها:** أن العبد إذا أبق من المشركين ولحق بالمسلمين صار حرًا، عن الشعبي عن رجل من ثقيف قال: سألنا رسول الله ﷺ أن يرد علينا أبا بكرة وكان عبدًا لنا أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر ثقيفًا، فأسلم، فأبى أن يرده علينا فقال: «**هو طليق الله ثم طليق رسوله**»[٢]. فلم يرده علينا. قال ابن المنذر: وهذا قول كل من يحفظ عنه من أهل العلم.

■ **ومنها:** أن الإمام إذا حاصر حصنًا ولم يفتح عليه، ورأى مصلحة المسلمين في الرحيل عنه لم يلزمه مصابرته وجاز له ترك مصابرته، وإنما تلزم المصابرة إذا كان فيها مصلحة راجحة على مفسدتها.

■ **ومنها:** أنه أحرم من الجعرانة بعمرة وكان داخلاً إلى مكة وهذه هي السنة لمن دخلها من طريق الطائف وما يليه، وأما ما يفعله كثير ممن لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ثم يرجع إليها فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا استحبه أحد من أهل العلم.

---

(١) «زاد المعاد» (٣/٤٩٨).

(٢) رواه أحمد (٤/١٦٨، ٣١٠)، قال محقق «زاد المعاد»: ورجاله ثقات.

■ **ومنها:** استجابة الله لرسوله ﷺ دعاءه لثقيف أن يهديهم ويأتي بهم، وقد حاربوه وقاتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه، وقتلوا رسول رسوله الذي أرسله إليهم يدعوهم إلى الله، ومع هذا كله فدعا لهم ولم يدع عليهم، وهذا من كمال رأفته ورحمته ونصيحته[١].

٢ ـ وفي غزوة الطائف حرم النبي ﷺ دخول المخنثين على النساء الأجنبيات، وكان سبب النهي: ما رواه البخاري عن أم سلمة رضي الله عنها: دخل عليّ النبي ﷺ وعندي مخنث، فسمعته يقول لعبد الله بن أبي أمية: «يا عبد الله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غدًا فعليك بابنة غيلان، فإنها تُقبل بأربع وتُدبر بثمان»، فقال النبي ﷺ: «**لا يدخلن هؤلاء عليكن**»[٢].

قال الحافظ: ووقع في أول رواية الزهري عن عروة عن عائشة عند مسلم: «كان يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث، وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة من الرجال، فدخل النبي ﷺ يومًا وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة..» الحديث.

والمخنث من يُشبه خلقه النساء في حركاته وكلامه وغير ذلك، فإن كان من أصل الخلقة لم يكن عليه لوم، وعليه أن يتكلف إزالة ذلك، وإن كان بقصد منه وتكلف به فهو المذموم، ويطلق عليهم اسم مخنث سواء فعل الفاحشة أو لم يفعل، قال ابن حبيب: المخنث هو المؤنث من الرجال، وإن لم تعرف منه الفاحشة[٣].

٣ ـ من الفوائد الإيمانية: بركة التسليم لأمر رسول الله ﷺ، وكيف أن مقتضى الإيمان أن لا يختار العبد مع اختيار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أو اختيار رسوله ﷺ:

---

(١) باختصار من «زاد المعاد» (٣/ ٥٠٣ ـ ٥٠٥).

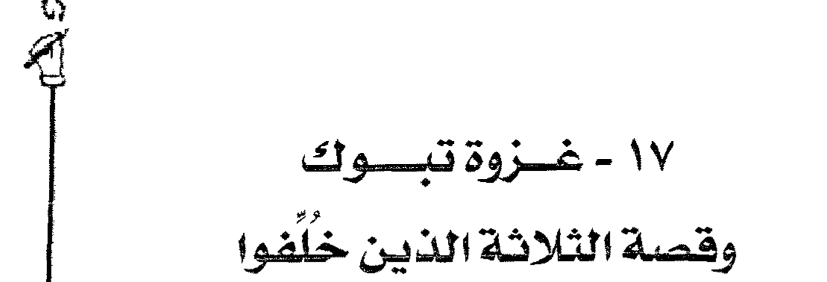
(٢) رواه البخاري (٧/ ٦٤٩) المغازي، و(٩/ ٢٤٥) النكاح.

(٣) «فتح الباري» (٩/ ٢٤٦).

﴿وما كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ (الأحزاب:٣٦)، لما أمرهم النبي ﷺ بالانصراف عن محاصرة الحصن، وقال: «**إنا قافلون إن شاء الله**»، قال أصحابه: «نرجع ولم نفتحه» فأعطاهم ﷺ درسًا عمليًا تربويًا فقال: «**اغدوا على القتال**»، فغدوا عليه فأصابهم جراح، فعلموا بركة الامتثال لأمره ﷺ، فقال لهم: «**إنا قافلون غدًا**»، فأعجبهم ذلك ولعل في ذلك رد بليغ على أصحاب الأراء المصلحية الذين يقدمون عقولهم وآراءهم وأهواءهم وأقوال شيوخهم على أمر رسول الله ﷺ، ويلتمسون مصلحة الدعوة عند مخالفة أمره ﷺ، وكان ذلك واضحًا كذلك في صلح الحديبية، وكيف أن بعض الصحابة ظنَّ أن المصلحة في خلاف ما تصالح عليه النبي ﷺ، ثم ظهرت بعد ذلك بركات رسول الله ﷺ وبركات أقواله وأفعاله، فإن غاية الرأي أن يكون جيدًا من حيث النظر والعقل، فإذا عُلم أن العقل ناقص والشرع كامل كانت التهمة دائمًا للعقل، فكيف يحكم الناقص على الكامل؟ وهذا الفهم هو الفرق الجوهري بين أصحاب المناهج السلفية الصحيحة، وأهل الأهواء والآراء من فرق الضلالة.

وكذلك أهل المناهج التي تُقدِّم المعقول على المنقول، والنظر العقلي على النص الشرعي، ولاشك أن هذا من سوء الأدب مع الله - عزَّ وجلَّ - ومع رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات:١).

★★



١٧ - غزوة تبوك
وقصة الثلاثة الذين خُلِّفوا

وتشتمل على:

غزوة تبوك

- الفوائد والآثار الإيمانية

فصل في قصة توبة كعب بن مالك وصاحبيه

- الفوائد والآثار الإيمانية

غــزوة تبــوك

قـال ابـن كـثـيـر ـ رحـمـه الله ـ: ولما أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عـلى رسوله ﷺ : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩)، ندب رسول الله ﷺ أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إلى الجهاد، وأعلمهم بغزو الروم، وذلك في رجب سنة تسع(١).

عن كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة توبة الله تعالى عليه: «لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّي بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد»(٢).

وهذه الغزوة هي التي تسمى بغزوة العُسرة، للظروف الشديدة التي خرج فيها رسول الله ﷺ من شدة الحر، ومن القحط الذي كان في المدينة في هذا الوقت، ومن السفر الطويل الذي ينتظره، فانتدب النبي ﷺ الناس للبذل، فقال ﷺ : **«من جهـز جيش العُسرة فله الجنة»**، فجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف دينار فصبها في حجر النبي، والنبي ﷺ يقول: **«ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم»**(٣).

وجعل فقراء المسلمين يتصدقون بما يجدونه وإن كان يسيراً، والمنافقون يسخرون من هؤلاء وهؤلاء فيتهمون أهل الغني والبذل العظيم بالرياء والسمعة، والفقراء بأن الله من يسير صدقتهم لغنى، وفضحهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في سورة التوبة التي تسمى بالفاضحة، حيث أنها فضحت المنافقين، وأظهرت

---

(١) «الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ» لابن كثير (١٨٧).
(٢) سيأتي تخريجه ـ إن شاء الله ـ (ص ٣٥٢).
(٣) رواه البخاري مختصراً (٥/ ٤٧٧) الوصايا، والترمذي (١٣/ ١٥٣) المناقب.

فساد نياتهم وسوء أقوالهم وأعمالهم، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: ٧٩)[١].

ففي مثل هذه الظروف القاسية والشدائد المتتابعة يظهر صدق الصادقين، وإيمان المؤمنين، ونفاق المنافقين، كما ظهر النفاق يوم أُحد ويوم الخندق، وامتدح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في نهاية سورة التوبة التي نزل أكثرها في هذه الغزوة المؤمنين الصادقين، فقال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٧)، وتاب ـ عزَّ وجلَّ ـ كذلك عن الثلاثة من المؤمنين الصادقين الذين لم يتخلفوا نفاقًا، وصدقوا الله ورسوله في أنهم لم يكن لهم أعذار تُبيح لهم التخلف، فكان الصدق سبب نجاتهم، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، وكعب ممن شهد العقبة، ومرارة وهلال بدريان سبقت لثلاثتهم السعادة وسبقوا إلى الإيمان والعبادة.

أما المنافقون فسلكوا مسالك شتى، فمنهم من اعتذر قبل الخروج وتعلل بالعلل الباطلة، قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (التوبة: ٤٩)، فكانوا يُظهرون خلاف بواطنهم وفضح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بواطنهم، فقال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: ٨١)، فكان الدافع الحقيقي للتخلف هو أنهم

---

(١) عن ابن مسعود قال: أمرنا بالصدقة قال: كنا نحامل قال: فتصدق أبو عقيل بنصف صاع قال: وجاء إنسان بشيء أكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ ولم يلفظ بشر بالمطوعين ـ رواه مسلم (٧/ ١٠٥) الزكاة. وقوله: «**كنا نُحامل**» قال النووي: وفي الرواية الثانية: كنا نحامل لى ظهورنا، معناه: نحمل على ظهورنا بالأجرة، ونتصدق من تلك الأجرة أو نتصدق بها كلها، ففيه: التحريض على الاعتناء بالصدقة.

بخلوا بالبذل في سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وذلك لفـقدهم الإيمان الصادق والرغبة فيما عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مـن الثواب العظيم والمقام الكريم، والدافع إلى البذل والجهاد هو الإيمان والاحتساب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥).

ومن هؤلاء من خـرج مع رسول الله ﷺ، وقد بـالغ في الإيذاء والاستـهزاء برسول الله ﷺ وخيـار أصحابه، كمـا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (التوبة: ٦٥-٦٦).

قال ابن كثير: قال أبو مـعشر المدني عن مـحمـد بن كعب القرظي وغـيره: «قالوا: قال رجل من المنـافقين: ما أرى مثل قرائنا هؤلاء: أرغـبنا بطونًا وأكذبنا ألسنًا، وأجـبننا عند اللقاء فـرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ وقـد ارتحل وركب ناقته فـقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتـحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، فقال: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، وإن رجليه ليسـفعان الحجارة، وهو متعلق بنسعة ناقة رسول الله ﷺ»[(١)].

وهَمّ جماعة من المنافقين بأن ينفـروا برسول الله ﷺ ويطرحوه وهم المقصودون بقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (التوبة: ٧٤).

روى أحمد في «مسنده» عن أبي الطفـيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمـر مناديًا فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فـلا يأخذها أحد فبينا رسـول الله ﷺ يقوده عمار ويسوقـه حذيفة إذ أقبل رهط مـتلثمون على

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٦٧) دار المعرفة ـ بيروت.

الرواحل حتى غشوا عمارًا وهو يسوق برسول الله ﷺ ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قَدْ قَدْ» حتى هبط رسول الله ﷺ ، فلما هبط رسول الله ﷺ نزل ورجع عمار فقال: «**يا عمار هل عرفت القوم؟**»، قال: قد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون، قال: «**هل تدري ما أرادوا؟**»، قال: الله ورسوله أعلم. قال: أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ ويطرحوه، قال: فسار عمار رضي الله عنه رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نشدتك بالله ما كان أصحاب العقبة قال: أربعة عشر فقال: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر، فعد رسول الله ﷺ منهم ثلاثًا، قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أن الاثنى عشر الباقين منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. قال أبو الوليد: وذكر أبو الطفيل في تلك الغزوة: أن رسول الله ﷺ قال للناس وذكر له أن في الماء قلة، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا فنادى: لا يرد الماء أحد قبل رسول الله ﷺ ، فورده رسول الله ﷺ فوجد رهطًا قد وردوه قبله، فلعنهم رسول الله ﷺ يومئذٍ[1].

وفي مقابلة هؤلاء المنافقين ظهر أيضًا: صدق الصادقين وإيمان المؤمنين، فمن هؤلاء النفر الكرام الذين اشتاقوا إلى الجهاد وصحبة سيد العباد، ولكنهم من الفقر بحيث أنهم لا يستطيعون أن يجهزوا أنفسهم للغزو وليس عندهم ما يحملهم، فذهبوا إلى النبي ﷺ فاعتذر إليهم بعدم وجود ما يحملهم فعادوا كما وصفهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أبلغ وصف وأزكاه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة: ٩١-٩٢).

---

(١) رواه أحمد، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. «مجمع الزوائد» (٦/ ٩٥).

قال القاسمي: روى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مُقرِّن المزني، فقالوا: يا رسول الله: احملنا. فقال لهم: «**والله ما أجد ما أحملكم عليه**» فتولوا وهم يبكون، وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله، أنزل عذرهم في كتابه فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾[1]. وهم ولاشك الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله وهو عائد من تبوك: «**لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم واديًا ولا سلكتم طريقًا إلا أشركوكم في الأجر حبسهم المرض**»[2].

واستخلف النبي ﷺ على المدينة علي بن أبي طالب فارس قريش، وعز عليه رضي الله عنه أن يبقى بالمدينة مع النساء والصبيان، روى البخاري عن مصعب بن سعد، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف عليًا. فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: «**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي**»[3].

أما عدد الجيش فقال: قال كعب بن مالك: «والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ»[4]. وفي «صحيح مسلم»: «يزيدون على عشرة آلاف»، وجزم ابن إسحاق أنهم: «زيادة على ثلاثين ألفًا».

عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فأتينا وادي

---

(١) «محاسن التأويل» (٨/ ٢٩٤).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٠)، ومسلم (١٣/ ٥٧) الإمارة، وقال النووي: وفي هذا الحديث فضيلة النية في الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات، فعرض له عذر منعه حصل له ثواب نيته، وأنه كلما أكثر من التأسف على فوات ذلك وتمنى كونه مع الغزاة ونحوهم كثر ثوابه ـ والله أعلم ـ «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٣/ ٥٧).

(٣) رواه البخاري (٧/ ٧١٦) المغازي، ومسلم (١٥/ ١٨٤) فضائل الصحابة، وأحمد (١/ ١٨٥)، والترمذي (٣/ ١٧٥) المناقب، مختصرًا مقتصرًا على الجزء الأخير.

(٤) سيأتي تخريجه ـ إن شاء الله ـ.

القرى على حديقة لامرأة فقال رسول الله ﷺ: «**اخرصوها**»، فخرصناها وخرصها رسول الله ﷺ عشرة أوسق، وقال: «**أحصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله**»، وانطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: «**ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله**»، فهبت ريح شديدة فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيىء، وجاء رسول ابن العَلْماء صاحب أيلة إلى رسول الله ﷺ بكتاب، وأهدى له بغلة بيضاء، فكتب إليه رسول الله ﷺ وأهدى له بردًا، ثم أقبلنا حتى قدمنا وادي القرى، فسأل رسول الله ﷺ المرأة عن حديقتها: «**كم بلغ ثمرها؟**»، فقالت: عشرة أوسق. فقال رسول الله ﷺ: «**إني مسرع فمن شاء منكم فليسرع معي، ومن شاء فليمكث**»، فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة فقال: «**هذه طابة، وهذا أُحد، وهو جبل يحبنا ونحبه**»، ثم قال: «**إن خير دور الأنصار: دار بني النجار، ثم دار بني عبد الأشهل، ثم دار بني عبد الحارث بن الخزرج، ثم دار بني ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير**»، فلحقنا سعد بن عبادة، فقال أبو أسيد: ألم تر أن رسول الله ﷺ خير دور الأنصار، فجعلنا آخرًا، فأدرك سعد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله خيرت دور الأنصار فجعلتنا آخرًا؟ فقال: «**أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار**»[1].

ومرّ النبي ﷺ على الحجر وهي ديار ثمود، فأمر ﷺ أن لا يدخلوا مساكنهم، وأن يسرعوا الخطى، وأن يكونوا باكين، ونهاهم عن التزود من مياههم. عن عبد الله بن عمر ؓ قال: لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يُصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه، وأسرع السير حتى أجاز الوادي**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٤٠٢، ٤٠٣) الزكاة: باب خرص التمر، ومسلم واللفظ له (١١/ ٤١ ـ ٤٣) الفضائل: باب معجزات النبي ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٦/ ٤٣٥) الأنبياء، ومسلم (١٨/ ١١٠، ١١١) الزهد.

وعنه ﷺ قال: «إن الـناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحـجر - أرض ثمود، فـاستقـوا من آبارها وعجنوا به العـجين، فأمـرهم رسول الله ﷺ أن يهريقـوا ما استقـوا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمـرهم أن يستقوا من البـئر التي كانت تردها الناقة[١].

وعن ابن عباس قال: قـيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن شأن العـسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحـتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيـشربه، ويضعه على بطنه، فقـال أبو بكر الصديق: يا رسول الله: إن الله عودك في الدعاء خيـرًا، فادع فقال النبي ﷺ: «**أتحب ذلك يا أبا بكر؟**»، قال: نعم. قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فلم يُرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها تجاوزت العسكر[٢].

وعن معاذ بن جبل قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، فكان يجمع الصلاة، فصلى الظهر والعصر جميعًا، والمغرب والعشاء جميعًا، حتى إذا كان يومًا أخر الصلاة، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعًا، ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشـاء جميعًا، ثم قال: «**إنكم ستأتـون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لم تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي**»، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تَبضُّ بشيء من ماء. قال: فسألهـما رسول الله ﷺ هل مسستما من مائهـا شيئًا؟ قالا: نعم،

---

(١) رواه مسلم (١٨/ ١١١) الزهد. وقال النووي: وفي هذا الحديث فوائد: منها: النهي عن استعمال مياه بئار الحجر إلا بئر الناقة، ومنها: لو عجن منها عجينًا لم يأكله بل يعلفه الدواب، ومنها: يجوز علف الدابة طعامًا مع منع الآدمي من أكله، ومنها: مجانبة آبار الظالمين، والتبرك بآبار الصالحين. **قلت:** قوله بجواز التبرك بآبار الصالحين ليس عليه دليل.

(٢) رواه البزار والطبراني في «الأوسط»، وقال الهيثمي: ورجال البزار ثقات، «مجمع الزوائد» (٦/ ١٩٤).

فسبهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول. قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً حتى اجتمع في شيء قال: وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها فجرتْ العين بماء منهمر ـ أو قال غزير ـ شك أبو علي أيهما قال ـ حتى استقى الناس، ثم قال: يوشك يا معاذ ـ إن طالت بك حياة ـ أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانًا[1].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك، أتاه صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل أجربا وأذرح فأعطوه الجزية[2].

وقد مكث النبي ﷺ بتبوك عشرين ليلة[3].

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دومة، وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من كندة كان ملكًا عليها، وكان نصرانيًا، فقال رسول الله ﷺ لخالد: «**إنك ستجده يصيد البقر**»، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين وفي ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له ومعه امرأته، فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر. فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله. قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له: حسان، فركب وخرجوا معه بمطاردهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ فأخذته وقتلت أخاه، وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب، فاستلبه خالد، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أنس بن مالك قال: رأيتُ قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ، فجعل المسلمون يلمسونه

---

(١) رواه مسلم (١٥/ ٤٠، ٤١) الفضائل: باب معجزات النبي ﷺ. وقال النووي: الشراك هو سير النعل، ومعناه: ماء قليل جدًا، وقوله: «**قد ملئ جنانًا**»: أي: بساتين وعمرانًا.

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٥٣٧).

(٣) «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» (١٤٥) بإسناد صحيح.

بأيديهم ويتعجبون منه. فقال رسول الله ﷺ: «**أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا**»[(١)].

قال ابن إسحاق: ثم إن خالدًا قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ، فحقن له دمه وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته. فقال رجل من طيىء يقال له: بجير بن بجرة، يذكر قول رسول الله ﷺ لخالد: «**إنك ستجده يصيد البقر**»، وما صنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجته لتصديق قول رسول الله ﷺ.

تَبَارَكَ سَائِقُ البَقَرَاتِ إِنِّي ... رَأَيْتُ اللهَ يَهْدِي كُلَّ هَادِ

فَمَنْ يَكُ حَائِدًا عَنْ ذِي تَبُوكٍ ... فَإِنَّا قَدْ أُمِرْنَا بِالجِهَادِ

فأقام رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة لم يجاوزها، ثم انصرف إلى المدينة[(٢)].
ولم يقع قتال في هذه الغزوة، بل انتهى المسلمون إلى تبوك، ولم يلقوا جموع الروم والقبائل العربية المتنصرة، وآثر حكام المدن الصلح على الجزية، وفي طريق العودة مر النبي ﷺ على الحجر ديار ثمود وقد تقدم خبرهم.

وجاءه ﷺ خبر مسجد الضرار، وكان الذين بنوه قد طلبوا من النبي ﷺ أن يُصلي فيه، فنزلت آيات سورة التوبة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٧-١١٠).

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فلما نزل بذي أوان جاءه خبر المسجد من السماء، فدعا مالك بن الدخشم أخا بني سلمة بن عوف، ومعن بن عدي العجلاني

---

(١) عن البراء بن عازب قال: أهدى لرسول الله ﷺ ثوب حرير، فجعلوا يعجبون من لينه، فقال رسول الله ﷺ: «**تعجبون من هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا**» رواه البخاري (٦/ ٣١٩) بدء الخلق.

(٢) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (٤/ ١٧٨) باختصار.

فحرقاه وهدماه، فلما دنا رسول الله ﷺ من المدينة، خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَاتِ الوَدَاع
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا للهِ دَاع

وبعض الرواة يهم في هذا ويقول: إنما كان ذلك عندم مقدمه إلى المدينة من مكة، وهو وهم ظاهر، لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام، فلما أشرف على المدينة قال: «**هذه طاب، وهذا أُحد جبل يحبنا ونحبه**»[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ ما ملخصه: فصل في الإشارة إلى بعض ما تضمنته** هذه الغزوة من الفقه والفوائد:

▪ **منها**: تصريح الإمام للرعية، وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه ليتأهبوا له، ويعدوا له عدته، وجواز ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة.

▪ **ومنها**: أن الإمام إذا استنفر الجيش لزمهم النفير، ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه.

▪ **ومنها**: وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد وهي الصواب الذي لا ريب فيه.

▪ **ومنها**: أن العاجز بماله لا يعذر حتى يبذل جهده ويتحقق عجزه، فإن الله سبحانه إنما نفى الحرج عن هؤلاء العاجزين بعد أن أتوا رسول الله ﷺ

---

(١) «زاد المعاد» باختصار (٣/٥٤٩-٥٥١)، والحديث: رواه البخاري (٧/٧٣١) المغازي، ومسلم (٩/١٣٩) الحج. ومما يدل على صحة هذا القول ما رواه البخاري عن السائب بن يزيد قال: «أذكر أني خرجتُ مع الصبيان نتلقى النبي ﷺ إلى ثنية الوداع مقدمه من غزوة تبوك» رواه البخاري (٧/٧٣٣) المغازي.

ليحملهم فقال: «**لا أجد ما أحملكم عليه**»، فرجعوا يبكون لما فاتهم من الجهاد، فهذا العاجز الذي لا حرج عليه.

■ **ومنها**: استخلاف الإمام إذا سافر رجلاً من الرعية على الضعفاء.

■ **ومنها**: جواز الخرص للرطب على رؤوس النخيل، والعمل بقول الخارص.

■ **ومنها**: أن مَنْ مر بديار المغضوب عليهم والمعذبين لم ينبغ له أن يدخلها ولا يقيم بها، بل يسرع السير ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكيًا معتبرًا.

■ **ومنها**: أنه ﷺ أقام بتبوك عشرين يومًا يُقصر الصلاة، ولم يقل للأمة لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك.

■ **ومنها**: تركه قتل المنافقين وقد بلغه عنهم الكفر الصريح، فاحتج به من قال: لا يُقتل الزنديق إذا أظهر التوبة، لأنهم حلفوا لرسول الله ﷺ أنهم ما قالوا، وهذا إذا لم يكن إنكارًا فهو توبة وإقلاع.

■ **ومنها**: أن الإمام إذا بعث سرية فغنمت غنيمة، أو أسرت أسيرًا، أو فتحت حصنًا كان ما حصل من ذلك لها بعد تخميسه. فإن النبي ﷺ قسم ما صالح عليه أكيدر من فتح دومة الجندل بين السرية الذين بعثهم مع خالد وكانوا أربعمائة وعشرين فرسًا، وكانت غنائمهم ألف بعير وثمانمائة رأس، فأصاب كل رجل منهم خمس فرائض، وهذا بخلاف ما إذا أُخرجتْ السرية من الجيش في حال الغزو فأصابت ذلك بقوة الجيش، فإن ما أصابوا يكون غنيمة للجميع بعد الخمس والنفل، وهذا كان هديه ﷺ.

■ **ومنها**: قوله ﷺ: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**»[1]. فهذه المعية هي بقلوبهم وهممهم، وهذا من الجهاد بالقلب،

(١) تقدم تخريجه (ص ٣٣٩).

وهو أحد مراتبه الأربع: وهي القلب، واللسان، والمال، والبدن. وفي الحديث: «**جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم وأموالكم**»[(١)].

■ **ومنها:** تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار، لما كان بناؤه ضرارًا، وتفريقًا بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين، فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أندادًا من دون الله أحق بالهدم وأوجب، وكذلك محال المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات.

■ **ومنها:** أن الوقف لا يصح على غير بر ولا قربة، كما لم يصح وقف هذا المسجد، وعلى هذا فيُهدم المسجد إذا بني على قبر، كما يُنبش الميت إذا دفن في المسجد[(٢)].

٢ ـ **قال الدكتور مصطفى السباعي ما ملخصه:** إن في مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير، ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون وزعماء النهضات هو غرس الدين في نفوس الناس غرسًا كريمًا[(٣)].

قال الدكتور محمد السيد الوكيل ما ملخصه: لقد كان لهذه الغزوة أثر عظيم في سكان شبه الجزيرة، لا يقل روعة وجلالاً عن أثر فتح مكة، ولئن كان فتح مكة قد نبه العرب إلى حقيقة كانت غائبة عن عقولهم وهي إدراك الحق الذي بُعِثَ به محمد ﷺ، فقد كانت غزوة تبوك داعية لهم لأن يسرعوا بالدخول في هذا الحق الذي دعاهم إليه.

---

(١) رواه أبوداود (٢٤٨٧) الجهاد بلفظ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم والسنتكم**»، والدارمي (٢/ ٢١٣)، وأحمد (٣/ ١٢٤، ١٥٣)، والنسائي (٦/ ٧)، وابن حبان (١٦١٨) «موارد»، والحاكم (٢/ ٨١) الجهاد، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، ولم أقف على لفظ «قلوبكم» في أي رواية في المواطن التي أشرت إليها فلعله ـ رحمه الله ـ ذكر الحديث بالمعنى.

(٢) باختصار من «زاد المعاد» (٣/ ٥٥٨ ـ ٥٧٣).

(٣) «السيرة النبوية دروس وعبر» (١٦١).

إن خروج المسلمين بجيش ضخم بلغ تعداد جنوده ثلاثين ألفًا فيهم عشرة آلاف فارس أمر لم تعرفه العرب من قبل في بلادها، أما وقد استطاع المسلمون تجميع هذا الجيش فهم ولاشك قادرون على أن يفعلوا ما عجز عنه غيرهم، وتحريك هذا الجيش من المدينة إلى تبوك وهي مسافة هائلة تبلغ قرابة ستمائة ميل وفي وقت عسرة وجدب، وفي ذلك النظام وتلك الدقة، دليل على عظمة القيادة وحزمها وخبرتها العسكرية الواسعة بشؤون الحرب، وعلى حسن تدريب الجنود وعظيم طاعتهم.

ولقد كان فرار الروم وهم البادئون ـ وهم في بلادهم، ولجوؤهم إلى التحصن داخل البلاد حتى لا يُدركهم المسلمون أعظم دليل على قوة المسلمين التي. لا يستطيع أحد الوقوف أمامها، فهؤلاء الروم هم الذين هزموا الفرس، وأخرجوهم من جنوب الجزيرة، واستردوا منهم الصليب المقدس، وأعادوه إلى القدس في احتفال رائع، هؤلاء هم الذين فروا وانسحبوا من الميدان عندما واجهوا المسلمين، أفلا يكون ذلك دليلاً على قوة المسلمين وقدرتهم على مواجهة أي عدو يُهددهم؟ هذه الأمور مجتمعة حركت نفوس سكان شبه الجزيرة نحو الإسلام[1].

فصل في قصة توبة كعب بن مالك وصاحبيه

قال كعب ﷺ: لم أتخلفْ عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفتُ في غزوة بدر، ولم يُعاتب أحد تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قط أقوى، ولا أيسر حين تخلفتُ عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك

(١) «تأملات في السيرة النبوية» لمحمد السيد الوكيل (٢٨٩) دار المجتمع.

الغـزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غـزوة إلا ورى بغيـرها، حتى كـانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستـقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا وعدوًا كثيـرًا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتـأهبوا أهبة غزوهم، فأخبـرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسـول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهـز رسول الله ﷺ والمسلمـون معه، فطـفقتُ أغدو لكي أتجـهز مـعهم، فأرجع ولم أقض شيئًا فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتـد بالناس الجدُّ، فـأصبح رسـول الله ﷺ والمسلمون معـه، ولـم أقض من جهـازي شيئًا. فـقلت: أتجهز بعده بيـوم أو يومين ثم ألحقهم، فغـدوتُ بعد أن فصلـوا لأتجهز فـرجعتُ ولم أقض شـيئًـا، ثم غدوتُ ثم رجـعتُ ولم أقض شيـئًا، فلم يزل بي حتى أسـرعوا وتفـارط الغزو، وهممتُ أن أرتحل فـأدركهم وليتني فـعلـت، فلـم يقدر لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في الناس بعـد خروج رسول الله ﷺ فطفتُ فـيهم، أحـزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغـموصًـا عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جـالس في القوم بتبوك: «**ما فعل كعب؟**»، فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرْدَاه ونظره في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا. فسكت رسول الله ﷺ، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قـافلاً حضرني همي، وطفقتُ أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غـدًا؟ واستعنتُ على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلمـا قيل: إن رسـول الله ﷺ قد أظل قـادمًا زاح عني البـاطل، وعرفتُ أني لن أخـرج منه أبدًا بشـيء فيـه كذب، فأجـمعتُ صدقـه، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسـجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون، فطفـقوا يعتذرون إليه - وكانوا

بضعة وثمانين رجلاً - فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمتُ عليه تبسم تبسم المغضوم. ثم قال: تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

فقال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك**»، فقمت. وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان. قالا: مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العَمْري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين قد شهدا بدرًا[1]. فيهما أسوة فمضيتُ حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين

---

(١) **قال الحافظ**: وممن جزم بأنهما شهدا بدرًا أبو بكر الأثرم، وتعقبه ابن الجوزي ونسبه إلى الغلط، فلم يصب. واستدل بعض المتأخرين لكونهما لم يشهدا بدرًا بما وقع في قصة حاطب، وأن النبي ﷺ لم يهجره ولا عاقبه مع كونه جس عليه، بل قال لعمر لما هم بقتله، قال: فأين ذنب التخلف من ذنب الجس؟ قلت: وليس ما استدل به بواضح؛ لأنه يقتضي أن البدري عنده إذا جنى جناية ولو كبرت لا يعاقب عليها وليس كذلك، فهذا عمر مع كونه المخاطب بقصة حاطب، فقد جلد قدامة بن مظعون الحد لما شرب الخمر وهو بدري كما تقدم، وإنما لم يعاقب النبي ﷺ حاطبًا ولا هجره لأنه قبل عذره في أنه إنما كاتب قريشًا خشية على أهله وولده، وأراد أن يتخذ له عندهم يدًا فعذره لذلك بخلاف تخلف كعب وصاحبيه، فإنهم لم يكن لهم عذر أصلاً، والله أعلم. «فتح الباري» (٧/ ٧٢٤، ٧٢٥).

من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان.

وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس، مشيتُ حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليَّ، فسلمتُ عليه، فوالله ما ردّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أُحبّ الله ورسوله؟ فسكت. فعدت له فنشدته فسكت. فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار. قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتابًا من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضتْ أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمركَ أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك. فقلت لامرأتي: ألحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا

ولكن لا يقربك، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله مازال يبكي منذ كان من أمره إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، فلبثتُ بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليتُ صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله: قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررتُ ساجدًا، وعرفتُ أن قد جاء فرج وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحبي مبشرون، وركض إليّ رجل فرسًا، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما، وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنوني بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلتُ المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يُهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك**». قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «**لا، بل من عند الله**»، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلستُ بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة

إلى الله وإلى رسوله. قال رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ**﴾، إلى قوله: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (التوبة:١١٧)، قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله: ﴿**وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا**﴾ (التوبة:١١٨)، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه فقبل منه[1].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ ـ **قال النووي ـ رحمه الله ـ**: واعلم أن في حديث كعب هذا ﷺ فوائد كثيرة:

إحداها: إباحة الغنيمة لهذه الأمة لقوله: خرجوا يريدون عِيْر قريش.

الثانية: فضيلة أهل بدر، وأهل العقبة.

الثالثة: جواز الحلف من غير استحلاف في غير الدعوى عند القاضي.

الرابعة: أنه ينبغي لأمير الجيش إذا أراد غزوة أن يوري بغيرها، لئلا يسبقه الجواسيس ونحوهم، إلا إذا كانت سفرة بعيدة فيستحب أن يعرفهم البعد ليتأهبوا.

الخامسة: التأسف على ما فات من الخير، وتمني المتأسف أنه كان فعله لقوله: «فياليتني فعلت».

(١) رواه البخاري (٧/ ٧١٧-٧١٩) المغازي، ومسلم (١٧/ ٨٧-٩٨) الذكر والدعاء، والتوبة والاستغفار.

السادسة: رد غيبة المسلم لقول معاذ: بئس ما قلت.

السابعة: فضيلة الصدق وملازمته، وإن كان فيه مشقة، فإن عاقبته خير، وإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة كما ثبت في «الصحيح».

الثامنة: استحباب صلاة القادم من سفر ركعتين في مسجد محلته أول قدومه قبل كل شيء.

التاسعة: أنه يستحب للقادم من سفر إذا كان مشهوراً يقصده الناس لسلام عليه أن يقعد لهم في مجلس بارز هين الوصول إليه.

العاشرة: الحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، وقبول معاذير المنافقين ونحوهم ما لم يترتب على ذلك مفسدة.

الحادية عشرة: استحباب هجران أهل البدع والمعاصي الظاهرة، وترك السلام عليهم، ومقاطعتهم، تحقيراً لهم وزجراً.

الثانية عشرة: استحباب بكائه على نفسه إذا وقعتْ منه معصية.

الثالثة عشرة: أن مسارقة النظر في الصلاة والالتفات لا يُبطلها.

الرابعة عشرة: أن السلام يُسمى كلامًا، وأن من حلف لا يُكلِّم إنسانًا فسلَّم عليه، أو رد عليه السلام يحنث.

الخامسة عشرة: وجوب إيثار طاعة الله ورسوله ﷺ على مودة الصديق والقريب وغيرهما، كما فعل أبو قتادة حين سلَّم عليه كعب فلم يرد عليه، حين نهى عن كلامه.

السادسة عشرة: أنه إذا حلف لا يُكلِّم إنسانًا فتكلم، ولم يقصد كلامه بل قصد غيره فسمع المحلوف عليه لم يحنثْ الحالف لقوله: الله أعلم. فإنه محمول على أنه لم يقصد كلامه كما سبق.

السابعة عشرة: جواز إحراق ورقة فيها ذكر الله تعالى لمصلحة، كما فعل عثمان والصحابة ﷺ بالمصاحف التي هي غير مصحفه الذي أجمعت الصحابة عليه، وكان ذلك صيانة، فهي حاجة وموضع الدلالة من حديث كعب أنه أحرق الورقة، وفيها لم يجعلك الله بدار هوان.

الثامنة عشرة: إخفاء ما يخاف من إظهاره مفسدة وإتلاف.

التاسعة عشرة: أن قوله لامرأته: الحقي بأهلك، ليس بصريح طلاق، ولا يقع به شيء إذا لم ينوِ.

العشرون: جواز خدمة المرأة زوجها برضاها، وذلك جائز له بالإجماع، فأما إلزامها بذلك فلا.

الحادية والعشرون: استحباب الكنايات في ألفاظ الاستمتاع بالنساء ونحوها.

الثانية والعشرون: الورع والاحتياط بمجانبة ما يخاف منه الوقوع في منهي عنه؛ لأنه لم يستأذن في خدمة امرأته له، وعلل بأنه شاب أي: لا يأمن مواقعتها، وقد نهى عنها.

الثالثة والعشرون: استحباب سجود الشكر عند تجدد نعمة ظاهرة، أو اندفاع بلية ظاهرة، وهو مذهب الشافعي وطائفة، وقال أبو حنيفة وطائفة: لا يشرع.

الرابعة والعشرون: استحباب التبشير بالخير.

الخامسة والعشرون: استحباب تهنئة من رزقه الله خيرًا ظاهرًا، أو صرف عنه شرًا ظاهرًا.

السادسة والعشرون: استحباب إكرام المبشر بخلعة أو نحوها.

السابعة والعشرون: أنه يجوز تخصيص اليمين بالنية، فإذا حلف لا مال له ونوى نوعًا لم يحنث بنوع من المال غيره، وإذا حلف لا يأكل ونوى خبزًا لم يحنث باللحم والتمر وسائر المأكول، ولا يحنث إلا بذلك النوع، وكذلك

لو حلف لا يُكلِّم زيدًا ونوى كلامًا مخصوصًا لم يحنثْ بتكليمه إياه غير ذلك الكلام المخصوص، وهذا كله متفق عليه عند أصحابنا، ودليله من هذا الحديث قوله في الثوبين: والله ما أملك غيرهما، ثم قال بعده في ساعة: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة، ثم قال: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

الثامنة والعشرون: جواز العارية.

التاسعة والعشرون: جواز استعارة الثياب للبس.

الثلاثون: استحباب اجتماع الناس عند إمامهم وكبيرهم في الأمور المهمة من بشارة ومشورة وغيرهما.

الحادية والثلاثون: استحباب القيام للوارد إكرامًا له إذا كان من أهل الفضل بأي نوع كان، وقد جاءت به أحاديث جمعتها في جزء مستقل بالترخيص فيه والجواب عما يظن به مخالفًا لذلك.

الثانية والثلاثون: استحباب المصافحة عند التلاقي وهي سنة بلا خلاف.

الثالثة والثلاثون: استحباب سرور الإمام وكبير القوم بما يَسُرّ أصحابه وأتباعه.

الرابعة والثلاثون: أنه يُستحب لمن حصلتْ له نعمة ظاهرة أو اندفعت عنه كربة ظاهرة؛ أن يتصدق بشيء صالح من ماله شكرًا لله تعالى على إحسانه، وقد ذكر أصحابنا أنه يستحب له سجود الشكر والصدقة جميعًا، وقد اجتمعنا في هذا الحديث.

الخامسة والثلاثون: أنه يُستحب لمن خاف أنه لا يصبر على الإضافة أن لا يتصدق بجميع ماله، بل ذلك مكروه له.

السادسة والثلاثون: أنه يُستحب لمن رأى من يريد أن يتصدق بكل ماله، ويخاف عليه أن لا يصبر على الإضاقة أن ينهاه عن ذلك، ويشير عليه ببعضه.

السابعة والثلاثون: أنه يُستحب لمن تاب بسبب من الخير أن يحافظ على ذلك السبب، فهو أبلغ في تعظيم حرمات الله، كما فعل كعب في الصدق، والله أعلم[1].

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٧/ ١٠٠-١٠٢).

٢ ـ وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ فيما اشتملت عليه قصة الثلاثة من الحكم والفوائد ما ملخصه:

■ **منها**: جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير، إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع.

■ **ومنها**: أن الرجل إذا حضرت له فرصة القربة والطاعة فالحزم كل الحزم في انتهازها والمبادرة إليها، والعجز في تأخيرها والتسويف بها، ولاسيما إذا لم يثق بقدرته، وتُمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض قلما تثبت، والله سبحانه يعاقب من فتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعد من إرادته عقوبة له، فمن لم يستجبْ لله ورسوله إذا دعاه حال بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (الأنفال: ٢٤)، وقد صرح سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأنعام: ١١٠).

■ **ومنها**: معاتبة الإمام والمطاع أصحابه ومن يعز عليه ويكرم عليه، فإنه عاتب الثلاثة دون سائر من تخلف عنه، وقد أكثر الناس من مدح عتاب الأحبة واستلذاذه والسرور به.

■ **ومنها**: توفيق الله لكعب وصاحبيه فيما جاءوا به من الصدق، ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق، فصلحتْ عاجلتهم وفسدتْ عاقبتهم كل الفساد، والصادقون تعبوا في العاجلة كل التعب فأعقبهم صلاح العاقبة، والفلاح كل الفلاح، وعلى هذا قامتْ الدنيا والآخرة، فمرارات المبادئ حلاوات في العواقب، وحلاوات المبادئ مرارات في العواقب.

■ وفي نهي النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلَّف عنه دليل على صدقهم وكذب الباقين، فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا

الذنب، وأما المنافقون فجرمـهم أعظم من أن يُقابل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرضى النفاق ولا فائدة فيه، وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يُحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة فلا يزال مستيقظًا حذرًا، وأما من سقط من عينه وهان عليه، فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التي لا عقوبة معها.

■ وفي أمر رسول الله ﷺ لهؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم لما مضى لهم أربعون ليلة كالبشارة بمقدمات الفرج والفتح من وجهين:

أحدهما: كلامه لهم وإرساله إليهم بعد أن كان لا يكلمهم بنفسه ولا برسوله.

الثاني: من خصوصية أمرهم باعتزال النساء، **وفيه:** تنبيه وإرشاد لهم إلى الجد والاجتهاد في العبادة، وشد المئزر، واعتزال محل اللهو واللذة، والتعوض عنه بالإقبال على العبادة، **وفي هذا:** إيذان بقرب الفرج، وأنه قد بقي من العتب أمر يسير.

وفقه هذه القصة: أن زمن العبادات ينبغي فيه تجنب النساء، كزمن الإحرام، وزمن الاعتكاف، وزمن الصيام، ولم يأمرهم بذلك في بداية المدة رحمة بهم.

■ **وفيه** : دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يوم توبته إلى الله، وقبول الله توبته لقول النبي ﷺ : **«أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»**[1] .

٣ ـ **وقال الحافظ ـ رحمه الله ـ: وفيها:** عظم أمر المعصية، وقد نبه الحسن البصري على ذلك فيما أخرجه ابن أبي حاتم عنه قال: يا سبحان الله ما أكل هؤلاء الثلاثة مالاً حرامًا، ولا سفكوا دمًا حرامًا، ولا أفسدوا في الأرض،

(١) باختصار من «زاد المعاد» (٣/ ٥٧٣ ـ ٥٩٢).

أصابهم ما سمعتم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر؟

■ **وفيها:** أن القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف.

■ **وفيها:** ترك السلام على من أذنب، وجواز هجره أكثر من ثلاث، أما النهي عن الهجر فوق الثلاث فمحمول على مَنْ لم يكن هجرانه شرعيًا[١].

٤ ـ **وقال الدكتور مصطفى السباعي ما ملخصه:** وفي قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد إيثارًا للراحة عن التعب، والظل على الحر، والإقامة على السفر، مع أنهم مؤمنون صادقون درس اجتماعي من أعظم الدروس، فقد استيقظ الإيمان في نفوسهم بعد قليل، فعلموا أنهم ارتكبوا بتخلفهم عن رسول الله ﷺ والمؤمنين إثمًا كبيرًا، ولما علم الله منهم صدق التوبة، وبلغ منهم الندم والألم والحسرة مداه تاب الله عليهم، فلما بشروا بذلك كانت فرحتهم لا تُقدّر، حتى انسلخ بعضهم عن ماله وثيابه شكرًا لله على نعمة الرضى والغفران، إن مثل هذه الدروس تمنع الصادق في إيمانه عن أنْ يتخلفَ عن عمل يقتضيه الواجب أو يرضى لنفسه بالراحة والناس يتعبون، والنعيم والناس يبتئسون، وتلك هي طبيعة الإيمان أن تشعر دائمًا وأبدًا أنك فرد من جماعة وجزء من كل، وأن ما يُصيب الجماعة يصيبك، وما يُفيدها يفيدك، وأن النعيم لا معنى له مع شقاء الأمة وبؤسها، والراحة لا لذة لها مع تعب الناس وعنائهم، وأن التخلف عن الواجب نقص في الإيمان وخلل في الدين، وإثم لابد فيه من التوبة والإنابة[٢].

★★

---

(١) باختصار من «فتح الباري» (٧/ ٧٢٩ ـ ٧٣٩).

(٢) «السيرة النبوية دروس وعبر» (١٦٢، ١٦٣).



١٨ - عـــام الوفـــود

وتشتمل على:

١- قدوم وفد عبد القيس

٢- قدوم وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب

٣- قدوم وفد الأشعريين وأهل اليمن

٤- قدوم وفد بني سعد بن بكر

٥- قدوم وفد مزينة

٦- قدوم وفد نجران



عـام الوفـود

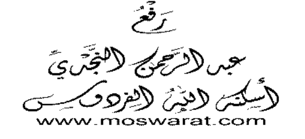
عقب الهـزيمة التي مُنِيَت بها الروم في شمـال جزيرة العرب حيث فـروا أمام جحافل الإسلام، وقد مر النـبي ﷺ بهذا الجيش العظيم الذي رجح بعضهم: أن تعداده كان ثلاثين ألفًا، ولا طاقة للعرب في قتال جيش بمثل هذا العدد، وقد ظهر من شجاعتهم وجهادهم وجـلادهم ما ظهر، وكانت الفئة القليلة منهم تهزم جيـوش الكفر المتكاثرة، فأقـبلتْ الوفود تتـرى في العام التاسع من الهـجرة إلى مدينة النبي ﷺ ، حتى سُمِي هذا العام عام الوفود.

قال الدكتور أكرم العمري: وقد ساقتْ المصادر أخبار هذه الوفود دون أسانيد في الغالب، وأقدم مَنْ تكلَّم عنهـا بتفصيل ابن إسحاق، ولم يُبيِّنْ مـصادر معلوماته وأسـانيد مـروياته إلا نادرًا، وهذه الروايات النادرة إنما هـي مراسـيل الزهري وعبد الله بن أبي بكر والحسن البصري.

سوى خبر قدوم ضمام بن ثعلبة وافدًا فقد أسنده إلى ابن عباس، وفيه محمد ابن الوليد بن نـويفع، ولم يُتابع فتـضعف الرواية لأجله، والوفـود التي ساق ابن إسحاق أخبارها هي: وفد تميم، ووفـد بني عامر، ووفد بني سعد بن بكر، ووفد عبد القيس، ووفد بني حنيفة، ووفد طيىء، ووفد بني زبيد، ووفد كندة، ووفد ملوك حمير، ووفد بني الحـارث بن كعب، ووفد همدان، ووفد عدي بن حاتم، ووفـد فروة بن مسيك المـرادي، ووفد صرد بن عبـد الله الأزدي، ووفد فروة بن عمرو الجذامي[١].

وسوف نقـتصر على ذكر الثـابت من هذه الوفود، ولكن نُشيـر إلى أن العام التاسـع للهجرة هو عـام ظهور الإسـلام، وانتصـاره في شبـه الجزيرة العـربية، وذهاب شوكة الكافرين فيها، فمن هذه الوفود:

(١) «المجتمع المدني في عهد النبوة»، «الجهاد ضد المشركين» (٢٤٩، ٢٥٠).



١ ـ قدوم وفد عبد القيس:

عن أبي جمرة قال: كنتُ أقعد مع ابن عباس يُجلسني على سريره، فقال: أقم عندي حتى أجعل لك سهمًا من مالي فأقمت معه شهرين ثم قال: إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال: **«من القوم ـ أو من الوفد؟»**، قالوا: ربيعة قال: **«مرحبًا بالقوم ـ أو بالوفد ـ غير خزايا ولا ندامى»**، فقالوا: يا رسول الله: إنا لا نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، فمرنا بأمرٍ فصلٍ نُخبر به من وراءنا وندخل به الجنة، وسألوه عن الأشربة، فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع:

أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: **«أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟»**، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تُعطوا من المغنم الخمس»**.

ونهاهم عن أربع: عن الحنتم، والدباء، والنقير، والمزفت ـ وربما قال: المقير ـ وقال: **«احفظوهن، وأخبروا بهن من وراءكم»**[(١)].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ ما ملخصه:

▪ **في هذه القصة:** أن الإيمان بالله هو مجموع هذه الخصال من القول والعمل كما على ذلك أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون وتابعوهم كلهم.

▪ **وفيها:** أنه لم يعد الحج في هذه الخصال، وكان قدومهم في سنة تسع، وهذا أحد ما يحتج به على أن الحج لم يكن فرض بعد وإنما فرض في العاشرة.

▪ **وفيها:** أنه لا يكره أن يقال: رمضان للشهر خلافًا لمن كره ذلك، وقال لا يقال: إلا شهر رمضان.

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٥٧) الإيمان، ومسلم (١/ ١٨١ ـ ١٨٣) الإيمان: باب الإيمان بالله تعالى ورسوله. **والدباء:** هو القرع. **والحنتم:** الجرار الخضر. **والنقير:** جذع النخلة ينقر وسطه ليتخذ منه وعاء. **والمزفت:** ما طلي بالزفت أو القار، وكان النهي عن الانتباذ في هذه الأوعية ثابتًا لمظنة إسراع الإسكار إليها، ثم نُسخ ذلك وبقيت القاعدة العامة في تحريم كل مسكر، وما أسكر كثيره فقليله حرام.

■ **وفيها**: النهي عن الانتباذ في هذه الأوعية، وهل تحريمه باق أو منسوخ؟ على قولين وهما روايتان عن أحمد، والأكثرون على نسخه بحديث بُريدة، الذي رواه مسلم وقال فيه: «**كنت نهيتكم عن الأوعية، فانتبذوا فيما بدا لكم، ولا تشربوا مسكراً**»، ومن قال: بإحكام أحاديث النهي، وأنها غير منسوخة قال: هي أحاديث تكاد تبلغ التواتر في تعدادها وكثرة طرقها، وحديث الإباحة فرد فلا يبلغ مقاومتها[1].

٢ ـ *قدوم وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب:*

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس ـ وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد ـ حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: **لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما أريت، وهذا ثابت يجيبك عني**، ثم انصرف عنه»[2].

قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ: «**إنك أرى الذي أريت فيه ما أريت**»، فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأوحى إلي في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان بعدي: أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة**»[3].

قال الحافظ: ويُستفاد من هذه القصة أن الإمام يأتي بنفسه إلى من قدم يريد لقاءه من الكفار إذا تعين ذلك طريقًا لمصلحة المسلمين، وقوله: «**وهذا ثابت يجيبك عني**»، أي: لأنه كان خطيب الأنصار، وكان النبي ﷺ قد أُعطي جوامع الكلم، فاكتفى بما قاله لمسيلمة وأعلمه أنه إن كان يُريد الإسهاب في

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٦٠٧، ٦٠٨).
(٢) رواه البخاري (٧/ ٦٩٠) المغازي.
(٣) رواه البخاري (٧/ ٦٩٠، ٦٩١) المغازي.

الخطاب، فهذا الخطيب يقوم عنه في ذلك، ويؤخذ منه: استعانة الإمام بأهل البلاغة في جواب أهل العناد ونحو ذلك[١].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في فقه القصة ما ملخصه:

■ إن هذا الحديث من أكبر فضائل أبي بكر، فإن النبي ﷺ نفخ السوارين بروحه فطارًا، وكان الصديق هو ذلك الروح الذي نفخ مسيلمة وأطاره، ومن هاهنا دلّ لباس الحلي للرجل على نكد يلحقه، وهم يناله، وأنبأني أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة بن سرور المقدسي المعروف بالشهاب العابر قال: قال لي رجل: رأيتُ في رجلي خلخالاً فقلت له: تتخلخل رجلك بألم وكان كذلك.

وقال لي آخر: رأيتُ كأني في أنفي حلقة ذهب، وفيها حب مليح أحمر، فقلت له: يقع بك رعاف شديد فجرى كذلك. وقال آخر: رأيت كُلابًا معلقًا في شفتي قلت: يقع بك ألم يحتاج إلى الفصد في شفتك[٢].

٣ ـ قدوم وفد الأشعريين وأهل اليمن:

عن أنس أن النبي ﷺ قال: «**يقدم قوم هم أرق منك قلوبًا**»، فقدم الأشعريون فجعلوا يرتجزون:

غَدًا نَلْقَى الأحِبَّهْ مُحَمَّدًا وَحِزْبَهْ[٣]

وعن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة وأضعف قلوبًا، والإيمان يمان، والحكمة يمانية، والسكينة في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في الفدادين من أهل الوبر قِبَل مطلع الشمس**»[٤].

---

(١) باختصار من «الفتح» (٧/ ٦٩١، ٦٩٢).
(٢) باختصار من «زاد المعاد» (٣/ ٦١٣، ٦١٤)، وانظر: «تعجيل السقيا في تعبير الرؤيا» للعبد الفقير.
(٣) رواه أحمد (٣/ ١٨٢)، وابن حبان (٧١٩٢) الإحسان، وابن أبي شيبة (١٢/ ١٢٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣٥١)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٤) رواه البخاري (٧/ ٧٠١) المغازي، ومسلم (٢/ ٣١) الإيمان.

قال أبو عمرو ـ رحمه الله ـ بعد أن فنّد أقوال المتأولين للحديث: من أنه ﷺ أراد أهل مكة؛ لأنها من جـهة اليمن بالنـسبة للمـدينة، أو أراد أهل المدينة وقد كان بتبوك ﷺ، والمدينة في جهة اليمن بالنسبة لتبوك:

ولا مانع من إجراء الكلام على ظاهره وحمله على أهل اليمن حقيقة؛ أن مَنْ اتصف بشيء وقوي قيـامه به، وتأكد اطلاعه منه ينسب ذلك الشيء إليـه إشعارًا بتميزه به وكمال حاله فيـه، وهكذا كان حال أهل اليمن حينئذٍ في الإيمان وحال الوافدين مـنه في حياة رسـول الله ﷺ، وفي أعقـاب موته كأويـس القرني وأبي مسلم الخولاني ﷺ وشبههما ممن سلَّم قلبه وقوي إيمانه، فكانت نسبة الإيمان إليهم لذلك إشعارًا بكمال إيمانهم من غير أن يكون في ذلك نفي له عن غيرهم، فـلا منافـاة بينه وبين قـوله ﷺ: «**الإيمان فـي أهل الحـجـاز**»، ثم المراد بذلك الموجودون منهم حينئـذٍ لا كل أهل اليمن في كل زمان، فإن اللفظ لا يقتـضيه، هذا هو الحق في ذلك، ونشكر الله تعالى على هدايتـنا له، والله أعلم. وأما ما ذكر من الفـقه والحكمة. فالفـقه هنا عبارة عن الفـهم في الدين، واصطلح بعد ذلك الفقـهاء وأصحـاب الأصول على تخصـيص الفقه بإدراك الأحكام العـملية بالاستدلال على أعيانها، وأما الحكمة ففيـها أقوال كثيرة مضطربة قد اقتصر كل من قائليها على بعـض صفات الحكمة، وقد صفا لنا منهـا أن الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالأحكام المـشتمل على المعرفـة بالله ـ تبارك وتعالى ـ المصـحوب بنفـاذ البصيـرة، وتهذيب النفس، وتحـقيق الحق والعـمل به، والصد عـن اتباع الهوى والباطل والحكيم من له ذلك.

وقال أبو بكر ابن دريد: كل كلمة وعظتك وزجـرتك، أو دعتك إلى مكرمة، أو نهتك عن قـبيح فهي حكمـة وحكم، ومنه قول النبي ﷺ: «**إن من الشعـر حكمة**»، وفي بعض الروايات حكمًا، والله أعلم[(١)].

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٢/ ٣٣) الإيمان، والحديث: رواه البخاري (١٠/ ٥٥٤) الأدب، وأبو داود (٤٩٩٠) الأدب.

وفي «صحيح البخاري»: أن نفرًا من بني تميم جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «**ابشروا يا بني تميم**»، فقالوا: بشرتنا فأعطنا فتغير وجه رسول الله ﷺ، وجاء نفر من أهل اليمن فقال: «**اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم**»، قالوا: قد قبلنا. ثم قالوا: يا رسول الله جئنا لنتفقه في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر، فقال: «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء**»[1].

٤ ـ قدوم وفد بني سعد بن بكر على رسول الله ﷺ:

عن أنس بن مالك قال: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد ـ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم ـ؟ فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي ﷺ: «**قد أجبتك**»، فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد عليّ في نفسك. فقال: «**سل عما بدا لك**»، فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «**اللهم نعم**»، قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «**اللهم نعم**»، فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضِمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر[2].

قال الحافظ: وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم: العمل بخبر الواحد ولا يقدح فيه مجيء ضِمام مستثبتًا؛ لأنه قصد اللقاء والمشافهة كما تقدم عن الحاكم، وقد رجع ضمام إلى قومه وحده فصدقوه وآمنوا كما وقع في حديث ابن عباس، **وفيه:** نسبة الشخص إلى جده إذا كان أشهر من أبيه، ومنه قوله ﷺ يوم حنين: «**أنا ابن عبد المطلب**»، **وفيه:** الاستحلاف على

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٣٠) بدء الخلق.
(٢) رواه البخاري (١/ ١٧٩) العلم، ومسلم (١/ ١٦٩، ١٧٠) الإيمان.

الأمر المحقق لزيادة التأكد، وفيه: رواية الأقران؛ لأن سعيـدًا وشريكًا تابعيان من درجة واحدة وهما مدنيان[١].

وقـال النووي: وفي هذا الحـديث جـمل من العلم غـير مـا تقـدم، **منهـا:** أن الصلوات الخـمس متكررة في كل يوم وليلة وهــو معنى قـوله في يومنا وليلتنا، وأن صوم شهر رمضان يجب في كل سنــة، قال الشيخ أبو عمرو ابن الصلاح: وفيه دلالة لصحة ما ذهب إليــه أئمة العلماء من أن العوام المقلدين مؤمنون، وأنه يكتفى منهم بمجرد اعتقاد الحق جـزمًا من غير شك وتزلزل خلافًا لمن أنكر ذلك من المعتزلة، وذلك أنه ﷺ قرر ضمامًا على مـا اعتمد عليه في تعرف رسالته وصدقه ومـجرد إخباره إياه بذلك، ولم ينكر عليــه ذلك ولا قال: يجب عليك معرفة ذلك بالنظر في معجزاتي والاستدلال بالأدلة القطعية[٢].

ورواه الحاكم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما وفيــه: ثم انصرف راجعًا إلى بعيره، فقال رسول الله ﷺ حين ولى: «**إن يصـدق ذو العقـيصـتين يدخل الجنة**»، وكان ضمام رجلاً جلدًا أشـعر ذا غديرتين، ثم أتى بعيره فأطلق عـقاله حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به وهو يسب اللات والعزى، فقالوا: مه يا ضمــام اتق البرص والجذام والجنون، قــال: ويلكم إنهما والله مـا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كـتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهـد أن لا إله إلا الله وأن محمـدًا عبده ورسـوله، وإني قد جـئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، فوالله ما أمسى ذلك اليوم من حاضرته رجل ولا امرأة إلا مـسلمًا. قال ابن عبـاس رضي الله عنهما: فما سـمعنا بوافد قوم كـان أفضل من ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه[٣].

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٨٤).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١/ ١٧١).

(٣) رواه الحاكم (٣/ ٥٤، ٥٥) المغازي وصححه، ووافقـه الذهبي، وقال الدكتور أكرم العمري: وإنما هو حسن فقط؛ لأنه من طريق ابن إسحاق، وفيه محمد بن الوليد بن نويفع الأسدي: مقبول، وقد توبع في رواية أبي داود من قبل سلمة بن كهيل: وهو ثقة.

٥ ـ قدوم وفد مُزينة:

عن النعمان بن مقرن قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أربعمائة رجل من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف قال: «**يا عمر زود القوم**». فقال: ما عندي إلا شيء من تمر ما أظنه يقع مع القوم موقعًا، قال: «**انطلق فزودهم**»، قال: فانطلق بهم عمر، فأدخلهم منزلة ثم أصعدهم إلى عُلية، فلما دخلنا إذا فيها من التمر مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم. قال النعمان: فكنتُ في آخر من خرج، فنظرت فما أفقد موضع تمرة مكانها[1].

٦ ـ قدوم وفد نجران:

عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قال: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال: «**لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حق أمين**»، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «**قم يا أبا عبيدة ابن الجراح**»، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «**هذا أمين هذه الأمة**»[2].

قال الحافظ ما ملخصه: نجران بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن يشتمل على ثلاث وسبعين قرية مسيرة يوم للراكب السريع. قوله: «يريد أن يلاعناه»، أي: يباهلاه يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦١)، الآية.

وفي قصة أهل نجران من الفوائد: أن إقرار الكافر بالنبوة لا يدخله في الإسلام حتى يلتزم أحكام الإسلام.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٤٥)، وقال محقق «الزاد»: ورجاله ثقات وسنده حسن، وانظر: ابن سعد (١/ ٢٩١).
(٢) رواه البخاري (٧/ ٦٩٥) المغازي.

■ وفيها: جواز مجادلة أهل الكتاب، وقد تجب إذا تعينت مصلحته.

■ وفيها: مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة.

وقد دعا ابن عباس إلى ذلك ثم الأوزاعي، ووقـع ذلك لجماعة من العلماء، ومما عُرِفَ بالتجربة أن مَنْ بَاهَلَ وكان مبطلاً لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة، ووقع لي ذلك مع شـخص كان يتعـصب لبعض الملاحـدة فلم يقم بعدها غـير شهرين، وفيها: مصالحة أهل الذمة على ما يراه الإمام من أصناف المال، ويجري ذلك مجرى ضرب الجزية عليهم، فإن كلاً منهما مال يؤخذ من الكفار على وجه الصغار في كل عام.

وفيها: بعث الرجل الأمين إلى أهل الهدنة في مصلحة الإسلام، وفيها: منقبة ظاهرة لأبي عبيدة ابن الجراح[١].

□□ ★★ □□

(١) باختصار من «الفتح» (٧/ ٦٩٦، ٦٩٧).



١٩ - حجـة الــوداع



حجة الوداع

أَجمعُ الأحاديث الصحيحة في بيان حجة النبي ﷺ : ما انفرد به مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذَّن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حَاج، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة فولدتْ أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر، فأرسلتْ إلى رسول الله ﷺ ، كيف أصنع؟ قال: «**اغتسلي واستنفري بثوب وأحرمي**»، فصلى رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب القصواء حتى استوتْ به ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصري بين يديه راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به، فأهلَّ بالتوحيد: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**».

وأهلَّ الناس بهذا الذي يهلون به، فلم يرد عليهم رسول الله ﷺ شيئًا منه ولزم رسول الله ﷺ تلبيته ـ قال جابر: لسنا ننوي إلا الحج ـ لسنا نعرف العمرة ـ حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن، فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة:١٢٥)، فجعل المقام بينه وبين البيت فكان أبي يقول: ـ أي والد جعفر بن محمد، ولا أعلمه ذكره إلا عن النبي ﷺ ـ كان يقرأ في الركعتين: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:١)، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (الكافرون:١)، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (البقرة:١٥٨)، أبدأُ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره، وقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، انجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»،

ثم دعا بين ذلك قال: مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدنا مشى، حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه علا على المروة فقال: «**لو أني استقبلتُ من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي، فليحل وليجعلها عمرة**»، فقام سراقة بن مالك بن جُعشُم فقال: يا رسول الله ألعامنا هذا، أم لأبد؟ فشبَّك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى، وقال: «**دخلت العمرة في الحج مرتين. لا، بل لأبد الأبد**»، وقدم عليٌّ من اليمن ببدن النبي ﷺ، فوجد فاطمة ممن حلَّ ولبستْ ثيابًا صبيغًا، واكتحلتْ، فأنكر ذلك عليها، فقالت: إن أبي أمرني بهذا، قال: فكان علي رضي الله عنه يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشًا على فاطمة للذي صنعت، مستفتيًا لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبرته: أني أنكرت ذلك عليها، فقال: «**صدقت صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟**»، قال: قلت: اللهم إني أهل بما أهل به رسولك، قال: فإن معي الهدي فلا تحل. قال: فكان جماعة الهدي الذي قدم به عليٌّ من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ مائة، قال: فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج، وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت، فأتى بطن الوادي، فخطب الناس وقال: «**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد، فقتلته هذيل، وربا**

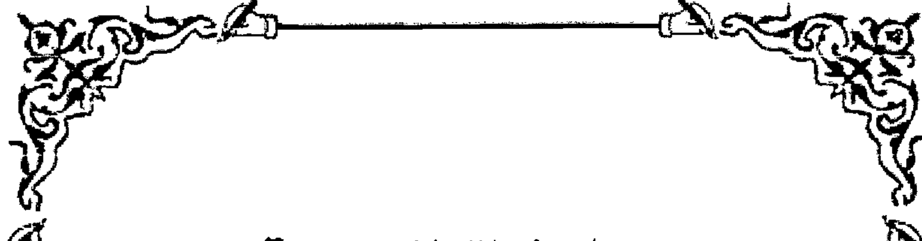
الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئنً فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركتُ فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟»، قالوا: نشهد أنك قد بلغتَ وأديتَ ونصحتَ، فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللهم اشهد، اللهم اشهد**»، ثلاث مرات، ثم أذن بلال، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئًا، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حَبْلَ المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس وذهب الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه ودفع رسول الله ﷺ، وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها لُيصيب مورك رَحْله، ويقول بيده اليمنى حتى أتى المزدلفة: «**أيها الناس السكينة السكينة**»، كلما أتى حبلاً من الحبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، وكبره وهلله ووحده، فلم يزلْ واقفًا حتى أسفر جدًا، فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيمًا، فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظُعُنٌ يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحوَّل الفضل وجهه إلى الشقِّ الآخر ينظر، فحوَّل رسول الله ﷺ يده من الشقِّ الآخر على وجه الفضل، يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر، حتى أتي بطن محسر، فحرَّك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات، يُكبر

مع كل حصاة منها، حصى الخذف، رمى من بطن الوادي ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثًا وستين بيده، ثم أعطى عليًا فنحر ما غَبَرَ وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت، وأكلا من لحمها وشربا من مرقها، ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال: **«انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم، فناولوه دلوًا فشرب منه»**[1].

ونقتصر في هذا الباب على مجرد سرد قصة حجة الوداع؛ لأن شرح ذلك يطول جدًا وموضعه كتب الفقه والكتب المفردة للمناسك، فيسهل الرجوع إليها والاستفادة منها، وإنما ذكرنا القصة؛ لأنها من السيرة التي نجمع أطرافها وأحداثها العظام، والله يُوفقنا وإخواننا لما يحب ويرضى.

★★

(١) رواه مسلم (٨/ ١٧٢-١٩٤) الحج.



٢٠ - الوفاة النبوية

وتشتمل على:

- إشارات النبي ﷺ إلى اقتراب أجله
- ابتداء شكوى النبي ﷺ
- وصايا النبي ﷺ في مرض وفاته
- الساعات الأخيرة من حياة المصطفى ﷺ
- مواقف الصحابة رضي الله عنهم واختيار الخليفة قبل دفن الجسد الشريف
- تجهيز الجسد الشريف وتوديعه
- الفوائد والآثار الإيمانية

الوفاة النبوية

الأحداث العظيمة يسبقها من الإرهاصات والعلامات التي تُشير إلى قرب وقوعها، وقد تم للمسلمين فتح مكة أم القرى في السنة الثامنة من الهجرة المباركة، وفي السنة التاسعة أقبلتْ الوفود تُقِرُّ بالإسلام، أو تعطى الجزية عن يد وهم صاغرون، وأرهب جيش العسرة الذي خرج به النبي ﷺ جحافل الروم حتى فروا من مواجهته، ودانتْ جزيرة العرب بالإسلام، وكان ذلك بعد عشر سنين من جهاد النبي ﷺ المتواصل وصحابته الكرام ﵃، فكل العلامات تُشير إلى انتهاء مهمة رسول الله ﷺ، فقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وأصبح الناس على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فكان النبي ﷺ يُعرض بقرب أجله:

■ **فمن ذلك:** ما رواه أحمد عن معاذ قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يُوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «**يا معاذ! إنَّك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري**»، فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله ﷺ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «**إن أولى الناس بي المتقون مَنْ كانوا وحيث كانوا**»[1].

■ **ومن ذلك:** أنه ﷺ كان يعتكف كل سنة عشرًا في رمضان فاعتكف في السنة الأخيرة عشرين ليلة، وكان جبريل يعارضه القرآن مرة في رمضان فعارضه في السنة الأخيرة مرتين.

■ وخرج النبي ﷺ للحج في السنة العاشرة وقال: «**خذوا عني مناسككم لعليَّ لا ألقاكم بعد عامي هذا، وطفق يُودِّع الناس**»[2].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣٥)، قال الهيثمي: رواه أحمد بإسنادين، ورجال الإسنادين رجال الصحيح غير راشد بن سعد وعاصم بن حميد وهما ثقتان، «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٢).

(٢) تقدم تخريجه في حديث جابر الطويل (ص ٣٧٣).

ونزل عليه بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

■ وفي ثاني أيام التشريق نزل عليه قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر: ١-٣).

عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ تُدخِل هذا معنا؛ ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعا ذات يوم فأدخله معهم، قال: فما رؤيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم. قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. قال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره، إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذاك تقول يا بن عباس؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول[1].

وروى الطبراني عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ قبل أن يموتَ يكثر أن يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**»، قال: إني أمرت فقرأ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[2].

■ **ومن هذه العلامات:** تتابع الوحي على رسول الله ﷺ، عن أنس بن مالك ﷺ قال: إن الله تابع الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته، حتى توفاه أكثر ما كان الوحي[3].

قال الحافظ: والسر في ذلك أن الوفود بعد فتح مكة كثروا، وكثر سؤالهم عن الأحكام، فكثر النزول بسبب ذلك[4].

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٦٠٦، ٦٠٧) التفسير.
(٢) أورده الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٣)، وقال: رواه الطبراني في «الصغير» ورجاله رجال الصحيح.
(٣) رواه البخاري (٨/ ٦١٨) فضائل القرآن، ومسلم (١٨/ ١٠٢) التفسير.
(٤) «فتح الباري» (٨/ ٦٢٣).

■ **ومن هذه العلامات:** أنه ﷺ كان يُرغِّبهم في كثرة ملازمته، والجلوس إليه قبل أن يحرموا ذلك، ويتمنى أحدهم لو رآه بأهله وماله، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده ليأتينَّ على أحدكم يوم ولا يراني، ثم لأن يراني أحبّ إليه من أهله وماله معهم**»، فأولوه على أنه نعى نفسه إليهم، وعرفهم ما يحدث لهم بعده من تمنى لقائه عند فقدهم ما كانوا يشاهدون من بركاته عليه السلام[1].

قال النووي: وتقدير الكلام يأتي على أحدكم يوم لأن يراني فيه لحظة لا يراني بعدها أحب إليه من أهله وماله جميعًا، ومقصود الحديث: حثهم على ملازمة مجلسه الكريم، ومشاهدته حضرًا وسفرًا للتأدب بآدابه، وتعلم الشرائع وحفظها ليبلغوها، وإعلامهم أنهم سيندمون على ما فرطوا فيه من الزيادة من مشاهدته وملازمته[2].

■ **ومن هذه العلامات:** أنه ﷺ خرج إلى أحد فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «**إني فرطكم، وإني شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أُعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**»[3].

■ **ومن هذه الإشارات القوية:** ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ وقال: «**إن الله خَيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله**»، قال: فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه أن يُخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيّر، فكان رسول الله ﷺ هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا. فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أمَنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنتُ متخذاً**

---

(١) رواه مسلم (١٥/ ١١٨) الفضائل.

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» هامش (١٥/ ١١٨، ١١٩).

(٣) روى حديث الصلاة على قتلى أُحد: أبو داود (٣٢٠٧، ٣٢٠٨) الجنائز، وروى الحديث مختصراً: النسائي (٤/ ٦١، ٦٢) الجنائز، وصححه الألباني في «صحيح النسائي» رقم (١٨٤٦).

خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُد إلا باب أبي بكر»[(١)].

ابتداء شكوى رسول الله ﷺ:

عن عائشة قالت: رجع النبي ﷺ ذات يوم من جنازة من البقيع فوجدني، وأنا أجد صداعًا وأنا أقول: وارأساه، قال: «**بل أنا يا عائشة وارأساه**»، قال: «**وما ضرك لو مِتِّ قبلي فغسلتُك وكفنتُك وصليتُ عليك ودفنتُك**»، فقلت: كأني بك والله لو فعلت ذلك لرجعت إلى بيتي فعرست فيه ببعض نسائك. قالت: فتبسم رسول الله ﷺ ثم بُدئ في وجعه الذي مات فيه[(٢)].

■ وعن أسماء بنت عميس قالت: أول ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، فاشتد مرضه حتى أُغمي عليه فتشاور نساؤه، في لدِّه فلدوه، فلما أفاق قال: «**ما هذا؟**»، فقلنا: هذا فعل نساء جئن من ههنا، وأشار إلى أرض الحبشة وكانت أسماء بنت عميس فيهن. قالوا: كنا نتهم بك ذات الجنب يا رسول الله. قال: «**إن ذلك لداء ما كان الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ليقذفني به، لا يبقين في البيت أحد إلا يُلَدّ إلا عم رسول الله ﷺ**»، يعني العباس: قالت: لقد التدّت ميمونة، وإنها لصائمة لعزيمة رسول الله ﷺ[(٣)].

قال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ: كان ابتداء مرضه في أواخر شهر صفر، وكانت مدة مرضه ثلاثة عشرة يومًا في المشهور وقيل: أربعة عشر يومًا، وقيل: اثنا عشر يومًا، وقيل: عشرة أيام وهو غريب، وكانت خطبته التي خطب بها في

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٨)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٢٢٧)، وابن سعد وهو في «الصحيحين» من طرق أخرى.

(٢) رواه الدارمي (١/ ٣٧) المقدمة، وابن ماجه (١٤٦٥) الجنائز، مختصرًا وحسنه الألباني، «صحيح ابن ماجه» (١١٩٧).

(٣) رواه أحمد (٦/ ٤٣٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٣): ورجاله ثقات ـ **واللدود:** ما يُسقاه المريض في أحد شقى الفم.

حديث أبي سعيد في ابتداء مرضه، ففي «المسند» و«صحيح ابن حبان»: عن أبي سعيد الخدري قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه وهو معصوب الرأس فقام على المنبر فقال: «**إن عبداً...**»[١] الحديث.

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: وذكر الخطابي أنه ابتدأ يوم الاثنين، وقيل: يوم السبت، وقال الحاكم أبو أحمد: يوم الأربعاء، واختلف في مدة مرضه فالأكثر على أنها ثلاثة عشر يومًا، وقيل: بزيادة يوم، وقيل: بنقصه، وقيل: عشرة أيام وبه جزم سليمان التيمي في مغازيه، وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح، وكانت وفاته يوم الاثنين بلا خلاف من ربيع الأول، وكاد يكون إجماعًا وكان له ﷺ ثلاثة وستون عامًا. فلما كان الخميس قبل خمسة أيام من الوفاة النبوية اشتد الوجع برسول الله ﷺ، فأمرهم بأن يحضروا أدوات الكتابة حتى يكتب لهم كتابًا لا يختلفوا بعده، فأشفق بعضهم على النبي ﷺ وقال: كتاب الله حسبنا، فتنازعوا فأمرهم بالخروج عنه[٢].

عن ابن عباس قال: يوم الخميس! وما يوم الخميس؟ ثم بكى حتى بلَّ دمعه الحصى، فقلت: يا بن عباس وما يوم الخميس؟ قال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال: «**ائتوني أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعدي**» فتنازعوا، وما ينبغي عند نبي تنازع، وقالوا: ما شأنه؟ أهجر؟ استفهموه، قال: دعوني: «**فالذي أنا فيه خير أوصيكم بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم**»، قال: وسكت عن الثالثة، أو قال: فأنسيتها[٣].

وفي رواية: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما حُضِرَ رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: «**هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده**»، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف

---

(١) «لطائف المعارف» (١٠٥، ١٠٦)، والحديث تقدم تخريجه (ص ٣٧٨).

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٧٣٦).

(٣) رواه البخاري (٧/ ٧٣٨) المغازي، ومسلم (١١/ ٨٩، ٩٠) الوصية.

أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول: غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله ﷺ : «**قوموا**»، قال عبيد الله: فكان يقول ابن عباس: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ ، وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب، لاختلافهم ولغطهم(١).

وكان النبي ﷺ قد صلى بالناس مغرب هذا اليوم وقرأ: بالمرسلات، عن أم الفضل بنت الحارث قالت: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب: بالمرسلات عرفًا، ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله.

وعند العشاء اشتد عليه ﷺ المرض بحيث لم يستطع الخروج، وكان ﷺ قد استأذن أزواجه في أن يُمرَض في بيت عائشة ﵂ فأذنَّ له، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عائشة قالتْ: لما ثقل النبي ﷺ واشتد به وجعه، استأذن أزواجه في أن يُمرض في بيتي فأذنَّ له، فخرج النبي ﷺ بين رجلين تخط رجلاه في الأرض: بين عباس ورجل آخر ـ قال عبيد الله: فأخبرت عبد الله بن عباس فقال: أتدري من الرجل الآخر؟ قالت: لا. قال: هو علي ـ وكانت عائشة ﵂ تحدث أن النبي ﷺ قال بعد ما دخل بيته واشتد وجعه: «**هريقوا عليّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعليّ أعهد إلى الناس**»، وأجلس في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ ، ثم طفقنا نَصبُ عليه تلك حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن، ثم خرج إلى الناس(٢).

قال الحافظ: تقدم في فضل أبي بكر من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ خطب في مرضه فذكر الحديث وقال فيه ـ: «**لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر...**» الحديث، وفيه: «إنه آخر مجلس جلسه»، ولمسلم من حديث جندب: أن ذلك

(١) رواه البخاري (٧/ ٧٣٨، ٧٣٩) المغازي، ومسلم (١١/ ٩٥) الوصية، وأحمد (١/ ٣٣٦)، وابن حبان رقم (٦٥٩٧) من «الإحسان».
(٢) رواه البخاري (٢/ ٢٠٣) الأذان، ومسلم (٤/ ١٣٥-١٣٧) الصلاة.

كان قبل موته بخمس فعلى هذا يكون يوم الخميس، ولعله كان بعد أن وقع عنده اختلافهم ولغطهم كما تقدم قريبًا، وقال لهم: قوموا، فلعله وجد بعد ذلك خفة فخرج[١].

وصايا النبي ﷺ في مرض وفاته:

▪ تقدم أن النبي ﷺ **أوصى** بإخراج المشركين من جزيرة العرب، **وأوصى** بإجازة الوفد كما كان يجيزهم ﷺ **وأوصى** بثالثة فنسيها الراوي، وقال العلماء: لعله أوصى بإنفاذ جيش أسامة.

▪ **وأوصى** بأن تُغلَق الأبواب المفتوحة على المسجد إلا باب أبي بكر، فقال ﷺ: **«لا تبقينَّ في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر»**[٢]. وهذا من الإشارات لاستخلافه رضي الله عنه.

ومن هذه الإشارات: حرصه ﷺ وتأكيده بأن يُصلي أبو بكر رضي الله عنه بالناس. عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنَّ رسول الله ﷺ قال في مرضه: **«مروا أبا بكر يصلي بالناس»**، قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء فَمُرْ عمر فليصل للناس. فقالت عائشة: فقلت لحفصة: قولي له إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يُسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل للناس، ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: **«مه إنكنّ لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس»**، فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منْكِ خيراً[٣].

▪ **وأوصى** النبي ﷺ بالأنصار خيراً.

عن أنس قال: مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ فينا، فدخل على

(١) «فتح الباري» (٧/ ٣٤٨).
(٢) رواه البخاري (٧/ ١٥) فضائل الصحابة، ومسلم (١٥/ ١٥١) الفضائل.
(٣) رواه البخاري (٢/ ١٩٢، ١٩٣) الأذان، ومالك في «الموطأ» (١/ ١٧٠) قصر الصلاة في السفر.

النبي ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية بُرد، قال: فصعد المنبر ـ ولم يصعده بعد ذلك اليوم ـ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **«أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»**(١).

■ **وأوصى** ﷺ بتعظيم الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ في الركوع، والاجتهاد في الدعاء في السجود كما أوصى ﷺ بالصلاة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر فقال: **«أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له، ألا وإني نهيتُ أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم»**(٢).

وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي تُوفي فيه: **«الصلاة وما ملكت أيمانكم»**، فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه(٣).

■ **ومن ذلك:** أنه ﷺ نهى عن بناء المساجد في القبور.

عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ لما حضرتُه الوفاة جعل يُلقي على وجهه طرف خميصة، فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول: **«لعنة الله**

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١٥١) مناقب الأنصار، ومسلم (١٦/ ٦٨) الفضائل وقوله: **«كرشي وعيبتي»**: أي: موضع سري وأمانتي. وقيل: جماعتي وخاصتي الذين أثق بهم، وأعتمدهم في أموري.

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٩٦) الصلاة، وقوله: **«قمن»** قال النووي: معناه: حقيق وجدير، **وفيه:** الحث على الدعاء في السجود ـ «شرح النووي على صحيح مسلم» هامش (٤/ ١٩٧، ١٩٨).

(٣) رواه أحمد (٣/ ١١٧)، وابن ماجه (٢٦٩٧) الوصايا، والحاكم (٣/ ٥٧) المغازي، وقال الحاكم: قد اتفقا على إخراج هذا الحديث، وقال الذهبي: فلماذا أوردته؟ وقال الألباني: وكل ذلك وهم فإنهما لم يخرجاه. وقد ذكره الألباني في «الإرواء» ولم ينسبه «للصحيحين» أو أحدهما، وللحديث شاهد عند أبي داود وعنه البيهقي من حديث علي «كان آخر كلام رسول الله ﷺ: **«الصلاة، الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»**»، وانظر: «إرواء الغليل» رقم (٢١٧٨).

على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، تقول عائشة: يُحذر مثل الذي صنعوا[١].

قال الحافظ: وكأنه ﷺ علم أنه مرتحل من ذلك المرض فخاف أن يُعظم قبره كما فعل من مضى، فلَعنَ اليهود والنصارى إشارة إلى ذم من يفعل فعلهم[٢].

■ **ومن ذلك:** أنه ﷺ أوصى عثمان رضي الله عنه بالصبر على البلاء الذي سيصيبه وأن لا يتنازل عن الخلافة.

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه: «**وددتُ أنَّ عندي بعض أصحابي**»، قلنا: يا رسول الله ألا ندعو لك أبا بكر؟ فسكت قلنا: ألا ندعو لك عمر؟ فسكت، قلنا: ألا ندعو لك عثمان؟ قال: «**نعم**»، فجاء فخلا به، فجعل النبي ﷺ يكلمه ووجه عثمان يتغير. قال قيس: فحدثني أبو سهلة مولى عثمان أن عثمان بن عفان قال يوم الدار: إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهدًا فأنا صائر إليه، وقال عليٌّ في حديثه: وأنا صابر عليه. قال قيس: فكانوا يرونه ذلك اليوم[٣].

الساعات الأخيرة من حياة المصطفى ﷺ

اشتد وجع النبي ﷺ وذلك لمضاعفة أجره ورفع درجته.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو يُوعك فمسسته بيدي فقلت: يا رسول الله: إنك لتُوعك وعكًا شديدًا. فقال رسول الله ﷺ: «**أجل إني أُوعك كما يُوعك رجلان منكم**»، قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين. فقال

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٧٤٧) المغازي، ومسلم (٥/ ١٢، ١٣) المساجد.

(٢) «فتح الباري» (١/ ٦٣٤).

(٣) رواه ابن ماجه (١١٣) المقدمة، وابن أبي عاصم في «السنة» (١١٧٥)، وابن سعد (٣/ ٦٦)، وقال الألباني: إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي سهلة مولى عثمان وهو ثقة، كما قال ابن حبان، والعجلي، والعسقلاني، وانظر: «ظلال الجنة في تخريج السنة» (٢/ ٥٦٠).

رسـول الله ﷺ : «أجل»، ثم قال رسول الله ﷺ : «**ما من مسلم يُصيبه أذى من مـرض فما سواه إلا حَطَّ الله بها سيئاته، كما تحطُّ الشجرة ورقها**»[(١)]. وعن عائشة ﵂ قالت: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ [(٢)].

وخرج النبي ﷺ في صبح اليوم الذي لحق فيه بالرفيق الأعلى ينظر إلى ثمرة جهاده وصبره، فألقى على أصحابه الذين أحبوه وأحبهم نظرة وداع فكادوا يفتنون من الفرحة به ﷺ ظنًا منهم أنه ﷺ قد عُوفي من مرضه، ولم يظنوا أنه ينظر إليهم نظرة الوداع حتى يلتقيَ بهم على حوضه وفي جنة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولو علموا ذلك لتفطرت قلوبهم، عن أنس بن مالك ﵁ أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين ـ وهم صفوف في الصلاة ـ كشف النبي ﷺ ستر الحجرة، فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ ، فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف وظنَّ أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم، وأرخى الستر فتُوفي من يومه»[(٣)]. ثم لم تأتِ على النبي ﷺ صلاة أخرى.

عن عائشة ﵂ قالت: دخل عليّ عبد الرحمن وبيده السواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ ، فرأيته ينظر إليه: وعرفت أنه يحب السواك. فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه: «**أن نعم**»، فتناولته فاشتد عليه، قلت: أُلينه لك؟ فأشار برأسه: «**أن نعم**»، فلينته، فأمره وبين يديه رَكْوَة أو علبة ـ يشك عمر ـ فيها ماء، فجعل يدخل يده في الماء، فيمسح بهما وجهه يقول: «**في الرفيق الأعلى**» حتى قُبِضَ ﷺ ومالتْ يده[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ١١٦) المرض، ومسلم (١٦/ ١٢٧) البر والصلة والآداب.

(٢) رواه البخاري (١٠/ ١١٥) المرض، ومسلم (١٦/ ١٢٦) البر والصلة: باب ثواب المؤمن فيما يُصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك.

(٣) رواه البخاري (٢/ ١٩٢) الأذان، ومسلم (١/ ٣١٥) الصلاة.

(٤) رواه البخاري (٧/ ٧٤٥) المغازي، والركوة: وعاء من جلد.

وفي رواية: قالت: مات رسول الله ﷺ وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي، فلا أكره شدة الموت لأحد أبدًا بعد النبي ﷺ[(١)].

وكان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ: «**اللهم الرفيق الأعلى**».

عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح: إنه لم يُقبض نبي حتى يُرى مقعده من الجنة، ثم يخير فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه، ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت، ثم قال: «**اللهم الرفيق الأعلى**»، فقلت: إذًا لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي يحدثنا وهو صحيح، قالت: فكان آخر كلمة تكلم بها: «**اللهم الرفيق الأعلى**»[(٢)].

وعن أنس قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة ـ عليها السلام ـ: واكرب أباه، فقال لها: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**»، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دفن قالت فاطمة ﵂: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب[(٣)]. كل المصائب تهون عند هذه المصيبة.

كانت الجمادات تتصدع من فراق رسول الله ﷺ فكيف بقلوب المؤمنين؟ لما فقده الجذع الذي كان يخطب إليه حن إليه وصاح كما يصيح الصبي، كان الحسن يقول: خشبة تَحِنُّ إلى رسول الله ﷺ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه.

قال في «تسلية أهل المصائب»: ومن أعظم المصائب في الدين موت النبي ﷺ؛ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم؛ لأن بموته ﷺ انقطع الوحي من السماء إلى يوم القيامة، وانقطعت النبوات، وكان موته أول ظهور الشر

(١) رواه البخاري (٧/٧٤٧) المغازي. **والحاقنة**: ما سفل من الذقن، **والذاقنة**: ما علا منه، أو الحاقنة: نقرة الترقوة، وقال ثابت: **الذاقنة**: طرف الحلقوم.
(٢) رواه البخاري (٧/ ٧٥٦، ٧٥٧) المغازي.
(٣) رواه البخاري (٧/ ٧٥٥) المغازي، وأحمد (٣/ ٢٠٤) مختصرًا، والدارمي (١/ ٤٠، ٤١)، وابن ماجه (١٦٣٠) الجنائز.

والفساد بارتداد الذين ارتدوا عن الدين من الأعراب، فهذا أول انقطاع عرى الدين ونقصانه، وغير ذلك من الأمور التي لا تُحصى.

قال أبو العتاهية مسليًا بعض إخوانه في ولد له اسمه محمد:

اصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّد	وَاعْلَم بِأَنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
أَو مَا تَرَى أَنَّ المَصَائِبَ جَمَّةً	وَتَرَى المَنِيَّةَ للعِبَادِ بِمَرْصَدِ
مَنْ لَم يُصِبْ مِمَّنْ تَرَى بِمُصِيبَة	هَذَا سَبِيلُ لَسْتُ فِيهِ بِأَوْحَدِ
فَإِذَا ذَكَرْتَ مُحَمَّداً وَمُصَابَه	فَاذْكُرْ مُصَابَكَ بِالنَّبِي مُحَمَّدِ[1]

عن أنس ﷺ قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا[2].

قال الأستاذ سعيد حوى ـ رحمه الله ـ: قوله: «وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا»: فيه: رد على من ادعى أنَّ حال الصحابة ورقيهم الروحي لا يُفسر بوجود رسول الله ﷺ على رأسهم وهو قول انتشر في هذا العصر، ويكفي في رده قوله جلَّ جلاله في حق رسول الله ﷺ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، كما أن في هذا الحديث ما يدل على أن الرقي القلبي منوط بالاجتماع مع أهل الحق والارتباط الروحي فيهم، ومن ههنا نُؤكد على الانتساب للعلماء العاملين والربانيين المخلصين، ونُؤكد على الأخذ منهم ومجالسة الصالحين من عباد الله[3].

وقال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ: لما تُوفي ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم:

---

(١) «تسلية أهل المصائب» لأبي عبد الله محمد بن محمد المنبجي الحنبلي، صفحة (١٧، ١٨) ط. مكتبة الفرقان (١٤٠٣).

(٢) رواه الترمذي (١٣/ ١٠٤، ١٠٥) المناقب، وقال: هذا حديث غريب صحيح، وابن ماجه (١٦٣٠) الجنائز، والحاكم مختصرًا (٣/ ٥٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في «مختصر الشمائل»، و«صحيح ابن ماجه».

(٣) «الأساس في السنة وفقهها»، «السيرة النبوية» (٢/ ١٠٤٦) - دار السلام.

من دهش فخُولِط، ومنهم: من أقعد فلم يُطقْ القيام، ومنهم: من اعتقل لسانه فلم يُطقْ الكلام، ومنهم: من أنكر موته بالكلية، وقال: إنما بعث إليه[١].

وقال الأستاذ منير محمد الغضبان ما ملخصه: ونقف قليلاً عند بعض المعاني التي يُحسن أن نستشعرها، ونتأسى بها في وفاة رسول الله ﷺ:

■ حادث الوفاة نفسه وأثره الوجداني والشعوري على نفوس المسلمين، وأن يغيب عن الدنيا أكمل إنسان فيها، وأعظم إنسان فيها وما فقدته البشرية، ورزئت به من غياب شخصه صلوات الله عليه عنها، وهو أمر جلل لا يعدله مصيبة لقد غاب عن هذه الأرض سيد ولد آدم، أعظم القادة، وأعظم المربيين، وأعظم الدعاة، وأعظم الأخلاقيين، وأعظم الحكام، وأعظم العلماء، وأعظم المفكرين، وأعظم البشر خاتم النبيين ورسول رب العالمين.

■ وكانت هذه السنوات القليلة من تاريخ البشرية هي أعظم سنواتها وأبرك حياتها، وتكون أعظم جيل في هذا الوجود.

ولابد أن يستشعر الداعية المسلم دائمًا وأبدًا هذا المعنى، وأن مصابه بالنبي ﷺ لا يعدله مصاب[٢].

قال الشيخ محمد الغزالي: ويتسرب النبأ الفادح من البيت المحزون وله طنين في الأذان، وثقل ترزح تحته النفوس، وتدور به البصائر والأبصار. وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمتْ فتركتهم لوعة الثكل حيارى، لا يدرون ما يفعلون[٣].

مواقف الصحابة ﷺ واختيار الخليفة قبل دفن الجسد الشريف:

عن عائشة ﵂ قالتْ: إنَّ رسول الله ﷺ مات، وأبو بكر بالسُّنْح - قال إسماعيل: تعني بالعالية - فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ،

---

(١) «لطائف المعارف» (١١٣، ١١٤) باختصار.

(٢) باختصار من «فقه السيرة» لمنير محمد الغضبان (٧٢٧) ط/ جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

(٣) «فقه السيرة» للغزالي (٤٩٠).

قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله فيقطعن أيدي رجال وأرجلهم. فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله فقال: بأبي أنت وأمي طبت حيًا وميتًا، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدًا، ثم خرج، فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠)، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، قال: فنشج الناس يبكون. قال: واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة ابن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر. وكان عمر يقول: ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلامًا قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، ـ هم أوسط العرب دارًا وأعزهم أحسابًا ـ فبايعوا عمر أو أبا عبيدة، فقال عمر: بل نُبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس، فقال قائل: قتلتم سعد بن عبادة، فقال عمر: قتله الله[1].

تجهيز الجسد الشريف وتوديعه:

عن عائشة ﵂ قالت: لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: والله لا ندري أنُجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نُجرد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه؟

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٣، ٢٤) فضائل الصحابة، وقوله: «قتلتم سعد بن عبادة»، أي: بالازدحام على بيعة أبي بكر وطئتم سعد بن عبادة ﵁ وكان مريضًا. وقول عمر ﵁: «قتله الله» دعاء عليه لتخلفه عن بيعة أبي بكر، وكان بطلبه الخلافة يفرق كلمة المسلمين، وقد فارق سعد بن عبادة المدينة بعد ذلك إلى الشام حتى مات بها ﵁.

فلما اختلفوا ألقى الله - تبارك وتعالى - عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت - لا يدري من هو: أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص، ويدلكون بالقميص دون أيديهم، وكانت عائشة تقول: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما غَسَله إلا نساؤه[١]. وكُفِّن ﷺ في ثلاثة أثواب سحولية بيضاء.

عن عائشة ﵂ قالت: كُفِّن النبي ﷺ في ثلاثة أثواب سحول كرسف ليس فيها قميص ولا عمامة[٢]. **والسحول**: نسبة إلى قرية باليمن، **والكرسف**: هو القطن.

وعنها ﵂ قالت: غُطي رسول الله ﷺ في «حلة» يمانية كانت لعبد الله ابن أبي بكر، ثم نُزعت منه، فكُفِّن في ثلاثة أثواب سحولية يمانية، ليس فيها عمامة ولا قميص، فنزع عبد الله الحلة وقال: أكفن فيها، ثم قال: لم يكفن فيها رسول الله ﷺ فأكفن فيها، فتصدق بها[٣].

ولُحِد للنبي ﷺ في قبره، ونُصب اللبن عليه نصبًا، ووضعْت له قطيفة حمراء، ودخل قبره العباس وعلي والفضل، وسوى لحده رجل من الأنصار وهو الذي سوى لحود الشهداء يوم بدر، وكان ذلك ليلة الأربعاء ثاني عشر ربيع الأول

---

(١) رواه أبوداود (٣١٢٥) الجنائز، وابن حبان (١٤/ ٥٩٦) رقم (٦٦٢٨) من «الإحسان»، وأحمد (٦/ ٢٦٧)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ٣٨٧)، وفي «الدلائل» (٧/ ٢٤٢)، وابن ماجه مختصرًا مقتصرًا على الجزء الأخير (١٤٦٤)، وقال السندي: حديث محمد بن إسحاق هذا إسناده صحيح ورجاله ثقات، ومحمد بن إسحاق قد صرح بالتحديث. وقال محقق «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»: إسناده قوي.

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٦٧) الجنائز، ومسلم (٧/ ٧، ٨) الجنائز، ومالك في «الموطأ» (١/ ٢٢٣) الجنائز، والنسائي (٤/ ٣٥) الجنائز.

(٣) رواه مسلم (٧/ ٩) الجنائز، وابن حبان (١٤/ ٥٩٨) رقم (٦٦٢٩) «الإحسان». قال النووي: **فيه**: أن السنة في الكفن ثلاثة أثواب للرجل وهو مذهبنا ومذهب الجماهير، والواجب ثوب واحد كما سبق والمستحب في المرأة خمسة أثواب. **وهذا الحديث**: يتضمن أن القميص الذي غسل فيه النبي ﷺ نزع عنه عند تكفينه وهذا هو الصواب الذي لا يتجه غيره؛ لأنه لو بقي مع رطوبته لأفسد الأكفان. قلتُ: ويؤيده ما رواه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: «أخرجت لنا عائشة ﵂ كساء ملبدًا وإزارًا غليظًا فقالت: قبض رسول الله في هذين» رواه مسلم (١٤/ ٥٧) اللباس.

من السنة الحادية عشرة من الهجرة، وكانت فاطمة رضي الله عنها تقول: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب[١].

قال الحافظ: أشارت - عليها السلام - بذلك إلى عتابهم على إقدامهم على ذلك؛ لأنه يدل على خلاف ما عرفته منهم من رقة قلوبهم عليه لشدة محبتهم له، وسكت أنس عن جوابها رعاية لها ولسان حاله يقول: لم تطب أنفسنا بذلك إلا أنا قهرناها على فعله امتثالاً لأمره. ونختم بقول أبي العتاهية:

لبيكَ رسولَ الله من كان باكيًا ... فلا تنسَ قبرًا بالمدينةِ ثاويًا

جزى اللهُ عنّا كلَّ خيرٍ محمدًا ... فقدْ كانَ مهديًا وقد كانَ هاديًا

وكانَ رسولُ الله روحًا ورحمةً ... ونورًا وبرهانًا من اللهِ باديًا

وكانَ رسولُ اللهِ بالخيرِ آمرًا ... وكانَ عن الفحشاء والسُّوءِ نَاهيًا

وكانَ رسولُ اللهِ بالقسطِ قائمًا ... وكانَ لما استرعاه مولاهُ راعيًا

وكانَ رسولُ اللهِ يدعو إلى الهُدَى ... فلبَّى رسولُ اللهِ لَبيه داعيًا

أَيُنسَى أبرُّ الناسِ بالنّاسِ كلِّهم ... وأكرمَهُم بَيتًا وشِعبًا وواديًا

تكدَّر من بعدِ النبي محمدٍ ... عليه سلامُ اللهِ ما كانَ صافيًا

ركنًا إلى الدّنيا الدَّنيةَ بعدَهُ ... وكشفتِ الأطماعُ منّا مساويًا

وكمْ من منارٍ كانَ أوضحَهُ لنا ... ومن علم أمسَى وأصبحَ عافيًا

إذا المرءُ لم يلبسْ ثيابًا من التُّقَى ... تقلَّب عُريانًا وإنْ كانَ كاسيًا

وخيرُ خِصالِ المرءِ طاعةُ ربِّه ... ولا خيرَ فيمن كانَ للهِ عاصيًا

وقد أجمع أهل العلم أنهُ ﷺ تُوفي عن ثلاثة وستين عامًا قضى منها أربعين قبل البعثة، وثلاثة عشر عامًا بعد البعثة بمكة، وعشر سنين في المدينة بعد الهجرة، وكانت وفاته في ربيع من السنة الحادية عشرة من الهجرة، وما ترك دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمة إلا بغلته التي كان يركبها وسلاحه وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة، فصلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا.

---

(١) سبق تخريجه (ص ٣٨٥).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١ - قال الأستاذ سعيد حوى تحت عنوان: نظرة عامة على أحداث السنتين العاشرة والحادية عشرة، ما ملخصه:

■ وصلت الأمة في هاتين السنتين إلى مرحلة النضج، وكان ذلك يقتضي لمسات أخيرة، وكانت من علامة النضج: أن ترك رسول الله ﷺ للأمة بعده أن تسير من خلال شوراها، ومن أهم اللمسات التي احتاجتها مرحلة الإنضاج إشارته إلى الرجل المؤهل بعده، وإزالة كل ما يمكن أن يستند إليه المغرضون، وإيجاد التطلع نحو العمل الخارجي من خلال بعث أسامة.

■ وسع ﷺ في هاتين السنتين دائرة التلقي المباشر منه من خلال استقباله الوفود، ومن خلال رحلة الحج، فأوجد قاعدة عريضة تحمل دعوته وقد تلقتْ عنه مباشرة، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رحى الإسلام دائرة وإلى الأبد.

■ عندما تنجح الدعوات الصادقة يتوضح على هامشها دعوات كاذبة، ولقد بدأتْ دعاوى النبوة تظهر في أخريات حياته - عليه الصلاة والسلام - فظهر مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن.

■ وبقدر ما أعطى رسول الله ﷺ للإسلام حيوية في القلوب بفضل الله، فقد كان هناك تيار معاكس - هو تيار الردة - ينتظر الفرصة للظهور، وما أن تُوفي رسول الله ﷺ حتى ظهر هذا التيار على أشده حاويًا كل أولئكم الذين لم يدخل الإسلام إلى قلوبهم، والذين قطعتْ هيبة رسول الله ﷺ نياط قلوبهم فأسلموا؛ لأنهم لم يكن أمامهم إلا أن يسلموا، فبدأ صراع جديد بين التيارين، تيار الإيمان الصادق، وتيار الجهل الماحق، وتغلَّب تيار الإيمان، وهذا وحده كاف للدلالة على أن قوة التأسيس كانت أكبر من كل قوة أخرى، وذلك توفيق الله أولاً وأخيرًا، وفيه: يظهر ما أكرم الله به رسوله ﷺ من خيرات وبركات.

■ ولم يُتوفَ رسول الله ﷺ إلا وقد أوجد سوابق حركية في كل جانب من الجوانب التي تتطلبها الحركة الإسلامية: دعويًا وتربويًا وثقافيًا وتعليميًا وجهاديًا، لقد كانت

السوابق على منتهى الجلال، فسجلتْ أرفع التضحيات، وأعلى أنواع القدوة، ولذلك ذاب جيل الصحابة في العالم، وأعطى هذا الإسلام دفعة الحياة إلى قيام الساعة[1].

٢ ـ **وقال الأستاذ محمد سعيد رمضان ما ملخصه:** في أحداث هذا القسم الأخير من سيرة المصطفى ﷺ تلوح قصة الحقيقة الكبرى في هذا الوجود التي يسقط عندها جبروت المتجبرين، وعناد الملحدين، وطغيان البغاة والمتألهين.

حقيقة تسربل بها العصاة والطائعون، والرؤساء والمتألهون، والرسل والأنبياء، والمقربون والأصفياء، والفقراء ودعاة العلم والاختراع، ولقد كان من اليسير على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يجعل مرتبة رسوله ﷺ فوق مستوى الموت وآلامه ولكن الحكمة الإلهية شاءتْ أن يكون قضاء الله تعالى في تجرع هذا الكأس بشدتها وآلامها عامًا لكل أحد مهما كانت درجة قربه من الله جلَّ جلاله؛ حتى يعيش الناس في معنى التوحيد وحقيقته؛ وحتى يدركوا جيدًا أن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدًا، فليس لأحد أن يتمطى ليعلو بنفسه عن مستوى العبودية بعد أن عاش رسول الله ﷺ خاضعًا لحكمها، ونزل به قضاؤها، وليس لأحد أن لا يُكثر من ذكر الموت وسكرته بعد أن عانى حبيب الله تعالى من برحائها وغشيته آلامها، وهذا المعنى هو ما أوضحه كلام الله جلَّ جلاله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠)، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2] (الأنبياء: ٣٤، ٣٥).

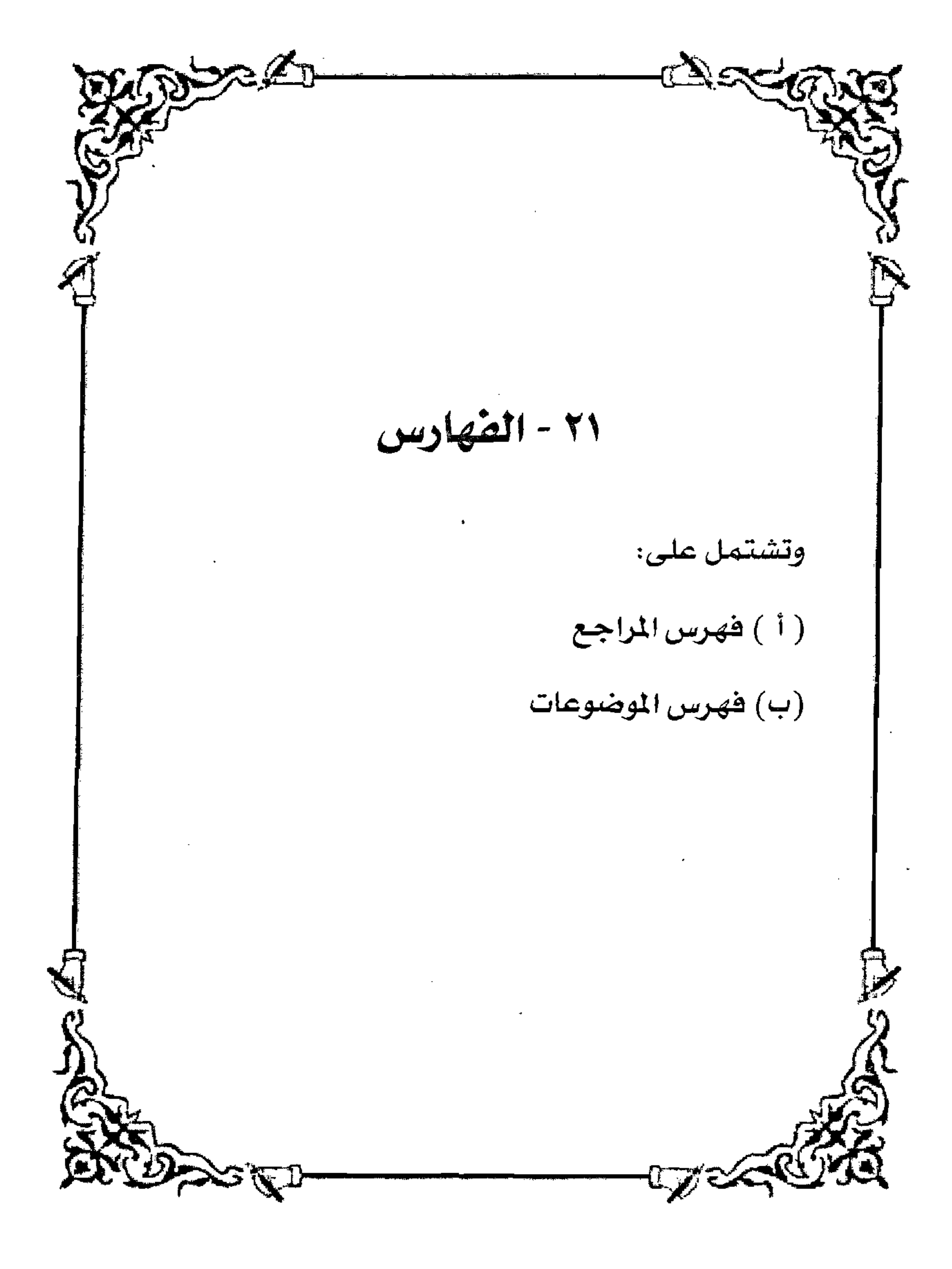
انتهى بحمد الله تعالى ما تيسر لنا جمعه وترتيبه، فنسأل الله تعالى أن يكون القبول نصيبه، وأن يُرزقنا يوم القيامة بره وذخره إنه خير مسئول وأكرم مأمول، وصلى الله وسلم وبارك على رسوله الكريم، وآل بيته الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وكانت المراجعة النهائية في الحادي والعشرين من شهر الله المحرم سنة ١٤١٣ هجرية.

❑❑ ★★ ❑❑

---

(١) «الأساس في السنة وفقهها» (٢/ ١٠٥٤، ١٠٥٥) باختصار.

(٢) «فقه السنة» للبوطي (٣٥٤، ٣٥٥).



٢١ - الفهارس

وتشتمل على:

(أ) فهرس المراجع

(ب) فهرس الموضوعات



(أ) فهرس المراجع

١ ـ «أصول السيرة المحمدية»، لعبد العزيز بن راشد النجدي، ط/ السنة المحمدية.

٢ ـ «أعلام النبوة»، للماوردي، الكليات الأزهرية.

٣ ـ «الأساس في السنة»، لسعيد حوى، دار السلام.

٤ ـ «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»، شعيب الأرناؤوط، ط/ مؤسسة الرسالة.

٥ ـ «الإعلام بما في دين النصارى من فساد وأوهام»، للقرطبي، ط/ دار التراث العربي.

٦ ـ «البداية والنهاية»، لابن كثير، ط/ دار الفكر.

٧ ـ «تاريخ الطبري»، لابن جرير الطبري، ط/ دار المعارف.

٨ ـ «تاريخ دمشق»، لابن عساكر.

٩ ـ «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد»، للألباني، ط/ جمعية إحياء التراث.

١٠ ـ «تسلية أهل المصائب» لأبي عبد الله الحنبلي، ط/ مكتبة الفرقان.

١١ ـ «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير، ط/ دار المعرفة، بيروت.

١٢ ـ «تهذيب الأسماء واللغات»، للنووي، ط/ دار الكتب العلمية.

١٣ ـ «تهذيب سيرة ابن هشام»، لعبد السلام هارون، ط/ مكتبة السنة.

١٤ ـ «جامع الأصول»، لابن كثير ـ تحقيق الأرناؤوط، ط/ دار الفكر.

١٥ ـ جامع البيان، لابن جرير الطبري، ط/ دار المعرفة، بيروت.

١٦ ـ جوامع السير، لابن حزم، فيصل أباد، باكستان.

١٧ ـ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ط/ الشعب.

١٨ ـ «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، لابن تيمية، ط/ مطابع المجد التجارية.

١٩ ـ «دراسة مرويات العهد المكي»، لعادل عبد الغفور، الآلة الماجيستيرية.

٢٠ ـ «دلائل النبوة»، لأبي نعيم، ط/ دار الوعي بحلب.

٢١ ـ «دلائل النبوة»، للبيهقي ـ تحقيق قلعجي، ط/ دار الريان للتراث.

٢٢ ـ «الدرر في اختصار المغازي والسير»، لابن عبد البر، ط/ دار المعارف.

٢٣ ـ «الرحيق المختوم»، لصفي الرحمن المباركفوري، ط/ الصحابة بجدة.

٢٤ ـ «الرسول القائد»، للواء ركن محمد شيت خطاب، ط/ دار الفكر.

٢٥ - «زاد المعاد في هدي خير العباد»، لابن القيم. تحقيق الأرناؤوط، ط/ الرسالة.

٢٦ - «ساعات حرجة في حياة الرسول»، لعبد الوهاب حمودة.

٢٧ - «سبيل الهدي والرشاد في هدي خير العباد»، لمحمد بن يوسف الصالحي، ط/ مجمع البحوث الإسلامية.

٢٨ - «سنن الدارمي»، ط/ دار الكتب العلمية.

٢٩ - «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، للألباني، ط/ المكتب الإسلامي.

٣٠ - «سنن ابن ماجه»، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ المكتبة العلمية.

٣١ - «سنن النسائي»، «شرح السيوطي وحاشية السندي»، ط/ المكتبة العلمية.

٣٢ - «سيرة ابن هشام ومعها الروض الأنف»، للسهيلي، ط/ مكتبة الكليات الأزهرية.

٣٣ - «السنن الكبرى» للبيهقي، ط/ دار المعرفة.

٣٤ - «السنة» لابن أبي عاصم ومعها «ظلال الجنة»، للألباني، ط/ المكتب الإسلامي.

٣٥ - «السيرة النبوية دروس وعبر»، لمصطفى السباعي، ط/ المكتب الإسلامي.

٣٦ - «السيرة النبوية الصحيحة»، لأكرم ضياء العمري، ط/ مكتبة العلوم والحكم.

٣٧ - «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى»، للقاضي عياض، ط/ دار الكتب العلمية.

٣٨ - «الطبقات الكبرى»، لابن سعد، ط/ دار صادر.

٣٩ - «عارضة الأحوذي شرح جامع الترمذي»، لاين العربي، ط/ دار الوحي.

٤٠ - «عون المعبود شرح سنن أبي داود» للمباركفوري، ط/ المكتبة السلفية بالمدينة.

٤١ - «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير»، لابن سيد الناس، ط/ دار المعرفة.

٤٢ - «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، لابن حجر العسقلاني، ط/ السلفية الريان.

٤٣ - «فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد»، لفضل الله الجيلاني، ط/ المطبعة السلفية ومكتبتها.

٤٤ - «فقه السيرة»، لمحمد سعيد رمضان البوطي، ط/ السادسة، ط/دار الفكر.

٤٥ - «فقه السيرة» لمحمد الغزالي، بتحقيق الألباني، ط/ دار الكتب الإسلامية.

٤٦ - «فقه السيرة»، لمنير الغضبان، ط/ جامعة أم القرى.

٤٧ - «في ظلال القرآن»، لسيد قطب، ط/ دار العلم بجدة.

٤٨ - «الفصل في الملل والنحل»، لابن حزم، ط/ مكتبة السلام العالمية.

٤٩ - «الفصول في اختصار سيرة الرسول»، لابن كثير، ط/ دار القلم بدمشق.

٥٠ ـ «قصص الأنبياء»، لابن كثير، ط/ دار عمر بن الخطاب.
٥١ ـ «الكشاف»، للزمخشري، ط/ الريان.
٥٢ ـ «لطائف المعارف»، لابن رجب، ط/ دار الجيل.
٥٣ ـ «مجمع الزوائد»، لنور الدين الهيثمي، ط/ الكتاب العربي.
٥٤ ـ «مختصر سيرة الرسول ﷺ»، لعبد الله بن عبد الوهاب، ط/ مكتبة الرياض.
٥٥ ـ «مختصر الشمائل المحمدية»، للألباني، ط/ المكتب الإسلامي.
٥٦ ـ «مرويات غزوة الحديبية»، د/ حافظ محمد الحكمي، ط/ دار ابن القيم.
٥٧ ـ «مستدرك الحاكم» وبهامشه، «تلخيص الذهبي»، ط/ دار المعرفة.
٥٨ ـ «مسلم بشرح النووي»، ط/ المكتبة المصرية.
٥٩ ـ «مسند الإمام أحمد» بفهرس الألباني، ط/ المكتب الإسلامي.
٦٠ ـ «مسند أحمد بن حنبل» بتحقيق أحمد شاكر، ط/ دار المعارف.
٦١ ـ «مشكاة المصابيح» للتبريزي، بتحقيق الألباني، ط/ المكتب الإسلامي.
٦٢ ـ «من إلهامات الهجرة»، لمحب الدين الخطيب، ط/ المطبعة السلفية ومكتبتها.
٦٣ ـ «وقفات تربوية من السيرة النبوية»، لعبد الحميد جاسم البلالي، ط/ مكتبة المنار الإسلامية.
٦٤ ـ «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان»، لنور الدين الهيثمي، ط/ دار الكتب العلمية.
٦٥ ـ «موسوعة أطراف الحديث النبوي»، لمحمد السعيد زغلول، ط/ عالم التراث.
٦٦ ـ «موطأ الإمام مالك»، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط/ إحياء الكتب العربية.
٦٧ ـ «المجتمع المدني في عهد النبوة ـ خصائصه وتنظيماته الأولى»، د/ أكرم العمري، ط/الجامعة الإسلامية.
٦٨ ـ «المجتمع المدني في عهد النبوة ـ الجهاد ضد المشركين»، د/ أكرم العمري، ط/الجامعة الإسلامية.
٦٩ ـ «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي»، لجماعة من المستشرقين، ط/ دار الدعوة.
٧٠ ـ «المنهج الحركي للسيرة النبوية»، لمنير الغضبان، ط/ مكتبة المنار.
٧١ ـ «نور اليقين»، لمحمد الخضري، ط/ دار القلم.
٧٢ ـ «هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب»، لأبي بكر الجزائري، ط/ مكتبة لينه.

★★

(ب) فهرس الموضوعات

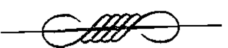
الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

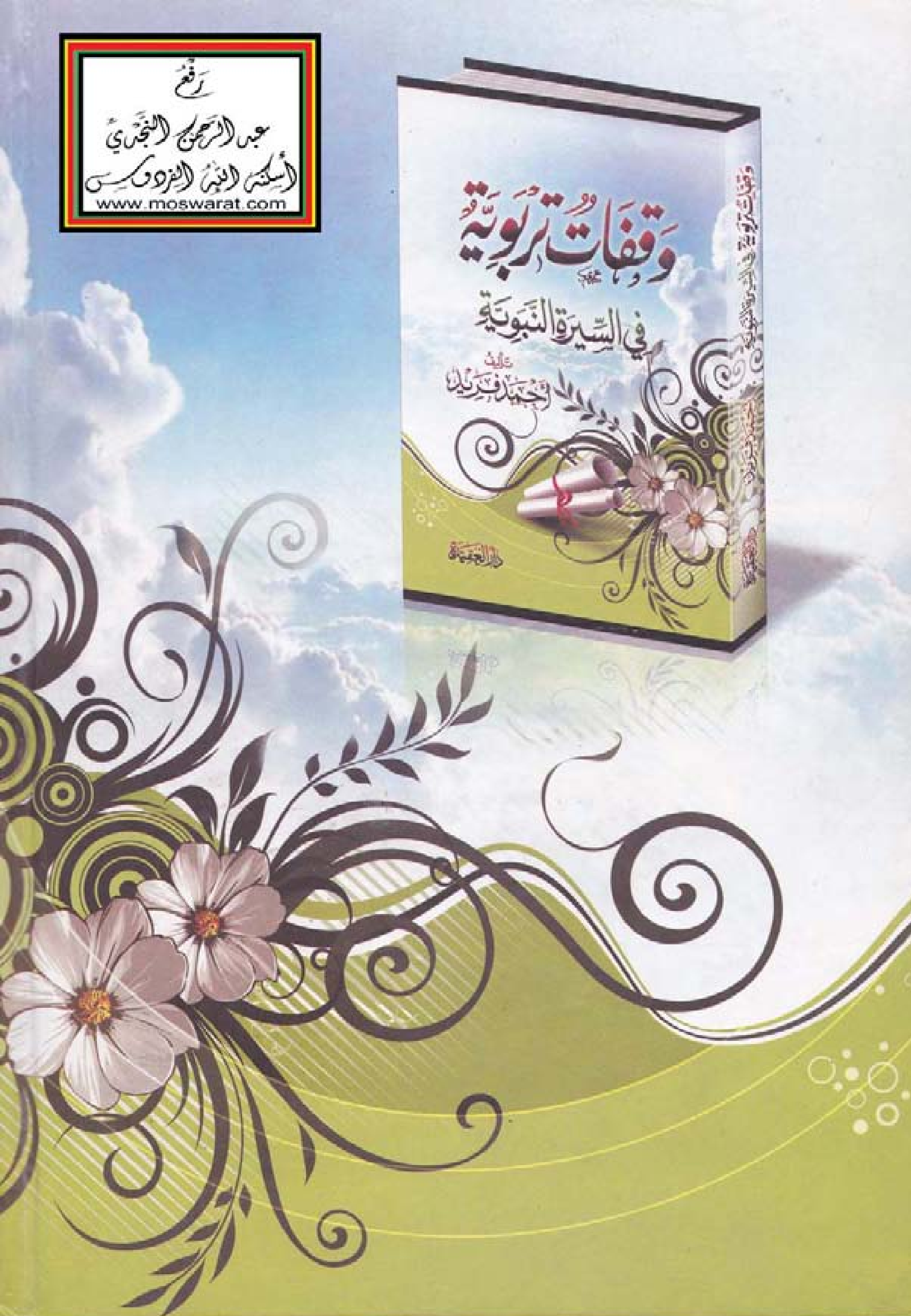
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة







رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
وقفات تربوية
في السيرة النبوية
تأليف
أحمد فريد